الدار العربية للعلوم - ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

ليزا سي
LISA SEE

زهرة الثلج والمروحة السرية
SNOW FLOWER and the SECRET FAN

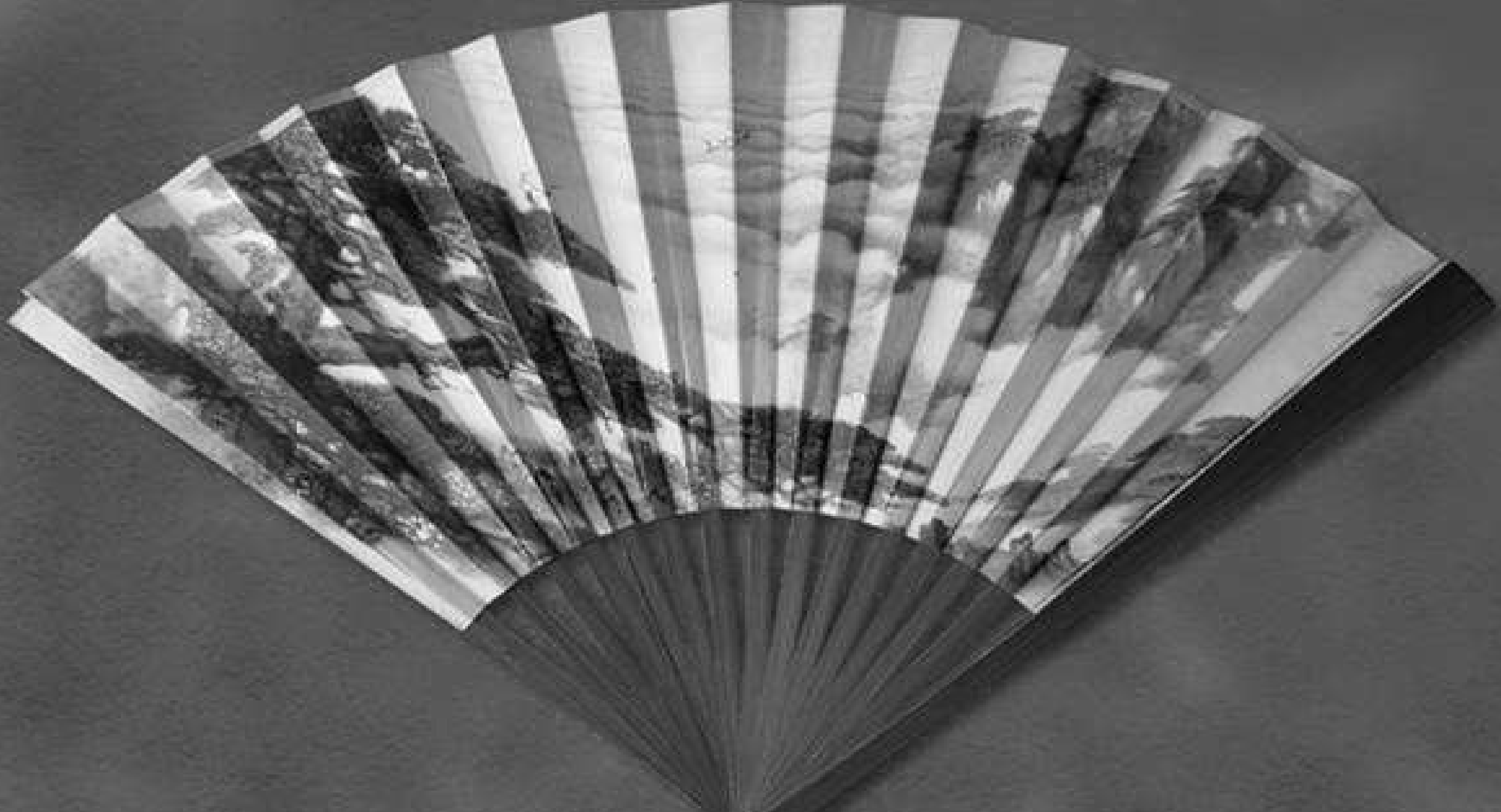

رواية

تُرجمت إلى 35 لغة وبيع منها أكثر من مليون نسخة في مختلف أنحاء العالم

زهرة الثلج والمروحة السرية

Snow Flower and the Secret Fan

رواية

تأليف

ليزا سي

LISA SEE

ترجمة

أفنان سعد الدين

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الانكليزي
Snow Flower and the Secret Fan
حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر
,Random House Trade Paperbacks
,and imprint of the Random House Publishing Group
a division of Random House, Inc., New York
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل.
Copyright © 2005 Lis See
English language translation rights
arranged by Sandra Dijkstra Literary Agency
All rights reserved

Arabic Copyright © 2007 by Arab Scientific Publishers

الطبعة الأولى
1428 هـ - 2007 م

ISBN: 978-614-421-136-6

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (+961-1) 785107 - 785108 - 786233
ص. ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: (+961-1) 786230 - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

لتنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233

المحتويات

الجلوس بهدوء

أيام الابنة

سنوات الطفولة

ربط القدمين

المروحة

زهرة الثلج

الحب

التعلم

أيام التزين بدبابيس الشعر

شمُّ النسائم العليلة

القمر الجميل

كرسيُ جلوس الزهرة

الحقيقة

معبد غوبو

أيام الأرز والملح

الأبناء

الفرح والحزن

إلى الجبال

الشتاء

رسالة ذَمّ

إلى الغيوم

الجلوس بهدوء

الندم

ملاحظات وشكر وتقدير

ملاحظات عن كتابة رواية "زهرة الثلج والمروحة السرية"

الجلوس بهدوء

إنني أنا التي يسمونها في قريتنا "تلك التي لم تمت بعد". فأنا أرملةٌ في الثمانين من عمري. وبدون زوجي، أشعرُ بالأيام طويلةً. إنني لم أعدْ أهتمُّ بوجباتِ الطعام الخاصة الذي تعدُّها لي زهرة الفاوانيا والآخرون. ولم أعدْ أتطلَّعُ للأحداث السعيدة التي تستقرُّ تحت سقفِ بيتنا بسهولة. إنَّ الماضي فقط هو ما يهمُّني الآن. أخيراً، يمكنني بعد مُضي كل هذا الوقت، أن أقولَ الأشياء التي لم يكنْ باستطاعتي قولُها عندما كان عليَّ أن أعتمدَ على أهلي ليقيموا بتنشئتي أو على عائلة زوجي لتعيلني. لديَّ الآن حياةٌ كاملةٌ لأروي قصتَها. فلم يعدْ لديَّ شيءٌ لأخسرَه، وهناك قلةٌ من الناس لأجرحَ مشاعرَهم.

لقد كبرتُ في السن كفايةً لأعرفَ جيداً صفاتي الجيدة والسيئة التي غالباً ما كانت نفسَ الصفات. فقد كنتُ طيلةَ حياتي برمتها أتوقُ للحب. وكنتُ أعلمُ أن ذلك ليس أمراً صحيحاً لي - كفتاة، وكامرأة لاحقاً - أن أريدَه أو أتوقعَه، ولكنني فعلتُ ذلك. وكانت هذه الرغبةُ غير المبررة هي سبب كل مشكلةٍ عشتُها في حياتي. فقد كنتُ أحلمُ أن تلاحظَني والدتي وأن تصبحَ هي وبقيةُ عائلتي يحبونني. فكنتُ، لكي أكسبَ عطفَهم، مطيعةً، وهي الصفةُ المثالية لواحدةٍ من بناتِ جنسي، ولكنني كنتُ راغبةً فوق الحدّ بأن أفعلَ ما يطلبونه مني. فحاولتُ أن أحقّقَ توقعاتِهم مني - على أمل أن يظهروا حتى أبسطَ شكلٍ من أشكالِ اللطف - بأن حصلتُ على أصغر قدمين مربوطتين في المقاطعة. ولهذا، فقد جعلتُ عظامي تتكسرُ وتنصهرُ لتتخذَ شكلاً أفضل.

عندما علمتُ أنني لم أعدْ أستطيعُ أن أتحملَ لحظةً أخرى من الألم،

وتساقطتْ دموعي على رباطي قدميَّ الداميين، همستْ والدتي بلطف في أذنيَّ لتشجِّعني على الاستمرار لساعةٍ أخرى أو ليومٍ آخر أو لأسبوعٍ آخر مذكرةً إياي بالمكافآت التي كنتُ سأحظى بها لو تحملتُ لوقتٍ أطولَ بقليل. وبتلك الطريقة، علمتني كيف أتحملُ، ليس فقط المحنَ الجسدية لربط القدمين وإنجاب الأطفال، ولكنْ أيضاً آلامَ القلب، والعقل، والروح؛ الألم الأكثر تعذيباً. وكانت تلفتُ انتباهي إلى عيوبي وتعلمُني كيف أستفيدُ منها لمنفعتي. ونحن ندعو في بلادي هذا النوع من حب الأم "تينغ آي". وقد أخبرَني ابني أنه في لغة الرجال مؤلفٌ من حرفين، أولهما يعني "الألم" وثانيهما يعني "الحب". وهذا هو حبُّ الأم.

لم يغيّرْ ربطُ القدمين قدميَّ فحسب وإنما شخصيتي بكاملها. وأشعرُ بطريقةٍ غريبة أن العمليةَ قد استمرتْ طيلة حياتي محولةً إياي من طفلة مطيعة إلى فتاة مصممة، ثم من شابة تطيعُ أياً كان ما يطلبُه منها أهلُ زوجها دون اعتراض إلى أرفع النساء مكانة في المقاطعة التي تفرضُ قوانين القرية الصارمة وعاداتِها. وبحلول الوقتِ الذي بلغتُ فيه الأربعين من عمري انتقلتْ قسوةُ ربط قدميَّ من قدميَّ الصغيرتين كزهور الزنبق الذهبية إلى قلبي الذي استمرَّ بقوة رغم المظالم والأحزان بحيثُ إنني لم أعدْ قادرةً على أن أسامحَ من أحببتهم ومن أحبوني.

حدثتْ ثورتي الوحيدةُ على شكل لغة الـ "نو شو"، وهي كتابتُنا النسائية السرية. وكان خروجي الأول عن التقاليد عندما أرسلتْ لي زهرة الثلج، رفيقتي بالسنّ وشريكتي بالكتابة السرية، المَرْوحةَ الموضوعة هنا على طاولتي. ثم

حدثَ ذلك مجدداً بعد أن التقيتُ بها. ولكنني باستثناء ما كنتُه مع زهرة الثلج، كنتُ مصممة على أن أكونَ زوجة شريفة، وكَنَّة جديرة بالثناء، ووالدة تُعنى بالتفاصيل. فكان قلبي في الأوقات العصيبة قوياً كالحجر. وكانت لديَّ قدرةٌ خفيةٌ على الصمود أمام المآسي والأحزان. ولكن ها أنا ذا أرملةٌ تجلسُ بهدوء كما تفرضُ التقاليد. وأدركُ أنني كنتُ "عمياء" لسنين طويلة.

باستثناء ثلاثة أشهر مريعة من السنة الخامسة من حكم الإمبراطور "شيانفينغ"، أمضيتُ حياتي في غرف النساء العُلوية. نعم، لقد ذهبتُ إلى المعبد، وسافرتُ عائدةً إلى بيتِ أهلي، حتى أنني زرتُ زهرة الثلج، ولكنني أعلمُ القليل عن العالم الخارجي. وقد كنتُ أسمعُ الرجال يتحدثون عن الضرائب، والجفاف، والثورات ولكنَّ تلك المواضيعَ كانت بعيدةً جداً عن حياتي. فما كنتُ أعرفُه هو التطريز، والحياكة، والطهو، وعائلة زوجي، وأطفالي، وأحفادي، وأولاد أحفادي، ولغة ال "نو شو". كان سيرُ حياتي طبيعياً، فقد عشتُ "أيام الابنة" و"أيام التزين بدبابيس الشعر" و"أيام الأرز والملح" والآن "الجلوس بهدوء".

ها أنا ذا وحدي مع أفكاري وهذه المروحة التي أمامي. ومن الغرابةِ كيف أشعرُ بها خفيفة في يديَّ عندما أمسكُ بها، فقد سُجِّل كثيرٌ من الفرح والحزن عليها. إنني أفتحُها بسرعة والصوتُ الذي تصدرُه كل ثنية تنفتح يذكِّرُني بقلب مرتعش. وتمرُّ الذكرياتُ بسرعةٍ أمام عينيّ. وخلال تلك السنوات الأربعين الماضية، قرأتُها مراتٍ عديدة بحيث إنني أحفظُها عن ظهر قلب كأغنية من أغاني الطفولة.

أتذكرُ اليوم الذي سلَّمها فيه الوسيطُ لي. وقد ارتجفت أصابعي وأنا أفتحُ الطيات. وفي ذلك الوقت من الماضي، كان إكليلٌ بسيط من الأوراق يزينُ الحافة العليا، وكانت رسالةٌ واحدةٌ مكتوبةً بشكل رقيق على الطية الأولى. وفي ذلك الوقت، لم أكنْ أعرف الحروف بلغة الـ "نو شو". لذا، فقد قرأت زوجةُ عمي الكلمات: "علمتُ بوجود فتاة ذات شخصية طيبة وتعليم نسائي جيد في بيتكم. وقد وُلدنا في نفس السنة ونفس اليوم. ألا يمكننا أن نكونَ رفيقتين معاً؟" إنني أنظرُ الآن إلى الخيوطِ اللطيفةِ التي شكَّلتْ تلك السطور، ولا أرى فقط الفتاة التي كانتها زهرة الثلج بل المرأة التي كانت ستصبحُها: مثابرة، وبسيطة، ومتطلعة للعالم الخارجي.

تتجولُ عيناي على طول الطيات الأخرى فأرى تفاؤلنا، وأفراحنا، وإعجابنا المتبادل، ووعودنا لبعضنا البعض. وأرى كيف نما ذلك الإكليلُ البسيط ليصبحَ تصميماً متقناً من براعم الثلج والزنبق المتشابكة لترمزَ لحياة كل منا معاً كرفيقتين من نفس العمر. وأرى القمر في الزاوية العليا اليمنى يشعُّ علينا. فقد كنا سنصبحُ كالكروم الطويلة ذات الجذور المتشابكة وكالأشجار التي تعيشُ ألف سنة. وعلى إحدى الطيات، كتبت زهرة الثلج: " إننا بعاطفتنا الجميلة لن نقطع رابطتنا". ولكنني على طية أخرى، أرى سوء التفاهم، والثقة المحطمة، وإغلاق الباب الأخير. فقد كان الحبُّ بالنسبة إليَّ مُمتلكاً غالياً حيث إنني لم أستطعْ أن أشاركَه مع أحد. ففصلني في نهاية المطاف عن الرفيقة الوحيدة التي كانت لي.

ما زلتُ أتعلمُ عن الحب. وقد اعتقدتُ أنني فهمتُه؛ ليس فقط حبَّ الأم، ولكن

حبَّ الوالدين، وحبَّ الزوج، وحبَّ الرفيقة. وقد عشتُ أنواع الحب الأخرى، وهي حبُّ الشفقة، وحبُّ الاحترام، وحبُّ العرفان بالجميل. ولكنني عندما أنظرُ إلى مروحتنا السرية بكل رسائلها التي كُتبتْ بيني وبين زهرة الثلج على مدى العديد من السنوات، أدركُ أنني لم أقدِّر قيمة الحب الأكثر أهمية، وهو حبُّ القلب العميق.

في تلك السنوات الماضية، نسختُ العديد من السير الذاتية لنساء لم يتعلّمن قَطُّ لغة الـ "نو شو". وقد أصغيتُ لكل حزن وشكوى، ولكل ظلم ومأساة. وقد أرَّختُ الحياة التعيسةَ لذوي الأقدار البائسة، وسمعتُ ذلك كله ودوَّنته. ولكن إن كنتُ أعلمُ الكثير عن قصص النساء فإنني لا أعرفُ شيئاً تقريباً عن قصص الرجال عدا عن أنها تتضمنُ عادةً مزارعاً يناضلُ ضد عوامل الطقس، أو جندياً في معركة، أو رجلاً وحيداً في تأمله الداخلي. وعندما أنظرُ إلى حياتي، أدركُ أنها قد استقتْ شيئاً من قصص النساء والرجال. فأنا امرأةٌ متواضعةٌ تعاني من الشكاوى نفسها، ولكنني في أعماقي أيضاً خضتُ شيئاً يشبهُ حروبَ الرجال بين طبيعتي الحقيقية والشخصِ الذي كان ينبغي أن أكونه.

إنني أكتبُ هذه الصفحات من أجل أولئك الذين يسكنون الآخرة. وقد وعدتْ زهرة الفاوانيا، وهي زوجة حفيدي، أن تتأكدَ من إحراقِها عند وفاتي لكي تصلَ قصتي إليهم قبل أن تصلَ روحي. ولتشرحْ كلماتي أفعالي لأسلافي ولزوجي ولكن أكثرَ من كلِّ شيء لزهرة الثلج قبل أن أحييهم مجدداً.

أيام الابنة

سنوات الطفولة

اسمي زهرة الزنبق. وقد جئتُ إلى هذا العالم في اليوم الخامس من الشهر السادس من السنة الثالثة لحكم الإمبراطور "داوغوانغ". وتقعُ قريتي الأصلية "بوواي" في مقاطعة "يونغمينغ". ويتحدر معظم الناس الذين يعيشون هنا من قبيلة "ياو" العِرْقية. وقد علمتُ من القاصّين الذين كانوا يزورون "بوواي" عندما كنتُ فتاةً صغيرة أن قبيلة "ياو" وصلت إلى هذه المنطقة قبل ألف ومائتي عام في أثناء حكم سلالة "تانغ". ولكنَّ معظم العائلات جاءت بعد ذلك بقرن عندما هربتْ من الجيوش المغولية التي غزتِ الشمال. ورغم أن الناس في منطقتنا لم يكونوا قَطُّ أغنياء إلا أننا كنا بالكاد فقراء بحيث اضطرت النساءُ للعمل في الحقول.

لقد كنا أفراداً في سلالة عائلة "يي"، وهي إحدى عشائر قبيلة "ياو" الأصلية والأكثر عدداً في المقاطعة. لقد استأجرَ والدي وعمي قطعةً من الأرض من صاحبِ أرضٍ غني كان يعيشُ في أقصى غرب الإقليم. فقاما بزراعةِ تلك الأرض بالأرز، والقطن، والقلقاس، ومحاصيل الطهو. كان منزلُ عائلتي نموذجياً حيث إنه كان مؤلفاً من طابقين، وكانت واجهته تطل على الجنوب. وقد صُمِّمتْ غرفةٌ في الطابق العلوي لتجمعات النساء وللفتيات غير المتزوجات لينمن فيها. وكان لكل عائلة غرفة خاصة بها وكان هناك غرفة خاصة لحيواناتنا تحيطُ بالغرفةِ الرئيسية في الطابق السفلي حيث كانت السلالُ المليئة بالبيض أو البرتقال أو حبالٌ من الفلفل المجفف تتدلى من العارضة المركزية لحمايتها من الفئران أو الدجاج أو الحيوانات المتجولة. وكانت لدينا

طاولةٌ وكراسٍ مقابل أحد الجدران. وكان هناك موقدٌ – حيث كانت أمي وزوجة عمي تقومان بالطهو – يحتلُ زاويةً على الجدار المقابل. ولم تكنْ لدينا نوافذُ في غرفتنا الرئيسية. لذا، فقد كنا نبقي الباب مفتوحاً على الممر خارج منزلنا طلباً للضوء والهواء في الأشهر الدافئة. أما الغرف الباقية فكانت صغيرة، وكانت أرضية المنزل مصنوعةً من التراب الصلب المرصوص. وكما قلت، كانت حيواناتنا تعيشُ معنا.

لم أكنْ أفكِّرُ قَطُّ كثيراً فيما إذا كنتُ سعيدةً، أو فيما إذا كنتُ أستمتعُ بوقتي كطفلة. فقد كنتُ طفلةً متوسطة الحال تعيشُ في عائلة متوسطة الحال في قرية متوسطة الحال. ولم أكنْ أعرفُ أنه قد توجدُ هناك طريقة أخرى للعيش، ولم أكنْ أقلقُ بشأن ذلك أيضاً. ولكنني أتذكرُ اليوم الذي بدأتُ فيه أُلاحظُ الأشياء التي كانت حولي وأفكرُ بها. كنتُ قد بلغتُ الخامسة من عمري للتو. فشعرتُ وكأنني قد اجتزتُ عتبةً كبيرة. وقد استيقظتُ قبل الفجر بشيء يشبهُ الشعورَ بالوخز في دماغي. فجعلتْني تلك الإثارةُ الصغيرةُ يقظةً لكل شيء رأيتُه وعشتُه في ذلك اليوم.

كنتُ مستلقيةً بين أختي الكبرى وأختي الصغرى. وألقيتُ نظرةً خاطفةً عبر الغرفةِ إلى سرير ابنةِ عمي القمر الجميل، التي كانت في مثل سني، ولم تكن قد استيقظتْ بعد. لذا جلستُ ساكنةً بانتظار أختيَّ لتتحرّكا. وقد كنتُ جالسةً مقابلَ الأخت الكبرى التي كانت تكبرُني بأربع سنوات. ورغم أننا كنا ننامُ في نفسِ السرير إلا أنني لم أعرفْها جيداً حتى رُبطتْ قدماي، وانضممتُ لحجرةِ النساء بنفسي. وقد كنتُ سعيدةً لأنني لم أكن أنظرُ باتجاه أختي الصغيرة. فقد

كنتُ أقولُ لنفسي دائماً إنها، لكونها أصغرَ مني بعام، كانت تافهةً تماماً لأفكرَ بها. ولم أكنْ أعتقدُ أن أختيَّ كانتا مولعتين بي أيضاً. ولكنّ اللامبالاة التي كنا نظهرها لبعضنا البعض كانت مجرد قناعٍ نضعُه لنخفي رغباتِنا الحقيقية. فقد كانت كل واحدة منا تريدُ من أمي أن تلاحظها. وكانت كل واحدة منا تتنافسُ لتحظى بانتباه والدي. وكانت كل واحدة منا تأملُ بأن تقضي وقتاً كل يوم مع الأخ الأكبر لأنه – لكونه الابن الأول – كان أكثرَ شخصٍ أثيرٍ في العائلة. ولم أكن أشعرُ بذلك النوع من الغيرة مع القمر الجميل، بل كنا صديقتين حميمتين. وكنا سعيدتين لأنّ حياتينا كانتا سترتبطان معاً حتى تتزوج كل واحدة منّا.

لقد كنا نحن الأربع نبدو متشابهات. إذ كان لكلِّ واحدةٍ منا شعرٌ أسودُ مقصوصٌ قصيراً، وكنا شديدات النحول، ومتقاربات في الطول. وخلافاً لذلك، كانت ملامحنا المميِّزة قليلة. فكانت للأخت الكبرى شامةٌ فوق شفتها. وكان شعرُ الأخت الصغرى مربوطاً دائماً في خصلاتٍ صغيرةٍ لأنها لم تكن تحبُّ أن تمشطَه أمي. وكان للقمر الجميل وجهٌ مستديرٌ جميل، بينما كانت ساقاي وذراعاي قويتين من الركض ومن حمل أخي الصغير.

نادتنا أمي من أسفلِ الدرج قائلة: "يا فتيات!"

فكان ذلك كافياً ليوقظَ الأخريات وليخرجَنا جميعاً من الفراش. فارتدتِ الأختُ الكبرى ملابسَها بسرعة، ونزلت إلى الطابق السفلي. وكنتُ والقمر الجميل أبطأَ لأنه لم يكن علينا أن نرتدي ملابسنا فحسب بل أن نُلبسَ أختي الصغيرة ملابسَها أيضاً. ثم نزلنا إلى الطابق السفلي سويةً حيث كانت زوجةُ عمي

تكنسُ الأرض، وكان عمي يغني أغنيةً صباحيةً، وكانت أمي – وأخي الثاني مربوطٌ على ظهرها – تصبُ آخر الماء في إبريقِ الشاي لتسخنَه. كانت الأخت الكبرى تقطِّعُ الكراث من أجل عصيدة الأرز التي كنا نسميها "كونجي". فنظرتْ أختي إليَّ نظرةً هادئة اعتبرتُ أنها كانت تعني أنها قد سبقَ ونالت استحسان عائلتي هذا الصباح وأنها كانت آمنةً لبقية اليوم. فأخفيتُ استيائي غير مدركة أنَّ ما رأيتُ أنه يعبرُ عن رضاها الذاتي كان شيئاً أقربَ إلى الإذعان الحزين الذي كان سيستقرُ على أختي عندما تتزوج.

"يا أيتها القمر الجميل يا زهرة الزنبق تعاليا إلى هنا".

كانت زوجة عمي تحيينا بهذه الطريقة كل صباح. فجرينا إليها. فقبَّلتْ زوجةُ عمي القمر الجميل، وربَّتتْ على ظهري بحنان. ثم أسرعَ عمي فحمل القمر الجميل بقوة بين ذراعيه، وقبَّلها عندما أعادَ وضعها على الأرض. وغمزني وقرص خدي.

هل تعرفون المقولة القديمة عن الناس الجميلين الذي يتزوجون أناساً جميلين والناس الموهوبين الذين يتزوجون أناساً موهوبين؟ لقد استنتجتُ في صباح ذلك اليوم أن عمي وزوجته كانا شخصين قبيحين. ولهذا السبب، كانا مناسبين لبعضهما البعض بشكل مثالي. فكان عمي – وهو شقيق والدي الأصغر – يمتلك ساقين مقوستين، ورأساً أصلع، ووجهاً ممتلئاً مشرقاً. وكانت زوجة عمي ممتلئة الجسم، وكانت أسنانها تشبهُ حجارة مسننة ناتئة من كهف كلسي. ولم تكن قدماها المربوطتان صغيرتين كثيراً، فربما كانتا بطول أربعة عشر سنتمتراً، أي ما يعادل ضعف ما كان سيصبحُ عليه طول قدميّ في

نهاية المطاف. وقد سمعتُ أحاديثَ شريرةً في قريتنا تقولُ إن هذا هو السبب في أن زوجة عمي، وهي تتمتعُ بجسم سليم ووركين عريضين، لم تكن تستطيعُ أن تحملَ ابناً إلى أوان الولادة. ولم أسمع أبداً هذا النوع من اللوم في بيتنا ولا حتى من عمي. وكانا بالنسبة لي يعيشان زواجاً مثالياً. فقد كان هو رجلاً حنوناً من مواليد برج الجرذ، وكانت هي امرأةً مطيعة من مواليد برج الثور. فكانا يضفيان السعادة كل يوم حول الموقد في بيتنا.

كان ما يزال على والدتي أن تعترفَ بوجودي في الغرفة. وهكذا كان الأمرُ دائماً في كل أمر أتذكره. ولكنني في ذلك اليوم أدركتُ عدم رضاها وشعرتُ به. فاستولتْ عليَّ الكآبة، وأبعدتْ عني الفرح الذي شعرتُ به للتو مع عمي وزوجة عمي والذي أذهلني بقوته. ثم تلاشى الشعورُ بسرعة لأن الأخ الأكبر، الذي كان يكبرني بست سنوات، استدعاني لأساعدَه بأعماله الصباحية. ولأنني وُلدتُ في عام الحصان، فقد كان من طبيعتي أن أحبَّ الأعمال خارج المنزل. ولكن الأهم من ذلك هو أنني كنتُ سأحظى بصحبة الأخ الأكبر لوحدي تماماً. فكنت أعلمُ أنني محظوظة وأن أختيَّ كانتا ستحقدان عليَّ، ولكنني لم أكن أبالي بذلك. فعندما كان يتحدثُ معي أو يبتسمُ لي لم أكن أشعرُ أنني غير مرئية.

أسرعنا خارجاً، وسحبَ الأخُ الأكبرُ الماء من البئر، وملأ الدلاء لكي نحملها. فأخذناها وعدنا إلى البيت، ثم خرجنا مجدداً لنجمعَ حطب الموقد، فجمعنا كومةً. حمَّل الأخُ الأكبرُ ذراعيَّ بعيدانٍ أصغرَ حجماً، ثم جرفَ الحطبَ الباقي، وتوجَّهنا نحو البيت. وعندما وصلنا إلى هناك، ناولتُ العيدان لأمي

آملةً أن أحظى بمديحها. فبالرغم من كل شيء، ليس من السهل على فتاةٍ صغيرة أن تجرَّ دلو ماء أو أن تحملَ حطب الموقد. ولكنَّ أمي لم تقل شيئاً.

إنه من الصعب عليَّ، حتى الآن وبعد كل تلك السنين، أن أفكرَ بأمي وبما أدركتُه في ذلك اليوم. فقد رأيتُ بوضوح شديد أنني كنتُ غير مهمة بالنسبة لها. فقد كنتُ الولد الثالثة والفتاةً الثانيةً العديمةَ القيمة والضئيلة فوق الحدّ ليضيعوا الوقتَ عليَّ حتى يبدو عليَّ أنني سأعيشُ لأتخطى سنوات الطفولة. وقد نظرتْ أمي إليَّ بالطريقةِ التي تنظرُ بها كل أم إلى ابنتِها؛ كزائرةٍ مؤقتةٍ، وفمٍ آخر لإطعامه، وجسمٍ آخر لإلباسه حتى أذهبَ إلى بيت زوجي. وقد كنتُ، وأنا في الخامسة من عمري، كبيرةً كفايةً لأعلمَ أنني لم أكنْ أستحقُ انتباهها، ولكنني أصبحتُ فجأة بحاجة له. فكنتُ أتوقُ لتنظرَ إليَّ وتتحدثَ معي بالطريقةِ التي كانت تفعلُ بها ذلك مع الأخ الأكبر. ولكنني حتى في تلك اللحظة التي شعرتُ بها بأول رغبةٍ عميقةٍ لي، كنتُ ذكيةً بما يكفي لأعرفَ أن أمي لم تكن لتريدَني أن أقاطعَها أثناء وقتِ انشغالها لأنها غالباً ما كانت توبخني لتحدثي بصوت مرتفعٍ فوق اللزوم أو تلوِّح في الهواء حولي لأنني كنتُ أقفُ في طريقها. وعوضاً عن ذلك، عاهدتُ نفسي أن أكونَ كالأختِ الكبرى وأن أساعدَ بهدوء وحرص قدرَ استطاعتي.

دخلت جدتي مترنحةً إلى الغرفة. وكان وجهها يبدو مثل خوخةٍ جافة. وكان ظهرها منحنياً إلى الأمام بحيث إننا تلاقينا وجهاً لوجه.

قالت والدتي آمرةً إياي: "ساعدي جدتك. وانظري إن كانت بحاجةٍ لأي شيء".

فتردّدتُ حتى رغم أنني قد قطعتُ وعداً لنفسي. إذ إن لثة جدتي كانت لزجةً وكريهةَ الرائحة في الصباح. ولم يكن أحدٌ يريدُ الاقترابَ منها. فاتجهتُ بشكلٍ جانبي إليها وأنا أحبسُ أنفاسي، ولكنها لوّحتْ لي بصبر نافد أن أبتعد. فتحركتُ بسرعةٍ كبيرة بحيث إنني ارتطمتُ بوالدي، وهو الشخص الحادي عشر والأكثر أهميةً في عائلتنا.

لم يؤنبني أو يقلْ شيئاً لأي أحد آخر. وبحسب ما عرفتُه فيما بعد، لم يكن سيتحدثُ حتى يمرَّ هذا اليوم. فجلس وانتظرَ لنقومَ على خدمته. وراقبتُ أمي عن كثب وهي تصبُّ الشاي له بصمت. وقد كان من الممكنِ أن أخافَ أن تلاحظَني أثناء روتينها الصباحي، ولكنها كانت حتى أكثرَ يقظةً في تعاملاتها مع والدي. وهو نادراً ما كان يضربُ أمي، ولم يتخذ له محظيةً قط. ولكن حذرَها منه جعلنا جميعاً يقظين.

وضعتْ زوجةُ عمي الأوعية على الطاولة، وغرفت عصيدة "الكونجي" بينما كانت أمي تُرضع الطفل. وبعد أن تناولنا طعامنا، خرجَ والدي وعمي إلى الحقل. وصعدت أمي، وزوجة عمي، وجدتي، والأخت الكبرى إلى غرفة النساء. لقد أردتُ الذهابَ مع أمي والنساء الأخريات في عائلتنا، ولكنني لم أكن كبيرةً كفايةً. ومما جعلَ الأمورَ أسوأ أنّه كان عليَّ أن أتشاركَ مع الأخ الأكبر في العناية بأخي الرضيع والأخت الصغرى عندما كنا سنعاودُ الخروج.

حملتُ الطفلَ على ظهري بينما كنا نقطعُ العشبَ ونطوفُ بحثاً عن الجذور من أجل خنزيرنا. وتبعتنا الأختُ الصغرى قدر استطاعتها. وقد كانت طفلةً صغيرةً غريبةً ومشاكسة. وكانت تتصرفُ بدلال مع أن الوحيدين الذين كان

يحقُّ لهم ذلك هم الإخوة الذكور. وكانت تعتقدُ أنها أكثر شخصٍ محبوب في عائلتنا رغم أنَّ لا شيء كان يوحي لها بصحة اعتقادها هذا.

حالما انتهينا من أعمالنا، استكشفنا نحن الأربعةُ القرية، ومشينا من أول الأزقة بين المنازل إلى آخرها حتى صادفنا بعض الفتيات الأخريات وهن يقفزن على الحبل. فتوقفَ أخي وأخذَ الطفل وسمحَ لي أن أقفزَ أيضاً. بعدها، ذهبنا إلى البيت لتناول الغداء، وكان عبارةً عن وجبةٍ بسيطة من الأرز والخضار فقط. وبعد ذلك، غادرَ الأخُ الأكبر مع الرجال. وصعدت بقيتنا إلى الطابق العلوي. فأرضعت أمي الطفل مجدداً. ثم أخذَ هو والأختُ الصغرى قيلولتهما لفترة العصر. وحتى عندما كنتُ في ذلك السن، كنتُ أستمتعُ بالتواجد في حجرة النساء مع جدتي، وزوجة عمي، وأختي، وابنة عمي، وخاصة أمي. فكانت أمي وجدتي تحيكان الملابس. وكنتُ والقمر الجميل نصنعُ كرات من الخيوط. وكانت زوجةُ عمي تجلسُ مع الفرشاة والحبر تكتبُ حروفها السرية بعناية، بينما كانت الأخت الكبرى تنتظرُ أخواتها الأربع بالقَسَم (اللاتي أقسمن على الولاء) ليصلنَ من أجل زيارة لفترة العصر.

سرعان ما سمعنا أصوات أربعة أزواج من الأقدام الصغيرة تصعدُ الدرج بهدوء. فحيَّت الأختُ الكبرى كل فتاة بعناق، وتجمّعن معاً في إحدى الزوايا. ولم يكنَّ يحببن أن أتطفلَ على أحاديثهن، ولكنني كنتُ أتأملُهن رغم ذلك وأنا أعلمُ أنني سأكونُ عضوة في أخوية بالقَسَم للفتيات خاصة بي في غضون عامين آخرين. وقد كانت كل الفتياتُ من قرية "بوواي" مما يعني أنهن كن يستطعن أن يجتمعن في كثير من الأحيان، وليس فقط في أيام التجمعات

الخاصة مثل "شم النسائم العليلة" أو "مهرجان الطيور". وقد تشكلتِ الأخوية عندما بلغتِ الفتيات السابعة من عمرهن. ولتقوية العلاقة بينهن، شارك والدُ كل واحدة منهن بخمسة وعشرين مقداراً من الأرز تُخزَّنُ في منزلنا. وفي وقتٍ لاحق عندما تتزوجُ كل واحدةٍ من الفتيات، تُباعُ حصتُها من الأرز لكي تتمكنَ أخواتُها بالقَسَم من شراء الهدايا لها. وتُباعُ آخر حصةٍ من الأرز في مناسبة زواج آخر الأخوات بالقَسَم. فتكونُ هذه نهايةَ الأخوية لأن الفتيات سيكنّ جميعاً متزوجات في قرى بعيدة حيث سيبقين منشغلاتٍ بأطفالهن ومطيعاتٍ لحمواتهن بحيث لا يكون لديهن وقتٌ للصداقات القديمة.

حتى مع صديقاتِها، لم تكن الأختُ الكبرى تحاولُ أن تلفتَ الانتباه. فجلستْ بهدوء مع الفتيات الأخريات وهن يطرِّزن ويحكين قصصاً طريفة. وعندما علا صوتُ ثرثرتهن وضحكهن، أسكتتهن أمي بتجهم. فخطرتْ فكرةٌ جديدةٌ أخرى ببالي، وهي: لم تكن أمي تفعلُ هذا أبداً عندما كانت أخواتُ جدتي بالقَسَم يأتين لزيارتها. فبعدَ أن كبرَ أولاد جدتي تمّت دعوتُها للانضمام لمجموعةٍ جديدةٍ مؤلفة من خمس أخوات في قرية "بوواي". وكانت اثنتان منهما بالإضافة لجدتي ما يزلن على قيد الحياة، وكلُّهن كنّ أرامل. وكنّ يزرن جدتي مرة في الأسبوع على الأقل. وكنّ يُضحكن بعضهن البعض، وكنّ يتبادلن دعاباتٍ لم نكن نحن الفتيات نفهمها. وفي تلك المناسبات، كانت أمي خائفة فوق الحدّ من حماتها بحيث إنها لم تكن تجرؤ أن تطلبَ منها أن تتوقفَ، أو أنها ربما كانت مشغولةً جداً.

نفدتِ الخيوطُ من أمي. فنهضتْ لتحصلَ على المزيد منها. وللحظة، وقفتْ

ساكنة تماماً وهي تحدِّقُ بالفضاء متأملة. وكانت لديَّ رغبةٌ جامحةٌ تقريباً أن أركضَ إلى ذراعيها وأصرخَ: شاهديني، شاهديني، شاهديني! ولكنني لم أفعل ذلك. وقد كانت قدما أمي قد رُبطتا بشكلٍ سيئ على يد والدتها. فعوضاً عن زهور الزنبق الذهبية كانت لديها جذوع قبيحة. وعوضاً عن التمايل أثناء مشيتها كانت توازنُ نفسها على عكاز. وإذا وضعت العكازَ جانباً تصبحُ أطرافُها الأربعة كلُّها مقوسةً وهي تحاولُ الحفاظ على توازنها. فكانت أمي غير مستقرة على قدميها بحيث لم يكن أحد على الإطلاق يستطيعُ أن يضمَّها أو يقبِّلها.

سألت زوجة عمي مقاطعة أمي وهي تحلمُ حلم اليقظة: "ألم يحن وقتُ خروج القمر الجميل وزهرة الزنبق؟ إذ يمكنهما أن تساعدا الأخ الأكبر بأعماله".

"إنه ليس بحاجة لمساعدتهما".

فاعترفت زوجة عمي بقولها: "أعلمُ ذلك. ولكنَّه يوم جميل..."

فقالت أمي بتجهم: "كلا، إنني لا أحبُ أن تتجولَ الفتياتُ في القرية عندما ينبغي عليهن أن يتابعن تعليمهن المنزلي".

ولكنَّ زوجة عمي كانت عنيدةً في ما يتعلقُ بهذا الأمر بالذات. فقد كانت تريدُنا أن نعرف أزقتنا، وأن نرى ماذا يوجدُ في نهايتها، وأن نسير إلى طرفِ القرية وننظر. فقد كانت تعرفُ أنَّ كلَّ ما كنا سنراه عما قريب هو ما كنا سنتمكنُ من أن ننظرَ إليه بشكلٍ خاطف من شبك نافذة غرفة النساء.

حاولتْ إقناع أمي بقولها: "أمامهما هذه الأشهر القليلة فقط". لم تقل إن أقدامنا كانت ستربط عما قريب، وأن عظامنا ستتكسرُ، وجلدنا سيتعفن. بل

قالت: "دعيهما تركضان طالما أنهما تستطيعان ذلك".

كانت أمي منهكةَ القوى. فقد كان لديها خمسة أطفال، ثلاثة منهم في سن الخامسة وما دون. وكانت تقعُ على عاتقِها المسؤولية الكاملة للأسرة كالغسيل، والتنظيف، وإصلاح الملابس، وطهو وجباتنا، وكانت تستمرُ بتتبعِ أمر ديون العائلة قدر استطاعتها. وكانت تتمتعُ بمكانة أعلى من زوجة عمي، ولكنها لم تكن تستطيعُ أن تحاربَ كل يوم لما كانت تعتقدُ أنه السلوك المناسب.

فتنهدت أمي باستسلام: "حسناً، يمكنهما الذهاب".

أمسكتُ بيد القمر الجميل، وقفزنا إلى الأعلى والأسفل. فطردتنا زوجة عمي إلى الباب بسرعة قبل أن تغيّر أمي رأيها، بينما حدّقت بنا الأخت الكبرى وأخواتها بالقَسَم بتوق. جريتُ وابنة عمي خارجاً ونزلنا الدرج. وكانت فترةُ العصر هي وقتي المفضل من اليوم حيث يكونُ الهواء دافئاً وعطراً وتقومُ الخنافسُ بالهمهمة. فانطلقنا مسرعتين نزولاً في الزقاق حتى وجدنا أخي يقتادُ جاموس العائلة إلى النهر. فكان راكباً على كتفي الحيوان العريضتين وإحدى ساقيه تحته والثانية تهتزُّ على خاصرة الحيوان. فمشيتُ والقمر الجميل في رتلٍ أحادي خلفهما عبر متاهة القرية من الأزقة الضيقة. فكانت شبكتُها المحيِّرة تحمينا من الأشباح وأفراد العصابات على حدٍّ سواء. ولم نرَ أي راشدين. فقد كان الرجالُ يعملون في الحقول، وكانت النساء الباقيات في غرفهن في الطوابق العلوية خلف شبك النوافذ. ولكنَّ الأزقة كان يشغلُها الأطفالُ وحيوانات قريتنا: كالدجاج، والبط، والخنازير السمينة، والخنازير

الصغيرة بين الأقدام.

غادرنا القرية، وتجوّلنا على طول ممر ضيق مرتفع مفروش بحجارة صغيرة. وكان واسعاً بما يكفي للناس والمِحفَّات، ولكنه كان صغيراً جداً بالنسبة للثيران أو العربات التي تجرها الجياد. تتبعنا الممر نزولاً إلى نهر "شياو"، وتوقفنا تماماً قبل الجسر المتأرجح الذي يعبرُه. وخلف الجسر، كان العالمُ مفتوحاً أمامنا بامتداداته الواسعة من الأرض المزروعة. وكانت السماء تمتدُّ فوقنا ولونها أزرق كلون ريش طائر "ملك السمك". وعلى بعد مسافة بعيدة، شاهدنا قرىً أخرى وأماكنَ لم أفكر أبداً أنني قد أذهبُ إليها في حياتي. ثم نزلنا إلى ضفة النهر حيث كانت الريح تصدرُ صوت حفيف عبر القصب. فجلستُ على إحدى الصخور، وخلعتُ حذائي، وخضت في المياه الضحلة. لقد مرّت خمس وسبعون سنة وما زلتُ أتذكرُ الشعورَ بالطين بين أصابع قدميّ، واندفاع الماء فوق قدميّ، والبرودة على جلدي. لقد كنتُ والقمر الجميل حرَّتين بطريقة لن نكونها مجدداً أبداً. ولكنني أتذكرُ شيئاً آخر بوضوحٍ شديد من ذلك اليوم. فمنذ الثانية التي استيقظتُ فيها، رأيتُ عائلتي من نواحٍ جديدة. وقد ملؤوني بمشاعرَ غريبة، وبالكآبة، والحزن، والغيرة، وبشعور بالظلم حيال الكثير من الأشياء التي بدت فجأة غير عادلة. وقد تركتُ المياه تجرفُ كل ذلك بعيداً.

في تلك الليلة بعد العشاء، جلسنا خارجاً، ونحن نستمتعُ بهواء المساء العليل، ونراقبُ أبي وعمي وهما يدخنان غليونيهما الطويلين. وكان الجميعُ متعبين. وكانت أمي تُرضع الطفل لمرة أخيرة محاولةً أن تجعلَه يغفو. وكانت تبدو متعبةً من الأعمال المنزلية التي كانت ما تزالُ غير منجزة كلياً بالنسبة

إليها. فوضعتُ ذراعي على كتفها محاولةً أن أمنحَها بعض الراحة.

فقالت: "إنِّ الجوّ حارٌ فوق الحدّ، أرجوك أبعدي يدك عني". وأبعدتْ يدي بلطف.

ولا بدَّ أن والدي لاحظَ خيبةَ أملي لأنه أخذني على حضنه. وفي الظلام الهادئ، كنتُ غاليةً بالنسبةِ إليه. وفي تلك اللحظة، كنتُ كاللؤلؤة في يده.

ربط القدمين

استغرقَ التحضيرُ لربط قدميَّ وقتاً أطول مما توقعَ الجميع. ففي المدن، تُربطُ أقدامُ الفتيات اللواتي يتحدرن من طبقة نبيلة في سن مبكرة كالثالثة مثلاً. وفي بعض الأقاليم البعيدة عنا، تربطُ الفتياتُ أقدامهن بشكل مؤقتٍ فقط لكي يبدون أكثر جاذبية لأزواجهن المستقبليين. وقد تكونُ أولئك الفتيات بعمر الثالثة عشرة، فلا تتكسرُ عظامهن. ودائماً ما تكون أربطتهن غير محكمة. وحالما يتزوجن يتمُ تحرير أقدامهن مجدداً لكي يتمكنَّ من العمل في الحقول إلى جانب أزواجهن. أمّا أقدام الفتيات الفقيرات فلا تربط على الإطلاق. ونعلمُ كيف ينتهي الأمرُ بهن. فإما أن يتم بيعهن كخادمات أو يصبحن "كنات صغيرات"، وهن فتيات ذوات أقدام كبيرة من عائلات سيئة الحظ، يتمّ إعطاؤهن لعائلات أخرى لتعمل على تربيتهن حتى يصبحن كبيرات كفاية لإنجاب الأطفال. ولكنّ الفتيات في إقليمنا المتوسط الحال من عائلات كعائلتي يبدأن ربط أقدامهن في سن السادسة. ويفك الرباط بعد مرور سنتين.

حتى بينما كنتُ خارجاً أركضُ مع أخي، كانت أمي قد سبقَ وبدأت بصنع قطع القماش الزرقاء الطويلة التي كانت ستصبحُ أربطتي. وصنعت زوج أحذيتي الأول بيديها. ولكنها عملت بعناية أكثر حتى وهي تقطِّبُ الحذاء المصغَّر الذي كانت ستضعه على مذبح "غوانين"، الإلهة التي تسمعُ كل بكاء النساء. وكان هذا الحذاء المطرَّزُ بطول ثلاثة سنتمترات ونصف. وكان مصنوعاً من قطعة مميزة من الحرير الأحمر خبَّأتْها أمي من جِهازها. فكانت تلك أولَ معرفة طفيفة لي بأن أمي قد تهتمُ بأمري.

عندما بلغتُ والقمر الجميل السادسة من عمرنا، أرسلت أمي وزوجة عمي في طلب العرَّاف ليحدِّدَ تاريخاً ميموناً لبداية ربط أقدامنا. ويُقال إن الخريف هو أفضل وقت ملائم لبداية ربط القدمين، ولكنَّ ذلك فقط لأن الشتاء يكونُ مقبلاً. فيساعدُ الطقسُ الباردُ على تخدير القدمين. هل كنتُ أشعرُ بالإثارة؟ كلا، بل كنتُ خائفة. وقد كنتُ صغيرةً جداً لأتذكَّرَ الأيام المبكرة من ربط قدمي الأخت الكبرى، ولكن مَنْ في القرية لم يسمع صراخ تلك الفتاة في آخر الطريق؟

حيَّت أمي العراف "هو" في الطابق السفلي، وصبتْ الشاي، وقدمتْ له وعاءً من بذور البطيخ. وكان المقصود من كياستها أن تحظى بقراءات جيدة. وقد بدأ معي. فدرسَ تاريخ مولدي، وقام بموازنة الاحتمالات. ثم قال: "إنني بحاجةٍ لأرى هذا الطفلة بعيني". ولم تكن هذه هي الحال الاعتيادية. فكان الخوفُ واضحاً على وجه أمي عندما قادتْني إلى العرَّاف، ووضعتني أمامه. وكانت أصابعُها متشبثةً بكتفيَّ لتبقيني في مكاني وتخيفني في آن معاً، بينما نفَّذَ العراف فحصه.

وقال: "عينان، نعم. أذنان، نعم. وذاك الفم". ثم رفعَ نظرَه إلى أمي، وقال: "إن هذه ليست طفلة عادية".

سحبتْ أمي نَفسَها من خلال أسنان مطبَّقة. فقد كان ذلك أسوأَ تصريح يمكنُ للعراف أن يتفوَّهَ به.

وقال العراف: "تحتاجُ إلى مزيدٍ من الاستشارة. وأقترحُ أن نتشاورَ مع إحدى الخاطبات. هل توافقين؟"

قد يشكُ البعض أن العراف كان يحاولُ أن يكسبَ المزيد من النقود من أجل

نفسه وأنه كان متحالفاً مع الخاطبة المحلية. ولكنَّ أمي لم تتردد لثانية واحدة. وهكذا كان خوف أمي – أو قناعتها – بحيث إنها لم تطلب إذن والدي لإنفاق النقود.

فقالت: "عدْ بأسرع ما تستطيع، من فضلك. وسنكون بانتظارك".

غادرَ العرافُ، وتركنا جميعاً بحالة ارتباك. وفي تلك الليلة، لم تتفوَّه أمي سوى بالقليل من الكلام. في الحقيقة، لم تنظرْ إليَّ. ولم تكن هناك دعاباتٌ من زوجة عمي. وانسحبتْ جدتي إلى غرفتها باكراً، ولكن كان بإمكاني سماعُها وهي تصلي. وذهبَ والدي وعمي في نزهة طويلة على الأقدام. وحتى أخواي شعرا بقلق العائلة، فبقيا هادئين.

في اليوم التالي نهضتِ النساء باكراً. وفي ذلك الوقت، كان الكعك الحلو يُعدُّ، والشاي يُغلى والأطباقُ الخاصة تحضرُ من خزانة الطعام. ولم يذهب والدي إلى الحقول، بل بقي في البيت ليرحبَ بالزوار. فكان كلُّ ذلك البذخ يظهرُ جدية الموقف. ومما زادَ الأمورَ سوءاً، أن العراف لم يحضرِ مدام "غاو" الخاطبة المحلية، ولكنَّه أحضرَ مدام "وانغ" الخاطبة من قرية "تونغكو"، وهي القرية الأفضل في المقاطعة.

دعوني أقول هذا: حتى الخاطبة المحلية لم تكنْ قد زارتْ منزلنا بعد. ولم يكن من المتوقعِ أن تزورَنا قبل بضعِ سنوات لتقومَ بدور الوسيط مع الأخ الأكبر عندما يبحثُ عن زوجة، ومع الأختِ الكبرى عندما تكونُ العائلاتُ تبحثُ عن عرائسَ لأبنائها. وهكذا، عندما وقفت مِحفَّة مدام "وانغ" أمام منزلنا، لم يكنْ هناك ابتهاج. وعندما نظرتُ من حجرةِ النساء، رأيتُ الجيران يخرجون

فاغرين أفواههم. وانحنى والدي، وكان جبينه يلمسُ الترابَ مراراً وتكراراً. وشعرتُ بالأسف من أجله. فقد كان والدي كثيرَ القلق، وهو أمرٌ عادي بالنسبة لشخصٍ وُلدَ في عام الأرنب. وقد كان مسؤولاً عن الجميعِ في العائلة، ولكنَّ هذا الأمرَ كان خارجَ نطاق خبرتِه. وكان عمي يثبُ من إحدى قدميه إلى الثانية، بينما كانت زوجةُ عمي، التي عادةً ما تكونُ مرحبةً ومرحة، واقفةً مسمَّرةً في مكانِها بجانبه. فكانت الخلاصةُ واضحةً لي من موقعي المناسب في الطابق العلوي على كل الوجوه في الأسفل، وهي أن شيئاً ما كان خاطئاً بشكلٍ مريع.

حالما دخلوا، ذهبتُ بهدوء إلى قمة الدرج لكي أتمكنَ من استراقِ السمع. وقد جلستْ مدام "وانغ". وقُدمَ الشاي والطعام. وكان صوتُ والدي بالكاد مسموعاً، وهو يقدِّمُ الطقوسَ الترحيبية المهذبة. ولكنَّ مدام "وانغ" لم تأتِ للتحدثِ بتوافه الأمور مع هذه العائلة المتواضعة. بل كانت تريدُ أن تراني. وتماماً كما حدثَ في اليوم السابق، استدعيتُ إلى الغرفة. فنزلتُ الدرج إلى الغرفةِ الرئيسية برشاقةٍ كما يمكنُ لفتاةٍ عمرُها ست سنوات فقط وما تزال قدماها كبيرتين وغير رشيقتين.

نظرتُ بشكلٍ خاطفٍ إلى كبار السن في العائلة. ورغم أن هناك لحظاتٍ خاصة حيث تجعلُ المدةُ الزمنيةُ الذكريات مجردَ ظلال، فصورُ وجوههم في ذلك اليوم ما تزالُ واضحةً جداً بالنسبة لي الآن. فكانت جدتي جالسة تحدّقُ بيديها المثنيتين. وكان جلدُها ضعيفاً ورقيقاً بحيث إنني استطعتُ أن أرى نبضاً أزرقَ في صدغها. وكان والدي، الذي كان وضعُه متفاقماً أصلاً، صامتاً من

القلق. وكان عمي وزوجتُه واقفين معاً في الممر الرئيسي، وهما خائفان أن يكونا جزءاً مما كان على وشكِ الحدوث وخائفان من أن يفوتهما أيضاً. ولكنَّ أكثرَ ما أتذكرُه كان وجه أمي. وقد كنتُ بالطبع كابنةٍ أعتقدُ أنها كانت جميلة، ولكنني رأيتُ شخصها الحقيقي للمرة الأولى في ذلك اليوم. ولطالما كنتُ أعلمُ أنها وُلدتْ في عام القرد، ولكنني لم أدرك أبداً أن صفاتِه من المكرِ والخداعِ كانت مطبوعةً بقوةٍ فيها. فقد كان هناك شيء قاسٍ يختبئ تحت عظمتي وجنتيها البارزتين. وكان هناك شيءٌ متآمرٌ موجودٌ بشكلٍ مخفي خلفَ عينيها الداكنتين. وكان هناك شيء...ما زلتُ لا أعرفُ تماماً كيف أصفه. فيمكنني أن أقولَ إن شيئاً يشبه الطموح الذكوري كان يتوهجُ عبر جلدها.

طُلِبَ مني أن أقفَ أمام مدام "وانغ". وقد اعتقدتُ أن سترتها الحريرية المنسوجة كانت جميلة. ولكنَّ طفلة مثلي ليس لديها ذوقٌ ولا تمييز. فأنا أقولُ اليوم إنها كانت مبهرجة ولا تليقُ ثيابها بأرملة. ولكنَّ الخاطبةَ لم تكنْ امرأةً عادية، فهي تتعاملُ مع الرجال، وتحددُ مهور العرائس، وتساومُ عليها، وتقومُ بمهمةِ الوسيط. وقد كانت ضحكة مدام "وانغ" مرتفعةً جداً، وكانت كلماتُها متملقةً جداً. وقد أمرتْني بالتقدم، وثبتتني بين ركبتيها، وحدَّقتْ بشدة في وجهي. وفي تلك اللحظة، تحولتُ من كوني غير مرئية إلى كوني مرئية.

كانت مدام "وانغ" أكثرَ تمكُّناً بكثير من العراف. فقرصتْ شحمتي أذنيّ، ووضعتْ أصابعَها على جفني السفليين، وسحبتِ الجلدَ إلى الأسفل. ثم أمرتْني بالنظر إلى الأعلى والأسفل واليمين واليسار، وأمسكتْ وجنتيَّ بيديها، وأدارتْ وجهي إلى الأمام والخلف. وعصرتْ يداها ذراعيَّ في حركاتٍ خشنة من كتفيَّ

نزولاً حتى معصمي، ثم وضعتْ يديها على وركيّ. وقد كنتُ في السادسة من عمري فقط. ولا يمكنْ أن يُعرفَ أي شيء بخصوص الخصوبة بعد، ولكنها فعلتْ ذلك. ولم يقلْ أحدٌ كلمةً واحدةً ليضعها عندَ حدِّها. ثم فعلت أكثرَ الأشياء إثارةً للعجب. فقد نهضت عن كرسيها، وأخبرتْني أن آخذَ مكانها. وقد كان فعلُ ذلك ليظهرَ أخلاقاً سيئةً جداً من جانبي. فحوَّلتُ نظري من أمي إلى والدي طلباً للإرشاد، ولكنهما كانا واقفين بغباء كحيوانات الرعي. وقد تحولَ لون وجه والدي إلى اللونِ الرمادي. وقد كان باستطاعتي تقريباً أن أسمعَه يفكر قائلاً في نفسِه: لِمَ لم نلقِ بها وحسب في النهر عندما وُلدتْ؟

لم تصبحْ مدام "وانغ" أكثرَ الخاطباتِ أهميةً في المقاطعة بواسطة انتظارِ الخرافِ ليتخذوا القرارات. فالتقطتني ببساطة، وأجلستني على الكرسي. ثم انحنتْ أمامي، وخلعت حذائي وجواربي. ومجدداً، كان هناك صمتٌ مطبق. وكما فعلتْ بوجهي، أدارت قدميَّ بهذا الاتجاه وذاك، ثم مررت ظفرَ إبهامها على قوس قدمي من الأعلى إلى الأسفل.

نظرت مدام "وانغ" إلى العرَّاف، وأومأت برأسِها، ووقفتْ مجدداً. وبحركةٍ مفاجئة من إصبعها، أشارتْ إليَّ لأنهضَ عن كرسيها. وبعد أن أخذتْ مقعدها مجدداً، تنحنحَ العراف.

وقال: "إن ابنتكم تقدِّمُ لنا ظرفاً خاصاً. وقد رأيتُ شيئاً فيها البارحة. ووافقتْ عليه مدام "وانغ" التي تتمتعُ بخبرةٍ إضافية. إن وجهَ ابنتكم طويلٌ ونحيلٌ كحبةِ الأرز. وشحمتا أذنيها تدَّلان على أنها تتمتعُ بروحٍ سمحة. ولكنَّ الشيء الأهم هو قدميها. فقوسُ قدميها مرتفعٌ جداً، ولكنَّه ليس مكتملَ النمو بعد. وهذا

يعني، أيتها الأم، أنه ينبغي عليك أن تنتظري عاماً آخرَ لتبدئي ربطَ القدمين".
ثم رفعَ يده لكي يمنعَ أحداً من مقاطعتِه، وكأنهم كانوا سيفعلون ذلك. وتابعَ قائلاً: "إن سن السابعة ليس هو التقليد في قريتنا، ولكنني أظنُّ أنكم إن نظرتُم إلى ابنتكم فسترون أن..".

تردَّدَ العرافُ. فدفعتِ الجدةُ وعاءً من ثمرِ اليوسفي باتجاهه لكي يتمكنَ من استجماعِ أفكاره. فأخذَ واحدةً وقشرَها، وألقى بالقشر على الأرض. وبعد أن وضعَ قسماً منها في فمه، استأنفَ كلامَه قائلاً:

"في سن السادسة، تكونُ العظامُ مكونة من الماء بمعظمها. وبالتالي تكونُ مطواعة. ولكنّ ابنتكم ناقصةُ النمو بالنسبةِ لسنها حتى بالنسبة لقريتكم التي تحملتْ سنواتٍ صعبة. فربما تكونُ الفتياتُ الأخرياتُ في هذه العائلة هكذا أيضاً. ولا ينبغي أن تشعروا بالخجل من هذا".

وحتى في هذا الوقت لم أُفكرْ أنه كان هناك أي شيء مختلفٌ حيال عائلتي، ولم أعتقدُ أيضاً أنه كان هناك أي شيء مختلف حيالي.

دسَّ العرَّافُ قطعةً من اليوسفي داخلَ فمه، وأخذَ يمضغُها وهو مستغرقٌ في التفكير، ثم تابعَ قائلاً: "ولكنَّ ابنتكم لديها شيءٌ بالإضافة لصغر الحجم بسبب المجاعة. فقدماها لديهما قوسٌ مرتفعٌ بشكلٍ خاص، مما يعني أنه إن تمّ القيامُ بالإجراءات الملائمة، فإن قدميها قد تصبحان أكثرَ الأقدام الناتجةِ مثاليةً في مقاطعتنا".

إنَّ بعضَ الناس لا يصدقون العرافين، ويعتقدون أنهم يُدلون بنصائح حكيمة فقط. ورغم كل شيء، فالخريف هو الوقتُ الأفضلُ لربط القدمين، والربيعُ هو

الوقتُ الأفضلُ للولادة. وإنَّ تلةً جميلةً ذات نسائم لطيفة تشكلُ المكان الأكثر توازناً بالنسبة لموقع دفن. ولكنَّ هذا العرافَ لاحظَ شيئاً بي، وقد غيّرَ ذلك مسار حياتي. وحتى تلك اللحظة، لم يكن هناك احتفال. وكانت الغرفةُ هادئةً بشكلٍ مخيف. فما زال هناك شيء ناقصٌ بصورة مريعة.

قطعت مدام "وانغ" الصمت قائلةً: "إن هذه الفتاةَ هي محببةٌ جداً بالفعل. ولكنَّ الأقدام الصغيرة التي تشبهُ زهور الزنبق الذهبية هي أهمُّ بكثير في الحياة من الوجه الجميل. فالوجهُ الجميل هو هبةٌ من السماء، ولكنّ الأقدام الصغيرة تحسِّنُ الوضعَ الاجتماعي. ونحن جميعاً متفقون على هذا. وما يحدثُ بعد ذلك هو فعلاً قرارُ الأب". ونظرتْ مباشرةً إلى والدي، ولكن الكلماتِ التي عبرت الهواء كانت موجهةً إلى أمي: "إنه ليس أمراً سيئاً تحقيقُ زواجٍ جيد لإحدى البنات. فعائلة من طبقةٍ راقية ستجلبُ لكم روابط أفضل، ومهراً جيداً للعروس، وحماية سياسية واقتصادية على المدى الطويل. ورغم أنني أقدِّرُ حسن الضيافة والكرم الذي أظهرتموه اليوم". قالت ذلك مؤكدةً على ضآلة منزلنا بحركة بطيئة من يدها، ثم تابعت: "فقد جلبَ لكم القدر، عن طريق ابنتكم، فرصة. وإذا قامت الأمُ بعملها بشكل ملائم فقد تُزوَّجُ هذه الفتاة عديمةُ الأهمية إلى عائلةٍ في قرية "تونغكو"".

تونغكو!

فغامر والدي قائلاً بحذر: "إنكِ تقولين أشياء رائعة. ولكنَّ عائلتنا متواضعة. فلا نستطيعُ مادياً أن نتحملَ أتعابك".

فردّتْ مدام "وانغ" بهدوء: "أيها الوالد. إذا أصبحتْ قدما ابنتك على الشكل

الذي أتخيلُه فإنني أستطيعُ أن أعتمدَ على الأتعاب السخية التي ستدفعُها عائلة العريس. وستتلقون منهم أيضاً بضائعَ على شكلِ مهرٍ للعروس. وكما يمكنك أن ترى، سيعود هذا الإجراء بالنفع عليَّ وعليكم على حدٍّ سواء".

لم يقلْ والدي شيئاً. فلم يكن أبداً يناقشُ ما كان يحدثُ معه في الأرض، أو يدعنا أبداً نعرفُ مشاعرَه. ولكنني تذكرتُ شتاءَ أحد الأعوام بعد سنة من الجفاف لم نخزنْ فيها الكثيرَ من الطعام. فذهبَ والدي إلى الجبال ليصطاد، ولكنْ حتى الحيوانات ماتت من الجوع. فلم يستطعْ والدي أن يفعلَ شيئاً سوى الحضور إلى البيت مع بعض الجذور المرّة التي كانت أمي وجدتي تطهوانها حساءً. فربما كان في تلك اللحظةِ يتذكرُ خزي تلك السنة، ويستحضرُ في ذهنه كم قد يكونُ مهري جيداً، ما قد يفعلُه للعائلة.

تابعتْ الخاطبة قائلةً: "وفوق كل هذا، أعتقدُ أن ابنتك قد تكونُ أيضاً مؤهلةً لعلاقةٍ مع رفيقةٍ لها من نفس السن".

عرفتُ الكلماتِ وما كانت تعنيه. وعلاقة الرفقة مختلفة تماماً عن الأخوية بالقَسَم. فهي تتضمنُ فتاتين من قريتين مختلفتين، وتستمرُ مدى حياتيهما في حين أن الأخوية بالقَسَم تتألفُ من عدة فتيات وتنحلُّ عند زواجهن. ولم أقابلْ قطُّ في حياتي القصيرة رفيقة أو أفكرْ أنه قد تكونُ لي واحدة. وقد كانت لأمي وزوجة عمي أخواتٌ بالقَسَم في قريتيهما عندما كانتا فتاتين صغيرتين. والأختُ الكبرى لديها أخواتٌ بالقسم الآن. أما جدتي فلديها صديقاتٌ من الأرامل من قرية زوجها وهن يشكلن أخوية بالقَسَم للعجائز. وقد كنتُ أفترضُ أنني خلال سير حياتي سأحظى بأخوات أيضاً. أما أن أحظى برفيقة من نفس السن فقد

كان أمراً مميزاً بالفعل. وقد كان ينبغي أن أشعرَ بالإثارة، ولكنني كجميع الآخرين في الغرفة كنتُ فاغرة الفم. ولم يكنْ هذا موضوعاً يُناقَش أمام الرجال. وقد كان الموقفُ غير عادي بحيث إن والدي نسي نفسَه وقال بدون تفكير: "لم تحظَ أي امرأةٍ في عائلتنا على الإطلاق برفيقة من نفس سنها".

فقالت مدام "وانغ" وهي تنهضُ عن كرسيها: "لا تحظى عائلتُكم بالكثير من الأشياء حتى الآن. ناقشوا هذه المسائل في عائلتكم. ولكن تذكروا أن الفرصةَ لا تأتي إلاّ مرة واحدة في العمر. وسأزوركُم مجدداً".

غادرتِ الخاطبةُ والعراف. وكلاهما يعدان بالعودة ليتحققا من تقدمي. فذهبتُ وأمي إلى الطابقِ العلوي. وحالما دخلنا غرفةَ النساء، التفتت إليَّ بنفس التعبير الذي رأيتُه لتوي في الغرفةِ الرئيسية. ثم، وقبل أن أتمكنَ من قول أي شيء، صفعتْني على وجهي بكل قوتها.

وسألت، "هل تعرفين كم من المتاعب سيسببُ هذا لوالدك؟"

كلماتٌ قاسيةٌ. ولكنني كنتُ أعلمُ أن الصفعةَ كانت طلباً للحظ الجيد ولإخافةِ الأرواح الشريرة. ورغم كل شيء، فلا شيء كان يضمنُ أن قدميّ كانتا ستصبحان كزهور الزنبق الذهبية. فقد كان من الممكن أن ترتكبَ أمي خطأً بقدميَّ كما فعلتْ أمها بقدميها. صحيح أنها قامت بعملٍ جيد مع الأخت الكبرى، ولكنَّ أي شيء قد يحدث. وبدلاً من أن أُكافأ، فقد أترنحُ على جذوعٍ قبيحةٍ، وتستمرُ ذراعاي بالرفرفة لأحافظَ على توازني كما تفعلُ أمي تماماً.

رغمَ أن وجهي كان يخزُني، فقد كنتُ سعيدةً داخلياً. إذ إن تلك الصفعةَ كانت المرة الأولى التي تُظهرُ فيها أمي لي حبها الأمومي. وكان عليَّ أن أعضَ

على شفتيَّ لأمنعَ نفسي من الابتسام.

لم تتحدثْ أمي معي طيلةَ ما بقي من اليوم. وعوضاً عن ذلك، عاودت النزولَ إلى الطابق السفلي وتحدثتْ مع زوجة عمي، وعمي، ووالدي، وجدتي. وكان عمي طيبَ القلب، ولكنه كابنٍ ثانٍ لم تكنْ له سلطةٌ في بيتنا. وكانت زوجةُ عمي تعرفُ الفوائد التي قد تنشأُ من وضعٍ كهذا. ولكن بما أنها كانت امرأةً ليس لها ابنٌ، ومتزوجةً من الابن الثاني في عائلته، فقد كانت تتمتعُ بأدنى منزلةٍ في العائلة. ولم يكنْ لأمي مركزٌ أيضاً. ولكنني بعد أن رأيتُ النظرةَ على وجهها عندما كانت الخاطبةُ تتحدثُ عرفت ما قد تكونُ أفكارُها. كان والدي وجدتي يتخذان كل القراراتِ في العائلة رغم أنه كان يمكنُ التأثيرُ عليهما. وقد كان تصريحُ الخاطبة، رغم أنه كان ذا فأل حسن بالنسبة لي، يعني أنه كان على والدي أن يعملَ بجهدٍ كبير ليجمعَ مهراً ملائماً لزواجٍ من عائلةٍ راقية. وإذا لم يتجاوبْ مع قرار الخاطبة فسيفقد احترامَه ليس في القرية فقط ولكن في المقاطعةِ أيضاً.

لا أعلمُ إن كانوا قد حدَّدوا مصيري في ذلك اليوم، ولكنَّ الأمورَ لم تعد في ذهني كما كانت أبداً. وقد تغيّرَ مستقبلُ القمر الجميل مع مستقبلي أيضاً. وقد كنتُ أكبرَ منها ببضعةِ أشهر، ولكنهم قرروا أنه ينبغي أن يتمَ ربطُ أقدامنا في نفس الوقتِ مع الأخت الصغرى. ورغم أنني قد استمررتُ بالقيام بالأعمال خارجَ المنزل، فلم أعدْ أذهبُ أبداً إلى النهر مجدداً مع أخي. ولم أشعرْ مجدداً أبداً ببرودةِ الماء المندفعِ على جلدي. وحتى ذلك اليوم لم تكن أمي قد ضربتْني قَطُّ. ولكن ثبتَ أن تلك كانت المرةَ الأولى وحسب مما كان سيصبحُ

الكثير من الضرب طوال السنوات القليلة التالية. والأسوأُ من كل شيء هو أن والدي لم يعد ينظرُ إليَّ مجدداً أبداً بنفس الطريقة. ولم يعد يسمحُ لي بالجلوس في حضنه في المساء عندما كان يدخنُ غليونه. ففي لحظةٍ واحدة، تحولتُ من فتاةٍ لا قيمةَ لها إلى شخصٍ قد يكونُ ذا فائدة للعائلة.

وُضعتْ أربطتي والحذاء الخاص الذي صنعتْه أمي لتضعَه على مذبح الإلهة "غوانين" جانباً كما فُعلَ مع الأربطة والحذاء الذي صُنع من أجل القمر الجميل. وبدأت مدام "وانغ" تقومُ بزياراتٍ دورية لبيتنا. وكانت تأتي دائماً في مِحَفَّتها. وكانت دائماً تفحصني من الرأس إلى القدم، وتسألني عن تعليمي المنزلي. ولن أقولَ إنها كانت لطيفةً معي بأي حال من الأحوال. فقد كنتُ مجردَ وسيلة لتحققَ لها ربحاً.

خلال العام القادم، بدأ تعليمي في غرفةِ النساء في الطابق العلوي بشكل جدي، ولكنني كنتُ أصلاً أعرفُ الكثير. فقد كنتُ أعلمُ أن الرجالَ نادراً ما يدخلون حجرةَ النساء. فقد كانت لنا وحدنا حيث كان يمكننا أن نقومَ بعملنا ونتشاركَ بأفكارِنا. وكنتُ أعلمُ أنني قد أقضي كامل حياتي في غرفةٍ كتلك. وقد كنت أعرفُ أيضاً أن الفرقَ بين الـ "تاي" وهو العالم الداخلي للمنزل والـ "واي" وهو العالم الخارجي للرجال هو في صميم المجتمع الكونفوشيوسي. وفيما إذا كان المرءُ غنياً أو فقيراً، إمبراطوراً أو عبداً فالمحيطُ المنزلي هو للنساء والمحيطُ الخارجي هو للرجال. وينبغي ألا تتخطى النساءُ الحجر الداخلية بأفكارهن أو أفعالهن. وكنتُ أدركُ أيضاً أن مبدأين كونفوشيوسيين يحكمان حياتنا. أولُهما: هو "الطاعات الثلاث"، وينص على: "عندما تكونين

فتاةً أطيعي والدك، وعندما تكونين زوجةً أطيعي زوجك، وعندما تكونين أرملةً أطيعي ابنك". أما ثانيهما: فكان "الفضائل الأربع" الذي يحددُ سلوك النساء كالكلام، والحركة، والعمل وينص على: "كوني محتشمة ولينة وهادئة ومستقيمة في أسلوبك، وكوني هادئة وسارة في كلماتك، وكوني مقيدة ومتقنة في حركتك، وكوني مثالية في العمل اليدوي والتطريز". فإذا لم تضلّ الفتياتُ عن هذه المبادئ فسيصبحن نساءً فاضلات.

تشعبتْ دراساتي الآن لتشملَ الفنون العملية. فقد تعلمتُ كيف أدخلُ الخيطَ في ثقبِ الإبرة، وكيف أختارُ لوناً للخيط وكيف أجعلُ قُطَبي صغيرةً ومستقيمة. وكان هذا مهماً، فقد بدأتُ، كما فعلت القمر الجميل والأخت الصغرى، العملَ على الأحذية التي كنا سننتعلها خلال عملية ربط القدمين التي كانت ستستمر لعامين. فكنا نحتاجُ لأحذية للنهار، وخفٍ خاص للنوم، وعدة أزواجٍ من الجوارب الضيقة. وكنا نعملُ بترتيبٍ زمني. فبدأنا بالأشياء التي كانت ستناسبُ أقدامنا حينئذٍ ثم انتقلنا إلى المقاسات الأصغر فالأصغر.

الأهم من كل شيء هو أن زوجة عمي بدأت تُعلمُني لغة الـ "نو شو". ولم أفهم عندئذٍ تماماً لماذا كانت تُبدي اهتماماً خاصاً بي. فاعتقدتُ بحماقةٍ أنني كنتُ مجتهدة، وأنني كنتُ سألهمُ القمر الجميل لتكونَ مجتهدةً أيضاً. فإذا أصبحتْ مجتهدةً كانت ستتزوجُ زواجاً أفضل من أمها. ولكنّ زوجة عمي كانت تأملُ أن تجلبَ الكتابةَ السريةَ إلى حياتنا لكي أتشاركَها والقمر الجميل إلى الأبد. ولم أدركْ أبداً أن هذا قد سبَّبَ خلافاً بين زوجة عمي وأمي وجدتي اللتين كانتا أميتين بلغة الـ "نو شو" بالضبط كما كان والدي وعمي أميين

بكتابة الرجال.

في ذلك الوقت في الماضي، كان ما يزالُ عليَّ بعد أن أرى كتابة الرجال لكي لا يكونَ لديَّ شيءٌ لأقارنَها به. ولكن يمكنني أن أقولَ الآن إن كتابة الرجال غامقة وكلُّ حرف يتسع بسهولة داخل مربع، بينما كانت كتابة ال- "نو شو" خاصتنا تبدو مثل أرجل البعوضة أو آثار قدمي العصفور في الغبار. وخلافاً لكتابة الرجال لا يمثلُ الحرف في ال- "نو شو" كلمةً محددة. وبدلاً من ذلك، فأحرفنا ذات طبيعة صوتية. وكنتيجة لذلك، يمكنُ لحرف واحد أن يمثل كل كلمة ملفوظة بنفس الصوت. وهكذا، بينما يمكنُ للحرف أن يشكلَ صوتاً يؤلفُ كلمات مثل: "pare" و"pair" و"pear" فعادةً ما يجعلُ السياقُ المعنى واضحاً. ورغم ذلك، يجبُ أن يُتوخى الكثيرُ من العناية للتأكد من عدم تفسير المعنى تفسيراً خاطئاً. والكثيرُ من النساء، كأمي وجدتي، لم يتعلمن الكتابة قط، ولكنهن رغم ذلك كن يعرفن بعض الأغنيات والقصص. وكان الكثير منها له نفسُ الإيقاع.

أرشدتني زوجة عمي للقواعد الخاصة التي تحكمُ لغة ال- "نو شو". فيمكنُ استخدامُها لكتابةِ الرسائل، والأغنيات، والسير الذاتية، والدروس في الواجباتِ النسائية، والصلوات، وبالطبع القصص الشعبية. ويمكنُ كتابتُها بالفرشاة والحبر على الورق أو على المروحة. ويمكنُ أن تُطرَّزَ على المناديل أو تُحاك على الملابس. كما يمكنُ، بل ينبغي، أن تُغنى أمام جمهور من النساء والفتيات الأخريات. ولكن يمكنُ أيضاً أن تقرأها المرأةُ وتحتفظَ بها لنفسها. ولكنَّ القاعدتين الأكثر أهمية هما: يجبُ ألا يعرفَ الرجالُ أبداً بوجودها. ويجبُ

ألا يلمسَها الرجالُ بأية صورة كانت.

استمرتِ الأمورُ بتلك الطريقة. فكنتُ والقمر الجميل نتعلمُ مهاراتٍ جديدةً كل يوم حتى ذكرى ميلادي السابعة عندما عاد العراف. فكان عليه في هذه المرة أن يحددَ تاريخاً واحداً لبدء ربط القدمين لثلاث فتيات، وهن أنا والقمر الجميل والأخت الصغرى، وهي الوحيدة منا التي كانت في السن المناسب. فهمهمَ وتلعثمَ. واستشار العائلة. وبعد أن تمّتْ مناقشةُ كل شيء، حدَّدَ اليوم النموذجي للفتيات في منطقتنا، وهو اليوم الرابع والعشرين من الشهر القمري الثامن، حيثُ تتلو الفتيات اللواتي ستربطُ أقدامهن الصلوات، ويقدّمن القرابين الأخيرة "للعذراء ذات القدمين الصغيرتين"، وهي التي تشرفُ على ربط القدمين.

استأنفتْ أمي وزوجةُ عمي نشاطات ما قبل ربط القدمين. فصنعتا المزيدَ من الضمادات. وأطعمتانا طبقَ الفاصولياء الحمراء لتساعدنا على تطرية عظامنا ولتلهمنا لنحققَ قياساً صغيراً لأقدامنا. وفي الأيام التي سبقتْ ربط أقدامنا، جاءتِ العديدُ من النساء لزيارتنا في حجرة الطابق العلوي. وتمنتْ لنا أخواتُ أختي الكبرى بالقَسَم الحظ السعيد، وأحضرن لنا المزيد من الحلوى، وهنأننا على دخولنا الرسمي في عالم النساء. وكانت أصواتُ الاحتفال تملأ الغرفة. وكان الجميع سعداء يغنين، ويضحكن، ويتحدثن. وإنني أعلمُ الآن أنه كانت هناك الكثير من الأشياء التي لم يقلها لي أحد. (فلم يقل أحدٌ إنني قد أموت. ولم أعرف حتى انتقلتُ إلى منزل زوجي فأخبرتْني حماتي أن واحدةً من أصل عشر فتيات تموتُ بسبب ربط القدمين ليس في مقاطعتنا فحسب بل في كافة أنحاء الصين).

كلُّ ما كنتُ أعرفُه هو أن ربط القدمين كان سيجعلُني لائقةً أكثر للزواج، وبالتالي يجعلُني أقربَ للحب الأعظم والفرح الأعظم في حياة المرأة، وهو الابن. ولتحقيق تلك الغاية، كان هدفي أن أحصلَ على قدمين مربوطتين بشكل مثالي تتمتعان بسبع صفات واضحة، وهي: ينبغي أن تكونا صغيرتين، وضيقتين، ومستقيمتين، ومدببتين، ومقوستين، ورغم ذلك تكونان عطرتين، وناعمتين في بنيتهما. ومن كل هذه المتطلبات، كان الطول هو الأهم. فيجب أن يكون سبعة سنتمترات، أي طول الإبهام تقريباً، وبذلك يكون مثالياً. ويأتي الشكلُ في المرتبةِ الثانية. فيجبُ أن تكونَ القدمُ المثاليةُ بشكل بُرعم زهرة اللوتس. وينبغي أن تكون ممتلئةً ومستديرةً عند الكعب، وتصبحُ مدببةً في المقدمة، وكلُّ وزنها بوزن إبهام القدم الكبير وحده. وهذا يعني أنه يجبُ أن تكونَ الأصابعُ وقوسُ القدم مكسورةً ومنحنيةً إلى الأسفل حتى تلتقي بالكعب. وأخيراً، ينبغي أن يكونَ الشقُّ المؤلفُ من مقدمة القدم والكعب عميقاً كفاية ليخبِّئ قطعة نقدية كبيرة بشكلٍ عمودي في طيته. وإذا استطعتُ أن أحقّقَ ذلك، فستكونُ السعادةُ مكافأتي.

في صباح اليوم الرابع والعشرين من الشهر القمري الثامن، قدمنا "للعذراء ذات القدمين الصغيرتين" كراتٍ لزجة من الأرز، بينما وضعتْ أمي وزوجةُ عمي الأحذية المصغرة التي كانت لديهما أمام تمثال صغير "لغوانين". وبعد ذلك جمعتا معاً حجرَ الشب، ومادةً قابضة، ومقصات، ومقلمات أظافر خاصة، وإبراً، وخيوطاً. وأخرجتا الضمادات الطويلة التي صنعتاها. وكانت كل واحدة بعرض خمسة سنتمترات وطول ثلاثة أمتار ومنشاةً بعض الشيء. وعندئذٍ،

جاءت كل النساء في العائلة إلى الطابق العلوي. وأخيراً وصلتِ الأختُ الكبرى وهي تحملُ دلواً من الماء المغلي نقعتْ فيه جذور شجرة التوت، واللوز الأرضي، والأعشاب، والجذور.

لكوني الأكبر سناً، ذهبتُ أولاً. وكنتُ مصممةً على أن أُبدي كم كان باستطاعتي أن أكونَ شجاعة. فغسلتْ أمي قدميَّ، وفركتهما بحجر الشب ليتقلص نسيجُ الجلد، ولتحدَّ من إفراز الدم والقيح الذي لا مفرَّ منه. وقصتْ أظافر قدميَّ أقصر ما أمكن. وخلال ذلك الوقت، كانت أربطتي منقوعة، وذلك لكي تجفَّ على جلدي فتصبحَ حتى أضيق. وبعد ذلك، أخذتْ أمي أحد أطراف الرباط، ووضعتْه على مشط قدمي، ثم سحبتْه فوق أصابعي الأربعة الصغيرة لتبدأ عملية طيِّها تحت قدمي. ومن هنا، لفتِ الضمادة إلى الخلف حول كعب قدمي. وكانت عقدةٌ أخرى حول الكاحل تساعدُ على ضمان ثبات العقدتين الأوليين. فكانت الفكرةُ هي أن تلتقي أصابعُ قدمي بكعبي فتتشكلُّ الشقَّ تاركةً إبهامي فقط لأمشي عليه. وقد كررتْ أمي هذه الخطوات حتى استُعملتِ الضمادةُ بأكملها. وكانت زوجةُ عمي وجدتي تنظران من فوق كتفها ليتأكدن من عدم وجود أية تجاعيد في تلك العقد. وأخيراً، خاطت أمي الطرفَ، وأغلقتْه بإحكام لكي لا تنحلَّ الأربطة ولكي لا أتمكنَ من تحريك قدمي بحرية.

كررت أمي العملية مع قدمي الأخرى. ثم بدأت زوجة عمي عملَها مع القمر الجميل. وخلال عملية الربط، قالت الأختُ الصغرى إنها كانت تريدُ شربة ماء، فنزلت إلى الطابق السفلي. وحالما انتهى العملُ على قدمي القمر الجميل، نادت أمي أختي، ولكنها لم تجب. وقد كان ليُطلبَ مني قبل ساعة أن أذهبَ

وأعثرَ عليها. ولكن لم يكن سيسمحُ لي طوال العامين التاليين أن أنزلَ الدرج. ففتشتْ أمي وزوجة عمي المنزل، ثم خرجتا منه. وقد أردتُ أن أركضَ إلى شبك النافذة لأختلسَ النظر، ولكنَّ قدميَّ كانتا أصلاً تؤلمانني لأن الضغط على عظامي استفحلَ وكانت أربطتي الضيقة تُعيقُ دورتي الدموية. فنظرتُ إلى القمر الجميل وكان وجهها شاحباً كما يُوحي اسمُها. وفاضتِ الدموعُ على وجنتيها.

ومن الخارج، وصلت أصواتُ أمي وزوجة عمي إلينا وهما تناديان الأخت الصغرى.

وذهبتِ الجدةُ والأختُ الكبرى إلى شبك النافذة ونظرتا خارجاً. فتأوَّهت الجدة.

ونظرتِ الأختُ الكبرى إلينا قائلةً: "إن أمي وزوجة عمي في منزل الجيران. أتسمعان صوتَ صراخِ الأخت الصغرى؟"

فهززتُ والقمر الجميل رأسينا.

وأخبرتْنا الأختُ الكبرى أن أمي كانت تجرُّ الأختَ الصغرى في الزقاق.

وعندئذٍ، سمعنا صوت الأخت الصغرى تصرخُ قائلةً: "كلا، لن أذهبَ. لن أفعلَ ذلك".

فوبَّختْها أمي بصوت مرتفع، وقالت: "إنك نكرةٌ عديمةُ القيمة. وأنت تسببين إحراجاً لأسلافنا". وقد كانت تلك كلماتٍ بشعة، ولكنها لم تكنْ غيرَ مألوفة. فقد كانت تُسمَعُ كل يوم تقريباً في قريتنا.

دُفعتِ الأختُ الصغرى داخلَ الغرفة. ولكنها حالما سقطتْ على الأرض، وقفتْ على قدميها بجهد، وركضتْ إلى إحدى الزوايا، وانكمشتْ فيها.

بينما كانت عينا الأخت الصغرى تتجولان بانفعال في أنحاء الغرفة بحثاً عن مكان لتختبئ فيه، أعلنتْ أمي قائلة: "سيحدثُ هذا. فليس لديك خيار آخر". وقد كانت محجوزةً. ولم يكن هناك أي شيء ليوقفَ المحتوم. واقتربتْ أمي وزوجة عمي منها. فقامتْ بمحاولة أخيرة لتزحفَ من تحت أذرعهما الممدودة، ولكنَّ الأختَ الكبرى قبضتْ عليها. وقد كانت الأختُ الصغرى في السادسة فقط، ولكنها ناضلت، وكافحت بأقصى استطاعتِها. وأجلستْها الأختُ الكبرى وزوجة عمي وجدتي بينما أسرعتْ أمي بوضع الضمادات. وطوال هذا الوقت، كانت الأختُ الصغرى تصرخ. وعدة مرات كانت إحدى ذراعيها تفلتُ فقط ليتمَ تقييدها مجدداً. وفقدتْ أمي قبضتْها على قدم الأخت الصغرى للحظة، وسرعان ما اندفعتْ كل ساقها وأصبحتِ الضمادةُ تفتلُ عبر الهواء كشريط البهلوان. فأصبتُ والقمر الجميل بالرعب. إذ لم تكن هذه هي الطريقةَ التي ينبغي أن يتصرفَ بها فردٌ من عائلتنا. ولكنَّ كل ما استطعنا فعلَه كان الجلوس والتحديق لأنه بحلول ذلك الوقت كانت خناجرُ من الألم تطعننا من أقدامنا حتى سيقاننا. وأخيراً، أنهتْ أمي مهمتها. وألقتْ بقدم الأخت الصغرى المربوطة إلى الأرض، ووقفت، ونظرت إلى ابنتها الصغرى باشمئزاز، ثم تفوهت بعبارة واحدة قائلة: "إنكِ عديمة القيمة!"

الآن، سأكتبُ عن الدقائق والأسابيع القليلة التالية التي ينبغي أن يكونَ طولُها مقارنة بما بلغت من العمر تافهاً، ولكنَّها بالنسبة لي كانت كالأبدية.

نظرتْ أمي إليَّ أولاً لأنني كنتُ الأكبر سناً، وقالت: "انهضي!"

كانت الفكرةُ تتخطى فهمي. فقد كانت قدماي تنبضان. وقبل دقائق قليلة

فقط، كنتُ واثقةً من شجاعتي. أما حينئذٍ فقد بذلتُ ما في وسعي لأمنعَ دموعي من التساقط. ففشلتُ في ذلك.

ربتت زوجةُ عمي على كتف القمر الجميل وقالت لها: "قفي وامشي".

وكانت الأختُ الصغرى لا تزالُ تنتحبُ على الأرض.

انتزعتني أمي من على الكرسي. ولا يمكنُ لكلمة "ألم" أن تصفَ شعوري. فقد كانت أصابعُ قدميَّ محبوسة تحت قدمي، وكان وزنُ جسمي بأكمله يقعُ على أصابعي. وقد حاولتُ أن أوازنَ جسمي إلى الوراء على كعبيّ. فعندما شاهدتْ أمي هذا، ضربتني، وقالت: "امشي!"

بذلتُ ما بوسعي. وبينما كنتُ أمشي بتثاقل باتجاه النافذة، مدّت أمي يدها إلى الأسفل وسحبتْ الأخت الصغرى لتقفَ على قدميها، وجرَّتْها نحو الأخت الكبرى. وقالت: "خذيها جيئةً وذهاباً في الغرفة عشر مرات". ولدى سماعي هذا، عرفتُ ما كان مخبئاً لي. وكان يتعذرُ إدراكه تقريباً. وبعد أن رأت زوجة عمي ما كان يحدثُ، ولكونها أدنى الأشخاص مكانةً في العائلة، أخذتْ يد ابنتها وسحبتها من على الكرسي. وتساقطتِ الدموعُ من عينيّ بينما كانت أمي تقتادني جيئةً وذهاباً في حجرة النساء. وسمعتُ نفسي أئن. واستمرتِ الأختُ الصغرى تصيحُ وتحاولُ أن تكافحَ لتبتعدَ عن الأخت الكبرى. أما جدتي، التي كانت وظيفتُها كالمرأة الأهم في العائلة هي مجرد مراقبة تلك النشاطات، فقد أخذت الذراع الأخرى للأخت الصغرى. فبعد أن أصبحت الأختُ الصغرى محاطة بشخصين أقوى منها بكثير، كان على جسدها أن ينصاعَ للأوامر. ولكنَّ ذلك لا يعني أن شكواها اللفظية قد انخفضت بأي حال من الأحوال. كانت القمر

الجميل هي الوحيدة التي دفنت مشاعرَها مبديةً أنها كانت ابنةً طيبة حتى لو كانت هي أيضاً تتمتعُ بمكانةٍ متواضعةٍ في عائلتنا.

بعد أن انتهت رحلاتنا العشر ذهاباً وإياباً عبر الغرفة، تركتْنا أمي، وزوجةُ عمي، وجدتي وحدنا. وكنا نحن الفتياتُ الثلاث مشلولاتٍ تقريباً من عذابنا الجسدي. ومع ذلك، فقد كانت محنتنا بالكاد قد بدأت. فلم نستطعْ أن نأكل. ورغم أن معداتنا كانت فارغة، فقد تقيأنا معاناتنا. وأخيراً، ذهبَ الجميعُ في العائلة إلى الفراش. وقد كان التمددُ بمثابة إنقاذ لنا. فكان إبقاء أقدامنا على مستوى بقية أجسامنا راحة لنا. ولكن بينما مرتِ الساعات، فاجأَنا نوعٌ جديدٌ من المعاناة. فقد التهبتْ أقدامنا، وكأنها كانت متوضعةً داخلَ فحم المجمرة. وخرجتْ من أفواهنا أصواتٌ غريبةٌ كبكاء الأطفال. وكان يجبُ على الأخت الكبرى المسكينة أن تشاركَنا الغرفة. فحاولتْ ما بوسعها لتخففَ عنا بقصصٍ خيالية، وذكَّرتنا بألطف طريقة ممكنة أن أية فتاة من أية منزلة في كافة أنحاء الصين العظيمة قد خاضت ما كنا نخوضُه لنصبحَ نساء، وزوجات، وأمهات ذوات قيمة.

لم تنم أية واحدة منا تلك الليلة. ولكن مهما كان ما شعرنا به في اليوم الأول، فقد كان أسوأ بضعفين في اليوم الثاني. وحاولنا ثلاثتنا جميعاً أن ننزعَ أربطتنا. ولكن الأخت الصغرى كانت الوحيدة التي حررت إحدى قدميها بالفعل. فضربتْها أمي على ذراعيها وساقيها، وأعادت ربط قدمها، وجعلتْها تمشي عشر دوراتٍ إضافية عبر الغرفة كعقوبة لها. وكانت أمي مرةً بعد مرة تهزُّها بعنف وتسألُها: "هل تريدين أن تصبحي "كنةً صغيرة"؟ لم يفتِ الأوان بعد، وقد

يكونُ ذلك المستقبلُ من نصيبك".

كنا نسمعُ هذا التهديدَ طيلة حياتنا. ولكن لم ترَ أية واحدةٍ منا قَطُّ "كنةً صغيرة". فقد كانت "بوواي" قريةً فقيرةً جداً بحيث لا يحضرُ الناسُ إلى بيوتهم فتاةً عنيدةً كبيرةِ القدمين. ولم نكن قد رأينا روح ثعلبٍ أيضاً، ولكننا كنا نؤمنُ تماماً بتلك الأشياء. وهكذا، هددتْ أمي الأختَ الصغرى. فاستسلمتْ مؤقتاً.

في اليوم الرابع، نقعنا أربطتنا في دلوٍ من الماء الساخن. ونُزعتِ الأربطة عندئذٍ. فتفقدتْ أمي وزوجة عمي أظافرَ قدمينا، وقامتا بقشرِ الجلد الميت، ووضعتا برفق المزيد من حجر الشب والعطر لإخفاء رائحة لحمنا المتعفن. ثم قامتا بلف أربطة جديدة ونظيفة أضيق من التي كانت. فكان كلُّ يوم نفسه وكلُّ يوم رابعٍ نفسه. وكلّ أسبوع كان هناك زوجٌ جديدٌ من الأحذية وكلُّ زوجٍ أصغر من السابق. وكانت نساءُ الجيران يزرننا ويحضرن معهن الفاصولياء الحمراء على أمل أن تلينَ عظامُنا بصورةٍ أسرع، أو يحضرن الفلفل المجفف على أمل أن تتخذَ أقدامُنا ذلك الشكل الرقيق والمدبب. ووصلت أخواتُ الأخت الكبرى بالقَسَم ومعهن هدايا صغيرة ساعدتْهن أثناء ربط أقدامهن. فكن يقلن لنا: "عضي طرفَ فرشاة التخطيط الخاصة بي. فطرفُها نحيفٌ ورقيقٌ، وهذا سيساعدُ على جعلِ قدميك نحيفة ورقيقة أيضاً". أو: "كلي حبات الكستناء هذه. وستأمرُ لحمك أن يصبحَ أصغر".

تحولتْ حجرةُ النساء إلى غرفة تدريب. فبدلاً من القيام بأعمالنا المعتادة، كنا نمشي جيئةً وذهاباً عبر الغرفة. وكل يوم، كانت أمي وزوجة عمي تضيفان دوراتٍ إضافية. وكلَّ يوم كانت جدتي تتطوعُ للمساعدة. وعندما كانت

تتعبُ، كانت تستريحُ على أحد الأسرَّة وتوجِّهُ أنشطتنا من هناك. وعندما كان الطقسُ يزدادُ برودةً، كانت تسحبُ المزيد من اللُّحف على جسمها. وكلما كان اليومُ يزدادُ قصراً وظلاماً، كانت كلماتُها تصبحُ أكثرَ قصراً وغموضاً حتى أصبحت نادراً ما تتكلم. ولكنها كانت تحدقُ بالأخت الصغرى، وتحثُها بعينيها على الاستمرار في دوراتها.

بالنسبة لنا، لم يخف الألم. وكيف كان يمكنُه ذلك؟ ولكننا تعلمنا أهم درسٍ لكل النساء، وهو أنه يجبُ علينا أن نطيعَ الأوامرَ من أجل مصلحتنا. وحتى في تلك الأسابيع الأولى، بدأت الصورةُ تتشكلُ عما كنا سنصبحُ عليه ثلاثتنا كنساء. فكانت القمر الجميل ستصبحُ رزينة وجميلة في كل الظروف. أما الأختُ الصغرى فكانت ستصبحُ زوجةً كثيرة الشكوى متذمرةً من قدرِها وجاحدةً لكل الهبات التي وهبتْ لها. أما بالنسبة لي، من يدعونني بالمميزة، فقد تقبلتُ مصيري بدون جدال.

في أحد الأيام، كنتُ أقومُ بإحدى رحلاتي عبر الغرفة. فسمعتُ شيئاً يطقطق. وكان أحدُ أصابعِ قدمي قد انكسر. وقد ظننتُ أن الصوتَ كان شيئاً داخلياً في جسمي، ولكنه كان حاداً بحيث إن الجميعَ في حجرة النساء سمعنه. فتوجهتْ عينا أمي نحوي، وقالت: "تحركي! لقد بدأ التقدمُ أخيراً". وكان جسمي بأكمله يرتعدُ وأنا أمشي. وبحلول الليل، انكسرتْ أصابعُ قدمي الثمانية التي كان يجبُ أن تنكسر. ولكن كان ما يزالُ عليَّ أن أمشي. وكنتُ أشعرُ بأصابع قدميّ المكسورة تحت ثقلِ كل خطوة كنتُ أخطوها لأنها كانت تتحركُ داخل الحذاء. وأصبحَ الفراغُ الذي نشأ حديثاً، حيثُ كان هناك في السابق مفصل، شعوراً

أبدياً من الألم. ولم يبدأ الطقسُ القارس بتخدير الأحاسيس الموجعة التي كانت تحتدمُ في جسمي كله. ورغم ذلك، لم تكن أمي مسرورةً من خضوعي. وفي تلك الليلة، قالت للأخ الأكبر أن يحضرَ قصبة من ضفة النهر. واستعملتْها طوال اليومين التاليين على مؤخرة ساقيَّ لكي أستمرَ في الحركة. وفي اليوم الذي أُعيدَ فيه ربط أربطتي، نقعتُ قدمي كالمعتاد. ولكن في تلك المرة، كان التدليك لإعادة تشكيل العظام يتخطى كلَّ شيء عشتُه حتى ذلك الوقت. وقامت أمي بيديها بسحب عظامي الرخوة إلى الوراء ثم إلى الأعلى إلى أخمصِ قدمي. فلم أرَ حبَّ أمي الأمومي بادياً بهذا الوضوح في أي وقتٍ آخر.

كانت تتحدثُ مراراً وتكراراً وهي تدخلُ الأفكارَ في عقلي قائلة: "إن السيدةَ الحقيقيةَ لا تدعُ مجالاً للقبح ليدخلَ حياتها. وعن طريق الألم فقط تحققين الجمال. وعن طريق المعاناة فقط تجدين السلام. أنا أربطُ وأقيدُ، ولكنكِ أنتِ من ستحظين بالمكافأة".

تكسرت أصابعُ قدمي القمر الجميل بعد بضعة أيام. ولكن عظام الأخت الصغرى رفضتْ أن تنكسر. فأرسلتْ أمي الأخ الأكبر في مهمة أخرى. وفي هذه المرة، كان يجبُ عليه أن يعثرَ على حجارة صغيرة يمكنُ لها أن تُربطَ على أصابع قدمي الأخت الصغرى من أجل المزيد من الضغط. وقد سبقَ وقلتُ إنها كانت مقاومةً. ولكن صراخها الآن كان حتى أكثرَ ارتفاعاً إذا كان شيءٌ كهذا ممكناً. وقد اعتقدتُ والقمر الجميل أنها كانت تتفاعل بتلك الطريقة لأنها كانت تريدُ المزيدَ من الانتباه. فبالرغم من كل شيء، كانت أمي تكرِّسُ كل جهودها تقريباً من أجلي. ولكننا في الأيام التي كانت أربطتُنا تنزعُ فيها، كان

باستطاعتنا أن نرى الفرق بين أقدامنا وقدمي الأخت الصغرى. فقد كان الدمُ والقيحُ يتسربُ من ضماداتنا وهو ما كان أمراً طبيعياً. ولكنَّ السوائل التي كانت ترشحُ من قدمي "الأخت الصغرى" اتخذتْ رائحةً جديدةً ومختلفة. وبينما امتقعَ جلدي وجلد القمر الجميل ليصبحَ بلون جلد الموتى كان جلدُ الأخت الصغرى يشعُ بلون وردي كالزهرة.

زارتْنا مدام "وانغ" مرة أخرى. وقامت بتفحُّص العمل الذي قامتْ به أمي، ونصحت ببعض الأعشاب التي يمكنُ أن تُغلى لتساعدَ على تخفيف الألم. ولم أجرب ذلك الشراب المر حتى بدأَ الثلجُ بالتساقط، وتحطمتْ عظامُ وسط قدمي. وقد كان ذهني مشوشاً بسبب التقاء المعاناة مع الأعشاب، عندما تغيرُ وضعُ الأخت الصغرى بشكل مفاجئ. فأصبحَ جلدُها ملتهباً بالحرارة. وكانت عيناها تلمعان بسبب الماء وهذيان الحمى. وذبلُ وجهها المستديرُ ليصبحَ ذا زوايا حادة. وعندما نزلتْ أمي وزوجة عمي إلى الطابق السفلي لتحضير وجبة منتصف اليوم، تعاطفتِ الأختُ الكبرى مع أختها المثيرة للشفقة، وسمحت لها بالتمدُّد على أحد الأسرَّة. وأخذتُ والقمر الجميل استراحةً من دورات المشي. ولكننا خفنا أن تضبطنا أمي ونحن جالستان، فجلسنا إلى جانب الأخت الصغرى. وفركتِ الأختُ الكبرى ساقي الأخت الصغرى محاولة أن تمنحها بعض الراحة. ولكن تلك كانت أبردَ فترة من الشتاء، فكنا جميعاً نرتدي ثيابنا بحشوات سميكة. فرفعت الأختُ الكبرى بمساعدتنا ساق بنطال الأخت الصغرى إلى ما فوق ركبتها لكي تتمكنَ من تدليك ربلة ساقها بشكل مباشر. وعندئذٍ، رأينا الآثار الحمراء الوحشية التي كانت ترتفعُ من تحت أربطة قدمي الأخت

الصغرى، وتشقُّ طريقها بشكل متعرج إلى أعلى ساقها وتختفي تحت بنطالها. فنظرنا إلى بعضنا البعض للحظة ثم فحصنا الساق الأخرى بسرعة. وكانت الآثارُ الحمراءُ نفسُها موجودة عليها.

نزلتِ الأختُ الكبرى إلى الطابق السفلي. فتوجبَ عليها لتخبرَ أمي بما وجدناه أن تعترفَ بإخفاقها في تأدية واجبها. وقد توقعنا أن نسمعَ صوت صفعة أمي القوية على وجه الأخت الكبرى، ولكنَّ ذلك لم يحدث. فقد أسرعت أمي وزوجة عمي إلى الطابق العلوي عوضاً عن ذلك. ووقفتا على قمة الدرج وعاينتا الغرفة. فكانت الأخت الصغرى تحدقُ بالسقف وساقاها الصغيرتان مكشوفتان، وكنا نحن الفتاتان الأخريان ننتظرُ بخضوع لتتم معاقبتُنا، وكانت جدتي نائمة تحت لُحفها. فألقتْ زوجةُ عمي نظرةً واحدة على المشهد، وذهبتْ لتغلي الماء.

مشت أمي إلى السرير. ولم تكنْ عكازها معها. لذا، رفرفت بيديها عبر الغرفة كطائر ذي جناحين مكسورين. وقد كانت عديمة الفائدة تماماً بحيث إنَّها لم تكنْ تستطيعُ أن تساعدَ ابنتها. فحالما عادت زوجة عمي. بدأت أمي تفكُّ الأربطة. ففاحت رائحةٌ مقرفةٌ في الغرفة. فسدّتْ زوجةُ عمي فمها. ورغم أن الطقس كان مثلجاً، مزقتِ الأختُ الكبرى ورقَ الأرز الذي كان يغطي النوافذ لتخرجَ الرائحة. وأخيراً، كُشفت ساقا الأخت الصغرى بأكملهما. وكان القيحُ أخضر اللون داكن. وكان الدمُ قد تخثَّرَ ليصبحَ بلون الطين البني المتعفن. فوضعتِ الأختُ الصغرى في وضعيةِ الجلوس، ووضعت قدماها غير المربوطتين في وعاء من الماء يتصاعدُ منه البخار. وكان ذهنها غائباً تماماً

بحيث إنها لم تصرخ.

اتخذتْ صيحاتُ الأختِ الصغرى طوال الأسابيع السابقة معنىً مختلفاً. هل كانت تعلمُ منذ اليوم الأول أن شيئاً سيئاً قد يحدث؟ ألهذا السبب قاومت؟ هل ارتكبتْ أمي خطأً مريعاً ما أثناء عجلتها؟ هل حدث تسممُ لدم الأخت الصغرى بسبب تجاعيدَ في أربطتها؟ هل كانت ضعيفة بسبب سوء التغذية كما ادَّعتْ مدام "وانغ" أنني كنتُ؟ ما الذي كانت قد فعلتْه في حياتها السابقة لكي تستحقَ هذه العقوبةَ الآن؟

فركتْ أمي القدمين محاولة أن تزيلَ الالتهاب. فأغمي على الأخت الصغرى. وأصبحَ الماء في الدلو عكراً بسبب الإفرازات الكريهة. أخيراً، سحبتْ أمي الأطراف المكسورة من الدلو، وربتت عليها لتجف.

نادت أمي حماتها قائلة: "يا أمي، إنك تتمتعين بخبرة أكثر مني. أرجوك ساعديني".

لكنَّ جدتي لم تتحرك من تحت لُحفها. واختلفتْ أمي وزوجة عمي في ما كانتا ستفعلانه تالياً.

فقد اقترحت أمي قائلة: "ينبغي علينا أن ندع القدمين معرَّضتينِ للهواء".

فأجابتْها زوجةُ عمي: "إنك تعلمين أن هذا أسوأ شيء. فالكثير من عظامها قد سبقَ وانكسرت، وإذا لم تعيدي ربطها فلن تشفى بالطريقة الملائمة أبداً. وستصبحُ مقعدة، أي غير لائقة للزواج".

"أُفضلُ أن أبقيها على هذه الأرض غير متزوجة على أن أفقدَها إلى الأبد".

فأقنعتْها زوجةُ عمي قائلة: "وعندئذٍ لن يكون لها هدفٌ ولا قيمة. إنَّ حبَّك

الأمومي يخبرُك أن هذا ليس مستقبلاً".

فاستمرتا بالجدال طوال الوقت. ولم تتحركِ الأختُ الصغرى. فوُضعَ حجر الشب على جلدها، وأعيدَ ربط قدميها. وفي اليوم التالي، استمرَ الثلجُ بالتساقط. وساءتْ حالُها أكثر. ورغم أننا لم نكن أغنياء، فقد ذهبَ والدي في العاصفة، وعادَ مع طبيب القرية الذي نظرَ إلى الأخت الصغرى وهزَّ رأسَه. وتلك كانت المرةَ الأولى التي أرى فيها تلك الإيماءة التي كانت تعني أننا كنا عاجزين عن منع روح أحد نحبُه من المغادرة إلى عالم الأرواح. يمكنُنا أن نحاربَ الموت، ولكنه حالما يقبضُ على أحدِهم، فلا شيءَ يمكنُ فعلُه بعد ذلك. ونحن خانعون أمام رغبات العالم الآخر. وقد عرضَ الطبيبُ أن يصنع الكمادات وأن يحضِّر الأعشاب، ولكنه كان رجلاً صالحاً وشريفاً. فتفهَّم موقفنا. أفضى لوالدي قائلاً: "يمكنني أن أفعلَ هذه الأشياء لابنتكم الصغيرة. ولكنَّ ذلك سيكونُ إنفاقاً للمال على أمرٍ لا طائل منه".

ولكنَّ الأخبارَ السيئة لذلك اليوم لم تكن قد انتهت بعد. فبينما كنا ننحني للطبيب، نظرَ في أنحاء الغرفة، ورأى جدتي تحت اللُّحف. فتحركَ نحوها ولمسَ جبينها، وأصغى إلى صوتِ نبضها. فرفعَ نظرَه إلى والدي، وقال: "إن والدتك الفاضلة مريضةٌ جداً. لماذا لم تذكرْ هذا لي من قبل؟"

كيف كان يمكنُ لوالدي أن يجيبَ عن هذا السؤال وينقذَ ماء وجهه؟ لقد كان ابناً صالحاً، ولكنه أيضاً كان رجلاً. وكان هذا الأمرُ ينطوي ضمن العالم الداخلي. ورغمَ ذلك، فقد كانت مصلحة جدتي أهم واجباتِه البنوية. وفيما كان يدخنُ غليونه مع أخيه منتظرين الشتاء لينتهي، سقط شخصان في الطابق

العلوي في سحر الأرواح الشريرة.

مجدداً، بدأت العائلة بأسرها تتساءلُ في نفسها: هل أُنفقَ الكثيرُ من الوقت على الفتياتِ عديمات القيمة بحيثُ سُمحَ للمرأة الوحيدة ذات القيمة والمكانة في بيتنا أن تضعف؟ هل سلبَ كل ذلك السير ذهاباً وإياباً عبر الغرفة مع الأخت الصغرى مخزون الجدة من الخطوات؟ هل حبست الجدةُ طاقتها الداخلية لكي تمنعَ الصخبَ المُضجر بعد أن سئمت من صراخ الأخت الصغرى؟ هل أُغريتِ الروحُ الشريرةُ التي جاءت لتفترسَ الأخت الصغرى باحتمال وجود ضحية أخرى؟

بعد كل تلك الضجة، وبعد أن بُذلَ الكثير من الاهتمام في الأسابيع الأخيرة للأخت الصغرى، تحولَ كل التركيز الآن إلى الجدة. فكان والدي وعمي يغادران جانبها فقط ليدخنا أو ليتناولا طعامهما أو ليستريحا. وقامت زوجة عمي بكل الواجبات المنزلية. فكانت تقومُ بطهو الوجبات، وبالغسيل، والعناية بنا جميعاً. ولم أرَ أمي تنامُ قط. فبسبب كونها الكنةَ الأولى، كان لديها هدفان في الحياة، وهما: أن تنجبَ الأبناء لتستمرَ العائلة وأن تعتني بوالدة زوجها. وقد كان ينبغي عليها أن تراقبَ صحة الجدة باجتهاد أكثر. وكانت، عوضاً عن ذلك، قد سمحتْ للأمل أن يدخلَ ذهنها بأن حولت انتباهها إليَّ وإلى مستقبلي المحظوظ. أما الآن، وقد تحولَ إهمالها السابق إلى إصرار قوي، فقد أصبحتْ تؤدي كل الطقوس الموصوفة عن طريق الصلاة والإنشاد وحتى تحضير الحساء من دمها لتعيدَ بناء قوة الجدة وحيويتها.

لأن الجميعَ كانوا مشغولين بالجدة، عُيِّنتُ والقمر الجميل لمراقبة الأخت

الصغرى. وقد كنا في السابعة من عمرنا فقط ولم نكن نعرفُ الكلمات والأفعال التي كان يمكننا أن نقومَ بها لنخففَ عنها. وقد كان عذابها شديداً، ولكن ذلك لم يكن أسوأَ ما كنتُ سأراه في حياتي. وقد توفيتْ بعد ذلك بأربعة أيام بعد أن تحملت معاناةً وألماً أكثرَ مما كان عادلاً لحياة قصيرةٍ كحياتها. وقد توفيتْ جدتي بعد ذلك بيوم. ولم يرها أحد تعاني. فقد التفَّتْ وحسب لتصبحَ أصغرَ فأصغر كيرقة تحت ملاءة من الأوراق الخريفية.

كانت الأرضُ قاسية جداً ليتمَ الدفنُ فيها. وقد حضرتْ أختا الجدة بالقَسَم الباقيتين إليها، وغنتا لها أغاني الحداد، ولفتا جسمها بالموصلين، وألبستاها الثياب من أجل حياتها في الآخرة. وقد كانت امرأة عجوزاً عاشت حياة طويلة. لذا، فقد كانت ثياب حياتها الأبدية ذات طبقات كثيرة. أما الأختُ الصغرى فقد كانت في السادسة من عمرها فقط. ولم تكنْ لها حياةٌ طويلة من الثياب لتدفِّئها أو الكثير من الصديقات ليقابلنها في العالم الآخر. فقد كانت تملكُ ثوبها الصيفي وثوبها الشتوي. وحتى تلك الملابس كنتُ والأختُ الكبرى قد لبسناها قبلها. وهكذا، فقد أمضتِ الجدةُ والأخت الصغرى شتاءهما تحت أكفانٍ من الثلج.

يمكنني القول إن تغييراً كثيراً قد حصلَ بين الوقت الذي توفيت فيه الجدة والأخت الصغرى وبين وقت دفنهما. فكنا ما نزالُ نقومُ بالدورات عبر الغرفة، وما نزالُ نغسلُ أقدامنا كل أربعة أيام، ونغيرُ أحذيتنا إلى أحذية أصغر كل أسبوعين، ولكن أمي وزوجة عمي بدأتا الآن تراقباننا بحذر شديد. لقد كنا حذرتين أيضاً. فلم نكنْ نقاوم أو نتذمرُ قَطُّ. وعندما كان الوقتُ يحينُ لغسل

أقدامنا، كانت عيوننا تُثبَّتُ على الدم والقيح كعيون أمي وزوجة عمي. وكل ليلة بعد أن كنا نحن الفتياتُ نُترَكَ وشأننا أخيراً وكل صباح قبل أن يبدأ روتيننا مجدداً، كانت الأختُ الكبرى تتحققُ من سيقاننا لتتأكدَ من عدم إصابتنا بالتهاباتٍ خطيرة.

إنني غالباً ما أعودُ بتفكيري إلى تلك الأشهر الأولى من ربط أقدامنا. وأتذكرُ كيف كانت أمي، وزوجة عمي، وجدتي وحتى الأخت الكبرى يرددن عباراتٍ محددة ليشجعننا. وكانت إحداها تقول: "تزوجي دجاجة تبقي مع دجاجة أو تزوجي ديكاً رومياً تبقي مع ديك رومي". وفي ذلك الوقت من الماضي، كنتُ أسمعُ الكلمات ولكنني لم أكن أفهم المعنى. لقد كان حجمُ القدمين يحددُ كم كنتُ سأصبحُ لائقةً للزواج. فكانت قدماي الصغيرتان ستُقدَّمان كدليل لأهل زوجي المستقبليين على انضباطي الشخصي وقدرتي على تحمل آلام الولادة بالإضافة لأية محنة قد تنتظرني في المستقبل. وكانت قدماي الصغيرتان ستظهران للعالم طاعتي لعائلة أهلي ولا سيما أمي، الأمرُ الذي كان سيعطي انطباعاً جيداً لحماتي المستقبلية. وكان الحذاء الذي طرَّزته سيظهرُ لأهل زوجي المستقبليين قدراتي على التطريز والتعليم المنزلي الآخر. ورغم أنني لم أكن أعلمُ في ذلك الوقت، فقد كانت قدماي ستصبحان شيئاً يثيرُ إعجاب زوجي خلال أكثر اللحظات الحميمة والخاصة بيننا. فلم تتناقص رغبته برؤيتهما وإعجابه بهما خلال حياتنا معاً حتى بعد أن أنجبتُ له خمسة أطفال وفقد جسمي جاذبيته.

المروحة

مرَّتْ ستةُ أشهر على بدء ربط أقدامنا، وشهران على وفاة الجدة والأخت الصغرى، وذابَ الثلجُ، وأصبحتِ الأرضُ طرية. تمَّ تجهيزُ الجدةِ والأختِ الصغرى للدفن. وقد كانت هناك ثلاثة أحداث في حياة قبيلة "ياو" بل في حياة كل الصينيين حيث تُنفقُ أكبرُ مبالغ من المال، وهي: الولادة، والزواج، والموت. فكلنا نتمنى أن نولدَ على نحو جيد، ونتزوجَ على نحو جيد، ونتمنى أن نموتَ على نحو جيد، وندفن على نحو جيد. ولكنَّ القدرَ والظروفَ العملية يؤثران في تلك الأحداث الثلاثة بطريقة ليستْ كغيرها من الأحداث. لقد كانت جدتي هي الأمَّ الرئيسة في العائلة، وعاشت حياة نموذجية. أما الأختُ الصغرى فلم تحقّق شيئاً. فجمعَ والدي وعمي معاً ما كانا يملكانه من مال ودفعا لأحد صانعي التوابيت ليصنعَ تابوتاً جيداً للجدة. وصنع والدي وعمي صندوقاً صغيراً للأخت الصغرى. وجاءت أخواتُ جدتي بالقَسَم مرة أخرى. وأخيراً، أقمنا الجنازة.

مرةً أخرى، لاحظتُ كم كنا فقراء. فلو كان لدينا مال أكثر، فربما كان والدي ليبني قوساً لتخليد ذكرى حياة الجدة، وربما كان ليستخدمَ العرَّاف ليعثرَ على موقعٍ مؤاتٍ يتمتع بعناصر طاقة أفضل من أجل دفنها أو ليستأجرَ مِحفَّةً لنقل ابنته وابنة أخيه اللتين كانتا ما تزالان غير قادرتين على المشي لمسافة بعيدة إلى موقعِ الدفن. ولم تكنْ تلك الأشياء ممكنة. فحملتني أمي على ظهرها بينما حملت زوجةُ عمي القمر الجميل. وذهبَ موكبنا البسيط إلى مكان ليس ببعيدٍ عن المنزل، ولكنه كان مع ذلك واقعاً في أرضنا المستأجرة. وانحنى والدي وعمي ثلاث مرات بالتعاقب مراراً وتكراراً. وجلستْ أمي على أرض المقبرة،

وتوسلتْ طالبةً المغفرة. وأحرقنا النقود الورقية. ولكن لم تُمنحْ أية هدايا للمعزين الذين حضروا الدفن باستثناء الحلوى.

ورغم أن جدتي لم تكن تستطيعُ القراءة بلغة ال "تو شو"، فكانت لا تزالُ لديها كتب اليوم الثالث للزفاف التي كانت قد أُهديتْ إليها عند زواجها قبل سنوات عديدة. فجُمعتْ كل هذه بالإضافة لكنوز أخرى على يد أختيها بالقسم، وأُحرقتْ عند قبرها لكي تصطحبها الكلماتُ إلى العالم الآخر. فأنشدتا معاً قائلتين: "نأملُ أن تجدي أختينا الأخرتين بالقَسَم. وستكنّ أنتن الثلاث سعيدات. لا تنسيننا. فالروابط بيننا ما تزالُ موصولة حتى لو قُطعتْ أزهار اللوتس. وهكذا هي قوة وطول عمر علاقتنا". ولم يُذكَرُ شيءٌ عن الأخت الصغرى. وحتى الأخ الأكبر لم تكن لديه أية رسائل ليقدمها. ولأنها لم تكن لديها أية كتابات خاصة بها، فقد كتبت أمي وزوجة عمي والأخت الكبرى رسائل بلغة ال "تو شو" ليقدمنها لأسلافنا. ثم أحرقناها بعد أن غادرَ الرجال.

رغم أننا كنا ما نزال في بداية فترة الحداد على جدتي التي تدومُ ثلاث سنوات، فقد استمرتِ الحياة. وكان الجزء الأكثر معاناة من ربط قدميَّ قد انقضى. ولم يعد يتوجبُ على أمي أن تضربني كثيراً، وخفَّ الألم الصادر عن أربطتي. فأصبحَ أفضلُ ما يمكن أن أفعلَه والقمر الجميل هو أن نجلسَ وندعَ أقدامنا تتماسكُ في شكلها الجديد. وكنا نحن الاثنتان نتدربُ في ساعات الصباح الباكر تحت إشراف الأخت الكبرى على قُطَب جديدة. وفي فترة الصباح المتأخر، كانت أمي تعلمني كيف أنسجُ القطن. وفي فترات العصر المبكر، كنا نعملُ على تعلمِ الحياكة. وكانت القمر الجميل وأمها تقومان بنفس الدروس

ولكن بالعكس. وكانت فتراتُ العصر المتأخر تُكرَّسُ لدراسة لغة الـ "تو شو".
فكانت زوجة عمي تعلمنا كلماتٍ بسيطةً بصبر وكثير من المرح.

أما الأختُ الكبرى، التي بلغت الحادية عشرةِ ولم يعد يتوجبُ عليها مراقبةُ أربطة قدمي الأخت الصغرى، فقد عادت لدراساتِها في الفنون النسوية. وكانت مدام "غاو"، وهي الخاطبة المحلية، تأتي إلينا بانتظام لتتفاوض على "الخطبة"، وهي المرحلة الأولى من خمس مراحل تشكِّلُ عملية الزفاف، لكل من الأخ الأكبر والأخت الكبرى. وقد عُثرَ على فتاة من عائلة تشبهُ عائلتنا كثيراً في قرية مدام "غاو" الأصلية، وهي قرية "غاوجيا"، لتتزوجَ الأخ الأكبر. وكان هذا شيئاً جيداً بالنسبة للكَنَّة الجديدة لأن مدام "غاو" كانت تقومُ بالكثير من العمل بين القريتين بحيث كان يمكنُ لها أن تسلِّمَ رسائل الـ "تو شو" جيئةً وذهاباً. وعلاوة على ذلك، فإن زوجة عمي تتحدر من قرية "غاوجيا". وقد أصبحَ بإمكانها التواصلُ مع عائلتها بسهولة أكبر. فكانت سعيدةً جيداً بحيث إنه كان باستطاعة الجميع رؤية ابتسامتها وداخلَ فمها الذي يشبهُ الكهف بأسنانها الناتئة.

كانت الأختُ الكبرى، التي أقرَّ جميعُ من رآها أنها كانت هادئة وجميلة، ستُزوجُ إلى عائلة أفضل من عائلتنا تعيشُ في قرية "غيتان" البعيدة. فأصبنا بالحزن لأننا في نهاية المطاف لن نراها كثيراً كما نحبُّ أن نفعل. ولكننا كنا سنحظى برفقتها لست سنوات أخرى قبل أن يتمَّ الزواجُ الفعلي، ثم لسنتين أو ثلاث سنوات بعد ذلك قبل أن تغادرنا إلى الأبد. فقد كنا في مقاطعتنا نتبِّعُ التقليد الذي يقضي بأن الفتيات لا يعشن في بيوت أزواجهن بشكل دائم حتى

يحملن.

لم تكن مدام "غاو" مثل مدام "وانغ". فأفضلُ كلمة تصفها هي "خشنة". فبينما كانت مدام "وانغ" ترتدي الحرير كانت مدام "غاو" ترتدي القطن المنسوج منزلياً. وبينما كانت كلمات مدام "وانغ" مصقولة كدهن الإوز كانت كلمات مدام "غاو" حادة كنباح كلب القرية. وقد كانت تأتي إلى حجرة النساء، وتجلسُ على أحد الكراسي وتطالبُ برؤية أقدام جميع الفتيات في عائلة "يي". وبالطبع، فقد تجاويت الأختُ الكبرى والقمر الجميل مع طلبها. ولكن حتى لو كان مصيري في الأصل تحت إشراف مدام "وانغ" فقد قالت لي أمي إنه ينبغي عليَّ أن أظهرَ قدميَّ أيضاً. وكانت مدام "غاو" تقول: "إنَّ الشقَ عميقٌ كطياتِ داخل قدمي هذه الفتاة. وستجعلُ من زوجها رجلاً سعيداً". أو: "إن الطريقة التي يلتفُ فيها كعبها كالجيب والطريقة التي تبدو فيها مقدمة قدمها مدببة هكذا ستجعلُ زوجها المحظوظ يفكرُ بملاطفتها طوال اليوم". وحينئذٍ، لم أكن أفهمُ معنى ذلك. وحالما فهمته، شعرتُ بالإحراج لأن ذلك النوع من الأشياء قد قيل أمام أمي وزوجة عمي، ولكنهما ضحكتا مع الخاطبة. وانضممنا نحن الفتياتُ الثلاث إليهن. ولكن، كما قلت، كانت تلك الأمور ومعانيها بعيدة تماماً عن خبرتنا ومعرفتنا.

في تلك السنة في اليوم الثامن من الشهر القمري الرابع، تقابلت أخواتُ الأخت الكبرى بالقَسَم في منزلنا للاحتفال بعيد "مصارعة الثيران". وكانت الفتيات الخمس قد سبقَ واستعددن ليظهرن كيف سيتدبرن أمور عائلاتهن المستقبلية بأن قمن ببيع الأرز الذي أعطتْه لهن عائلاتهن لتشكيل الأخوية

واستخدمن العائدات لتمويل احتفالاتهن. فأحضرتْ كل فتاة طبقاً من البيت: كطبق حساء الأرز، وأوراق الشمندر مع البيض المحفوظ، وأرجل الخنزير مع صلصة الفلفل، والفاصولياء الطويلة المحفوظة، وكعكات الأرز الحلوة. وقد قمن بالطهو سوية على نحو ودي واجتمعتْ كل الفتيات لإعداد الفاصولياء الحمراء التي تمَّ طهوها بالبخار ثم تغميسها بصلصة الصويا مع عصير الليمون وزيت الفلفل. فتناولن طعامهن، وضحكن، ورتَّلن قصصاً بلغة الـ "نو شو" مثل قصة "سانغو" التي تبقى فيها ابنةُ رجل غني وفية لزوجها الفقير خلال الكثير من المسرات والأحزان حتى كوفئا في النهاية على إخلاصهما. أو قصة: "سمكة الشبوط السحرية" التي تحوِّلُ فيها سمكةٌ نفسها إلى شابة جميلة تقعُ في غرام عالم ذكي وذلك لكي تظهَرَ هيئتُها الحقيقية فقط.

لكنَّ القصةَ المفضلةَ لديهن كانت قصة: "المرأة ذات الإخوة الثلاثة". ولم يكنَّ يعرفنها كلها، ولم يطلبن من أمي أن تقودَ الإنشاد رغم أنها كانت تحفظُ العديد من الكلمات. وعوضاً عن ذلك، توسلتِ الأخواتُ بالقسم لزوجة عمي أن تقودهن عبر القصة. وقد انضممتُ والقمر الجميل إلى توسلاتهن لأن هذه القصة المحبوبة المأساوية والطريفة في آن معاً كانت طريقةً جيدةً لنا لنتدربَ على الإنشاد المترافق مع تعليمنا للكتابة النسائية الخاصة.

كانت إحدى أخوات زوجة عمي بالقَسَم قد أعطتْها القصة مطرزةً على منديل. فسحبتْ زوجة عمي قطعة القماش بعناية وفتحتها. فذهبتُ والقمر الجميل للجلوس بجانبها لكي نتمكنَ من تتبعِ الأحرف المطرَّزة أثناء إنشادها.

بدأت زوجة عمي الإنشاد قائلة: "كان لامرأة مرةً ثلاثة إخوة. وكلُّهم كانت

لهم زوجات. ولكنَّها لم تكن متزوجة. ورغم أنها كانت شريفة ومجتهدة لم يقدمْ لها إخوتُها مهراً. كم كانت تعيسة؟ ماذا كان يمكنُها أن تفعل؟"

فأجابَ صوتُ أمي: "إنها تعيسةٌ جداً، لتذهبُ إلى الحديقة، وتشنقُ نفسها من إحدى الأشجار".

فانضممتُ والقمر الجميل وأختي الكبرى إلى الأخوات بالقَسَم لنؤدي دور الكوْرَس قائلات: "فيمشي الأخُ الأكبرُ في الحديقة ويتظاهرُ بأنه لا يراها. ويمشي الأخ الأوسط في الحديقة ويتظاهرُ بأنه لا يرى أنها ميتة. أما الأخُ الثالث فيراها، وينفجرُ بالبكاء، ويحملُ جثمانها إلى الداخل".

نظرتْ إليَّ أمي عبر الغرفة، ورأت أنني كنتُ أحدِّقُ بها. فابتسمتْ مسرورةً ربما لأنني لم أنسَ كلماتي.

بدأتْ زوجة عمي دورة القصة من جديد قائلة: "كان لامرأة مرَّةً ثلاثة إخوة. وعندما ماتت لم يردْ أحدٌ منهم أن يعتني بجثمانها. ورغم أنها كانت شريفة ومجتهدة فلم يخدمها إخوتها. كم كان ذلك قاسياً! ماذا كان سيحدث؟"

فغنت أمي قائلة: "أُهملت في الموت كما أُهملتْ في الحياة، حتى بدأتْ رائحةُ جثتها تفوح".

ومجدداً ألقتِ الفتياتُ اللازمة المعروفة قائلات: "لم يمنحِ الأخُ الأكبرُ أية قطعة قماش ليغطي جثتها، وأعطى الأخُ الأوسط قطعتين من القماش، ولفَّ الأخُ الثالث جثمانها بأكبر قدر يستطيعه من القماش حتى تكونَ دافئة في العالم الآخر".

تابعت زوجة عمي قائلة: "كان لامرأةٍ مرة ثلاثة إخوة. وبعد أن ارتدتْ

ملابسها لحياتها المستقبلية كروح، لم يُنفقْ إخوتُها مالاً لشراء تابوت لها. ورغم أنها كانت شريفة ومجتهدة كان إخوتُها بخلاء. كم كان هذا قاسياً! هل ستجدُ الراحة قط؟"

فأنشدتْ أمي قائلة: "ستخططُ لأيامها كروحٍ وحيدة".

استخدمتْ زوجةُ عمي إصبعها لتنقلنا من حرف مكتوب إلى آخر، وحاولنا أن نتابعَها رغم أننا لم نكن طليقتين كفاية لنميِّزَ كُلاً من الأحرف.

قالت زوجة عمي: "قال الأخُ الأكبر: ليس علينا أن نشتري لها تابوتاً. إنها بخير هكذا. وقال الأخ الأوسط: يمكننا أن نستخدمَ ذلك الصندوق القديم في السقيفة. وقال الأخ الثالث: هذا هو كلُّ المال الذي أملكه، سأذهبُ وأشتري لها تابوتاً".

عندما وصلنا إلى النهاية، تغيرَ إيقاعُ القصة. فغنتْ زوجة عمي قائلة: "كان لامرأة مرة ثلاثة إخوة. وهذا ما حدثَ معهم حتى الآن. ولكن ماذا حدثَ للأخت بعد ذلك؟ لقد كان الأخُ الأكبر وضيعَ الروح، وكان الأخُ الأوسط باردَ القلب، ولكنَّ الأخَ الثالث كان مُحباً في الأعماق".

تركتني الأخواتُ بالقَسَم والقمرَ الجميل نكملُ القصة، فقلنا: "فقالَ الأخُ الأكبر: لندفنها هنا بجانب طريق جاموس الماء (أي: لكي تُداس إلى الأبد). وقالَ الأخُ الأوسط: لندفنها تحت الجسر (أي: لكي تنجرفَ بعيداً). ولكنَّ الأخَ الثالث، الذي كان طيب القلب ومخلصاً من كل النواحي، قال: لندفنها خلفَ المنزل لكي يتذكرَها الجميع. وفي النهاية، وجدتِ الأختُ التي عاشتْ حياة تعيسةً سعادةً عظيمةً في العالم الآخر".

أحببتُ تلك القصة. فقد كان من الممتعِ إنشادُها مع أمي والأخريات. ولكنني منذ وفاة جدتي وأختي فهمتُ المعاني المقصودة منها بشكل أفضل. فقد أرتني القصةُ كيف يمكنُ أن تتغيرَ قيمة الفتاة أو المرأة من شخص إلى آخر. وهي أيضاً تقدمُ توجيهاً عملياً للكيفية التي يعتني بها المرءُ بشخص محبوب بعد وفاته، وكيف يتمُ التعامل مع جثمان الميت، وممَ تتألفُ ملابس الأبدية الملائمة، وأين يجبُ أن يدفنَ الميت. وقد قامتْ عائلتي بما في وسعها لتتبعَ تلك القواعد. وكنتُ سأفعلُ ذلك أيضاً حالما أصبحُ زوجة وأماً.

في اليوم الذي تلا عيد "مصارعة الثيران"، عادت مدام "وانغ". وقد أصبحتُ أكرهُ زياراتِها لأنها كانت دائماً تعني المزيد من القلق للعائلة. وبالطبع، كان الجميعُ سعداء بتوقعِ زواج الأخت الكبرى الجيد. وبالطبع، كان الجميعُ مبتهجين لأن الأخ الأكبر كان سيتزوجُ أيضاً وأن بيتنا كان سيحظى بكَنَّته الأولى. ولكننا أيضاً شهدنا جنازتين في عائلتنا مؤخراً. وإذا وُضِعتِ العواطف جانباً، فهذه المناسباتُ الحزينة والسعيدة كان تعني نفقة جنازتين وزفافين قادمين. فاتخذَ الضغطُ عليَّ لأحظى بزواج جيد معنىً إضافياً. فقد كان يعني بقاءنا.

صعدت مدام "وانغ" إلى غرفة النساء، وتحققت من تطريز الأخت الكبرى، وأثنت على نوعيته السارة. وجلست على أحد الكراسي وظهرُها باتجاه شبك النافذة. ولم تنظرْ باتجاهي. ولوحّت أمي، التي بدأتْ لتوها تدركُ مكانتها الجديدة كأرفع النساء منزلة في العائلة، لزوجة عمي لتحضرَ الشاي. وإلى أن أُحضر، تكلمت مدام "وانغ" عن الطقس، وعن الخطط لمعرضٍ قادمٍ في المعبد،

وعن شحنِ البضائع التي وصلتْ عن طريق النهر من مدينة "غويلين". وحالما صُبَّ الشاي، ركَّزت تفكيرها على العمل.

بدأت بقولها: "عزيزتي الأم. لقد ناقشنا من قبل بعض الاحتمالات المتوقعة لابنتك. فيبدو زواجها من عائلة جيدة في قرية "تونغكو" مؤكداً". ثم انحنت إلى الأمام، وأفضتْ إلى أمي قائلة: "لقد سبقَ وكان لديَّ بعضُ العمل هناك. وفي غضون بضعة أعوام وحسب، سأزورك وزوجَك من أجل الخطبة". ثم عادت إلى وضعيتها المستقيمة وتنحنحت، ثم قالت: "ولكنني اليوم أتيتُ لأقترحَ ارتباطاً من نوع آخر. وكما يمكنك أن تتذكري من اليوم الأول الذي التقينا فيه، فقد رأيتُ في زهرة الزنبق الفرصة لتصبحَ رفيقةً لفتاة من نفس العمر". وانتظرتْ مدام "وانغ" هذا ليتمَّ استيعابُه جيداً قبل أن تتابعَ قائلةً: "تبعدُ قرية "تونغكو" خمساً وأربعين دقيقة سيراً على الأقدام. ومعظم العائلات هناك هي من سلالة "لو". وهناك رفيقةٌ محتملةٌ من أجل زهرة الزنبق في هذه السلالة. واسم الفتاة هو زهرة الثلج".

أظهرَ سؤالُ أمي الأول لي ولجميع الآخرين في الغرفة ليس فقط أنها لم تنسَ ما اقترحتْه مدام "وانغ" في زيارتها الأولى، ولكن أنها كانت تخططُ وتفكرُ بهذه الإمكانية منذ ذلك الوقت.

فسألتْ أمي وعذوبةُ صوتها تفعلُ القليل لتخفي إصرارها: "ماذا عن الصفات الثماني؟ فأنا لا أرى أي سبب لارتباط الرفقة ما لم تكن الصفاتُ الثماني متوافقة تماماً".

أجابت مدام "وانغ" بهدوء: "أيتها الأم، إنني لم أكنْ لآتي إليك اليوم ما لم

تكن الصفاتُ الثماني متوافقة. إن زهرة الزنبق وزهرة الثلج كلتيهما مولودتان في عام الحصان في نفس الشهر. وإذا كان ما قالتْه لي أمُ كلٍّ منهما صحيحاً فقد وُلدتا في نفس اليوم وفي نفس الساعة أيضاً. ولدى زهرة الثلج وزهرة الزنبق نفس العدد من الإخوة والأخوات. وكلٌّ واحدة منهما هي الطفلة الثالثة..."

"ولكن..."

رفعت مدام "وانغ" يدها لتمنع أمي من إكمال كلامها، وقالت: "سأجيبُ عن سؤالك قبل أن تطرحيه. والجوابُ هو: نعم، إنَّ الابنةَ الثالثة في عائلة "لو" هي مع أسلافها أيضاً. ولا تهمُ ظروف هذه المآسي لأن لا أحدَ يحبُ أن يُفكّر بفقدان أحد الأطفال حتى لو كانت ابنةً". ونظرتْ إلى أمي بعينين قاسيتين وهي تتحداها بشكل عملي لتتحدث. وعندما أبعدتْ أمي نظرَها، تابعت مدام "وانغ" قائلة: "تتمتعُ كل من زهرة الزنبق وزهرة الثلج بطول متطابق وجمال متماثل. والأهم من كلّ شيء فقد رُبطتْ أقدامهما بنفس الطريقة. وكان جدُّ زهرة الثلج الأكبر عالماً. وهكذا، فالوضع الاجتماعي والاقتصادي غير متطابق". ولم يكن على مدام "وانغ" أن تشرحَ أنه إن كان في تلك العائلة عالِمٌ إمبراطوري من مرتبة رفيعة بين أسلافها فلا بد أنها تتمتعُ بارتباطات جيدة وحال ميسورة. ثم قالت: "لا يبدو على والدة زهرة الثلج أنها تمانعُ هذه التناقضات لأن الفتاتين تشتركان بالكثير من الصفات الأخرى".

فأومأتْ أمي برأسها بهدوء وهي تستوعبُ كل هذا. ولكنني كنتُ أريدُ أن أطيرَ من كرسيي، وأجري إلى ضفة النهر، وأصرخَ من الإثارة. ألقيتُ نظرةً

خاطفة إلى زوجة عمي، وتوقعتُ أن أرى فمها المبتسمَ الذي يشبه الكهف. ولكنها عوضاً عن ذلك كانت قد أغلقتْه بإحكام محاولةً أن تخفي ابتهاجها. كان جسمُها صورةً للهدوء ولللياقة المهذبة باستثناء أصابعها التي كانت تحومُ بتوتر حول بعضها كقدر مليء بأسماك الأنقليس الصغيرة. فكانت أكثرَ من أية واحدة فينا تفهمُ أهمية هذا اللقاء. وقد اختلستُ النظر دون أن يلاحظني أحد إلى القمر الجميل والأخت الكبرى، وكانت عيونهما تلمعُ سعادةً من أجلي. فكنا سنتحدثُ بأمور كثيرةٍ في تلك الليلة بعد أن تأوي بقية العائلة للفراش.

لاحظتْ مدام "وانغ" قائلة: "رغم أنني عادةً ما أقومُ بهذا الإجراء خلال مهرجان منتصف الخريف عندما تبلغُ الفتيات الثامنة أو التاسعة، فقد شعرتُ في هذه المرحلة أن ارتباطاً فورياً سيكونُ مفيداً بشكل خاص لابنتك. فهي مثالية من نواحٍ عديدة، ولكنَّ تعليمها المنزلي يمكنُ أن يتطورَ. وهي بحاجة للكثيرِ من التهذيب لكي تكونَ ملائمةً لعائلةٍ من وضع اجتماعي رفيع".

فوافقت أمي بلا مبالاة قائلة: "إنَّ ابنتي ليستْ كما ينبغي عليها أن تكون. فهي عنيدةٌ وغير مطيعة. وأنا لستُ واثقةً أن هذه فكرة حسنة. فمن الأفضل لها أن تكونَ عضوة غير مثالية بين العديد من الأخوات بالقَسَم من أن تخيبَ أمل فتاة واحدة من وضع اجتماعي رفيع".

غاصَ كل فرحي الذي فرحتُه قبل لحظات في هوَّة سوداء. ورغم أنني كنتُ أعرفُ أمي جيداً، فلم أكنْ كبيرةً كفاية لأدرك أن كلماتِها المرَّة عني كانت جزءاً من المفاوضات مثلها مثل الأقوال المشابهة التي كانت ستقال كثيراً عندما كان والدي سيناقشُ زواجي مع الخاطبة. فقد تمكَّنَ جعلي أبدو عديمة القيمة من

حماية والديَّ من الشكوى التي قد تُعاني منها إما عائلة زوجي أو عائلة رفيقتي بخصوصي في المستقبل. وكان ذلك قد يساعدُ أيضاً على تخفيض أية تكاليف خفيَّة كان سيتوجبُ عليهم أن يدفعوها للخاطبة وتخفيض ما كان سيتوجبُ عليهم التزويدُ به من أجل مهري.

لم تنزعجِ الخاطبة، وقالت: "إنك ستشعرين على هذا النحو بشكل طبيعي. فأنا أيضاً لديَّ الكثيرُ من الأمور من هذا النوعِ لأقلقَ بشأنها. ولكن كفانا حديثاً عن اليوم". وتوقفتْ للحظة، وكأنها كانت تفكر رغم أنه كان واضحاً تماماً لنا جميعاً أنها قد خططتْ وتدربتْ منذ وقتٍ طويل على كلِّ كلمة قالتها، وكلِّ فعل فعلته. ثم مدّتْ يدها إلى كُمِّها وسحبتْ مروحة. ونادتني للحضور. وبينما كانت مدام "وانغ" تناولني إياها، تكلمتْ مع أمي من فوق رأسي قائلة: "إنك بحاجة للوقت لتفكري بمصير ابنتك".

فتحتُ المروحة، وحدَّقتُ بالكلمات التي كانت مكتوبة على طول إحدى الطيات وإكليل الأوراق الذي كان يزينُ طرفها العلوي.

فتحدثتْ أمي إلى الخاطبة بتجهم، وقالت: "أتعطين هذه لابنتي رغم أنني وإياك لم نناقشْ أتعابك؟"

لوّحتْ مدام وانغ بيدها مستبعدةً هذا الاقتراح وكأنه كان رائحة سيئة، وقالت: "إن الأمرَ سيكونُ نفسَه مع زواجها. فلن تكونَ هناك أتعابٌ مطلوبة من عائلتكم، عائلة "يي". وستدفعُ عائلةُ الفتاة الأخرى لي. وإذا رفعتُ من قيمة ابنتك الآن كرفيقة من نفس السن فسترتفعُ الأتعابُ التي سيدفعُها أهل العريس. وأنا راضيةٌ بهذا الإجراء".

نهضتْ، ومشت بضع خطوات باتجاه الدرج. ثم التفتت، ووضعتْ يدها على كتف زوجة عمي، وقالت لكل من في الغرفة: "وهناك أمرٌ آخر يجبُ أن تفكروا به جميعاً، وهو أن هذه المرأة قد قامت بعمل جيد مع ابنتها. ويمكنني أن أرى أن زهرة الزنبق والقمر الجميل مقربتان من بعضهما. فإذا اتفقنا على علاقة الرفقة هذه من أجل زهرة الزنبق، الأمرُ الذي سيساعدُ على تعزيز فرصتها بالزواج في قرية "تونغكو"، عندئذٍ أعتقدُ أنه سيكونُ أمراً جيداً أن أعثرَ على زوج جيد من أجل القمر الجميل هناك أيضاً".

فوجئنا جميعاً بهذه الإمكانية. فنسيتُ أمرَ اللياقة، والتفتُ إلى القمر الجميل التي كانت تبدو عليها الإثارة مثلي.

رفعتْ مدام وانغ يدها، وقوَّستها لتبدو بشكل الهلال، وقالت: "بالطبع قد تكونون قد أوكلتم المهمة إلى مدام "غاو". فلن أتدخلَ بعملها المحلي على أية حال". وكانت تعني بذلك أنها كانت أدنى منها منزلة.

إنْ لم يُظهر هذا أي شيء، فقد أظهرَ أن أمي لم تكن ستضاهي الخبرة في المساومة التي تتمتعُ بها مدام "وانغ" والتي خاطبت أمي الآن بشكل مباشر قائلة:

"إنني أعتبرُ هذا قرارَ المرأة، وهو أحدُ القراراتِ القليلة التي يمكنكِ أن تتخذيها من أجل ابنتك، وربما ابنة سِلْفك أيضاً. ورغم ذلك، فيجبُ أن يوافقَ الوالدُ قبل أن نستمرَ في الأمر لأبعدَ من ذلك. وسأتركِكِ أيتها الأم ذاكرةً لكِ نصيحة واحدة، وهي: استخدمي أساليبك الخاصة لتدافعي عن قضيتك".

فيما مشت أمي وزوجة عمي لمرافقة الخاطبة إلى مِحفَّتها، وقفتُ والأخت

الكبرى والقمر الجميل في وسط الغرفة، ونحن نعانقُ بعضنا، ونثرثرُ بإثارة. هل من الممكن أن تحدثَ كل هذه الأمور الرائعة لي؟ هل كانت القمر الجميل ستتزوجُ إلى قرية "تونغكو" أيضاً؟ هل سنكونُ معاً فعلاً لبقية حياتنا؟ أما الأختُ الكبرى، التي كان من الممكن لها أن تشعرَ بالمرارة بسبب حظها، فقد تمنتْ بإخلاص للجميع أن يتحققَ ما عرضتْه الخاطبة وهي تعرفُ أن عائلتنا بأكملها كانت ستستفيدُ من الأمر.

لقد كنا فتياتٍ صغيرات ومنفعلات، ولكننا كنا نعلمُ كيف نتصرف. فجلستُ والقمر الجميل لنريحَ أقدامنا.

أمالتِ الأخت الكبرى رأسَها نحو المروحة التي كنتُ ما أزالُ أحملُها، وقالت: "ماذا كُتبَ عليها؟"

"لا يمكنني أن أقرأَ كل شيء. ساعديني".

وفتحتُ المروحة. وحدَّقت الأخت الكبرى والقمر الجميل من فوق كتفي. وأمعنّا ثلاثتنا النظرَ في الأحرف. وكانت الأحرفُ التي استطعنا تمييزها هي: فتاة. وجيد. وامرأة. وبيت. وأنت. وأنا.

عاودت زوجة عمي الصعود إلى الطابق العلوي وهي تعرفُ أنها كانت الوحيدة التي تستطيعُ مساعدتي. فأشارتْ إلى كلِّ حرف بإصبعها. فحفظتُ الكلمات في موقِعها على المروحة: علمتُ بوجود فتاة ذات شخصية جيدة وتعليم نسائي في بيتكم. ونحن الاثنتان ولدنا في نفس السنة ونفس اليوم. ألا يمكننا أن نكون رفيقتين معاً؟

قبل أن أتمكنَ من الرد على هذه الفتاة التي تُدعى زهرة الثلج، كانت هناك

الكثيرُ من الأمور التي يجبُ أن تبحثَها عائلتي وتُفكّرَ بها. ورغم أنني والأخت الكبرى والقمر الجميل لم يكنْ لنا رأي في أي شيء قد يحدث، فقد قضينا ساعات في الغرفة في الطابق العلوي بينما كانت أمي وزوجة عمي تناقشان التبعات المحتملة لعلاقة الرفقة من نفس العمر. وقد كانت أمي ذكية، ولكنّ زوجة عمي كانت تنتمي لعائلة أفضل من عائلتنا وكان تعليمها أعمق. ورغم ذلك فلأن زوجة عمي كانت المرأة الأدنى مكانة في العائلة فقد كان عليها أن تكونَ حذرة في ما تقولُه وخاصة الآن بعد أن أصبحتْ أمي تتمتعُ بسيطرةٍ تامة على حياتها.

فكانت زوجة عمي تقول لتبدأ المحادثة: "إن علاقة الرفقة مهمة في حياة الفتاة كالزواج الجيد". وكانت تكررُ العديد من كلمات الخاطبة، ولكنها كانت دائماً تعودُ للعنصر الذي كانت تراهُ الأهم، وهو: "تتمُ إقامةُ علاقة الرفقة باختيار الفتاة، والهدفُ منها هو الصداقة العاطفية والإخلاص الأبدي. أما الزواج فيتمُ بدون اختيارها، والهدفُ منه هو إنجابُ الأبناء".

كانت أمي عند سماعها هذه الكلمات عن الأبناء تحاولُ أن تخففَ عن سِلْفتها بقولها: "لديك القمر الجميل. وهي فتاةٌ طيبةٌ وتجعلُ الجميع سعداء..."

"ستتركُني إلى الأبد عندما تتزوج. أما ابناك فسيعيشان معك لبقية حياتك".

كانتا كل يوم تصلان إلى هذه النقطة الحزينة في المحادثة. وكل يوم كانت أمي تحاولُ أن تغيِّرَ دفة الموضوع لمناقشة قضايا أكثر عملية.

"إذا أصبحتْ زهرة الزنبق رفيقة لفتاة من نفس العمر فلن تكونَ لها أخوات بالقَسَم. وكلُّ النساء في عائلتنا..."

كانت أمي تنوي أن تنهي الجملة بقولها: كانت لديهن أخوات بالقَسَم. ولكن زوجة عمي أنهتها بطريقة أخرى قائلة: "يمكنهن أن يتصرفن كأخواتها بالقسم في تلك المناسبات عندما تدعو الحاجة لذلك. وإذا شعرتِ أنكِ بحاجة لفتيات أكثر من أجل الجلوس والغناء في الطابق العلوي قبل زواج زهرة الزنبق يمكنك أن تقومي بدعوة بنات الجيران غير المتزوجات لمساعدتها في ذلك".

فقالت أمي: "لن تعرفَها تلك الفتيات جيداً".

"ولكن رفيقتها من نفس العمر ستعرفُها. وعندما سيحين الوقت الذي تتزوجُ فيه تلك الفتاتان ستعرفان بعضهما البعض أكثر مما أعرفُ وإياك زوجينا".

توقفت زوجة عمي كما كانت تفعلُ دائماً عندما تصلُ إلى تلك النقطة، وقالت: "لدى زهرة الزنبق فرصة لتتّبعَ طريقاً مختلفاً عن الطريق الذي اتخذتُه وإياك لنصلَ إلى هنا". ثم تابعت بعد أن توقفتْ للحظة قائلةً: "علاقة الرفقة هذه ستمنحُها قيمةً إضافية، وستظهرُ للناس في قرية "تونغكو" أنها جديرةٌ بزواج جيد في قريتهم. ولأن العلاقة بين الرفيقتين من نفس العمر تبقى إلى الأبد ولا تتغيّر عندما تتزوجان فستصبحُ الروابطُ مع الناس في قرية "تونغكو" أقوى وسيكونُ زوجك محمياً أكثر، كما سنكونُ جميعاً كذلك. وستساعدُ هذه الأمور وضعَ زهرة الزنبق في حجرة النساء في بيت زوجها المستقبلي. فلن تكونَ امرأةً يعيقها وجه قبيحٌ أو قدمان قبيحتان، بل ستكونُ امرأةً ذات زهور زنبق ذهبية مثالية سبقَ وأثبتت ولاءها وإخلاصها وقدرتها على الكتابة بلغتنا السرية بشكل جيد بما فيه الكفاية لتكونَ رفيقة من نفس العمر لفتاة من قريتهم".

هناك أشكالٌ مختلفةٌ لا حصرَ لها من هذه المحادثة. وكنتُ أصغي إليها كل يوم. وما لم أكنْ أسمعُه هو كيف كانت تُترجمُ لوالدي أثناء الوقت الخاص الذي كانت أمي تقضيه معه. وقد كانت تلك الصداقةُ ستكلِّفُ والدي أموالاً، مثل: التبادل المستمر للهدايا بين الرفيقتين وعائلتيهما، ومشاركة الطعام والماء أثناء زيارات زهرة الثلج لمنزلنا، وتكلفة سفري إلى قرية "تونغكو". وهو لم يكن يملكُ المال لكل هذا. ولكن كما قالت مدام "وانغ" فقد كان الأمرُ عائداً لأمي لتقنعَ والدي أن تلك كانت فكرةً حسنة. وقد ساعدت زوجة عمي أيضاً بأن همستْ في أذن عمي أن مستقبلَ القمر الجميل كان متعلقاً بي أيضاً. وكلُّ من يقولُ إن النساء لا يتمتعن بنفوذ على قرارات أزواجهن يرتكبُ خطأً فادحاً وغبياً.

في نهاية المطاف، انتقت عائلتي الخيار الذي أتمناه. وكانت المسألة التالية هي كيف أجيبُ تلك المدعوة زهرة الثلج. فساعدتني أمي بإضافة المزيد من التطريز لزوج الأحذية الذي كنتُ أعملُ عليه لأرسلَه كهديتي الأولى، ولكنها لم تتمكنْ من مساعدتي في ردي الكتابي. وعادة ما كان الردُّ يُرسَلُ على مروحة جديدة تصبحُ جزءاً مما قد يعتبر تبادل هدايا الصداقة. ولكنني كنتُ أفكرُ بشيء مختلف يخرجُ بشكل كامل عن التقاليد. فعندما نظرتُ إلى إكليل زهرة الثلج المنسوج في أعلى المروحة، فكّرت بالمقولة القديمة: "أشجار النخيل داخل جدران الحديقة بجذورها العميقة تعيشُ ألفَ سنة". فكان هذا بالنسبة لي ما كنتُ أريدُ لعلاقتنا أن تكونه: عميقة ومتشابكة إلى الأبد. كنتُ أريدُ أن تكونَ هذه المروحة رمزاً لصداقتنا. وقد كنتُ في السابعة والنصف من عمري

فقط، ولكنني تصورتُ ما كانت ستصبحُ عليه هذه المروحة بكل رسائلها السرية.

حالما اقتنعتُ بما سيكونُ عليه ردي على مروحة زهرة الثلج، طلبتُ من زوجة عمي أن تساعدني على كتابة الرد الصحيح بلغة الـ "نو شو". وقد ناقشنا الاحتمالات لعدة أيام. وإذا كنتُ متطرفة بهديتي فقد كان ينبغي عليَّ أن أكونَ تقليدية قدر الإمكان برسالتي السرية. فكتبتْ زوجة عمي الكلمات التي اتفقنا عليها. وتدرَّبتُ عليها حتى أصبحَ خطُ يدي مقبولاً. وعندما أصبحتُ راضية عنه، طحنتُ الحبر في مطحنة الحبر، وخلطتُه بالماء حتى حصلتُ على لونٍ أسودَ داكنٍ. وأخذتُ الريشة بيدي ممسكةً إياها مستقيمةً بين الإبهام والسبابة والوسطى، وغمستُها بالحبر. وبدأتُ برسم زهرة ثلج صغيرة وسط إكليل الأوراق المرسوم في أعلى المروحة. واخترتُ لكتابة رسالتي الطية المجاورة لخط يد زهرة الثلج الجميل. وبدأتُ بمقدمة تقليدية، ثم تابعتُ بعباراتٍ مقبولة من أجل مناسبة كهذه:

إنني أكتبُ إليك. من فضلك أصغي إليَّ. فبالرغم من أنني فقيرةٌ وغير مناسبة، ورغم أنني غير جديرةٌ بمكانة عائلتك الرفيعة، فأنا أكتبُ إليك اليوم لأقولَ إن قدرنا أن نجتمعَ معاً. وقد أسعدتْ كلماتُك قلبي. إننا زوجٌ من البجع، وجسرٌ يعبرُ فوق النهر. وسيحسدُ الناس في كل مكان صداقتنا الحميمة. نعم، إن قلبي مخلصٌ لصداقتك.

وطبعاً، إنني لم أكنْ أعني كل تلك المشاعر. فكيف يمكننا أن ندركَ المحبة العميقة والصداقة والارتباط الأبدي في حين أننا كنا في السابعة فقط؟ ونحن لم

نلتقِ قطّ. وحتى ولو كنا قد التقينا، فنحن لم نكن نفهمُ تلك المشاعر أبداً. وقد كانت تلك مجردَ كلمات كتبتُها آملةً أن تصبحَ حقيقيةً يوماً ما.

وضعتُ المروحة وزوج الأحذية الذي صنعتُه على قطعة من القماش. وبعد أن أصبحتْ يداي فارغتين، بدأ ذهني يقلقُ بشأن أشياء كثيرة. هل كنتُ وضيعةً جداً بالنسبة لعائلة زهرة الثلج؟ هل سينظرون إلى خط يدي ويدركون كم هي منزلتي متدنية؟ هل سيعتبرون أن خروجي عن التقاليد يُبدي أخلاقاً سيئة؟ هل سيوقفون صداقتنا؟ وكانت تلك الأفكارُ المزعجة، التي تُسميها أمي "أرواح الثعلب" في ذهني، تطاردُني. ومع ذلك، كان ما يزالُ عليَّ أن أنتظرَ وأستمرَ بالعمل في حجرة النساء وأريحَ قدميَّ لكي تُشفى عظامي بشكل ملائم.

عندما رأت مدام "وانغ" أول مرة ما فعلتُه بالمروحة زمَّت شفتيها استنكاراً. ثم أومأت برأسها بعد وقت طويل بتروٍ، وقالت: "إن هذا ارتباطُ صداقة مثالية فعلاً. فهاتان الفتاتان ليستا متماثلتين بصفاتهما الثماني فقط، ولكنهما متشابهتان أيضاً بروح "الحصان" التي تسكنُهما. وسيكونُ هذا مثيراً للاهتمام". ولفظتِ هاتين الكلمتين الأخيرتين بلهجة سؤال تقريباً، مما جعلني أيضاً أتساءلُ بشأن زهرة الثلج، وتابعت قائلة: "إن الخطوةَ التاليةَ هي إتمام الإجراءات الرسمية. وأقترحُ أن أرافقَ الفتاتين إلى معبد "غوبو" في مدينة "شيشيا" لتكتبا عقد صداقتهما. وسأعتني بالمواصلات للفتاتين، أيتها الأم. وسيكونُ بعض المشي مطلوباً".

بهذا، أخذتْ مدام "وانغ" الزوايا الأربع لقطعة القماش، وطوتْها فوق المروحة والحذاء. وأخذتْها معها لتعطيَها لرفيقتي المستقبلية.

زهرة الثلج

طوال الأيام القليلة التالية، كان من الصعب عليَّ أن أجلسَ ساكنة لأجعلَ قدميّ تشفيان كما كان يفترضُ بي في حين أن كلَّ ما كان يمكنني التفكيرُ به هو أنني كنتُ سأقابلُ زهرة الثلج عما قريب. حتى أنّ أمي وزوجة عمي كانتا مشغولتين بالتوقعات والاقتراحات بشأن ما كان ينبغي عليَّ وعلى زهرة الثلج أن نكتبه في عقد صداقتنا حتى رغم أنني وزهرة الثلج لم نكنْ قد رأينا عقداً كهذا قَطُّ. عندما وصلتْ مِحفَّة مدام "وانغ" عند عتبة بيتنا، كنتُ نظيفة ومرتدية ملابس ريفية بسيطة. فحملتني أمي إلى الطابق السفلي، وخرجت بي. وبعد عشر سنوات لاحقاً عند زواجي، كنتُ سأقومُ برحلة مماثلة إلى المِحفَّة. وقد كنتُ في تلك المناسبة خائفةً من الحياة الجديدة التي كانت أمامي، وحزينةً لأنني كنتُ سأتركُ ورائي كلَّ ما كنتُ أعرفُه. ولكنني من أجل ذلك اللقاء، كنتُ أشعرُ بالدوار بسبب الإثارة المنفعلة. هل كانت زهرة الثلج ستحبني؟

فتحت مدام "وانغ" باب المِحفَّة. ووضعتني أمي فيها، وخطوتُ نحو الفراغ الصغير. وكانت زهرة الثلج أجمل مما تخيلتُها. فكانت عيناها لوزيتين بشكل مثالي. وكان جلدُها شاحباً مما يدلُ على أنها لم تقضِ الكثيرَ من الوقت خارج المنزل كما فعلتُ خلال سنوات طفولتي. وكانت هناك ستارةٌ حمراء معلقة بجانبها. فكان ضوءٌ وردي يتألقُ على شعرها الأسود. وكانت ترتدي معطفاً سماوي اللون مطرزاً بشكل يشبهُ الغيمة. نظرتُ بشكلٍ خاطف تحت سروالها فكانت ترتدي الحذاء الذي صنعتُه لها. ولم تتكلمْ. فربما كانت متوترة مثلي. وابتسمتْ. فابتسمتُ لها.

كان للمِحفَّة مقعد واحد. لذا، كان علينا أن ننحشرَ معاً. ولنحافظَ على توازن المحفة، كان على مدام "وانغ" أن تجلسَ في الوسط. ورفعنا الحمالون. وسرعان ما كانوا يترنحون فوق الجسر الذي يؤدي إلى خارج قرية "بوواي". ولم أكن قد ركبتُ مِحفَّةً من قبل. وقد كان يحملُنا أربعة حمالين حاولوا أن يسيروا في طريقة تخفِّفُ من التأرجح. ولكنني بوجود الستائر المعلقة، وحرارة اليوم، وقلقي، والحركة الإيقاعية الغريبة بدأتُ أشعرُ بغثيان في معدتي. ولم أكنْ من قبل قد غادرتُ المنزل أبداً أيضاً. لذا، فحتى لو كان بإمكاني النظرُ من النافذة لما عرفتُ كم ابتعدتُ عن البيت وكم بقيَ من المسافة التي كنا سنقطعُها. وكنتُ قد سمعتُ عن معرض معبد "غويو". ومن لم يسمعْ عنه؟ فقد كانت النساء يذهبن إلى هناك كل سنة في اليوم العاشر من الشهر الخامس ليصلين من أجل أن ينجبن الأبناء. ويقالُ إن آلاف الناس يذهبون إلى هذا المعرض. فكانت الفكرةُ تتخطى إدراكي. وعندئذٍ، بدأتُ أسمعُ ضجة أخرى قادمة من خلال الستائر، مثل رنين الأجراس على عربات تجرُّها الجياد وصوت الحمالين يصرخون للناس: "ابتعدوا عن الطريق". وصيحات البائعين المتجولين وهم يغرون الزبائن بشراء البخور، والشموع، والقرابين الأخرى التي يُمكن وضعُها في المعبد. فعرفتُ أننا قد وصلنا إلى وجهتنا.

توقفتِ المِحفَّة. ووضعَنا الحمالون أرضاً بخبطة قوية. فانحنتْ مدام "وانغ" فوقي، ودفعتِ الباب، وفتحته. وقالت لنا أن نبقى مسمَّرتين في مكاننا، وخرجتَ. فأغمضتُ عينيّ وأنا ممتنةٌ لأننا توقفنا عن الحركة، وركَّزتُ على تهدئة معدتي. عندها، تحدّثَ صوتٌ بما كنتُ أفكرُ به قائلاً: "إنني سعيدةٌ جداً

لأننا توقفنا مجدداً. فقد شعرتُ وكأنني سأصابُ بالغثيان. ماذا كنتِ ستظنين بي عندئذٍ؟"

ففتحتُ عينيّ، ونظرتُ إلى زهرة الثلج. وكان جلدُها الشاحبُ قد تحوَّلَ إلى اللون الأخضر وكان يمكنني أن أتصور أن جلدي تحوّل هو الآخر إلى اللون ذاته. ولكنّ عينيها كانتا ممتلئتين بتساؤل صريح. فرفعتْ كتفيها إلى ما تحت أذنيها بتآمر، وابتسمتْ بطريقة كنتُ سأعلمُ عما قريب أنها كانت تعني أن أياً يكنْ ما في ذهنها فقد كان سيورّطنا في المتاعب. ثم ربتتْ على الوسادة بجانبها، وقالت: "لنرَ ماذا يحدثُ في الخارج".

وقد كان سببُ التوافقُ بين صفاتنا الثماني هو أننا كنا قد ولدنا في عام الحصان، وهذا يعني أننا كنا نتوقُ للمغامرة. نظرتْ إليَّ مجدداً وهي تُقيِّمُ أعماقَ شجاعتي التي يجبُ عليَّ أن أعترفَ أنها كانت ضحلة تماماً. فأخذتُ نفساً عميقاً، وانطلقتُ إلى الجانب الذي كانت تجلسُ فيه من المِحفَّة. ففتحتِ الستارة. وعندئذٍ، تمكنتُ من أن أربط بين الوجوه والأصواتِ التي سمعتُها. وأكثرَ من ذلك، فقد امتلأت عيناي بصور مدهشة. وكان أناسٌ من قبيلة "الياو" قد نصبوا معارضَ مؤلفة من طاولات مزينة بقطع منتفخة من القماش، وكلها ملونة أكثر من أي شيء صنعتْه أمي أو زوجة عمي على الإطلاق. ومرتْ بنا جماعةٌ من الموسيقيين يرتدون أزياء مزخرفة وهم في طريقهم لأداء في الأوبرا، ومشى رجل على طول الطريق مع خنزير مربوط برسن. ولم يكن قد خطرَ ببالي قط أن أحدَهم قد يحضرُ خنزيره إلى المعرض ليبيعه. وكل بضع ثوان، كانت مِحفَّة أخرى تغيرُ اتجاهها حولنا. فاعتقدنا أن كلَّ واحدة منها

كانت تحملُ امرأة أتت لتقدمَ قرباناً لـ "غوبو". وكانت العديدُ من النساء يسرن في الشارع، وهن أخواتٌ بالقسم تزوجن إلى قرى جديدة، وأعيدَ لمّ شملهن في هذا اليوم المميز، وكن يرتدين أفضل أثوابهن، ويضعن أغطية للرأس مطرزة بشكل مبالغ به. فكن يتمايلن معاً في الشارع على أقدامهن الصغيرة كزهور الزنبق. فكان هناك الكثيرُ من المشاهد الجميلة ليتمتع المرءُ بها، وكلها كانت تعزِّزُها رائحةٌ جميلة مدهشة دخلتْ إلى المِحفَّة. فأغرتْ أنفي، وهدَّأتْ معدتي.

سألتْ زهرة الثلج قائلة: "هل أتيتِ إلى هنا من قبل؟" عندما هززتُ رأسي بأنني لم أفعل ذلك، استمرتْ بالثرثرة قائلة: "لقد أتيتُ إلى هنا مع أمي عدة مرات. وقد كنا نستمتعُ دائماً. فكنا نزورُ المعبد. هل تعتقدين أننا سنفعلُ هذا اليوم؟ كلا، على الأرجح. فقد يعني ذلك الكثيرَ من المشي. ولكنني آملُ أن نذهبَ إلى كشكِ القلقاس. فقد كانت أمي دائماً تأخذُني إلى هناك. هل تشمين رائحته؟ إن الرجل العجوز "زو" الذي يملكُ الكشك يصنعُ أفضلَ وليمة في المقاطعة. وهذا ما يفعلُه: إنه يقلي مكعبات من القلقاس حتى تنضج من الداخل، ولكنها تبقى قاسية وهشة من الخارج. ثم يذيبُ السكر في وعاء كبير فوق نار قوية. هل تناولتِ السكرَ من قبل، يا زهرة الزنبق؟ إنه أفضلُ شيء في العالم. فهو يذيبُه حتى يصبحَ بني اللون. ثم يلقي القلقاس المقلي داخل السكر، ويقلّبه بالسكر حتى يتغلف من كل الجهات. ثم يضعُه في طبق، ويقدمه على طاولتك بالإضافة إلى وعاء من الماء البارد. لا يمكنك أن تصدقي كم هو القلقاسُ حارٌ مع ذلك السكر المذاب. وسيحرقُ ثقباً في فمكِ إن حاولتِ أن تأكليه هكذا. لذا تتناولين قطعة بعود وتغمّسينها بالماء. ثم كراك كراك

كراك! وهذا هو الصوتُ الذي تصدرُه حالما يصبحُ السكر قاسياً. وعندما تقضمينها، تحصلين على صوت الطحن من طبقة السكر والقرمشة ومن القلقاس المقلي، وبعد ذلك أخيراً القلب الطري. يجبُ على الخالة أن تأخذنا. ألا توافقينني الرأي؟"

"الخالة؟"

"إنك تتكلمين! لقد اعتقدتُ ربما أن كلَّ ما يمكنك فعلُه هو كتابةُ الكلماتِ الجميلة فقط".

أجبتُها بهدوء، وقد جُرحتْ مشاعري: "إنني ربما لا أتكلمُ بقدر ما تتكلمين أنت".. وقد كانت هي حفيدة عالم إمبراطوري وأكثرَ ذكاءً بكثير من ابنة مزارع عادي.

أمسكتْ بيدي. وكانت يدُها جافة ودافئة. فكانت طاقتُها تتوهج، وقالت: "لا تقلقي. فأنا لا أبالي إن كنتِ هادئة. فكلامي دائماً يورطني في المتاعب لأنني غالباً لا أفكرُ قبل أن أتكلم. أما أنتِ فستكونين زوجة مثالية تختارين كلماتك بعناية كبيرة دائماً".

أرأيتم؟ لقد فهمنا بعضنا البعض منذ اليوم الأول. ولكن هل منعنا ذلك من ارتكاب الأخطاء في المستقبل؟

فتحتْ مدام "وانغ" باب المِحفَّة، وقالت: "تعاليا أيتها الفتاتان. فقد تمّ الترتيبُ لكل شيء. وستصلان إلى وجهتكما بعد عشر خطوات. وأكثر من ذلك، أكونُ قد حنثتُ بوعدي لوالدتيكما".

وقفنا في مكان ليس ببعيد عن معرضٍ للبضائع الورقية مزين بأعلام حمراء،

ورموز الحظ السعيد، ورموز السعادة الحمراء والذهبية، وأصنام مطلية تمثلُ "غوبو". وكانت على طاولة أمامنا أكوامٌ من أشياء ملونة للبيع. وكان هناك ممران على كلا جانبي الطاولة يسمحان للزبائن بالدخول إلى المعرض الذي كان محمياً من ضجيج الشارع بثلاث طاولات طويلة على كل جانب. وفي وسط المعرض، كانت قد وُضعت طاولةٌ صغيرةٌ عليها حبر، وفراشي، وكرسيان بمسندين مستقيمين. فطلبت منا مدام "وانغ" أن نختار قطعة من الورق من أجل كتابة عقد صداقتنا. وكنتُ كأية طفلة قد اتخذتُ بعضَ القرارات الصغيرة مثل أية قطعة من الخضار آخذُها بعد أن يكونَ والدي، وعمي، وأخي الأكبر، وجميع الأفراد الأكبر سناً في عائلتنا قد سبقَ وأدخلوا عيدانهم في الطبق. أما الآن فقد كنتُ مرتبكة بهذا الاختيار. فكانت يداي تريدان أن تلمسَا كل البضاعة. أما زهرة الثلج، وعمرها سبع سنوات ونصف، فقد كانت تحسنُ التمييز مظهرةً تفوُّقَ تعليمها.

قالت مدام "وانغ": "تذكرا، أيتها الفتاتان، أنني سأدفعُ ثمنَ كل شيء اليوم. وهذا قرار واحد تتخذانه. ولديكما قراراتٌ أخرى لتتخذاها. لذا، لا تبدّدا الوقت".

فأجابت زهرة الثلج عن كلتينا قائلة: "بالطبع، يا خالة". ثم سألتني، "أيها تحبين؟"

فأشرتُ إلى قطعة كبيرة من الورق بدتْ لي من حجمها أنها الأكثرُ ملاءمةً لأهمية المناسبة.

مررتْ زهرة الثلج إصبعها على الحافة الذهبية، وقالت : "إن نوعيةَ الذهب رخيصة". ثم رفعت الورقة عالياً نحو السماء، وقالت: "والورقُ رقيقٌ وشفافٌ

كجناح الحشرة. أترين كيف تشعُ الشمسُ من خلاله؟" ووضعتها على الطاولة، وحدَّقت في عيني بطريقتها الجادة، وقالت: "إننا بحاجة لشيء يظهرُ طوال الوقت الطبيعةَ الثمينة لصداقتنا وبقاءَها".

لقد كنتُ بالكاد أستطيعُ أن أفهمَ كلماتِها. فقد كانت تتكلمُ بلهجة مختلفة بعض الشيء عما اعتدتُ عليه في قرية "بوواي". ولكنَّ ذلك لم يكن السبب الوحيد لعدم فهمي. فقد كنتُ خشنة وغبية. وكانت هي مهذبة، وقد امتدَّ تعليمها المنزلي أصلاً إلى أبعدَ مما تعرفُه أمي أو حتى زوجة عمي.

سحبتني إلى داخل المعرض، وهمستْ قائلة: "إنهم دائماً يحتفظون بالأشياء الأفضل في الخلف هنا". ثم قالت بصوتِها العادي: "أيتها الرفيقة، كيف تجدين هذه الورقة؟"

كانت تلك هي المرة الأولى التي يطلبُ فيها أحدُهم مني قَطُّ أن أنظرَ فعلاً إلى شيء. ففعلتُ ذلك. وحتى بعينيّ غير المثقفتين، استطعتُ أن أرى الفرقَ بين الورقة التي اخترتُها في جانب المشجب القريب من الشارع وهذه. فقد كانت أصغرَ حجماً وأقلَ بهرجةً في زينتها.

قالت زهرة الثلج: "تفحصيها".

"فتناولتُها، وتحسستُ مادتَها بيدي. ثم رفعتُها عالياً نحو ضوء الشمس كما فعلتْ زهرة الثلج تماماً. وكان الورقُ سميكاً بحيث إن الشمسَ اخترقتْه بضوء أحمرَ باهت فقط.

بعد أن اتفقنا بدون كلام، ناولنا الورقة للتاجر. ودفعتْ مدام "وانغ" ثمنها، كما دفعت من أجل كتابتنا لعقد صداقتنا على الطاولة المركزية في المعرض.

فجلستُ وزهرة الثلج مقابل بعضنا البعض.

سألت زهرة الثلج: "كم تعتقدين هو عددُ الفتيات اللواتي جلسن على هذه الكراسي لكي يكتبن عقود صداقتهن؟ يجبُ علينا أن نكتبَ أفضلَ عقد صداقة على الإطلاق". ثم عبستْ قليلاً وقالت: "ماذا تعتقدين أنه يجبُ أن يُكتبَ فيه؟"

فكّرتُ بالأشياء التي اقترحتْها أمي وزوجة عمي، وقلتُ: "إننا فتاتان. لذا، ينبغي علينا دائماً أن نتبعَ القواعد..".

فقالت زهرة الثلج بقليل من نفاد الصبر: "نعم، نعم، كلُّ الأشياء المعتادة. ولكن ألا تريدين لهذا أن يكونَ متعلقاً بنا نحن الاثنتان؟"

كنتُ غير واثقة من نفسي، بينما كان يبدو عليها أنها تعرفُ الكثير. وقد جاءت إلى هنا من قبل ولم أذهبْ إلى أي مكان قطّ. وكان يبدو عليها أنها تعرفُ ما يجبُ أن يُضمنَ في عقد صداقتنا بينما كان باستطاعتي فقط أن أعتمدَ على ما تخيلتْ أمي وزوجة عمي أنه ينبغي أن يكون. فأتى كل اقتراحٍ قدمته بصيغة سؤال.

"إننا رفيقتان من نفس العمر مدى الحياة؟ وسنكونُ مخلصتين لبعضنا البعض؟ وسنقومُ بالأعمال المنزلية في الحجرة في الطابق العلوي؟"

حدّقتْ بي زهرة الثلج بنفس الطريقة الصريحة التي فعلتْها في المحفّة. ولم أستطعْ أن أعرفَ بماذا كانت تُفكّر. هل قلتُ شيئاً خاطئاً؟ هل تحدثتُ بطريقة خاطئة؟

بعد لحظة، تناولتِ الريشة وغمّستْها في الحبر. إلى جانب رؤيتها لكل عيوبي اليوم، فقد علمتْ من مروحتنا أن خط يدي لم يكن جيداً كخطها.

ولكنها حالما بدأتْ بالكتابة، رأيتُ أنها قد أخذت باقتراحاتي. فالتفَّتْ مشاعري وعباراتُها الجميلة معاً، وأخذتْنا نحن الفتاتان، محدثة فكرة مشتركة واحدة.

لقد كنا نؤمنُ أن تلك المشاعر على قطعة الورق كانت ستستمرُ إلى الأبد. ولكننا لم نستطعْ أن نتوقع بالاضطراب الذي كان ينتظرنا. ومازلتُ أتذكرُ الكثيرَ من الكلمات. وكيف لا أتذكرُها؟ فقد أصبحتْ تلك الكلماتُ في قلبي.

نحن، الآنسة زهرة الثلج من قرية "تونغكو" والآنسة زهرة الزنبق من قرية "بوواي" سنكونُ مخلصتين لبعضنا البعض. وسنواسي بعضنا البعض بالكلمات اللطيفة. وسنخففُ عن قلبي بعضنا البعض. وسنهمسُ ونطرزُ معاً في حجرة النساء. وسنتبعُ "الطاعات الثلاث" و"الفضائل الأربع". وسنتبعُ تعليمات كونفوشيوس الموجودة في كتاب "تقاليد النساء" عن طريق التصرف كامرأتين صالحتين. وفي هذا اليوم، نحن الآنسة زهرة الثلج والآنسة زهرة الزنبق قد تكلمنا بكلمات صادقة. وأقسمنا على رابطة الصداقة. ولألف عام، سنكونُ كجدولين يتدفقان إلى نهر واحد، وكزهرتين في نفس الحديقة. ولن نخطو خطوة واحدة بعيداً أبداً. ولن نقول كلمةً قاسية واحدة فيما بيننا أبداً. وسنكونُ رفيقتين من نفس العمر حتى نموت. وقلبانا سعيدان.

راقبتنا مدام "وانغ" برزانة ونحن نوقع اسمينا بلغة الـ "نو شو" في أسفل الورقة. وأعلنت قائلة: "إنني مسرورة بهذا الارتباط. فرباطُ الصداقة يوحِّدُ اللطيفة مع اللطيفة، والجميلة مع الجميلة، والذكية مع الذكية كما يفعلُ الزواج بين الرجل والمرأة. وتبقى هذه العلاقة حصرية. ففيها يجتمعُ قلبان، ولا يمكنُ التفريق بينهما ببعد المسافة أو بالخلاف أو بالوحدة أو بوضع أفضل في

الزواج أو بالسماح لفتيات أو نساء أخريات أن يفرقن بينكما".

سرنا خطواتنا العشر عائدات إلى المِحفَّة. وقد كان السيرُ لأشهر عديدة بمثابة معاناة، ولكنني عندئذٍ كنتُ أشعرُ بشعور "ياو نيانغ"، وهي السيدة الأولى ذات القدمين الصغيرتين. فعندما رقصت تلك المرأة الأسطورية فوق إحدى زهرات اللوتس الذهبية أوحتْ بأنها كانت تطفو على غيمة. فشعرتُ بكل خطوة أخطوها أنني كنتُ أسيرُ على وسادة من السعادة العظيمة.

حملنا الحمالون إلى وسط المعرض. وفي هذه المرة عندما خطونا خارجاً، كنا في وسط السوق. ورفعتُ نفسي قليلاً، فاستطعتُ أن أرى الجدران الحمراء، والمنحوتات المزينة المطلية بالذهب، وسطح المعبد المصنوع من القرميد الأخضر. فأعطت مدام "وانغ" لكلٍ منا قطعة من النقود، وقالت لنا أن نشتري هدايا للاحتفال باليوم. وإذا لم تكن قد سنحتْ لي الفرصةُ قَطُّ لأقوم بالاختيار من أجل نفسي، فلم أكنْ بالتأكيد قد تحملتُ مسؤولية إنفاق النقود. فأمسكتُ بإحدى يدي القطعة النقدية، وأمسكتُ يد زهرة الثلج بيدي الأخرى. وحاولتُ أن أفكرَ بما قد تريدُه تلك الفتاة بجانبي. ولكن بوجود الكثير من الأشياء الرائعة من حولي عجزَ ذهني عن الاختيار لكثرة الاحتمالات.

لحسن الحظ فقد تولت زهرة الثلج المسؤولية مجدداً، فصاحت: "أعلمُ ما هو الشيء المناسب!" ومشت خطوتين سريعتين وكأنها تريدُ أن تجري ثم أصيبت بالعرج وتوقفت، وقالت: "مازلتُ أحياناً أنسى أمرَ قدميّ". وكان وجهها منقبضاً بسبب الألم.

لا بدَّ أن قدميّ كانتا تشفيان أسرعَ بعض الشيء من قدميها. فشعرتُ بشيء

من خيبة الأمل أننا لم نكن سنتمكنُ من الاستكشاف بقدر ما كنا نودُ أن نفعل.

قلت: "سنمشي ببطء، فليس علينا أن نرى كلَّ شيء هذه المرة..".

فأكملت زهرة الثلج نيابة عني قائلة: "لأننا سنأتي إلى هنا كل عام لبقية حياتنا". ثم ضغطت على يدي.

ولا بد أننا كنا مشهداً يثيرُ الدهشة. فقد كنا رفيقتين من نفس العمر في نزهتهما الأولى تحاولان المشي على أقدام تتذكرانها، وبهجتهما فقط تحميهما من السقوط، وهناك امرأةٌ كبيرة في السن ترتدي ثوباً مبهرجاً تصرخُ عليهما قائلة: "توقفا عن هذا السلوك السيئ أو أننا سنذهبُ إلى البيت الآن!" ولحسن الحظ، لم يكن علينا أن نسيرَ مسافة طويلة. فسحبتني زهرة الثلج إلى كشك يبيعُ مستلزمات التطريز.

فقالت زهرة الثلج وعيناها تتفحصان مجموعة ألوان قوس قزح من الخيوط: "إننا فتاتان في "أيام الابنة". وإلى أن نتزوج، سنبقى في حجرة النساء نتحدثُ، ونطرزُ، ونهمسُ معاً. فإذا اشترينا بعناية الآن فسنحظى بذكريات يمكننا أن نعيشها معاً لسنوات عديدة".

كان لنا رأيٌ واحد عند كشك مستلزمات التطريز. فاستحسنا الألوان ذاتها. ولكننا اخترنا أيضاً بعض الخيوط التي اتفقنا عليها، ولكنها لم تكن تعبرُ عما في قلبينا. ورغم ذلك فكانت ستفيدُنا لصنع تفصيل ورقة شجر أو ظل زهرة. فدفعنا المال، وعدنا إلى المحفّة ونحن نحمل مشترياتنا. وحالما عدنا إلى داخلها، توسلتْ زهرة الثلج لمدام "وانغ" من أجل دعوة أخرى قائلة: "من فضلك، يا خالة خذينا إلى بائع القلقاس. من فضلك، يا خالة. من فضلك!"

واعتقدتُ أن زهرة الثلج كانت تستخدمُ هذا الأسلوب التبجيلي لتلطف سلوك مدام "وانغ" المتجهم. فتشجعتُ مجدداً بسبب جرأة رفيقتي وانضممتُ إليها قائلة: "من فضلك، يا خالة. من فضلك!" فلم تستطعْ مدام "وانغ" أن ترفضَ وهناك فتاة على كلا جانبيها تسحبُ كمها متوسلةً من أجل المزيد من الترف كما قد يفعلُ ابنٌ بكرٌ فقط.

أخيراً، استسلمتْ وهي تحذّرُنا أن هذا النوع من الأشياء لا يمكنُ أن يحدثَ مجدداً، وقالت: "إنني مجرد أرملة فقيرة. وإنفاقُ مالي بهذا الشكل سيضعفُ منزلتي في المقاطعة. هل تريدان أن تتسببا في فقري؟ هل تريدانني أن أموتَ وحيدة؟" وقالت كل هذا بأسلوبها الجاف المعتاد. ولكنّ كلَّ شيء في الواقع كان جاهزاً من أجلنا عندما وصلنا إلى الكشك. فكانت قد نُصبتْ هناك طاولة قصيرة وثلاثة براميل للجلوس عليها.

أخرجَ مالك الكشك، الرجل العجوز "زو"، دجاجة حية ورفعها عالياً، وقال: "إنني دائماً أختارُ الأفضل من أجلك، يا مدام "وانغ"". وبعد لحظات قليلة، أخرجَ قِدْراً خاصةٌ مسخّنة بالفحم. وكان الثريدُ، والزنجبيل، والكراث، والدجاجة المقطعة التي رأيناها لتونا قبل لحظات تبقبقُ داخل الوعاء. كانت هناك صلصةٌ للتغميس من الزنجبيل، والثوم، والكراث المقطع، والزيت الحار موضوعة أيضاً على الطاولة. وكان يكملُ وجبتَنا طبقٌ كبيرٌ من البازيلاء الخضراء المهروسة مع حصوص ثوم كاملة. فأكلنا بشهية، ونحن ننتقي قطع الدجاج اللذيذة بعيداننا، ونمضغُ بسعادة، ونلقي بالعظام على الأرض. وبقدر ما كان كلُّ ذلك الطعام رائعاً، فقد أبقيتُ مع ذلك مكاناً لطبق القلقاس الذي ذكرتْه زهرة الثلج

في السابق. وكان كلُّ شيء قالتْه عنه صحيحاً، كالطريقة التي يطقطقُ فيها السكر عندما يلامسُ الماء والقرمشة التي لا تقاوم والطراوة في فمي.

كما كنتُ أفعلُ في المنزل، تناولتُ إبريق الشاي، وصببتُ الشاي لثلاثتنا. وعندما عاودتُ وضعَ الإبريق، سمعتُ زهرة الثلج تسحبُ نفَسَها باستنكار. فلا بدَّ أنني قد فعلتُ شيئاً خاطئاً مجدداً، ولكنني لم أعرفْ ذلك. فوضعتْ يدها على يدي ووجهتْها إلى إبريق الشاي لكي نتمكنَ معاً من فتْله لكي لا يكونَ مِصبُّ الإبريق مصوباً نحو مدام "وانغ".

قالت زهرة الثلج بلطف: "من الوقاحة توجيه المصبِّ نحو أيٍ كان".

لقد كان ينبغي عليَّ أن أشعرَ بالخجل. ولكنني، عوضاً عن ذلك، شعرتُ بالإعجاب لحسن تربية رفيقتي.

كان الحمالون نائمين تحت أعمدة المِحفَّة عندما عدنا، ولكنّ تصفيقَ مدام "وانغ" وصوتَها المرتفع أيقظاهم. فسرعان ما أصبحنا في طريقنا إلى البيت. وفي رحلة العودة، تركتْنا مدام "وانغ" نجلسُ معاً رغم أن ذلك كان يخل بتوازنَ المحفّة ويجعلُ حملَها أصعبَ على الحمالين. دائماً ما أعود بذاكرتي، وأرى أننا كنا مجرد فتاتين صغيرتين جداً نضحكُ على أي شيء، ونصنفُ خيوط التطريز، ونمسكُ بيدي بعضنا البعض، ونسترقُ النظرَ خارجَ الستارة عندما تغفوُ مدام "وانغ"، ونراقبُ العالم وهو يمرُّ بالنافذة. كنا منهمكتين بالمشاهدة بحيث إن واحدةً منا لم تشعرْ بغثيان الحركة الذي كان يسببه الحمالون وهم يسيرون الهوينى بمشقة على الطريق الوعر.

كانت هذه هي رحلتنا الأولى إلى مدينة "شيشيا" ومعبد "غوبو". وقد أخذتْنا

مدام وانغ مرة أخرى في العام التالي. فقدمنا قرابيننا الأولى في المعبد. وكانت سترافقنا إلى هناك كل سنة تقريباً حتى تنتهي سنواتنا ونحن بنات. وعندما تزوجتُ وزهرة الثلج، كنا نلتقي في مدينة "شيشيا" كل عام عندما كانت الظروف مؤاتية. فكنا دائماً نقدّمُ القرابين في المعبد لكي ننجبَ الأبناء، ونزورُ تاجرَ الخيوط لكي نتمكنَ من إكمال مشاريعنا بألوان مشابهة. وكنا دائماً نعيشُ نفس تفاصيل زيارتنا الأولى فنقفُ دائماً لنتناول قلقاس الرجل العجوز "زو" المغطى بالكراميل في نهاية اليوم.

وصلنا إلى قرية "بوواي" عند الغسق. وفي ذلك اليوم، لم أكنْ قد حظيتُ بمجرد صديقة من خارجِ عائلتي التي وُلدتُ فيها. بل وقَّعتُ عقداً لأكونَ رفيقة من نفس العمر لفتاة أخرى. ولم أكن أريدُ لليوم أن ينتهي، ولكنني كنتُ أعلمُ أنه كان سينتهي حالما نصلُ إلى البيت. وتخيَّلتُ نفسي أنزلُ من المِحفَّة، ثم أراقبُ الحمالين وهم يحملون زهرة الثلج نزولاً في الزقاق. فكانت أصابعُها فقط تجرؤ على التسلل من تحت الستارة لتلوّحَ مودعة للمرة الأخيرة قبل أن تنعطفَ حول الزاوية وتختفي. ثم علمتُ أن سعادتي لم تكنْ قد انتهت بعد.

توقفنا، وخرجتُ من المِحفَّة. وطلبتْ مدام "وانغ" من زهرة الثلج أن تخرجَ أيضاً، وقالت: "وداعاً، أيتها الفتاتان. سأعودُ بعد بضعة أيام لأعيدَ زهرة الثلج". ثم انحنتْ خارجَ المِحفَّة وقرصتْ خدَ رفيقتي، وأضافت قائلة: "كوني طيبة. ولا تتذمري. وتعلَّمي بعينيك وأذنيك. واجعلي أمك فخورة بك".

كيف يمكنني أن أشرحَ كيفية شعوري ونحن الاثنتان فقط واقفتان خارجَ عتبة بيت عائلتي؟ لقد كنتُ أكثر من سعيدة، ولكنني كنتُ أعلمُ ما كان ينتظرنا في

الداخل. فبقدر ما كنتُ أحبُّ عائلتي وبيتنا، كنتُ أعلمُ أن زهرة الثلج كانت معتادة على شيء أفضل. ولم تكنْ قد أحضرتْ معها أي ثياب أو لوازم استحمام.

خرجتْ أمي لتحيينا. فقبّلتني، ثم وضعتْ ذراعها حول كتفي زهرة الثلج وقادتْها فوق عتبة المنزل إلى بيتنا. وبينما كنا بعيداً، كانت أمي، وزوجة عمي، وأختي الكبرى قد عملن بجد ليرتبن الغرفة الرئيسية. فكانت كل القمامة قد أزيلت، وأخذتْ الملابس المعلقة، وأبعدت كل الصحون. وكانت أرضيتنا المصنوعة من التراب المرصوص قد كُنست، ورُشّ الماءُ عليها لكي تَرتصَّ أكثر وتصبحَ أكثر برودة.

التقتْ زهرة الثلج الجميع؛ حتى الأخ الأكبر. وعندما قُدّم العشاء، غمّستْ زهرة الثلج عوديها أول الأمر في كوب الشاي لكي تنظفهما. ولكنها، باستثناء تلك الحركة الصغيرة التي أظهرتْ تهذيباً أكثرَ مما كان كل من في العائلة قد شاهده قَطُّ، بذلتْ ما في وسعها لتخفي مشاعرها. ولكنَّ قلبي كان أصلاً يعرفُ زهرة الثلج جيداً. فقد كانت تضعُ قناعاً مبتسماً على وضع سيئ. وبالنسبة لعينيَّ، كان من الواضح عليها أنها قد أصيبتْ بالرعب من الطريقة التي كنا نعيشُ فيها.

كان ذلك يوماً طويلاً، وكنا متعبتين. وعندما حان الوقت للصعود إلى الطابق العلوي، شعرتُ بقلبي يهبطُ مرة أخرى. ولكن النساء في عائلتنا كنّ مشغولاتٍ هناك أيضاً. فقد قمنّ بتهويةِ أغطية الأسرة وتنظيمِ كل الفوضى المترافقة مع أنشطتنا المعتادة في أكوام مرتبة. وأشارتْ أمي إلى وعاء من الماء العذب

لنغسل به أيدينا بالإضافة إلى طقمين من ملابسي وطقم واحد من ملابس الأخت الكبرى، وكلها كانت نظيفة من أجل زهرة الثلج لترتديها طالما هي ضيفتنا. وقد تركتُ زهرة الثلج تستعملُ وعاء الماء أولاً، ولكنها بالكاد مستْه بأصابعها. فقد كانت تشكُ كما أعتقد أن يكونَ الماء غير نظيف كفاية. وأمسكتْ بثياب النوم التي أعطيتُها لها بعيداً عن جسمها بإصبعين وهي تتفحصُها، وكأنها كانت سمكة متعفنة وليست أجددَ قطعة ملابس لدى الأخت الكبرى. ونظرتْ حولها. فرأتْ أن عيوننا كانت موجهة إليها. ثم، بدون أن تقولَ كلمة واحدة، خلعت ملابسها، وارتدتْ ملابس النوم. وصعدنا إلى السرير. وفي تلك الليلة، وكل الليالي التالية التي كانت زهرة الثلج تأتي للمكوث فيها عندنا كانت الأخت الكبرى تنام مع القمر الجميل.

تمنتْ أمي لكلتينا ليلة سعيدة. ثم انحنتْ وقبّلتني، وهمستْ في أذني قائلة: "لقد أخبرتْنا مدام "وانغ" بما نحتاجُ لمعرفته. كوني سعيدة، يا صغيرتي. كوني سعيدة".

هكذا، كنا هناك نحن الاثنتان جنباً إلى جنب ولحافٌ رقيق يغطينا. وقد كنا فتاتين صغيرتين، ولكننا بقدر ما كنا متعبتين، فلم نستطع أن نتوقف عن الهمس. فسألتْني زهرة الثلج عن عائلتي، وسألتُها عن عائلتها. وأخبرتُها كيف توفيتْ أختي الصغرى. وقالت لي إن أختَها الصغرى توفيت من مرض يسببُ السعال. وسألتني عن قريتنا وأخبرتُها أن "بوواي" كانت تعني "قرية الجمال العادي" بلهجتنا المحلية. وشرحتْ لي أن "تونغكو" كانت تعني "قرية الفم الخشبي" وأنني كنتُ سأرى سبب ذلك عندما أزورُها.

كان ضوء القمر يشعُ من خلال شبك النافذة مضيئاً وجه زهرة الثلج. وكانت الأختُ الكبرى والقمر الجميل قد استغرقتا في النوم، ولكنني استمررتُ وزهرة الثلج بالحديث. وكنا كنساء قد قِيل لنا ألا نناقشَ أمرَ ربط أقدامنا فذلك غيرُ ملائم ولا يليقُ بالسيدات، وأن حديثاً كذلك يثيرُ عاطفة الرجال فقط. ولكننا كنا فتاتين وما نزالُ أثناء عملية ربط أقدامنا. فلم تكنْ تلك الأمور ذكريات كما هي الآن بالنسبة لي، بل كانت ألماً ومعاناةً كنا نعيشها حينئذٍ. فتحدثتْ زهرة الثلج كيف أنها قد اختبأتْ من أمها، وتوسلتْ لأبيها ليرحمها. وكان والدُها قد استسلمَ تقريباً، مما كان سيجعلُ زهرة الثلج تعيشُ حياتها كعانس في بيت والديها أو كخادمة في بيت أحد آخر.

شرحتْ زهرة الثلج قائلة: "ولكن عندما بدأ والدي يدخنُ غليونه، نسيَ وعدَه لي. وبينما كان ذهنه شارداً، أخذتْني أمي وخالتي إلى الطابق العلوي وربطتاني إلى كرسي. ولهذا السبب أنا مثلك متأخرةٌ عاماً في ربط قدميّ". وكان هذا يعني أنها لم تتقبَّلْ قدرها حالما تمّ إقراره. كلا، بل كافحتْ ضدَّ كل شيء في شهورها الأولى حتى أنها مزقتْ أربطتها كلياً في إحدى المرات. وقالت: "لقد ربطتْ أمي قدميّ وربطتني إلى كرسي ربطاً أكثرَ إحكاماً في المرة التالية".

قلتُ لها: "لا يمكنكِ أن تقاومي قدرَك. فهو أمرٌ محتوم".

فأجابتْ زهرة الثلج: "إنَّ أمي أيضاً تقولُ هذا. وكانت تفكُ رباطي فقط لأمشي فتتكسَّرَ عظامي ولتسمحَ لي باستعمال وعاء التبول. وكنتُ طوال الوقت أنظرُ من شبك النافذة. فكنتُ أراقبُ الطيورَ وهي تطير، وأتبعُ الغيوم وهي تحومُ في

السماء، وأتفحصُ القمرَ عندما يكبرُ وعندما يتقلص. لقد كان الكثير يحدثُ خارج نافذتي بحيث إنني كنتُ أنسى تقريباً ما كان يحدثُ داخل تلك الغرفة".

كم أخافتني تلك المشاعر! فقد كانت زهرة الثلج تتمتعُ بتلك السمة المستقلة الحقيقة التي تميزُ الحصان. وقد كان لحصانها فقط أجنحةٌ تحملُه بعيداً فوق الأرض في حين أنه كانت لحصاني طبيعةٌ هادئة. ولكنني شعرتُ في معدتي بشيء شرير يتحدَّى حدود حياتنا المقدَّرة. فجعلني ذلك أرتعدُ في داخلي. وكان ذلك سيتحولُ مع مرور الوقت إلى رغبة ملحة عميقة.

اقتربتْ زهرة الثلج مني حتى أصبحنا متقابلتين. ووضعتْ يدها على خدي، وقالت: "إنني سعيدةٌ لأننا رفيقتان". ثم أغمضتْ عينيها، واستسلمتْ للنوم.

كنتُ مستلقية بجانبها أنظرُ إلى وجهها في ضوء القمر، وأشعرُ بالوزن اللطيف ليدها الصغيرة على خدي، وأصغي لصوتِ تنفُّسها يصبحُ أكثرَ عمقاً. فتساءلتُ كيف سأتمكنُ من أن أجعلَها تحبُّني بالطريقة التي كنتُ أتوقُ أن يحبني الناسُ بها.

الحب

إننا كنساء يُتوقَعُ منا أن نحبَّ أطفالنا حالما يخرجون من أجسادنا. ولكن من منا لم تشعرْ بخيبة الأمل لرؤية ابنة أو لم تشعرْ بالكآبة التي تشغلُ ذهنَ المرأة حتى عندما تحملُ ابناً غالياً إذا كان لا يفعلُ شيئاً سوى أنه يبكي ويجعل حماتها تنظرُ إليها وكأن حليبها مر؟ قد نحبُ بناتنا من كل قلوبنا، ولكن يجبُ علينا أن ندرِّبَهن عن طريق الألم. ونحن نحبُّ أبناءنا أكثرَ من كل شيء، ولكننا لن نستطيعَ أبداً أن نكونَ جزءاً من عالمهم، عالم الرجال الخارجي. ويُتوقَعُ منا أن نحبَ أزواجنا منذ يوم الخطوبة رغم أننا لا نرى وجوههم إلى ما بعد ست سنوات. ويُقالُ لنا أن نحبَّ عائلات أزواجنا، ولكننا ندخلُ تلك العائلات كغريبات، وكالأشخاص الأدنى منزلة في العائلة، حيث إننا نكونُ أعلى بدرجة واحدة من الخدم. ونحن مأموراتٌ أن نحبَّ ونبجلَ أسلاف أزواجنا وذلك لكي ننفذَ الواجبات الملائمة حتى لو كانت قلوبنا تشعرُ بالامتنان لأسلافنا نحن. نحن نحبُ آباءنا لأنهم يعتنون بنا، ولكننا نعتبرُ فروعاً عديمة الأهمية في شجرة العائلة. فنحنُ نستنزفُ مصادرَ العائلة، وتربينا عائلتنا من أجل عائلة أخرى. وبقدر ما نكونُ سعيدات في عائلاتنا التي نُولَدُ فيها فنحن جميعاً نعرفُ أن الفراق لا مفرَ منه. إننا نحبُ عائلاتنا، ولكننا ندركُ أن هذا الحبَّ سينتهي بحزن الفراق. وكلُّ أنماط الحب هذه تأتي بسبب الواجب، والاحترام، والامتنان. ومعظمُها، كما تعلمُ جميعُ النساء في مقاطعتنا، هي مصادرُ للحزن، وقطع العلاقات، والوحشية.

ولكنّ المحبة بين الرِفاق هي شيءٌ مختلف تماماً. فكما قالت مدام "وانغ"،

علاقةُ الرفقة تكونُ بالاختيار. ورغم أنني وزهرة الثلج لم نكن نعني كل الكلمات التي كتبناها لبعضنا البعض في اتصالنا الأول عن طريق المروحة، فقد شعرتُ عندما نظرنا في عيني بعضنا البعض في المِحفَّة أن شيئاً مميزاً قد عبرَ بيننا كشرارة تشعلُ ناراً أو بذرة تزرعُ الأرز. ولكنّ شرارةً واحدة ليست كافية لتدفئ غرفة، وبذرةً واحدة ليستْ كافية لتُنتجَ محصولاً مثمراً، بل يجبُ أن تنمو المحبة العميقة المخلصة. وفي ذلك الوقت من الماضي، لم أكن أدرك ذلك النوعَ من المحبة المتقدة. لذا فكّرتُ عوضاً عن ذلك بحقول الأرز التي اعتدتُ أن أراها في نزهاتي اليومية إلى النهر مع أخي عندما لم أكنْ قد فقدتُ أسناني اللبنية بعد. فربما كان يمكنني أن أجعلَ محبتنا تنمو كما يفعلُ المزارعُ مع محصوله عن طريق العمل الجاد، والإرادة غير المترددة، وبركة الطبيعة. كم هو أمرٌ طريفٌ أنني أتذكرُ ذلك حتى الآن! فقد كنتُ أعرفُ القليل عن الحياة، ولكنني كنتُ أعرفُ بما يكفي لأفكرَ كمزارع.

هكذا، جهَّزتُ تربتي، بأن حصلتُ على قطعة من الورق من أبي وطلبتُ قصاصة صغيرة من القماش من الأخت الكبرى من قماش مهرها، لأزرعَ فيها. وكانت بذوري هي حروفَ لغة ال "نو شو" التي نظمتُها. وأصبحتْ مدام "وانغ" هي خندق الري. فعندما كانت تمرُّ بنا لترى كيفية تقدم حالةِ قدمي، كنتُ أعطيها رسالتي على هيئة رسالة مكتوبة أو قطعة نسيج أو منديل مطرز. وكانت تسلِّمُها إلى زهرة الثلج.

لا يمكنُ لشيء أن ينمو بدون الشمس. وهو الشيءُ الوحيدُ الخارجُ عن نطاق سيطرة المزارع. فتوصلتُ إلى الاعتقاد أن زهرة الثلج كانت من يؤدي ذلك

الدور. فكان ضوءُ الشمس بالنسبة إليَّ يأتي على هيئة ردودها على رسائلي بلغة الـ "تو شو". وعندما كنتُ أستلمُ شيئاً من زهرة الثلج كنا جميعاً نجتمعُ لنفك شفرة المعنى لأنها كانت أصلاً تستعملُ كلماتٍ وصوراً تتحدى معرفة زوجة عمي.

فكتبتُ لها أشياءَ كالفتيات الصغار، مثل: إنني بخير. كيف حالك؟ فردتْ بدورها: هناك طَيْران يتوازنان على قمة أغصان الشجرة. ويطيران معاً إلى السماء. فكتبتُ: علمتني أمي اليوم كيف أصنعُ الأرزَ اللزج الملفوف بورق القلقاس. فردتْ زهرة الثلج: اليوم نظرتُ من شبك النافذة. وفكرتُ بعنقاء تطيرُ بحثاً عن رفيقة. ففكّرتُ بك. وكتبتُ لها قائلة: حُددَ تاريخٌ ميمون لزفاف الأخت الكبرى. فردت: إن أختك الآن هي في المرحلة الثانية من تقاليد زواجها العديدة. ومن حسن الحظ أنها ستبقى معكم لبضع سنوات أخرى. وكتبتُ لها: أريدُ أن أتعلمَ كل شيء. وأنت ذكية. فهل يمكنني أن أكون تلميذتك؟ وردتْ قائلة: إنني أتعلمُ منك أيضاً وهذا ما يجعلنا طائري بجع يعششان معاً. فكتبتُ لها: إن معانيَّ ليست عميقة وكتابتي غير متقنة. ولكنني أتمنى لو كنتِ هنا فيمكننا أن نتحادثَ هامستين ليلاً. فكان ردُّها: بلبلان يغنيان في الظلام.

أخافتني كلماتها، وأنعشتني في نفس الوقت. فقد كانت ذكية. وكانت تحظى بتعليم أكثر بكثير مما كنتُ أحظى به. ولكن لم يكن ذلك هو الجزء المخيف. ففي كل رسالة، كانت تتحدثُ عن الطيور، والطيَران، والعالم البعيد. وحتى في ذلك الوقت من الماضي، كانت تطيرُ عكس ما كان مقدَّراً لها. فأردتُ أن أتشبثَ بجناحيها، وأحلِّق معها مهما كنتُ مرعوبة.

باستثناء وصول المروحة في المرة الأولى، لم ترسلْ زهرة الثلج أبداً أي شيء إليَّ دون أن أرسلَ إليها أولاً. لم يزعجْني هذا الأمر، فقد كنتُ ألاطفُها، وكنتُ أرويها برسائلي. فكانت ردةُ فعلها دائماً تشبهُ غصناً جديداً أو برعماً جديداً. ولكنّ عقبةً واحدة أربكتني. فقد كنتُ أريدُ أن أراها مجدداً. وكان يجبُ عليها أن تدعوني إلى بيتها، ولكن لم تصلْني أية دعوة.

في أحد الأيام، جاءتْ مدام "وانغ" لزيارتنا مُحضرةً المروحة معها هذه المرة. فلم أفتحها بحركة واحدة. وعوضاً عن ذلك، فتحتُ الطيات الثلاث الأولى فقط مظهرةً رسالتها الأولى لي وردي بجانبها، ورسالة جديدة بجانب ذلك.

إن كانت عائلتك توافق أودُ أن آتي إليك في الشهر الحادي عشر. فنجلسُ معاً، ونضمُّ الإبر، ونختارُ ألواننا، ونتحدثُ هامستين.

وكانت قد أضافتْ على إكليل الأوراق زهرةً رقيقةً أخرى.

في اليوم المختار، انتظرتُ عند شبك النافذة وأنا أراقبُ المِحفَّة لتنعطفَ عند الزاوية. فعندما توقفتْ عند عتبة باب منزلنا، أردتُ أن أجري إلى الطابق السفلي خارجةً إلى الشارع لأحيي رفيقتي. وقد كان ذلك مستحيلاً. فخرجتْ أمي. وفُتحَ باب المِحفَّة. ونزلتْ زهرة الثلج إلى الشارع. وكانت ترتدي نفسَ السترة السماوية ذات الغيوم. ومع مرور الوقت توصلتُ إلى الاعتقاد أن ذلك كان رداءَ السفر. واعتقدتُ أنها كانت سترتديه في كل زيارة لكي لا تحرجَ عائلتي بسبب سوء حظنا.

لم تكن قد أحضرتْ معها طعاماً وثياباً كما هي العادة. وقدمتْ مدام "وانغ"

لزهرة الثلج نفس النصيحة التي كانت قد قدّمتْها لها في المرة السابقة. فكان ينبغي عليها أن تكونَ طيبة وألا تتذمر وأن تتعلمَ بعينيها وأذنيها وأن تجعلَ أمها فخورة بها. فأجابتْ زهرة الثلج قائلة: "نعم، يا خالة". ولكن كان يمكنني أن أعرفَ أنها لم تكنْ تصغي لأنها كانت تقفُ في الشارعِ تحدقُ مباشرة إلى شبك النافذة باحثة في الظلام عن وجهي.

حملتْ أمي زهرة الثلج إلى الطابق العلوي. ومنذ اللحظة التي وضعتْ فيها قدميها على أرض غرفة النساء لم تستطع التوقفَ عن الكلام. فكانت تثرثرُ، وتهمسُ، وتغيظُ، وتفضي بما في نفسها وتواسي وتبدي إعجابها. فلم تكن الفتاةَ التي أزعجتني بأفكارها عن الطيران بعيداً، بل كانت تريدُ وحسب أن تلعبَ، وأن تستمتعَ، وأن تثرثرَ وتثرثرَ عن أشياء تتعلقُ بالفتيات الصغيرات.

كنتُ قد قلتُ لها إنني أريدُ أن أكونَ تلميذتَها. لذا، فقد بدأتْ في ذلك اليوم تعليمي من كتاب "تقاليد النساء"، مثل ألا أظهرَ أسناني عندما أبتسم أو ألا أرفعَ صوتي عندما أتحدثُ إلى أحد الرجال. ولكنها كانت قد كتبتْ لي أنها تريدُ أن تكون تلميذتي أيضاً. فطلبتْ مني أن أريها كيف تصنعُ كعكات الأرز اللزج. وسألتني أيضاً أسئلة غريبة عن حمل الماء وصنع طعام الخنازير. فضحكتُ لأن كل فتاةٍ تعرفُ تلك الأشياء. فأقسمتْ زهرة الثلج أنها لم تكنْ تعرف. فاعتقدتُ أنها كانت تغيظني. وأصرَّتْ على أنها كانت جاهلة فعلاً. ثم بدأ الآخرون باستفزازي.

فصاحت الأخت الكبرى قائلة: "ربما أنتِ هي من لا تعرفُ كيف تحملُ الماء!"

وأضافت زوجة عمي: "وربما أنتِ من لا تتذكرين كيف تطعمين خنزيراً. فقد

رميتِ هذا التعليم وراء ظهرك مع حذائك القديم".

كان هذا فوقَ تحمَّلي. فوقفتُ على قدميّ. وكنتُ غاضبة جداً. ووضعتُ قبضتيّ على عظمتيّ وركي، ونظرتُ إليهن بغضب، ولكنني عندما رأيتُ وجوهاً مرحة تحدقُ بي تلاشى غضبي، وأردتُ أن أجعلَهن حتى أكثر سعادة.

كان أمراً مسلياً فعلاً للجميع في حجرة النساء أن يراقبنني وأنا أترنحُ على قدميّ اللتين ما زالتا تشفيان جيئة وذهاباً عبر الغرفة، وأنا أمثِّلُ أنني أسحبُ الماء من البئر، وأحمله عائدة إلى البيت أو أنحني لكي أجُز العشب، وأخلطَه مع نفايات المطبخ. فضحكت القمر الجميل بشدة حتى قالت إنها كانت بحاجة لأن تقضي حاجتها. وحتى الأخت الكبرى التي كانت جادة جدّاً بكل العمل على مهرها، ضحكتْ مستخفية. وعندما نظرتُ إلى زهرة الثلج، كانت عيناها مرحتين وهي تصفقُ بيديها ابتهاجاً. لقد كانت زهرة الثلج هكذا. فقد كانت تستطيعُ أن تأتي إلى حجرة النساء وتجعلني بكلمات بسيطة أفعلُ أشياء لم أكنْ لأحلمَ بفعلها من تلقاء نفسي. وقد كانت تستطيعُ أن تتواجدَ في تلك الغرفة، التي كنتُ أعتبرُها مكاناً للأسرار، والمعاناة، والحداد فتحولها إلى واحة من الأوقات المشرقة، والبهجة، والمرح التافه.

رغم كل حديثها عن الكلام بصوت منخفض مع الرجال، فقد ثرثرتْ مع والدي وعمي أثناء العشاء وجعلتهما يضحكان أيضاً. كان الأخُ الأصغر يتسلقُ على حضن زهرة الثلج وكأنّه كان قرداً وكأنّ حضنها كان عشاً على شجرة. لقد كانت تتمتعُ بالكثيرمن الحيوية في ذاتها. وأينما ذهبت كانت تبهجُ الناس، وتضفي عليهم السعادة. وكان بإمكان الجميع أن يرى أنها كانت أفضل منّا،

ولكنها حولت ذلك إلى مغامرة لعائلتي. فكانت بالنسبة لنا كطير نادر هربَ من قفصه وكان يهيمُ في حديقة للدجاج العادي. فكنا مسرورين وكانت هي كذلك.

حان الوقتُ لكي نغسلَ وجهينا قبل الذهاب إلى الفراش. وتذكّرتُ الإحراج الذي شعرتُ به أثناء زيارة زهرة الثلج الأولى. فأشرتُ إليها لتذهبَ أولاً، ولكنها رفضتْ ذلك. وإذا ذهبتُ أولاً عندئذٍ لن تكونَ المياه نظيفة لها وحدها. ولكن عندما قالتْ زهرة الثلج: "سنغسلُ وجهينا معاً". علمتُ أن عملَ المزارع العادي الذي قمتُ به وإصراري قد أثمرا عن المحصول الذي كنتُ أرغب به. فانحنينا معاً نحو الحوض، وجمعنا أيدينا، وغرفنا الماء إلى وجهينا، ووكزتني بكوعها، فنظرتُ إلى الماء، ورأيتُ وجهينا منعكسين على تموجات الماء. وكان الماءُ يقطرُ من بشرتها كما كان يقطرُ من بشرتي. فضحكتْ، ورشتْ بعض الماء من الحوض عليَّ. وفي تلك اللحظة التي اشتركنا فيها بالماء، علمتُ أن رفيقتي كانت تحبني أيضاً.

التعلم

خلال السنوات الثلاث التالية، كانت زهرة الثلج تزورنا كلَّ بضعة أشهر. فاستبدلتْ سترتَها السماوية ذات الغيوم لترتدي ثوباً آخرَ من الحرير بلون أرجواني شاحب ذي زركشة بيضاء، وهو اجتماعُ لونين غريبين بالنسبة لفتاة صغيرة في مثل سنها. وحالما دخلتْ الغرفة في الطابق العلوي، غيرتْ ملابسها، وارتدتْ ثوباً كانت أمي قد صنعتْه لها. بتلك الطريقة أصبحنا من نفس العمر من الداخل والخارج أيضاً.

كان ما يزالُ عليَّ أن أزورَ بيت زهرة الثلج في قرية "تونغكو". ولم أشك في الأمر، ولم أسمعْ أحداً من الكبار في العائلة يناقشُ غرابة هذا الإجراء. وفي أحد الأيام عندما كنتُ في التاسعة من عمري، سمعتُ أمي مصادفة تستفهمُ من مدام "وانغ" عن هذا الوضع. وكانتا واقفتين خارجَ عتبة الباب، فوصلتْ محادثتهما إليَّ، وأنا عند شبك النافذة.

قالت أمي بصوت منخفض آملةً ألا يسمعَها أحد: "يقولُ زوجي إننا دائماً نطعمُ زهرة الثلج. وتتسببُ لنا زياراتُها بنقل المزيد من الماء من أجل الشرب، والطهو، والغسيل. وهو يريدُ أن يعرفَ متى ستزورُ زهرة الزنبق قرية "تونغكو". فهذه هي الطريقة المعتادة".

فذكَّرت مدام "وانغ" أمي قائلة: "إن الطريقة المعتادة هي أن تتوافقَ الصفاتُ الثماني كلُّها فيهما، ولكننا كلتانا نعرفُ أن صفةً واحدةً هامةً جداً ليست كذلك. فقد أتت زهرة الثلج إلى عائلة أدنى منها منزلة". وتوقفتْ مدام "وانغ" عن الكلام، ثم أضافت: "إنني لم أسمعكم تتذمرون من هذا عندما فاتحتكم في

الموضوع أول الأمر".

"نعم، ولكن..".

فتابعت مدام "وانغ" قولها باستياء: "من الواضح أنكم لا تدركون كيف تجري الأمور. لقد قلتُ لكم منذ البداية إنني آملُ بالعثور على زوج لزهرة الزنبق في قرية "تونغكو". ولكن لا يمكنُ للزواج أن يتمَّ أبداً إذا حدثَ ولمح العريسُ المحتمل ابنتكم قبل يوم الزفاف. وعلاوة على ذلك، فعائلة زهرة الثلج تعاني من عدم التوازن الاجتماعي بين الفتاتين. وينبغي أن تكونوا ممتنين لأنهم لم يطالبوا بإلغاء اتفاق الرفقة. وبالطبع لم يفت الأوان للقيام بالتغيير إذا كان هذا ما يرغبُ به زوجك. وسيعني هذا فقط المزيد من الإحراج لي".

ماذا كان يسعُ أمي أن تفعلَ سوى أن تقول: "لقد أخطأتُ الكلام، يا مدام "وانغ". من فضلك، ادخلي. هل ترغبين ببعض الشاي؟"

سمعتُ خزي أمي وخوفها في ذلك اليوم. فلم يكنْ باستطاعتها أن تخاطرَ بأي وجه من أوجه العلاقة حتى لو وضعَ ذلك عبئاً إضافياً على عائلتنا.

أتتساءلون كيف شعرتُ لدى سماعي أن عائلة زهرة الثلج لم تكنْ تشعرُ أنني مماثلةٌ لها منزلةً؟ لم يزعجني ذلك. فقد كنتُ أعلمُ أنني لم أكنْ أستحقُ صداقة زهرة الثلج. وقد كنتُ أعملُ بجدّ كل يوم لكي أجعلَها تحبني كما كنتُ أحبها. وشعرتُ بالأسف، لا بل بالإحراج، من أجل أمي. فقد فقدتْ ماء وجهها مع مدام "وانغ". ولكن، الحقيقة هي أنني لم أكن أبالي بقلق والدي، ولا بانزعاج أمي، ولا بعناد مدام "وانغ"، ولا بالشكل المادي الخاص لصداقتي مع زهرة الثلج لأنني حتى لو زرتُ قرية "تونغكو" دون أن يراني زوجي المستقبلي

فقد كنت أشعرُ أنني لم أكنْ بحاجة للذهاب إلى هناك لأعرفَ شكلَ حياة رفيقتي. فقد سبقَ وأخبرتني عن قريتها، وعائلتها، وبيتها الجميل أكثرَ مما كان من الممكن أن أعرفَه بمجرد رؤيتها. ولكنَّ الأمرَ لم ينتهِ عند ذلك الحدّ.

كانت مدام "وانغ" ومدام "غاو" تتنازعان دائماً على المناطق. فلكون مدام "غاو" الوسيطة في قرية "بوواي"، كانت قد فاوضتْ على زواجٍ جيد للأخت الكبرى وقد وجدتْ فتاةً مناسبةً من قرية أخرى من أجل الأخ الأكبر. وكانت تتوقعُ أن تفعلَ الشيء نفسه معي ومع القمر الجميل، ولكن مدام "وانغ" بأفكارها عن قَدَري لم تغيرْ فقط سير حياتي وحياة القمر الجميل بل أيضاً سير حياة مدام "غاو". فلن تذهبَ تلك الأموال إلى جيبها. وكما يقولون: المرأةُ البخيلة دائماً تفكرُ بالانتقام.

سافرتْ مدام "غاو" إلى قرية "تونغكو" لتعرضَ خدماتها على عائلة زهرة الثلج. ولم يمر وقت طويل حتى وصل خبرٌ عن هذا إلى مدام "وانغ". ورغم أن الخلافَ لم تكنْ له علاقة بنا، فقد حدثتِ المواجهةُ في منزلنا عندما أتتْ مدام "وانغ" لتأخذَ زهرة الثلج، فوجدت مدام "غاو" تأكلُ بذور اليقطين، وتناقشُ التحضيرات لمراسم "تحديد يوم الزفاف" للأخت الكبرى في الغرفة الرئيسية مع والدي. ولم يُقَلْ شيءٌ أمامه. ولم تكن أي من المرأتين غير مهذبة إلى هذا الحدّ. وكان من الممكن لمدام "غاو" أن تتجنبَ الشجار بأكمله لو أنها غادرت ببساطة عندما انتهى عملها. وعوضاً عن ذلك، فقد صعدت إلى الطابق العلوي، وارتمتْ على أحد الكراسي. وبدأت تتفاخرُ بخبرتها في الخطبة. فكانت شبيهة بإصبع يكزُ بثرة. وأخيراً، لم تعدْ مدام "وانغ" تطيقُ أن تتحمَّل أكثر.

قالت بسرعة: "إن امرأةً مخبولةً فقط هي من تتجرأُ على أن تأتي إلى قريتي، وتحاولُ أن تسرقَ إحدى بنات أختي الصغار".

فأجابت مدام "غاو" بهدوء: "إن قريةَ "تونغكو" ليستْ قريتك. ولو كنتِ تسيطرين على قريتكِ لِمَ أتيتِ لتبحثي عن زبائنَ هنا في قرية "بوواي"؟ فبحسب اعتقادكِ ينبغي أن تكونَ زهرة الزنبق والقمر الجميل من زبائني. ولكن هل أبكي كالأطفال بسبب ذلك؟"

"سأرتِّبُ زواجين جيدين لهاتين الفتاتين. وسأفعلُ ذلك من أجل زهرة الثلج أيضاً. ولن تستطيعي أن تفعلي أفضل من ذلك؟"

"لا تكوني واثقة من نفسك تماماً. فلم تقومي بعمل جيد إلى هذا الحدّ مع أختها الكبرى. إنني مناسبةٌ أكثرَ لهذا العمل إذا أخذنا ظروفَ زهرة الثلج بعين الاعتبار".

هل ذكرتُ أن زهرة الثلج كانت في الغرفة وهي تسمعُ تلك الكلمات تقالُ عنها وكأنها وأختها كانتا كيسين من الأرز الرخيص يتساومُ عليهما تاجران عديما الضمير؟ لقد كانت واقفة بجانب مدام "وانغ" بانتظار أن تذهبَ إلى البيت. وكانت تحملُ بيديها قطعة من القماش كانت قد طرَّزتها. وكانت تفتلُها بين أصابعها وتشدُّ الخيوط. ولم ترفعْ نظرَها عنها، ولكنني استطعتُ أن أرى أن وجهها وأذنيها قد تحوّلا إلى لون أحمر متوهج. وقد كان من الممكن في تلك اللحظة أن يتفاقمَ الشجار. وعوضاً عن ذلك، فقد مدّتْ مدام "وانغ" يداً مليئة بالعروق إلى ظهر زهرة الثلج الصغير. وحتى ذلك الوقت، لم أكنْ أعرفُ أن مدام "وانغ" كانت قادرة على أن تبديَ أيّة شفقة أو تنازل.

وقالت بصوت خشن: "إنني لا أتحدثُ إلى النساء الوضيعات. تعالي، يا زهرة الثلج، فأمامنا رحلة طويلة إلى البيت".

كنا لنُخرجَ هذه الحادثة من أذهاننا لولا أن الخاطبتين كانتا ستستمران بالشجار منذ ذلك الوقت وصاعداً. فعندما كانت مدام "غاو" تسمعُ أن مِحفَّة مدام "وانغ" قد وصلت إلى قرية "بوواي" كانت ترتدي أكثرَ ثيابها بريقاً، وتضعُ الأحمرَ على خديها، وتأتي للتطفل في منزلنا.

بحلول الوقت الذي بلغتُ فيه وزهرة الثلج الحادية عشرة من عمرنا، كانت أقدامنا قد شفيتْ كلياً. وكانت قدماي قويتان ومثاليتان بشكل ملحوظ بطول سبعة سنتمترات فقط. وكانت قدما زهرة الثلج أكبرَ بعض الشيء، بينما كانت قدما القمر الجميل أكبرَ من ذلك، ولكنّ شكلهما كان فاتناً. فكان هذا بالإضافة لتعليم القمر الجميل المنزلي الجيد قد جعلَها لائقة جداً للزواج. ومع انتهاء ربط أقدامنا، قامت مدام "وانغ" بالتفاوض من أجل مرحلة "الخطوبة" لثلاثتنا. وكانت صفاتنا الثماني متوافقة مع أزواجنا المستقبليين. فتم تحديدُ تواريخِ الخطوبة.

وكما توقعت مدام "وانغ"، أدى بي اكتمال زهور الزنبق الذهبية خاصتي إلى خطوبة محظوظة. فقد رتبتْ لي لأتزوجَ من ابن إحدى أفضل عائلة من قبيلة "لو" في قرية "تونغكو". وكان عمُّ زوجي عالماً تلقَّى مساحة كبيرة من الأرض من الإمبراطور. وكان العم "لو"، كما كان يُدعى، عقيماً. وكان يعيشُ في العاصمة، ويعتمدُ على أخيه ليشرفَ على ممتلكاته. ولأن حماي كان يؤدي وظيفة زعيم القرية، بتأجير قطع الأرض للمزارعين وجمع الأجرة، فقد كان

الجميعُ يعتقدون أن زوجي كان سيصبحُ الزعيم المستقبلي. وكانت القمر الجميل ستتزوجُ إلى عائلة من قبيلة "لو" أقل منزلة من عائلة زوجي. وكان خطيبها ابنَ مزارعٍ يعملُ في أرض تعادلُ أربعة أضعاف الأرض التي كان والدي وعمي يعملان بها. فكان هذا بالنسبة إلينا يبدو ملائماً، ولكنه مع ذلك كان أقل بكثير مما كان حماي المستقبلي يشرفُ عليه نيابة عن أخيه.

قالت مدام "وانغ" : "يا أيتها القمر الجميل يا أيتها زهرة الزنبق، إنكما مقربتان كأختين. والآن ستصبحان مثلي ومثل أختي. فقد تزوجنا في قرية "تونغكو". ورغم أننا عانينا من سوء الحظ، فقد كنا محظوظتين لأننا قضينا حياتنا بأكملها معاً". وقد كنتُ والقمر الجميل حقاً ممتنَّتين لأننا كنّا سنستمرُ بمشاركة كل شيء من أيام "الأرز والملح" كزوجات وأمهات إلى أيام "الجلوس بهدوء" كأرامل.

كان على زهرة الثلج أن تتزوجَ خارج قرية "تونغكو"، ولكنها كانت ستكونُ قريبة في قرية "جينتيان"، أي قرية الحقول المكشوفة. وكانت مدام "وانغ" تضمنُ أنني والقمر الجميل سنكونُ قادرتين على رؤية قرية "جينتيان" أو ربما حتى نافذة زهرةِ الثلج من شبك نوافذنا الجديدة. ولم نسمعِ الكثيرَ عن العائلة التي كانت زهرة الثلج ستتزوجُ منها باستثناء أن خطيبها قد وُلدَ في عام الديك. فأقلقنا هذا لأن الجميع كان يعلمُ أن هذا ليس ارتباطاً مثالياً لأن الديك يرغبُ بالجلوس على ظهر الحصان.

طمأنتنا مدام "وانغ" بقولها: "لا تقلقن، يا فتيات. فقد درسَ العرافُ عناصر الماء، والنار، والمعادن، والتراب، والخشب. وأعِدُكن أن هذه ليست من الحالات

التي يكونُ فيها على الماء والنار أن يعيشا معاً. وسيكونُ كلُّ شيء بخير". فصدقنا قولها.

أرسلتْ عائلتا عريسينا الهدايا الأولى من المال، والحلوى، واللحم. فتلقى عمي وزوجة عمي رِجْل خنزير بينما تلقى والدي ووالدتي خنزيراً مشوياً كاملاً. فتمَ تقطيعه وإرساله لأقاربنا في قرية "بوواي" كهدايا. وردَّ والدانا بهدايا إلى عائلتي العريسين من البيض، والأرز لترمزَ إلى خصوبتنا. ثم انتظرنا المرحلة الثانية لتبدأ حيث كانت عائلتا زوجينا المستقبليتين ستحددان تاريخ الزفاف.

تخيلوا كم كنا سعيدتين. فقد قُررَ مستقبلنا. وكانت عائلتانا الجديدتان أعلى منزلة من عائلتنا. وكنا صغيرتين بما فيه الكفاية لنصدقَ أن قلبينا الطيبين سينتصران على أية صعوبات مع حماتينا. وكنا مشغولتين بأعمالنا اليدوية. ولكننا فوق كلِّ شيء كنا سعيدتين لأننا كنا بصحبة بعضنا البعض.

استمرتْ زوجة عمي بتعليمنا لغة ال- "نو شو"، ولكننا تعلمناها من زهرة الثلج أيضاً. فقد كانت تحضرُ معها حروفاً جديدة في كل مرة كانت تزورنا فيها. وكانت تحصلُ على بعضها من اختلاس النظر إلى دراسات أخيها لأن العديد من أحرف ال- "نو شو" هي عبارة عن نسخة من أحرف الرجال مكتوبة بالمائل، ولكنَّ الحروفَ الأخرى كانت تأتي من والدة زهرة الثلج التي كانت متمكنة إلى أقصى حدّ من كتابتنا النسائية السرية. فقضينا ساعات، ونحن نتدربُ عليها بتتبعها بأصابعنا على راحات أيدي بعضنا البعض. وحذَّرتنا زوجة عمي لكي نكون حريصات بكلماتنا لأن معانينا باستخدامنا أحرفاً صوتية خلافاً لحروف الرجال التصويرية قد تضيعُ أو تصبحُ مشوشة.

كانت تذكِّرُنا كل يومِ عند نهاية درسنا وتقول: "يجبُ أن توضعَ كل كلمة في سياقها. فيمكنُ أن تنتجَ الكثيرُ من المآسي بسبب قراءة خاطئة". وبعد هذه النصيحة، كانت زوجةُ عمي تكافئنا بالقصة الرومانسية عن المرأة المحلية التي اخترعتْ كتابتنا السرية.

روت زوجة عمي قائلة: "من قديم الزمان في عهد سلالة "سونغ" ربما قبل أكثر من ألف سنة، بحث الإمبراطور "سونغ جيزونغ" في أنحاء العالم عن محظية جديدة. فسافرَ بعيداً. وأخيراً جاء إلى مقاطعتنا حيث سمعَ عن مزارع اسمه "هو". وكان المزارع رجلاً ذا علم وعقل راجح يعيشُ في قرية "جينتان"؛ القرية التي كانت زهرة الثلج ستعيشُ فيها عندما تتزوج. وكان للسيد "هو" ابنٌ عالم، وكان شاباً ذا منزلة رفيعة أبلى بلاءً حسناً في امتحانات الإمبراطورية. ولكنَّ أكثرَ شخص أثارَ اهتمام الإمبراطور كان ابنة المزارع الكبرى. وكان اسمها "يوشيو". ولم تكنْ غصناً عديم القيمة كلياً من شجرة العائلة لأن والدها كان قد اعتنى بتعليمها. فكان بإمكانها أن تنظم الشعر الكلاسيكي، وقد تعلمتْ كتابة الرجال، وكانت تجيدُ الغناء والرقص. وكان تطريزها جميلاً ورقيقاً. فأقنعَ كلُّ هذا الإمبراطور أنها كانت ستمثّلُ محظية ملكية راقية. فزارَ والدَها "هو" وفاوضه على ابنته الذكية، وسرعان ما أصبحتْ "يوشيو" في طريقها إلى العاصمة. أكانت هذه نهاية سعيدة؟ من بعض النواحي. فقد تلقى السيد "هو" الكثيرَ من الهدايا. وضِمنَ لـ "يوشيو" حياةً في البلاط مليئة بالحرير وحجر اليَشَب. ولكنني أخبركن، يا فتيات، أنَّ حتى فتاة ذكية ومهذبة كـ "يوشيو" لا يمكنها أن تتجنبَ اللحظة الحزينة التي تغادرُ فيها عائلتها التي وُلدتْ فيها. كم

انهمرتِ الدموع من عيني الأم! وكم بكتِ الأخوات في حزن! ولكن لم تكن أية واحدة منهن حزينة كما كانت "يوشيو"".

تعلمنا هذا الجزء من القصة جيداً. وكان فراقُ "يوشيو" وعائلتها هو فقط بدايةَ أحزانها. وحتى بكل مواهبها، لم تستطع أن تبقيَ الإمبراطور مسروراً إلى الأبد. فسئمَ من وجهها الجميل كالقمر، وعينيها اللوزيتين، وفمها الكرزي. ورغم أن مواهبها كانت جديرة بالملاحظة في مقاطعة "يونغمينغ" فقد كانت تافهة بالمقارنة مع مواهب السيدات الأخريات في البلاط. مسكينة هي "يوشيو"! إذ لم يكن بإمكانها أن تقاومَ مكائد القصر. ولم يكن لدى الزوجات والمحظيات الأخريات تقديرٌ للفتاة الريفية. فكانت وحيدة وحزينة، ولم تكن لديها وسيلة للتواصل مع أمها وأخواتها دون أن يكتشفَها الآخرون. فكانت أيةُ كلمة متهورة واحدة منها لتؤدي إلى ضربِ عنقها أو رميها في آبار القصر لإسكاتها إلى الأبد.

تابعت زوجة عمي قائلة: "ليلاً نهاراً، كانت "يوشيو" تحتفظُ بمشاعرها لنفسها. وكانت نساءُ القصر الشريرات يراقبنها وهي تطرزُ أو تتدربُ على كتابتها. وكنَّ يسخرن مع عملها طيلة الوقت. فكن يقلن: "إنه غير متقن". أو: "انظروا كيف تحاولُ قردةُ الريف أن تقلِّدَ كتابة الرجال". فكانت كلُّ كلمة تخرجُ من أفواههن قاسية. ولكن "يوشيو" لم تكن تحاولُ أن تقلِّدَ كتابة الرجال. بل كانت تغيّرها، وتميلُها، وتؤنِّثها. وفي نهاية المطاف، أوجدتْ أحرفاً جديدة ليستْ لها علاقةٌ بكتابة الرجال. لقد كانت تخترعُ بهدوء شفرة سرية لكي تتمكنَ من الكتابة لأمها وأخواتها في الديار".

غالباً ما كنتُ وزهرة الثلج نسأل كيف استطاعتْ أم "يوشيو" وأخواتها قراءة الشفرة السرية. فكان جوابُ زوجة عمي:

"ربما سرَّبَ خادم متعاطفٌ رسالة من "يوشيو" تشرحُ كل شيء، وربما لم تعرفْ أخواتُها ما كُتبَ في الرسالة فرمينها جانباً. ورأينها في حالتها تلك فترجمنَ الأحرف المائلة. ومع مرور الوقت اخترعتْ نساءُ العائلة أحرفاً صوتية جديدة أصبحن يفهمنها من السياق بالضبط كما تتعلمن أيتها الفتيات كيف تفعلن ذلك الآن، ولكنَّ هذا هو نوع التفاصيل التي يهتمُ الرجال بها". ووجهتْ إلينا هذا التأنيب بتجهم مذكرةً إيانا أن تلك الأسئلة لم تكن من شأننا. وقالت: "ما ينبغي علينا أن نقتبسَه من حياة "يوشيو" هو أنها قد وجدتْ طريقة لتشارك ما كان يحدثُ تحت غطّاء حياتها السعيدة ظاهرياً مع عائلتها. فانتقلتْ هديتُها عبرَ أجيال لا حصرَ لها إلينا".

بقينا هادئات للحظة، ونحن نفكّرُ بتلك المحظية الوحيدة، وبدأت زوجة عمي تغني ثم انضممنا ثلاثتنا إليها، بينما أصغت أمي إلينا. وكانت أغنية حزينة يفترضُ أنها قد أتتْ مباشرة من فم "يوشيو". فتدفقَ حزنها مع أصواتنا:

كتابتي مبللة بدموع قلبي،

في ثورة غير مرئية لا يمكنُ لرجل أن يراها.

لتصبحْ حياتنا فناً مأساوياً.

آه، يا أمي، يا أخواتي اسمعنني، اسمعنني.

تدفقتِ الأصواتُ الأخيرة من شبك النافذة نزولاً إلى الزقاق. وقالت زوجة عمي: "تذكرن، يا فتيات، أن ليس كل الرجال أباطرة، ولكنَّ كل الفتيات

يتزوجن. وقد اخترعت "يوشيو" كتابة ال. "تو شو" في مقاطعتنا لكي نحافظَ على الصلات مع عائلاتنا".

تناولنا إبرنا، وبدأنا نطرِّز. وفي اليوم التالي قصتْ زوجة عمي القصة علينا مجدداً.

عندما بلغتُ وزهرة الثلج الثالثة عشرة كان التعليمُ يأتينا من كل اتجاه. وكان من المتوقعِ منا أن نساعدَ في كل الأمور الاعتيادية. ومع أن نساء عائلة زهرة الثلج قد برعن في تعليمها الفنون الراقية فقد فشلن فشلاً ذريعاً في تعليمها الفنون المنزلية. لذا، فقد كانت تتعقبُني وأنا أقومُ بأعمالي المنزلية. وكنا ننهضُ عند الفجر، ونشعلُ نار الطهو. وبعد أن أكونَ وزهرة الثلج قد غسلنا الصحون كنا نخلطُ وجبة الخنزير. وعندما يحين الظهر، كنا نخرجُ لبضع دقائق لنقطفَ الخضار الطازجة من حديقة المطبخ. ثم كنا نحضِّر الغداء. وكانت أمي وزوجة عمي في السابق تقومان بكل هذه المهمات. أما الآن فكانتا تشرفان علينا. وكنا نقضي فترات العصر في حجرة النساء. وعندما يحين المساء، كنا نساعدُ في تحضير العشاء، وتقديمه.

كانت كل دقيقة من كل يوم تتضمنُ دروساً. فحاولتِ الفتيات في العائلة، ومن ضمنهن زهرة الثلج، أن يكن تلميذاتٍ نجيبات. فكانت القمر الجميل الأفضلَ في نسج الخيوط، وهي مهمةٌ لم أكنْ وزهرة الثلج لدينا صبرٌ للقيام بها. وكنتُ أحبُ الطهو، ولكنني كنتُ أقل اهتماماً بالحياكة، والخياطة، وصنع الأحذية. ولم تكنْ أيٌ منا تحبُ التنظيف. ولكنَّ زهرة الثلج كانت مريعة فيه. ولم تكنْ أمي وزوجة عمي تعاقبانها كما كانتا تفعلان معي ومع ابنة عمي إنْ

لم نكنس الأرض جيداً، أو لم ننظف كل التراب من على سترات والدينا. وكنتُ أعتقدُ أنهما كانتا متساهلتين مع زهرة الثلج لأنهما كانتا تعرفان أنها كانت ستحظى بخدم يوماً ما وأنها لن تضطرَ للقيام بتلك الأشياء بنفسها. وكنتُ أنظرُ إلى إخفاقها بطريقة مختلفة. فلم تكن لتتعلمَ أبداً كيف تنظفُ بشكل ملائم لأنه كان يبدو عليها أنها تطفو فوق متطلبات الحياة وبعيداً عنها.

كنا نتعلمُ أيضاً من الرجال في عائلتي، رغم أن ذلك لم يحدثْ بالطريقة التي قد يتوقعها المرء. فلم يكن والدي وعمي ليعلِّمانا أي شيء بشكل مباشر. فقد كان ذلك ليكون غير ملائم. وما أعنيه هو أنني تعلمتُ عن الرجال من خلال أفعال زهرة الثلج والطريقة التي كانت ردة فعل والدي وعمي تجاهها. وقد كان طبق الـ "كونجي" أحد أسهل الأشياء التي كنا نعدُّها، فكان يتطلبُ فقط الأرز والكثير من الماء والتحريك المستمر. لذا، جعلنا زهرة الثلج تعدُّ هذا الطبق من أجل الفطور. وعندما رأتْ أن والدي كان يحبُ الكراث تأكدَت من وضع كمية إضافية منه في وعائه. وعند العشاء، كانت أمي وزوجة عمي دائماً تضعان الأطباق بصمتٍ على الطاولة وتدعان والدي وعمي يخدمان نفسيهما. وكانت زهرة الثلج تدورُ حول الطاولة مبقية رأسها منحنياً وهي تقدم كل طبق، أولاً إلى والدي، ثم إلى عمي، ثم إلى الأخ الأكبر ثم إلى الأخ الثاني. وكانت دائماً تقفُ بعيداً بما فيه الكفاية لكي لا تكونَ قريبة كثيراً ولكن في نفس الوقت لكي تُضفيَ بعض اللباقة. وعلمتُ هذا من خلال مجاملاتها الصغيرة لهم. فكانوا يُحجمون عن الأكل بضجة، والبصق على الأرض، وفرك بطونهم المليئة. وعوضاً عن ذلك، كانوا يبتسمون ويتحدثون إليها.

كانت رغبتي في المعرفة تتعدى بكثير ما كنتُ بحاجة لأعرفَه في حجرة النساء في الطابق العلوي أو في الطابق السفلي أو حتى في دراسة كتابة الـ"نو شو". فكنتُ أريدُ أن أعرفَ بشأن مستقبلي. ولحسن الحظ، فقد كانت زهرة الثلج تحب الحديث. وكانت تتحدثُ كثيراً عن قرية "تونغكو". وبحلول ذلك الوقت، كانت قد سافرت كثيراً بين القريتين، فتعلمتِ الطريق جيداً. فأخبرتْني: "عندما تذهبين إلى زوجك، ستمرين من فوق النهر، وعبرَ الكثير من حقول الأرز. وستتوجهين نحو التلال المنخفضة التي يمكنك أن تريها من طرف قرية "بوواي". وتقعُ قرية "تونغكو" بين أحضان تلك التلال. وهي لن تتداعى أبداً، ولن نتداعى نحن أيضاً. وعلى الأقل، هذا ما يقولُه والدي. فنحن في قرية "تونغكو" محميون من الزلازل، والمجاعة، واللصوص. فهي قرية مثالية من الناحية البيئية".

باستماعي إلى ما كانت زهرة الثلج تقولُه، نمتْ صورة قرية "تونغكو" في مخيلتي. ولكنَّ ذلك لم يكن ليقارنَ بكيفية شعوري عندما تكلمت عن زوجي المستقبلي وأهله. ولم أكن والقمر الجميل حاضرتين أثناء المناقشة التي أجرتْها مدام "وانغ" مع والدينا، ولكننا كنا على دراية بالأساسيات، وهي أن جميعَ من كانوا يعيشون في قرية "تونغكو" هم من قبيلة "لو". وكانت كلتا العائلتين ميسورتين. وقد كانت هذه الأشياء تهمُّ والدينا. ولكننا كنا نريدُ أن نعرفَ زوجينا، وحماتينا، والنساء الأخريات في حجرتي الطابق العلوي. فكانت زهرة الثلج هي الوحيدة التي استطاعت أن تعطينا أجوبة عن أسئلتنا.

فقالت زهرة الثلج في أحد الأيام: "إنك محظوظة يا زهرة الزنبق. فقد رأيتُ ذلك

الفتى من قبيلة "لو". وهو أحدُ أبناء عمي من الدرجة الثانية. ولون شعره أسودٌ مزرقٌ بلون سماء الليل. وهو لطيفٌ مع الفتيات. وقد شاركني إحدى المرات بكعكة. ولم يكن عليه أن يفعلَ ذلك". وأخبرتْني أن زوجي المستقبلي قد وُلِدَ في عام النمر. وهي إشارةٌ على أنه مفعمٌ بالحيوية مثلي، الأمرُ الذي جعلنا متناسبين بشكل مثالي. وأخبرتْني أشياء كنتُ أحتاجُ لمعرفتها لكي أنخرطَ في عائلة من قبيلة "لو". فشرحت قائلة: "إنها عائلة مشغولة. فلكونه الزعيم، يستقبلُ السيد "لو" العديد من الزوار من داخل القرية وخارجها. وفوق هذا، فالعديد من الناس يعيشون في المنزل. وليست هناك بنات، بل كنَّات سيتزوجن. وأنت ستكونين الكنة الأولى. فستكونُ منزلتك رفيعة كبداية. وإذا كان أول أولادك ابناً فستبقى منزلتك رفيعة إلى الأبد. ولكن هذا لا يعني أنكِ لن تعاني من نفس المشكلات التي عانت منها "يوشيو" محظية الإمبراطور. فبالرغم من أن زوجة السيد "لو" قد أنجبتْ له أربعة أبناء فلديه ثلاث محظيات. ولا بدَّ له من أن يتخذهن لأنه الزعيم. وهن يساعدنه على إظهار قوته للناس".

كان ينبغي أن أقلقَ أكثرَ بهذا الخصوص. فإذا كان الوالدُ يتخذُ محظيات فالابن سيفعلُ ذلك على الأرجح. ولكنني كنتُ صغيرةً جداً وبريئة. ولم يخطر هذا ببالي. وحتى لو خطرَ ببالي لم أكن سأعرفُ بالنزاعات التي كانت ستنشأ. فقد كان عالمي يتألف من أمي، وأبي، وعمي، وزوجة عمي؛ لقد كان بسيطاً جداً.

التفتت زهرة الثلج إلى القمر الجميل التي كانت كعادتها تصغي إلينا بهدوء

منتظرةً أن ندخلَها في الحديث. فقالت زهرة الثلج: "يا أيتها القمر الجميل إنني سعيدة من أجلك. فأنا أعرف هذه العائلة من قبيلة "لو" جيداً. وزوجك المستقبلي، كما تعلمين، مولود في عام الخنزير. فستكونُ صفاته هي الثبات، والشجاعة، وعمق التفكير. في حين أن طبيعتك، وهي طبيعة الخروف، ستجعلك شغوفة به. وهذا توافقٌ آخر مناسبٌ بشكل مثالي".

تساءلتِ القمر الجميل بتردد: "ماذا عن حماتي؟"

"هذه السيدة تزورُ أمي كل يوم. وهي تتمتعُ بقلب طيب، أطيب مما أستطيعُ أن أخبرَك".

فجأة اغرورقت عينا زهرة الثلج بالدموع. وكان ذلك قوياً بحيث إنني والقمر الجميل ضحكنا معتقدتين أن ذلك كان دعابةً من نوع ما. فرمشتْ رفيقتي بعينيها بسرعة.

صاحت زهرة الثلج: "دخلت ذرةٌ في عيني!" قبل أن تنضمَ إلينا ضاحكة. ثم استأنفتْ حديثها من حيث توقفت، وقالت: "ستكونين راضية أيتها القمر الجميل. وسيحبونك من قلوبهم. والشيء الأفضلُ هو أنك ستتمكنين من السير إلى منزل زهرة الزنبق. وهكذا ستكونان مقرَّبتين من بعضكما البعض".

عاودت زهرة الثلج النظرَ إليَّ، وقالت: "إن حماتكِ تقليدية جداً. وهي تتبعُ كل قواعد النساء. فهي حذرة في ما تقولُه، وهي تحسنُ الزينة. وعندما يحضرُ الضيوف يكونُ الشاي دائماً جاهزاً". ومنذُ أصبحت زهرة الثلج تعلمني كيف أفعلُ هذه الأشياء لم أعدُ أخافُ أن أرتكبَ خطأ. وتابعت زهرة الثلج قائلة: "هناك خدم في المنزل أكثر مما لدينا في عائلتنا. ولن يكونَ عليك أن تطهي

باستثناء أن تحضّري أطباقاً خاصة للسيدة "لو". ولن يكون عليك أن ترضعي طفلك إلا إذا أردتِ ذلك".

فعندما قالتْ لي هذه الأشياء، ظننتُ أنها مجنونة.

سألتُها أكثر عن والد زوجي. ففكرتْ لدقيقة وقالت: "إنَّ السيد "لو" كريم ورحيم، ولكنه ذكي أيضاً. ولهذا السبب هو زعيم، والكل يحترمه. وسيحترمُ الكل ابنه وزوجة ابنه أيضاً". ثم نظرتْ إليَّ بعينيها الثاقبتين، وكررتْ قائلة: "إنك محظوظة جداً".

كيف لا أستطيعُ بالصورة التي رسمتْها لي زهرة الثلج بكلماتها أن أتخيلَ نفسي في قرية "تونغكو" مع زوجي المُحبّ وأبنائي الرائعين.

بدأ تعليمي يتجاوزُ حدود قريتي. فكنتُ وزهرة الثلج قد ذهبنا إلى معبد "غوبو" في مدينة "شيشيا" خمس مرات. وفي كل سنة، كنا نصعدُ الدرجات إلى المعبد، ونضعُ قرابيننا على المذبح، ونشعلُ البخور. ثم كنا نسيرُ إلى السوق حيث كنا نشتري خيوط التطريز والورق. وكنا دائماً ننهي اليوم بزيارة إلى الرجل العجوز "زو" لنتناول قلقاسه المغطى بالسكر. وفي طريقنا ذهاباً وإياباً، كنا نختلسُ النظرَ من المِحفَّة عندما كانت مدام "وانغ" تنام. فكنا نرى طرقاً تؤدي من خارج الطريق الرئيسي إلى قرى أخرى. وكنا نرى الأنهار والقنوات. وعلمنا من حمالينا أن تلك المياه كانت تمنحُ مقاطعتنا الاتصالَ مع بقية الأمة. وقد كنا في حجرتنا في الطابق العلوي نرى أربعة جدران فقط، ولكنَّ الرجال في مقاطعتنا لم يكونوا معزولين هكذا. بل كان باستطاعتهم إنْ أرادوا أن يسافروا إلى أي مكان تقريباً بالقارب.

وطوال ذلك الوقت، كانت مدام "وانغ" ومدام "غاو" تدخلان وتخرجان من منزلنا كدجاجتين مشغولتين. ماذا؟ أتظنون أن تلك المرأتين، بعد تحديد خطوبتنا، كانتا ستركاننا وشأننا؟ بل كان عليهما أن تراقبا، وتنتظرا، وتتآمرا، وتتملقا وهما تحميان استثماراتهما وتؤمِّنان عليها. فأي شيء قد يخفق. ومن الواضح أنهما كانتا تترقبان أربعَ زيجات في عائلة واحدة، وفيما إذا كان الوالدُ سيتخطى مسألة مهر عروس الأخ الأكبر والمهور الملائمة للفتيات الثلاث، والأهم من كل شيء أتعاب الخاطبة. ولكن عندما بلغت عامي الثالث عشر تفاقمَ النزاعُ بين الخاطبتين فجأة.

بدأ الأمرُ ببساطة تامة. وكنا في الحجرة في الطابق العلوي عندما بدأت مدام "غاو" تتذمرُ من أن العائلات المحلية لم تكن تدفعُ أتعابَها بطريقة منتظمة ملمحةً إلى أن عائلتنا كانت واحدةً منها.

فعبَّرتْ مدام "غاو" قائلة: "إن ثورة الفلاحين في التلال تصعِّبُ الأمورَ علينا جميعاً. فلا بضائعَ تدخلُ ولا بضائعَ تخرج. ولا أحدَ يملكُ مالاً. وقد سمعتُ أن بعض الفتياتِ قد اضطررن لفسخِ خطوبتهن لأن عائلاتهن لم تعدْ تستطيعُ أن تؤمنَ لهن مهوراً. فستصبحُ تلك الفتيات الآن "كنات صغيرات"".

ولم يكنِ الأمرُ خبراً جديداً أن الأمورَ قد أصبحت صعبة في مقاطعتنا، ولكنَّ ما قالتْه مدام "غاو" لاحقاً هو ما فاجأنا جميعاً.

فقد قالت: "حتى الآنسة زهرة الثلج الصغيرة ليست بأمان. ولكن الأوان لم يفتْ لأبحثَ لها عن شخصٍ ملائم أكثر".

لقد كنتُ مسرورةً لأن زهرة الثلج لم تكن موجودة لتسمعَ هذا التلميح.

فعارضتْها مدام "وانغ" بقولها: "إنك تتحدثين عن عائلة من بين أفضلِ العائلاتِ في المقاطعة". ولم يكنْ صوتُها يبدو كالزيت بل كالصخور التي تحتكُّ ببعضها البعض.

"ربما تعنين أنها كانت كذلك، أيتها الخالة العجوز. فقد شهدَ ذلك السيدُ الكثيرَ من المقامرة والمحظيات".

"لقد فعلَ فقط ما هو مناسبٌ لمنصبِه. ومن جهة أخرى، يجبُ أن نسامحكِ لجهلك. فالطبقة الراقية غريبة بالنسبة لك".

"إنكِ تُضحكينني. فأنتِ تتفوهين بالأكاذيب وكأنها حقيقة. فالمقاطعةُ بأكملها تعرفُ ما يحدثُ مع تلك العائلة. أضيفي المشاكل التي تحدثُ فوق التلال إلى المحاصيل السيئة وسوء الرعاية، ولا يمكنُ أن تتوقعي سوى أن رجلاً ضعيفاً سيعتادُ على تدخين الغليون..".

فنهضتْ أمي على نحو مفاجئ، وقالت: "إنني ممتنةٌ، يا مدام "غاو" للأمور التي فعلتِها من أجلِ بنتيّ، ولكنهما لا تزالان صغيرتين ولا ينبغي أن تسمعا هذا. سأوصلكِ إلى عتبةِ الباب. فأنا واثقةٌ أن عليكِ أن تقومي بزيارة أناس آخرين".

ورفعتْ أمي مدام "غاو" عملياً خارجَ كرسيها، وكادتْ أن تجرَها إلى الدرج. وحالما غابتا عن نظرنا، صبتْ زوجةُ عمي الشاي لمدام "وانغ" التي كانت جالسةً ساكنةً وهي مستغرقةٌ في التفكير وعيناها شاردتان بعيداً. ثم رمشتْ بعينيها ثلاث مرات، وجالت بنظرها في أنحاء الغرفة، ثم استدعتْني إليها. وقد كنتُ في الثالثة عشرة من عمري ولا أزالُ خائفة منها. وكنتُ قد تعلمتُ أن

أدعوَها "خالة" في حضورها، ولكنها في ذهني كانت دائماً مدام "وانغ" المخيفة. وعندما اقتربتُ منها، جذبتْني بعنف إليها. وثبتتني بين ساقيها، وقبضتْ على ذراعيَّ كما فعلتْ في المرة الأولى التي التقينا فيها، وقالت:

"إياك أن تكرري ما سمعتِه اليومَ لزهرة الثلج. فهي فتاة بريئة، وليست بحاجة لقذارة تلك المرأة لتفسدَ عقلها".

"نعم، يا خالة".

فهزتْني بعنف مرة واحدة، وقالت: "إياك!"

"إنني أعدكِ بذلك".

لم أفهمْ في ذلك الوقت نصفَ ما قيل. وحتى لو فعلتُ ذلك فلماذا إذاً كنتُ لأكررَ الثرثرةَ الشريرةَ لزهرة الثلج؟ لقد كنتُ أحبُّ زهرة الثلج. ولم أكنْ لأجرحَ شعورَها بتكرار ملاحظات مدام "غاو" الحقودة.

سأضيفُ شيئاً واحداً فقط، وهو: لا بدَّ أن أمي قد قالت شيئاً ما لوالدي لأنه لم يعدْ يُسمح باستقبال مدام "غاو" في منزلنا مجدداً. وكانت كلُّ الأعمال الأخرى التي تُجرى معها تتمُّ على الكراسي خارجَ عتبة منزلنا. وهكذا كان والداي يهتمان بأمر زهرة الثلج. لقد كانت رفيقتي، ولكنهما كانا يحبانها بقدر ما كانا يحبانني.

حلَّ الشهرُ العاشرُ من عامي الثالث عشر. وتحولتْ سماء الصيف البيضاء الحارة خارجَ شبك النافذة إلى اللون الخريفي الأزرق. وبقي شهرٌ واحدٌ ليحين موعد زفاف الأخت الكبرى. وأرسلتْ عائلةُ العريس الدفعة الأخيرة من الهدايا. وباعتْ أخواتُ الأخت الكبرى بالقَسَم أحدَ المقادير الخمسة والعشرين من الأرز

واشترين هدايا بثمنها. وجاءتِ الفتياتُ إلينا من أجل "الجلوس والغناء في الطابق العلوي". وجاءت نساءٌ أخرياتٌ من القرية للزيارة ليشاركن في النشاطات، وليقدمن النصيحة والمواساة. فكنا طوال ثمانية وعشرين يوماً نغني الأغاني ونروي القصص. وساعدتِ الأخواتُ بالقَسمِ الأختَ الكبرى في صنعِ آخرِ اللُّحفِ ولفِ الأحذية التي صنعتها لأفراد عائلتِها الجديدة. وعملنا معاً جميعاً على كتبِ اليوم الثالث للزفاف التي كنا سنعطيها للأختِ الكبرى. فكان ذلك سيقدمُها للنساء في عائلتها الجديدة. فبذلنا جهدَنا جميعاً في كتابة الكلمات الصحيحة التي تصفُ أفضلَ صفاتِها ومميزاتِها.

قبلَ ثلاثة أيام من ذهابِ الأختِ الكبرى إلى بيتها الجديد، أقمنا "يوم الحزن والقلق". فجلستْ أمي على الدرَجة الرابعة المؤدية إلى حجرةِ الطابق العلوي وقدماها على الدرجة الثالثة. وبدأت تندبُ قائلة:

"أيتُها الابنة الكبرى، لقد كنتِ لؤلؤةً في يدي. وعيناي تفيضان بالدموع التي تسيلُ على خديّ. فسرعان ما سيكونُ هناك فراغٌ تخلفينه وراءك".

وبدأتِ الأختُ الكبرى، وأخواتُها بالقسم، ونساءُ القرية بالبكاء لدى سماعِ حزنِ أمي.

غنّتْ زوجة عمي تالياً وهي تتبعُ الإيقاعَ الذي بدأتْه أمي. وحاولتْ زوجة عمي كالمعتاد أن تكونَ متفائلة وسط الحزن، فقالت: "إنني قبيحةٌ ولا أتمتعُ بالكثير من الذكاء، ولكنني حاولتُ دائماً أن أحظى بطبيعة طيبة. وقد أحببتُ زوجي وأحبَّني. ونحن زوجان من البجع القبيح وغير الذكي، ولكننا نستمتعُ مع بعضنا البعض كثيراً. وآملُ أن تفعلا أنتما ذلك أيضاً".

عندما جاءَ دوري، رفعتُ صوتي قائلة: "أيتها الأختُ الكبرى، إن قلبي يبكي لفراقكِ. ولو كنا ابنين لما افترقنا، وكنا لنكون دائماً معاً مثل أبي وعمي ومثل الأخ الأكبر والأخ الثاني. إن عائلتنا حزينة. وستكونُ حجرةُ الطابق العلوي موحشة بدونك".

ولرغبتي أن أهديها أفضلَ هدية ممكنة، غنيتُ لها المعرفةَ التي قد تعلمتُها من زهرة الثلج، فقلت: "إنَّ الجميعَ يحتاجون إلى الثياب، مهما كان الطقس بارداً في الصيف أو دافئاً في الشتاء، لذا اصنعي الثياب للآخرين دون أن يُطلبَ منك ذلك. وحتى لو كانت مائدةُ الطعامِ وافرةً، دعي أهلَ زوجك يأكلون أولاً. اعملي بجدّ، وتذكري ثلاثة أشياء: كوني طيبةً مع أهل زوجك وأظهري لهم الاحترام دائماً، وكوني طيبةً مع زوجك وحيكي الثيابَ له دائماً، وكوني طيبةً مع أطفالكِ فكوني لهم دائماً نموذجاً للذوق. وإذا فعلتِ هذه الأشياء ستعاملكِ عائلتكِ الجديدةُ بلطف. كوني هادئة القلب في ذلك البيت الجميل".

بعدي جاءَ دورُ الأخواتِ بالقَسمِ. وقد كنَّ يحببن أختَهن بالقَسم. وقد كانت موهوبة ومراعية للآخرين. وعندما كانت الفتاةُ الأخيرة ستتزوجُ كانت أخويتهن ستنحلُّ. وكانت ستبقى لهن فقط ذكرياتُ التطريز والحياكة معاً. وكنَّ سيحظين فقط بالكلماتِ في كتبِ اليوم الثالث لزفافهن لتعزيهن في السنواتِ القادمة. عندما تموتُ واحدةٌ منهن فإنهن يتعاهدن على أن الأخوات الباقيات سيأتين إلى الجنازة ويحرقن كتاباتهن لكي تسافرَ الكلماتُ إلى العالم الآخر معها. وحتى عندما كانت الأخواتُ ممتلئاتٍ حزناً لفراقها، فقد كنَّ يأملنَ أن تكونَ سعيدة.

بعدَ أن غنى الجميعُ، وذرفن الكثيرَ من الدموع، قامتْ زهرة الثلج بعرض خاص، فقالت: "إنني لن أغني لكِ. وعوضاً عن ذلك، سأشاركك بالطريقة التي اكتشفتُها وأختك لنبقيكِ معنا دائماً". وسحبتْ مروحتنا من كمها، وفتحتْها، وقرأتِ المقطعَ الشعريَ البسيط الذي كتبناه معاً: "أيتها الأختُ الكبرى، والصديقةُ الطيبةُ، والهادئةُ، واللطيفةُ. إنك ذكرى سعيدة". ثم أشارتْ زهرة الثلج إلى الزهرة الوردية الصغيرة التي رسمتْها على إكليلنا الذي ينمو على الطرف العلوي للمروحة ليمثِّلَ الأختَ الكبرى إلى الأبد.

في اليوم التالي، جمعنا أوراقَ الخيزران وملأنا الدلاء بالماء. وعندما وصلتْ عائلةُ الأخت الكبرى الجديدة أمطرناهم بالأوراق كرمزٍ إلى أن الحبَّ بين العروسين سيكونُ نضراً بشكل أبدي كأوراق الخيزران. ثم رمينا الماء لنخبرَ عائلة العريس أنها طاهرةٌ كذلك السائل النقي الحيوي. وترافقَ ذلك المزاحُ بالكثير من الضحك والبهجة.

قضينا ساعاتٍ أخرى بتناول الوجبات والعويل. وتمَّ عرضُ المهر. فعلَّقَ الجميعُ على نوعية عمل الأخت الكبرى اليدوي. وكانت تبدو طوال النهار والليل جميلة بعينين متلألئتين بالدموع. وفي صباح اليوم التالي، دخلتِ المِحفَّةَ لتذهبَ إلى عائلتها الجديدة. وألقى الناسُ بالمزيد من الماء، وصاحوا قائلين: "تزويجُ البنت هو تماماً كإلقاء الماء على الأرض!" ومشينا جميعاً إلى طرفِ القرية، وراقبنا الموكبَ يعبرُ الجسرَ، ويغادرُ قرية "بوواي". وبعد ثلاثة أيام، أرسلنا إلى قرية الأخت الكبرى الجديدة كعك الأرز اللزج، والهدايا، وكتب اليوم الثالث للزفاف التي كانت ستُقرأُ بصوتٍ مرتفعٍ في غرفتها الجديدة في الطابق

العلوي. وكما تقتضي العادة، أخذَ الأخُ الأكبرُ في اليوم التالي عربة العائلة وأخذَ الأخت الكبرى وأحضرَها إلى البيت. وباستثناء الزيارات الزوجية بضعَ مرات في السنة، كانت ستستمرُ بالعيش معنا حتى نهاية حملها الأول.

إنَّ أكثرَ ما أتذكرُه من بين كل أحداث زواج الأخت الكبرى هو عندما عادت بعد زيارة زوجية إلى بيت زوجها في فصل الربيع التالي. وقد كانت عادةً هادئة. فكانت تجلسُ على كرسيها في الزاوية وتعملُ بإبرتها دون أن تتسببَ أبداً بأي شجار، وكانت دائماً مطيعةً. ولكنها الآن ركعت على الأرض ووجهها مدفون في حضن أمي وهي تبكي شاكيةً أحزانها. فقد كانت حماتُها سيئة المعاملة ودائماً تشكو وتنتقد. وكان زوجها جاهلاً وفظاً. وكان أهلُ زوجها يتوقعون منها أن تحملَ الماء وأن تغسلَ ثيابَ العائلة بأكملها. وكانت يداها خشنتين جداً من أعمال الأمس. ولم يكن أولئك الناسُ يحبون أن يطعموها، وكانوا يتحدثون بالسوء عن عائلتنا لعدم إرسالنا طعاماً كافياً لها عندما كانت تزورهم.

تكومَّتُ والقمر الجميل وزهرة الثلج معاً ونحنُ نصدرُ أصوات طقطقة بألسنتنا تعبيراً عن مواساتنا. ورغم أننا كنا حزينات من أجل الأخت الكبرى، فقد كنا في أعماقنا نعتقدُ أن هذا النوعَ من الأشياء لن يحدثَ لنا أبداً. وملَّستْ أمي شعر الأخت الكبرى، وربتتْ على جسمها المرتجف. وقد توقعتُ من أمي أن تقولَ لها ألا تقلق، وأن تلك كانت مشاكلَ مؤقتة وحسب، ولكنها لم تتفوه بأية كلمة. فنظرتْ أمي إلى زوجة عمي والعجزُ بادٍ في عينيها.

فقالت زوجة عمي بدون تعاطف ولكن باستسلام: "إنني في الثامنة والثلاثين

من عمري. وعشتُ حياة تعيسة. وقد كانت عائلتي عائلة طيبة، ولكنّ قدميَّ ووجهي صنعا مصيري. وحتى المرأةُ مثلي التي ليستْ ذكية كثيراً أو جميلة أو التي تكونُ مشوهة أو خرساء تجدُ لها زوجاً لأن حتى الرجل المعاق يستطيعُ أن ينجبَ ابناً. وقد زوَّجني والدي إلى أفضل عائلة استطاعَ أن يجدَها لتأخذَني. فبكيتُ كما تفعلين أنتِ الآن. وكان قدري أكثرَ قسوة. فلم أستطعْ أن أنجبَ أبناء. وأصبحتُ عبئاً على أهل زوجي. وأتمنى لو أنني أنجبُ ابناً وأحظى بحياة سعيدة. وأتمنى لو أن ابنتي لا تتزوجُ أبداً لكي تكونَ معي وتسمعَ أحزاني. ولكن هكذا هي الأمور بالنسبة للنساء. إنكِ لا تستطيعين أن تتجنبي مصيرك. فهو مقدَّر".

صدمتنا تلك الكلماتُ التي أتت من زوجة عمي، وهي الوحيدة في عائلتنا التي كان يمكنُ أن تُعتبرَ دائماً ممن يقولون شيئاً طريفاً، والتي لطالما تحدثتْ عن مدى سعادتِها مع عمي في حياتهما، والتي لطالما أرشدتنا في دراساتِنا ببهجتها. فمدّتِ القمر الجميل يدَها وضغطتْ على يدي. وقد امتلأت عيناها بالدموع لسماعِها هذه الحقائق التي لم يتحدثْ أحدٌ عنها بصوتٍ مرتفعٍ في حجرة النساء حتى الآن. ولم أفكّرْ من قبل قَطّ كم كانت الحياة قاسيةً على زوجة عمي، ولكن خطرتْ في ذهني كل السنواتُ السابقةُ التي لطالما كانت تضعُ فيها قناعاً باسماً على ما كان من الواضح أنه حياة مخيبةٌ للآمال.

لا حاجة للقول إن تلك الكلمات لم تخفف عن الأخت الكبرى. فانتحبتْ أكثرَ من ذي قبل، ووضعتْ يديها على أذنيها. فكان على أمي أن تتكلمَ، ولكنها عندما تكلمتْ انزلقت الكلماتُ التي خرجتْ من فمها من أعمق جزء في ال-

"ين". فكانت سلبية، ومظلمة، وأنثوية.

فقالت أمي بطريقة بدتْ منفصلة بشكل غريب: "لقد تزوجتِ، وذهبتِ إلى قرية أخرى، وحماتكِ قاسية، وزوجكِ لا يهتمُ بكِ. ونحن نتمنى ألا تغادري على الإطلاق. ولكن كلُّ فتاةٍ تتزوجُ. والجميعُ يوافقُ على هذا، ويتماشى معه. ويمكنك أن تبكي وتتوسلي لتعودي إلى البيت، ويمكننا أن نحزنَ لأنكِ غادرتِ، ولكن ليس لديكِ أو لدينا خيار. فالمقولة القديمة تقول: إذا لم تتزوجِ الفتاةُ فهي عديمةُ القيمة. وإذا لم تدمِّرِ النارُ الجبلَ فلن تصبحَ الأرضُ خصبة".

أيام التزين بدبابيس الشعر

شمُّ النسائم العليلة

بلغتُ وزهرة الثلج الخامسة عشرة من عمرنا. وزُيِّن شعرنا بالدبابيس على شكل طيور العنقاء كرمز إلى أننا كنا سنتزوجُ عما قريب. وقد كنا نعملُ على مهرينا بجدية. وكنا نتحدثُ بصوت ناعم، ونمشي على أقدامنا الصغيرة برشاقة. وأصبحنا متمكنتين تماماً من لغة الـ "نو شو". وعندما كنا نفترق، كنا نكتبُ لبعضنا البعض يومياً تقريباً. وكنا نساعدُ في الأعمال المنزلية كالكنس، وقطف الخضار من حديقة المنزل، وتحضير الوجبات، وغسل الصحون والملابس، والحياكة، والخياطة. فأصبحنا نُعتبَر امرأتين ناضجتين، ولكننا لم نكن نقومُ بمسؤوليات النساء المتزوجات بعد. وكان رأسانا ينحنيان معاً ونحن نهمسُ ونطرز. فكنا نحبُّ بعضنا البعض بالطريقة التي كنتُ أتوقُ لها عندما كنتُ فتاة صغيرة.

في تلك السنة، جاءت زهرة الثلج للإقامة عندنا لحضور مهرجان "شم النسائم العليلة" الذي كان يبدأ خلال أكثر الأوقات حرارة في السنة عندما يكونُ مخزون حصاد السنة الفائتة قد نفد تقريباً ولا يكونُ الحصاد التالي قد أصبحَ جاهزاً بعد. فكان هذا يعني أن النساء المتزوجات، وهن أدنى الأشخاص مكانة في أية عائلة، يتمُّ إرسالهن عائدات إلى بيوت أهلهن لأيام أو أحياناً لأسابيع. وإننا ندعو هذا مهرجاناً، ولكنه في الواقع عبارة عن عدة أيام تُبعِدُ الآكلات غير المرغوب بهن من على موائد أهالي أزواجهن.

كانت الأختُ الكبرى قد انتقلت إلى بيت زوجها بشكل دائم. وكان طفلها الأول على وشك أن يُولَد، ولم يكن هناك مكان آخر حيث كان يمكنها أن

تمكث. وكانت أمي تزورُ عائلتها. وكانت قد أخذت الأخ الثاني معها. وكانت زوجة عمي قد ذهبت أيضاً إلى بيت أهلها، بينما كانت القمر الجميل ستمكثُ مع أخواتها بالقَسَم عبرَ القرية. وكانت زوجة الأخ الأكبر وابنته يحضران احتفال "شم النسائم العليلة" مع عائلة أهلها. وكان والدي وعمي وأخي الأكبر سعيدين لأنهم تُركوا لوحدهم. ولم يكونوا يريدون شيئاً مني ومن زهرة الثلج سوى الشاي الساخن، والتبغ، والبطيخ المقطَّع. وهكذا، طوال ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ من مهرجان "شم النسائم العليلة" الذي يدوم أسبوعاً، بقيتُ وزهرة الثلج وحدنا في حجرة الطابق العلوي.

في الليلة الأولى، استلقينا جنباً إلى جنب، ونحن نرتدي أربطة أقدامنا، وخفي نومنا، وملابسنا. فدفعنا سريرنا تحت شبك النافذة على أمل أن يهبَ علينا النسيمُ العليل، ولكن لم يكن هناك من نسيم، بل السكون الحار فقط. وكان القمرُ سيكتملُ عما قريب. فكانت أشعتُه التي دخلت عبر النافذة تنعكسُ على وجهينا اللذين كانا يتصببان عرقاً مما جعلنا نشعرُ بالحر أكثر.

في الليلة التالية، كان القمر مكتملاً. وكانت حجرة الطابق العلوي مغمورة بالوهج الأزرق الساطع. وشعرنا بالهواء يمرُّ على جسدينا، ولكنه لم يكن نسيماً عليلاً، وكنا ما نزالُ نشعرُ بالحر.

وقالت زهرة الثلج، وقد سرقتِ الفكرة التي كنتُ أفكرُ بها: "إن هذا ليس كافياً".

وقفت، ومدّت يدها إلى مروحتنا. ففتحتْها ببطء، وبدأت تلوّح بها جيئة وذهاباً علينا. ورغم أن الهواء كان حاراً، إلا أنه كان شعوراً عذباً. ولكنَّ زهرة

الثلج عبست، وأغلقت المروحة، ووضعتها جانباً.

لقد كانت زهرة الثلج ترتدي خفَّ نومها الأحمر الصيفي. وكانت قد اختارت نموذجاً لتطريزها، وهو السامات الخمس، أم أربعة وأربعين، والضفادع، والعقارب، والأفاعي، والسحالي. وكانت هذه هي الرموز التقليدية التي كانت تُستخدَمُ لتقاومَ الأشرار التي تأتي مع الصيف كالكوليرا، والطاعون، والتيفوئيد، والملاريا، والتيفوس. وقد كانت قُطب تطريزها مثالية.

بينما كنا مستلقيتين معاً، كتبت زهرة الثلج شيئاً في الهواء. فأغلقتُ عينيّ وأنا أحاولُ أن أخمن ما كانت قد كتبته.

ثم فتحتُ عينيّ، وقلت: "السريرُ مضاءُ بنور القمر".

فابتسمتْ لأنني ميزتُ البيت الافتتاحي لقصيدة سلالة "تانغ" التي علمتني إياها.

ثم ألقينا القصيدة بأكملها معاً:

السريرُ مضاءٌ بنور القمر.

أعتقدُ أنه الثلج الخفيف لصباح شتوي باكر.

وعندما أنظرُ إلى الأعلى، أستمتعُ برؤية البدر في سماء الليل.

وعندما أمدُّ بصري هناك، أشتاقُ لموطني.

كنا جميعاً نعرفُ أن القصيدة كانت عن عالم كان مسافراً ومشتاقاً لدياره. ولكنني في تلك الليلة وإلى الأبد اعتقدتُ أنها كانت عنا. فقد كانت زهرة الثلج موطني، وكنتُ موطنها.

القمر الجميل

عادت القمر الجميل من زيارةٍ لصديقاتها في اليوم التاليِ. فعدنا إلى العمل. وقبل بضعة أشهر كانت عائلةُ زوج كل واحدة منا قد حدَّدتْ موعدَ الزفاف بالإضافة إلى الأقساط الأولى من مهورنا الرسمية. وأرسلوا المزيدَ من لحم الخنزير والحلوى بالإضافة إلى صناديقَ خشبية فارغة لنملأها بالأشياء التي كنا سنصنعُها من أجل مهورنا. وأخيراً، والأهم من كل شيء، أرسلوا إلينا القماش.

لقد سبقَ وقلتُ إن أمي وزوجة عمي كانتا تصنعان القماش من أجل عائلتنا. أما الآن فقد أصبحتُ والقمر الجميل خبيرتين بالحياكة بأنفسنا. ولكن عبارة "منتج محلياً" هي ما يخطرُ في ذهني عندما أفكّرُ بما كنا نصنعُه. فقد كان والدي وعمي يزرعان القطنَ، وكانت النساء في عائلتنا ينظفن المحصول. وقد كنا نستعملُ شمعَ العسلِ لصنعِ التصاميم، والأصبغةَ لتحويلِ القماش إلى اللون الأزرق بكميات قليلة لأننا كنا مقتصدين جداً.

باستثناء ما كنا قد صنعناه بأنفسنا، يمكنني فقط أن أقارنَ بين قماش زفافي بذلك الذي استُخدمَ في سترات زهرة الثلج، وسراويلها، وأغطية رأسها والتي صُنعتْ من أقمشة جميلة وأشكالٍ راقية لتصبحَ خزانة ملابس عصرية. وكان أحدُ أثوابها المفضلة عندي والذي كانت ترتديه في تلك الأيام مصنوعاً من القماش النيلي اللون. فكان التفصيلُ المعقد النيلي وقصَّةُ السترة أفضلَ من أي شيء امتلكتْه النساء المتزوجات في قرية "بوواي" أو صنعنه. وكانت زهرة الثلج ترتديه بكل بساطة حتى بدأ يهترئ وتبهتُ ألوانه. وما أحاولُ قولَه هو أن

القماشَ وقَصَّته قد ألهماني. فأردتُ أن أصنعَ ثياباً لنفسي بحيث تكونُ مناسبةً لي للاستعمال اليومي في قرية "تونغكو".

لكنَّ القطنَ الذي أرسلَه أهلُ زوجي كجزء من مهري غيَّرَ كل مفاهيمي. فقد كان ناعماً، وبدون بذور، وذا تصاميمَ معقدة، ومصبوغاً باللون النيلي الداكن القوي الذي يقدِّرُه الناسُ الذين ينتمون لقبيلة الـ "ياو". فأدركتُ بتلك الهدية أنه كان ما يزالُ عليَّ أن أتعلمَ وأحققَ الكثير. ولكن حتى هذا القطن كان لا شيء مقارنةً بالحرير. فما وصلَ إليَّ لم يكن من نوعية جيدة وحسب وإنما كان ذا لون مثالي. وكان اللون الأحمرُ يُستخدَمُ من أجل الزواج، ولكنه كان يُستخدَمُ للذكرى السنوية، واحتفالات السنة الجديدة، والاحتفالات الأخرى أيضاً. وكان اللونان الأرجواني والأخضر مناسبين للزوجة الشابة. وكان اللونان الرمادي المائل للأزرق كلون السماء قبل العاصفة والأخضر المائل للأزرق كلون بحيرة القرية في الصيف من أجل سنواتي كامرأة كهلة وكأرملة. وكان اللونان الأسود والكحلي من أجل الرجال في بيتي الجديد. وكان بعضُ الحريرِ بسيطاً بينما كان بعضُه الآخر منسوجاً بحيث يتضمنُ تصاميم الزهور والغيوم.

لم أعطَ لفافاتِ الحرير والقطن التي أرسلها أهلُ زوجي لأحصلَ عليها كما كان يسرُني أن يحدث. بل كان يجبُ أن تُستخدمَ في تحضيرِ مهري، تماماً كما كان يجب على القمر الجميل وزهرة الثلج أن تفعلا بهداياهما لتصنعا مهريهما. فكان علينا أن نصنعَ لُحفاً، وأغطية، ووسائد، وأحذية، وملابس تكفي طوال الحياة لأن النساء اللواتي ينتمين إلى قبيلة الـ "ياو" يعتقدن أنه لا ينبغي عليهن أن يأخذن شيئاً من أهل أزواجهن. أما بالنسبة للُّحف، فيمكنني أن

أقولَ عنها إن صنعَها يسببُ الملل والحر. وعلى أية حال، فلأن الجميعَ يعتقدُ أن المرأة كلما أحضرتْ لُحفاً أكثرَ لأهل زوجها فستنجبُ أطفالاً أكثر، فقد صنعنا أكبرَ عدد ممكن منها.

ما كنا نحبُّ صنعَه كان الأحذية. فكنا نصنعها لأزواجنا، وآبائهم، وأمهاتهم، وأي شخص آخر كان يعيشُ في بيوتنا الجديدة بمن فيهم الإخوة، والأخوات، والكنات، وكل الأطفال. وقد كنتُ محظوظة. فقد كان زوجي الابنَ الأكبر. وكان له ثلاثة إخوة أصغر منه فقط. وكانت أحذية الرجال غير مزخرفة. لذا، كان بإمكاني أن أصنعَها بسرعة. وكانت القمر الجميل تحملُ عبئاً أكبر. فقد كان في بيتِها الجديد ابنٌ واحد بالإضافة لوالديه، وخمس أخوات، وعمه، وزوجة عمه، وأطفالهما الثلاثة. لقد صنعنا نحن الفتيات أيضاً ستة عشر زوجاً من الأحذية لأنفسنا. فكانت هناك أربعة أزواج من الأحذية لكل فصل من فصول السنة. وكان سيتمُ تفحصُ هذه الأحذية بدقَّة أكثرَ من الأشياء الأخرى التي صنعناها. ولكننا كنا سعيدات بمعرفة ذلك لأننا منحنا كل زوجٍ من الأحذية أقصى عناية ممكنة من صنع النعال إلى آخرِ قطب التطريز. فساعدَنا صنعُ الأحذية على عرضِ مهاراتنا التقنية والفنية على حدٍّ سواء. ولكن ذلك قد أرسلَ أيضاً رسالة مبهجة ومتفائلة. فقد كانت كلمة "حذاء" في لهجتنا تبدو مثل كلمة "طفل". وكما هو الحال مع اللُّحف، فكلما صنعنا أحذية أكثر كنا سننجبُ أطفالاً أكثر. وكان الفرقُ هو أن صنعَ الأحذية يتطلبُ دقة في حين أن صنعَ اللُّحف عملٌ صعب. ولأننا كنا ثلاث فتيات نعملُ جنباً إلى جنب فقد كنا نتنافسُ في ألطف طريقة لصنعِ أجمل التصاميم خارجَ كل زوج من الأحذية بينما نمنحُ

القوة والدعم لداخله.

لقد أرسلتْ عائلاتنا المستقبلية نماذجَ لأقدامهم. ولم نكن قد التقينا بأزواجنا، ولم نكن نعلمُ إن كانوا طوال القامة أم أن وجوههم كانت تكسوها علاماتُ الجدري، ولكننا علمنا قياساتِ أقدامهم. وقد كنا فتيات صغيرات رومانسيات ككل من هن في مثل سننا. وتخلينا أشياء كثيرةً تتعلقُ بأزواجنا من تلك النماذج. فثبتَ أن بعضها صحيح. أما معظمُها فلم يكن صحيحاً.

استخدمنا النماذجَ لنقصَّ قطعاً من القماش القطني ثم ألصقنا معاً ثلاث طبقات من طبعات الأقدام تلك في نفس الوقت. فصنعنا عدة أطقم من هذه ووضعناها على عتبة النافذة لتجف. وقد جفّتْ بسرعة خلال موسم "شم النسائم العليلة". وحالما جفّت تلك النماذج ذات الطبقات، أخذناها وكوَّمناها مع بعضها البعض، ثم قمنا بخياطتِها لتصبحَ نعلاً سميكاً وقوياً. ومعظمُ الناسِ يصنعون نموذجاً بسيطاً مكرراً يبدو مثل حبوب الأرز، ولكننا أردنا أن نثيرَ إعجابَ عائلاتنا الجديدة. لذا قمنا بتطريز تصاميم مختلفة، مثل فراشة تفردُ جناحيها للزوج، أو زهرة أقحوان متفتحة للحماة، أو جدجد على غصن للعم. وكل ذلك العمل كان فقط للنعال. ولكننا كنا نعتبرُ تلك الأشياء بمثابة رسائل للناس الذين كنا نأملُ أن يحبونا عندما نتزوج.

كما قلتُ، كان الطقسُ حاراً بشكل لا يحتملُ خلال موسم "شم النسائم العليلة". فكنا نتصبّبُ عرقاً في حجرة الطابق العلوي. وكان الطقسُ أفضلَ بقليل في الطابق السفلي. فكنا نشربُ الشاي على أمل أن ينعشَ أجسادنا. ولكننا عانينا حتى ونحن مرتديات ستراتنا وسراويلنا الصيفية الخفيفة. لذا، كنا

نتحدثُ غالباً عن الذكريات المنعشة من أيام طفولتنا. فتحدثتُ عن وضع قدميّ في النهر. وتذكرتِ القمر الجميل ركضَها عبرَ الحقول خلال فترة الخريف المتأخر والهواء المنعشُ يهبُ على وجنتيها. وكانت زهرة الثلج قد سافرتْ مرة إلى الشمال مع والدها وأحست بالرياح الباردة التي تهبُّ من منغوليا. ولكن تلك الأشياء لم تخفّف عنا، بل كانت تعذّبنا.

أشفقَ والدي وعمي علينا. وقد كانا يعرفان أكثرَ مما كنا نعرفُ عن قسوة الطقس. فقد كانا يعملان كل يومٍ تحت الشمس المحرقة. ولكننا كنا فقراء. ولم تكن لدينا حديقة داخلية لنستريحَ فيها، أو أرضٌ حيثُ يمكن أن يحملَنا الحمالون لنجلسَ تحت ظلِّ إحدى الأشجار، أو أيُّ مكان حيث يمكنُ أن نكونَ محجوبين كلياً عن عيون الغرباء. وعوضاً عن ذلك، أخذَ والدي بعضاً من قماش أمي، وقام بمساعدة عمي بتعليق مظلّة من أجلنا في القسم الشمالي من المنزل. ثم مدَّا بعض اللُّحف الشتوية المبطنة على الأرضِ لكي يكونَ لدينا شيءٌ طريٌ نجلسُ عليه.

قال والدي: "إن الرجال يكونون في الحقول خلال اليوم. ولن يروكن. فيمكن لكنّ أيتها الفتيات أن تقمنَ بعملكن هنا إلى أن يتغيرَ الطقس. عليكن فقط ألا تخبرنَ أمهاتكن".

كانت القمر الجميل معتادةً على السير إلى بيوت أخواتِها بالقَسَم ليقمنَ بجلسات التطريز وما شابه ذلك. ولكنني لم أخرجْ من المنزل في قرية "بوواي" هكذا منذ سنواتِ طفولتي. وبالطبع، فقد خطوتُ فوق عتبة منزلنا إلى مِحفَّة مدام "وانغ" وقطفتُ الخضار من حديقة بيتنا. ولكن لم يكنْ يسمحُ لي أن أنظرَ

إلى أبعدَ من ذلك سوى من خلال شبك النافذة إلى الزقاق الذي يمرُّ بمنزلنا. ولم أكنْ قد شعرتُ بإيقاع القرية لوقتٍ طويل.

لقد كنا سعيداتٍ بشكل رائع. وكنا ما نزالُ نشعرُ بالحرّ، ولكننا كنا سعيدات. وبينما كنا جالساتٍ في الظلِ ونحن نشمُ الهواء العليل كما يعدُ المهرجان، كنا نطرِّزُ وجوهَ الأحذية أو نقومُ بتركيبها آخرَ مرة. وكان تطريزُ القمر الجميل مركَّزاً على خفِّ زفافها الأحمر، وهو الأغلى بين جميع الأحذية. وكانت قد طرَّزتْ عليه براعم اللوتس الزهرية والبيضاء لترمزَ لطهارتِها وخصوبتها. وكانت زهرة الثلج قد أنهتْ لتوِّها زوجاً من الأحذية باللون السماوي، وطرَّزت عليه شكل غيمة من أجل حماتها، فكان موضوعاً بجانبنا على اللحاف وهو يبدو أنيقاً ورائعاً ومُذكراً لطيفاً بالعمل العالي الجودة الذي كان ينبغي علينا أن نصرَّ على تحقيقه في كل مشاريعنا. وقد ملأني سعادةً وأعادَ إلى ذاكرتي صورة السترة التي ارتدتْها زهرة الثلج في اليوم الأول الذي التقينا فيه. ولكن لم يكن يبدو على زهرة الثلج أن أفكاراً تواقة كتلك تهمّها، فقامتْ بمجرد الانتقال إلى زوجٍ آخر من الأحذية لنفسها مصنوعٍ من القماش الأرجواني المزركش باللون الأبيض. وعندما تكتبُ أحرف كلمتي "أرجواني" و"أبيض" فإنهما تعنيان "الكثير من الأطفال". وكما كان المعتاد مع زهرة الثلج فقد اتخذتْ زخرفاتُ تطريزها السماء كإلهام لها. ففي تلك المرة، كانت طيورٌ ومخلوقاتٌ طائرةٌ أخرى تلتفُ وتحلِّقُ على قطعِ القماش الصغيرة. وفي غضون ذلك، كنتُ أنهي زوجاً من الأحذية لحماتي. كان قياسُ قدمِها أكبرَ من قياس قدمي بقليل. فامتلأتُ فخراً لمعرفة ذلك. فسيكونُ عليها بناءً على حجم قدمي وحده أن تعتبرَني

جديرةً بابنها. ولم أكنْ قد قابلتُ حماتي بعد. لذا، لم أكن أعرفُ ما كانت تحبُّه وما كانت تكرهه. ولكنني خلال حرارة تلك الأيام لم أفكّرْ سوى بالبرودة. فكان تصميمي الذي يغطي الحذاء مؤلفاً من منظر طبيعي، ونساء يأخذن استراحةً تحت شجرة صفصاف بجانب أحد الجداول. وكان ذلك خيالاً. ولكنه لم يكن خيالياً أكثرَ من الطيور الأسطورية التي كانت تزينُ حذاء زهرة الثلج.

كنا نشكلُ صورةً جميلة، ونحن جالسات هناك على تلك اللحفُ، وأرجلنا مطوية تحتنا، ثلاث فتياتٍ شابات، وكلنا مخطوبات لعائلاتٍ طيبة، نعملُ ببهجة على مهورنا، ونظهرُ سلوكنا الحسن لأولئك الذين كانوا يزورونا. فكان الصبيةُ الصغارُ يقفون ليتحدثوا إلينا بينما يخرجون لجمع حطب الموقد أو لأخذِ جاموس العائلة إلى النهر. وكانت الفتيات الصغيراتُ المسؤولات عن إخوتهن يدعننا نمسكُ بإخوتهم أو أخواتهم الأطفال. فتخيلنا كيف سيكونُ الأمرُ عندما نعتني بأطفالنا. وكانت الأراملُ العجائزُ اللواتي كانت مكانتهن وسلوكهن آمنين يأتين إلينا ليثرثرن، وليتفحصن تطريزنا، وليعلِّقن على شحوب بشرتنا.

في اليوم الخامس، أتت مدام "غاو" لزيارتنا. وكانت قد عادتْ لتوها من قرية "غيتان" حيث كان تتفاوضُ على زواج. وبينما كانت هناك، سلَّمتْ مجموعةً من الرسائل منا إلى الأخت الكبرى، وأخذتْ رسالة منها إلينا. ولم يكنْ أحدٌ منا يحبُ مدام "غاو"، ولكننا نشأنا على احترام من هم أكبرُ منا سناً. فقدمنا لها الشاي، ولكنها رفضتْ أن تحتسيه. ولأنه لم يكنْ هناك مالٌ لتجنيه منا، فقد سلمتني الرسالةَ، وعادتْ إلى مِحفَّتها. فراقبناها حتى انعطفتْ حول الزاوية. ثم

استخدمتُ إبرةَ التطريز لأفتحَ الختم. وبسببَ ما حدثَ لاحقاً في ذلك اليوم، ولأن الأختَ الكبرى كانت تستخدمُ الكثيرَ من عبارات كتابة الـ "نو شو" الفصيحة، أعتقدُ أنه يمكنني أن أعيدَ صياغة معظمَ ما كتبته:

إلى عائلتي،

إنني أتناولُ اليوم ريشةً وقلبي يطيرُ بعيداً نحو الديار.

أكتبُ لعائلتي وأقدمُ التحيات لوالديَّ ولعمي وزوجة عمي.

وعندما أفكرُ بالأيام الماضية لا تستطيعُ دموعي التوقفَ عن التدفق.

ما زلتُ أشعرُ بالحزن لفراقي البيت.

بطني كبيرٌ بسبب الحمل، وأشعرُ بالحر في هذا الطقس.

إن أهلَ زوجي حقودون.

وأنا أقومُ بكل عمل المنزل.

ويصعبُ عليَّ أن أرضيهم في هذه الحرارة.

يا أختي وابنة عمي، اعتنيا بأمي وأبي.

فنحن النساءُ يمكننا أن نأملَ فقط أن يعيشَ والدانا سنواتٍ عديدة.

وبتلك الطريقة سيكونُ لدينا مكانٌ نعود إليه من أجل الاحتفالات.

وفي بيت أهلنا سيكونُ لدينا دائماً أشخاصٌ يعتزون بنا.

من فضلكما كونا رفيقتين مع أبوينا.

ابنتكم، وأختكم، وابنةُ عمكم

فرغتُ من قراءة الرسالة، وأغمضتُ عينيّ، وأخذتُ بالتفكير. فشعرتُ بالكثير من الحزن من أجل الأخت الكبرى، والكثير من البهجة من أجل نفسي. وكنتُ

ممتنةً لأننا كنا نتّبعُ التقليدَ الذي يقضي بعدم إقامة الفتاة في بيت زوجها إلى ما قبل ولادة طفلها الأول مباشرة. فكان ما يزالُ أمامي عامان قبل زواجي، وربما ثلاثة أعوام قبل أن أنضمَ إلى أهل زوجي بشكل دائم.

قاطعَ أفكاري صوتٌ يشبه صوتَ النشيج. ففتحتُ عينيّ، ونظرتُ إلى زهرة الثلج. وكان هناك تعبيرٌ مذهولٌ على وجهها وهي تحدِّقُ إلى شيء على يمينها. فتبعتُ نظرتَها إلى القمر الجميل التي كانت تفركُ عنقها وتأخذُ نفساً عميقاً.

فسألتُ: "ما الخطب؟"

وكان صدرُ القمر الجميل يلهثُ بسبب الجهد الذي كانت تبذلُه في استنشاق الهواء. وكان ذلك صوتاً لا أنساهُ أبداً.

نظرتْ إليَّ بعينيها الجميلتين. وتوقفتْ يدُها عن الفرك، وقبضتْ على جانب عنقِها. ولم تحاولْ أن تقف. بل جلستْ وساقاها مطويتان تحتها، وهي ما تزالُ تبدو كشابة جالسة في الظل في فترة العصر الحار. وكان تطريزُها على حضنها. ولكنني استطعتُ أن أرى أن عنقَها تحتَ يدِها قد بدأ يتورم.

فقلتُ بإلحاح: "يا زهرة الثلج أحضري مساعدة. أحضري أبي وعمي. أسرعي!"

رأيتُ بطرفِ عيني زهرة الثلج وهي تحاولُ ما بوسعها أن تركضَ على قدميها الصغيرتين. وكان صوتُها غير معتاد على الصراخ، فخرجَ غير مستقر ومرتفعَ الطبقة وهي تقول: "النجدة! النجدة!"

زحفتُ عبرَ اللحاف إلى جانب القمر الجميل. ورأيتُ على تطريزها نحلة

تجهدُ نفسها لتبقى على قيد الحياة. ولا بدَّ أن إبرة النحلة كانت في عنق ابنة عمي. فأخذتُ بيدها الأخرى، وأمسكتُها بيدي. فانفتحَ فمُها، وكان لسانُها في الداخل يكبرُ، ويحتقنُ بالدم.

وسألت، "ماذا يمكنني أن أفعل؟ هل تريدين مني أن أحاولَ إخراجَ الإبرة؟"

وكنا نعلمُ كلتانا أن الأوانَ قد فاتَ على فعلِ ذلك.

وسألتُها، "هل تريدين ماءً؟"

فلم تستطع القمر الجميل أن تجيب. وكانت الآن تتنفسُ فقط من خلال منخريها. وكان كلُّ نفس يتطلبُ جهداً كبيراً.

سمعتُ صوت زهرة الثلج في مكانٍ ما في القرية وهي تنادي: "أيها الأب، أيها العم، أيها الأخ الأكبر! ليساعدنا أحدكم!"

تجمَّعَ أولئك الأطفالُ الذين كانوا قد زارونا قبل بضعة أيام حولَ لحافنا، وكانوا فاغرين أفواههم وهم يشاهدون عنقَ القمر الجميل، ولسانها، وجفنيها، ويديها تتورم. وتحوَّل لون جلدها من شحوب القمر الذي يوحي به اسمها إلى اللون الزهري، والأحمر، والأرجواني، والأزرق. فبدتْ كمخلوقة من قصة للأشباح. ووصلتْ بضعٌ من أرامل قرية "بوواي". فهززن رؤوسهن بتعاطف.

أغلقتِ القمر الجميل عينيها كعيني. وكانت يدُها قد انتفخت كثيراً بحيثُ إن أصابعها كانت تبدو مثل النقانق في راحة يدي. وكان جلدُها لامعاً ومشدوداً، وبدا أنه كان على وشك أن يتمزَّق. فحضنتُ اليدَ الضخمة في يدي.

توسلتُ قائلة: "أيها القمر الجميل، أصغي إليَّ. إنَّ والدك قادمٌ، فانتظريه. إنه يحبُّك كثيراً. ونحن جميعاً نحبك. أيها القمر الجميل، هل تسمعينني؟"

بدأتِ النساءُ العجائزُ بالبكاء. وتشبثَ الأطفالُ ببعضهم البعض. لقد كانت حياةُ الريف صعبة جداً. فمن منا لم يرَ الموت؟ ولكنه كان أمراً نادراً أن يرى المرءُ شجاعة كهذه، وهدوءاً كهذا، وجمالاً في العزم كهذا في اللحظات الأخيرة.

قلتُ لها: "لقد كنتِ ابنةِ عمٍ صالحة. ولطالما أحببتكِ. وسأبجلُكِ إلى الأبد".

أخذتِ القمر الجميل نفساً آخر. فكان صوتُ هذا النَفَس يشبهُ صوت مفصلٍ يصرُّ. وكان صوتاً منخفضاً. ولم يتمكن أي هواء تقريباً من أن يدخلَ جسمها.

"أيها القمر الجميل، أيها القمر الجميل..".

انتهى الصوتُ الرهيب. وكانت عيناها مجردَ شقين في وجه مشوَّه بشكل قاس. ولكنها نظرت إليَّ بتفهم كامل. وكانت قد سمعتْ كل كلمة قلتُها لها. وفي آخر لحظة من حياتها عندما لم يعد أي هواء يمكنُ أن يدخلَ إلى جسمها أو أن يخرجَ منه، شعرتُ وكأنها كانت تنقلُ إليَّ الكثيرَ من الرسائل. أخبري أمي أنني أحبها، وأخبري أبي أنني أحبه، وأخبري والديكِ أنني ممتنةٌ لكل ما فعلاه من أجلي. ولا تدعي الرجالَ يعانون من أجلي. ثم مال رأسُها إلى الأمام على صدرها.

لم يتحركْ أحد. وكان كلُّ شيء ساكناً كالصورة التي طرَّزتُها على حذائي. وكان صوتُ البكاء والاستنشاق فقط هو ما يمكنُ أن يُعلمَ الآخرين بوجودِ خطبٍ ما.

هرعَ عمي إلى الزقاق، واندفعَ من بين الناس إلى اللحاف حيث كنتُ والقمر الجميل جالستين. وكانت هادئة جداً في جلستها، فمنحَه ذلك أملاً. ولكن وجهي ووجوهَ الآخرين حولنا أخبرته بعكس ذلك. فصدرتْ منه صرخةٌ رهيبةٌ

وهو يهبطُ على ركبتيه. وعندما رأى حالة وجه القمر الجميل، صدرتْ منه صرخةٌ مرعبة أخرى. فهربَ بعضُ الأطفال الصغار. وكان عمي متعرقاً جداً من العمل في الحقول ومن الركض عائداً إلينا بحيث إنني استطعتُ أن أشمَّ رائحته. وانهمرتِ الدموع من عينيه، ثم تقاطرت من أنفه، وخدّيه، وفمه وتلاشت في قميصه المبلل بالعرق.

وصلَ والدي وركعَ بجانبي. وبعد بضعِ ثوانٍ، اندفعَ الأخ الأكبرُ من خلال الجَمْع وهو يلهثُ، وكانت زهرة الثلج على ظهره.

استمرَ عمي بالتحدثِ مع القمر الجميل قائلاً: "استيقظي يا صغيرتي. استيقظي. سأحضرُ أمك. فهي بحاجة لك. استيقظي، استيقظي".

فأمسكَ أبي بذراعِه، وقال: "لا فائدة من هذا".

كان عمي جالساً في وضعية شبيهة بصورة مخيفة بوضعية القمر الجميل. فكان رأسهُ منحنياً إلى الأمام، وساقاه مطويتان تحته، ويداه على حضنه. فكلُّ شيء كان متشابهاً باستثناءِ الأسف الذي كان يتقاطرُ من عينيه، والحزن الخارج عن السيطرة الذي كان يحطمُ جسمه.

سألَ والدي، "هل تريدُ أن تأخذَها أم أفعلُ هذا أنا؟"

فهزَّ عمي رأسَه. ودون أن يتفوَه بكلمة، أخرجَ إحدى ساقيه من تحته، ووضعَها على الأرضِ ليثبتَ نفسَه. ثمَ رفعَ القمر الجميل وحملَها إلى داخل البيت. ولم يؤذِ أي أحد منا عملَه بشكل واضح. فكانت زهرة الثلج هي الوحيدة التي تصرفت جيداً بأن تحركت بسرعة إلى الطاولة في الغرفة الرئيسية، وأزالتْ فناجين الشاي التي كنا قد وضعناها هناك من أجل الرجال لدى عودتِهم من

الحقول. ومدَّد عمي القمر الجميل. واستطاعَ الجميعُ الآن أن يروا كيف خرَّبَ سمُّ النحلة وجهها وجسمها. وأنا أستمرُ بالتفكير في نفسي بأن الأمرَ استغرقَ خمس دقائق فقط لا أكثر.

مجدداً، تولّتْ زهرة الثلج السيطرة على الموقف، فقالت: "أرجو المعذرة. ولكنكم بحاجة لإحضار الآخرين".

عندما أدركَ عمي أن ذلك يعني أنه كان يجبُ إخبارُ زوجتة عن وفاة القمر الجميل ازدادَ نحيبه. وكنتُ نفسي بالكاد أستطيعُ أن أفكرَ بزوجة عمي. فقد كانت القمر الجميل سعادتَها الحقيقية الوحيدة. وقد صُدمتُ بما حدثَ لابنةِ عمي بحيثُ إن الفرصة لم تسنحْ لي بعد لأشعرَ بأي شيء. أما الآن فقد فقدتْ ساقاي قوتهما وامتلأتْ عيناي بالدموع حزناً على ابنةِ عمي الحلوة وشفقة على عمي وزوجته. فوضعت زهرة الثلج ذراعها حولي، واقتادتني إلى أحد الكراسي، وهي تعطي الإرشادات طوال الوقت.

قالت آمرة: "أيها الأخ الأكبر، أسرع إلى قرية زوجة عمك. إنَّ معي بعض المال، استخدمْه باستئجار مِحفَّة لها. ثم أسرع إلى قرية أمك، وأحضرْها إلى البيت. وسيكونُ عليك أن تحملَها كما فعلتَ معي. وربما يستطيعُ الأخُ الثاني أن يساعدَك. ولكن أسرع، فزوجةُ عمك ستحتاجُ إليها".

ثم انتظرنا. وجلسَ عمي على أحد الكراسي بجانب الطاولة وهو يبكي بشدة على سترة القمر الجميل بحيث إن البقعَ قد انتشرتْ على القماش كالسحبِ الممطرة. وحاول أبي أن يخفّفَ عن عمي. ولكن ما الفائدة؟ فلا يمكنُ لأحد أن يخفّفَ عنه. وأيُّ شخص يقولُ إن الناس المنتمين لقبيلة الـ "ياو" لا يهتمون

بأمر بناتهم هو كاذب. فقد نكونُ عديمات القيمة، وقد تربينا عائلاتنا من أجل عائلاتٍ أخرى، ولكن عائلاتنا الأصلية غالباً ما تحبنا، وتعتزُ بنا، رغم محاولاتهم ألا يبدوا لنا أية مشاعر. ففي أي مكان آخر في كتابتنا السرية توجدُ غالباً عبارة مثل: "لقد كنتُ لؤلؤة في كفّ والدي"؟ وربما نحاولُ كآباء ألا نهتم. فقد حاولتُ ألا أهتمَ بأمر ابنتي. ولكن ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ لقد أكلت من رزقي كما فعلَ أبنائي، وبكتْ في حضني، وشرَّفتني بأن أصبحتْ امرأةً طيبة موهوبة بارعة بكتابة ال "نو شو". أما لؤلؤة عمي فقد رحلتْ عنه إلى الأبد.

حدَّقتُ بوجه القمر الجميل متذكرةً كم كنا مقرَّبتين. فقد رُبطتْ أقدامنا في نفس الوقت. وخُطبنا إلى نفس القرية. وكانت حياتنا مرتبطةً بحياة بعضنا البعض بشكل لا ينفصم. والآن انفصلنا عن بعضنا البعض إلى الأبد.

كانت زهرة الثلج مشغولةً بالعمل من حولنا. فأعدتِ الشاي الذي لم يشربْه أحد. وتجولتْ في أنحاء المنزل بحثاً عن ملابس الحداد البيضاء. ووضعتْها من أجلنا. ووقفتْ عند الباب لتحيي من سمعوا بالخبر. ووصلت مدام "وانغ" في محفتها، وسمحتْ لها زهرة الثلج بالدخول. وكان من الممكن أن أتوقعَ من مدام "وانغ" أن تشكو من ضياع أجرِ خطبتها. ولكنها، عوضاً عن ذلك، سألتنا كيف كان بإمكانها المساعدة. فقد كان مستقبل القمر الجميل بين يديها، وشعرتْ أن من واجبها أن تساعدَها في محنتها حتى تصلَ إلى مثواها الأخير. ولكنها وضعتْ يدَها على فمِها عندما رأتْ وجه القمر الجميل المشوَّه وتلك الأصابع الضخمة المخيفة. كان الطقسُ حاراً جداً. لذا، لم يكنْ لدينا مكانٌ باردٌ

لنضعَها فيه. فكان من الممكن للأمور أن تحدثَ بشكل سريعٍ جداً الآن بالنسبة للقمر الجميل.

فسألت مدام "وانغ"، "كم من الوقت سيمضي حتى تصلَ الأم؟"

ولم نكنْ نعرف ذلك.

"يا زهرة الثلج لفي وجهَ الفتاة بالموصلين، ثم ألبسيها ثياب الأبدية. قومي بهذا الآن. فلا ينبغي للأم أن ترى ابنتَها بهذه الطريقة". فاستدارتْ زهرة الثلج لتصعدَ إلى الطابق العلوي. ولكنَّ مدام "وانغ" أمسكتْ بكمها، وقالت: "سأذهبُ إلى قرية "تونغكو" وأحضرُ ملابسَ الحداد لكِ. لا تغادري هذا المنزلَ حتى أقولَ لك". ثم تركتْ زهرة الثلج، وألقتْ نظرةً أخيرةً على القمر الجميل، ثم تسللتْ خارجَة من الباب.

بحلول الوقت الذي وصلتْ فيه زوجةُ عمي كنتُ، وأبي، وعمي، وإخوتي مرتدين ملابسَ بسيطة من الخيش. وكان جسدُ القمر الجميل ملفوفاً بأكمله بالموصلين ثم مكسواً بالملابس من أجل رحلتها إلى العالم الآخر. ذُرفتِ الكثيرُ من الدموع في المنزلِ في ذلك اليوم، ولكنَّ زوجةَ عمي لم تذرفْ أية دمعةٍ منها. فقد مشتْ متمايلةً على قدميها الصغيرتين، وذهبتْ مباشرةً إلى جثمان ابنتها. وملَّستْ ثيابها، ثم وضعتْ يدَها على موضع قلبِ ابنتِها. ووقفتْ على هذه الحال لساعات.

فعلتْ زوجةُ عمي كل شيء بشكلٍ ملائم من أجل الجنازة. وذهبتْ إلى الدَفن على ركبتيها. وأحرقتِ النقودَ الورقية والثيابَ عند القبر من أجل القمر الجميل لتستخدمَها في العالم الآخر. وجمعتْ كل كتاباتِ القمر الجميل السرية،

وأحرقتها أيضاً. وبعد ذلك، صنعتْ مذبحاً صغيراً في منزلنا حيث كانت تُقدمُ القرابين كل يوم. ولم تبكِ في حضورنا. ولكنني لن أنسى أبداً الأصواتَ التي كانت تنبعثُ في أنحاء منزلنا، عندما كانت زوجةُ عمي تذهبُ إلى الفراش. فقد كانت تئنُ من أعمق أعماق روحها. ولم يستطعْ أيٌ منا أن ينام. ولم يكنْ أيٌ منا عزاءً لها. في الواقعِ، بذلتُ وإخوتي ما بوسعنا لكي نكونَ هادئين وغير مرئيين قدرَ المستطاع. فقد كنا نعرفُ أن أصواتَنا ووجوهنا كانت مجرد مذكِّر مرير بما فقدتْه. وفي الصباح، عندما يكونُ الرجالُ قد خرجوا إلى الحقول، كانت زوجة عمي تنسحبُ إلى غرفتها ولا تخرجُ منها. فكانت تتمددُ على جنبها ووجهها نحو الجدار رافضةً أن تأكلَ أي شيء أكثرَ من طبق الأرز الذي كانت أمي تحضِّرُه لها وتظل هادئةً طوال النهار إلى حين هبوط الليل. فكان ذلك الأنينُ المرعبُ يبدأُ مجدداً.

إنَّ الجميعَ يعلمون أن جزءاً من الروح يصعدُ إلى العالم الآخر في حين أن جزءاً آخرَ يبقى مع العائلة. ولكن كان لدينا اعتقادٌ خاص يتعلقُ بروح المرأة التي تموتُ قبل زواجها، وكان يجري عكسَ ذلك. فهي تعودُ لتنقضَّ على فتيات أخريات غير متزوجات ليس لتخيفهن ولكن لتأخذَهن معها إلى العالم الآخر لكي تحظى بصحبتهن. فكانت الطريقةُ التي أتتْ بها تعاسة القمر الجميل في صورة أنين زوجة عمي الغريب كل ليلة هي ما جعلني وزهرة الثلج نعلمُ أننا كنا في خطر.

ففكرتْ زهرة الثلج بخطة، وقالت صباحَ أحد الأيام: "يجبُ أن نصنعَ برجَ زهور". وكان برجُ الزهور هو ما كنا نحتاجُه بالضبط لتهدئة روح القمر

الجميل. فإذا منحناها برجَ زهور جيد سيكونُ لديها مكانٌ لتتجوَّل فيه وتُسلي نفسها. وإذا أصبحتْ سعيدةً فسأصبح وزهرة الثلج محميتين.

بعضُ الناس ممن يملكون مالاً أكثر يلجؤون إلى باني أبراج زهور محترف، ولكنني وزهرة الثلج قررنا أن نبني برجنا بأنفسنا. فتخيلنا برجاً مؤلفاً من عدة طوابقَ يشبهُ هيكلاً من سبع طبقات. ووضعنا زوجاً من الكلاب عند المدخل. وفي الداخل، قمنا بطلاء قصائدَ على الجدران بكتابتنا السرية. وجعلنا إحدى الطبقات للرقص والأخرى للطوفان. وصنعنا غرفة للنوم مرسوم على سقفها قمر ونجوم. وفي طبقة أخرى، صنعنا غرفة للنساء لها شبك نافذة مصنوع بقصاصات دقيقة من الورق تساعدُ على الرؤية بكل الاتجاهات. وصنعنا طاولةً، وضعنا عليها قطعاً من خيوطنا المفضلة، وبعض الحبر، والورق، وفرشاة لكي تتمكنَ القمر الجميل من التطريز أو كتابة الرسائل بلغة الـ "نو شو" لصديقاتها الجديدات في عالم الأرواح. وصنعنا خدماً وممثلين من الورق الملون ووضعناهم في أنحاء البرج لكي تحتوي كل طبقة على الصحبة، والتسلية، والمتعة. وعندما لم نكنْ نعملُ ببرج الزهور، قمنا بتأليف مرثاة كنا سنغنيها لتهدئة ابنة عمي. فإذا كان برجُ الزهور من أجل متعة القمر الجميل إلى الأبد فإن كلماتنا كانت ستكونُ وداعاً أخيراً من عالم الأحياء.

في اليوم الذي تحسَّن فيه الطقسُ أخيراً طلبتُ وزهرة الثلج الإذن وحظينا به للذهاب إلى قبر القمر الجميل. ولم تكن مسافة طويلة للمشي إلى المقبرة، بل كانت أقلَ بكثير من المسافة التي قطعتْها زهرة الثلج إلى الحقول لتحضرَ والدي وعمي عندما توفيت القمر الجميل. فجلسنا عند القبر لبضعِ دقائق. ثم

أشعلتْ زهرة الثلج النارَ في برج الزهور. وراقبناه وهو يحترق، ونحن نتخيلُه ينتقلُ إلى العالم الآخر والقمر الجميل تتنقلُ في أرجاء غرفه ببهجة. ثم سحبتُ الورقَ الذي كتبنا عليه من أجل القمر الجميل بكتابتنا السرية، وبدأنا نغني قائلتين:

"أيتها القمر الجميل، نأملُ أن يجلبَ لك برجُ الزهور السلام.

نأملُ أن تنسينا. ولكننا لن ننساك.

سنبجلُك، وسننظفُ قبرك في مهرجان الربيع.

لا تدعي أفكارَكِ تصبحُ جامحة.

عيشي في برجِ زهورك، وكوني سعيدة".

مشيتُ وزهرة الثلج إلى البيت، وصعدنا إلى غرفة النساء في الطابق العلوي. وتبادلنا الأدوار، ونحن جالستان جنباً إلى جنب بكتابة المرثاة على طيات مروحتنا الخاصة. وعندما انتهينا من ذلك، أضفتُ إلى الإكليل على قمة المروحة هلالاً رقيقاً غير متطفل كالقمر الجميل نفسها.

ساعدَ برجُ الزهور على حمايتي وزهرة الثلج، وهدَّأ روح القمر الجميل القلقة، ولكنه لم يفعلْ شيئاً لعمي وزوجة عمي اللذين لم يكن من الممكن التخفيفُ عنهما. لقد كان كلُّ ذلك مقدَّراً. فقد كنا تحتَ رحمة عناصرَ قوية، ولم نكن نستطيعُ أن نفعلَ شيئاً سوى أن نطيعَ أقدارنا. ويمكنُ أن يُفسَّرَ هذا بالين واليانغ. وهذه تعني الرجال والنساء، والظلام والضياء، والحزن والسعادة. وهذه الأشياءُ تشكِّل التوازن. فنحظى بلحظة من السعادة القصوى كالتي شعرتُ بها وزهرة الثلج في بداية موسم "شم النسائم العليلة"، ثم يُمحى كلُّ شيء بأقسى

طريقة بوفاة القمر الجميل. ويكونُ هناك شخصان سعيدان مثل عمي وزوجة عمي ثم يتحولان في لحظة إلى شخصين لا هدفَ لهما ولا شيءَ ليعيشا من أجله. وهذان الشخصان سيكونُ عليهما بعد وفاة والدي أن يعتمدا على لطفِ الأخ الأكبر ليعتني بهما ولا يرمي بهما خارجاً. وتكونُ هناك عائلةٌ غير ميسورة الحال كعائلتي ثم يُضافُ عليها الضغطُ الذي تسببُه عدة زيجات في عائلة واحدة. كل هذه الأشياء زعزعت توازن الكون. لذا، تعيدُ الآلهةُ تنظيمَ الأمور بضرب فتاة طيبة القلب. وليستْ هناك حياة بدون موت. وهذا هو المعنى الحقيقي للين واليانغ.

كرسيُ جلوس الزهرة

بعد عامين من وفاة القمر الجميل سُرَّح شعري، الذي كان قد زُيّن مسبقاً بدبابيس الشعر عندما كنتُ في الخامسة عشرة، ليصبحَ بشكل التنين الذي يناسبُ شابةً على وشك الزواج. وأرسلَ أهلُ زوجي المزيدَ من القماش والمال لكي أحظى بمالي الخاص، وبمجوهراتي، وحلقي، وخواتمي، وقلائدي كلها من الفضة واليشب. وقد أعطوا أيضاً لوالدي ثلاثين حزمة من الأرز اللزج، وهي كميةٌ كافيةٌ لإطعام العائلة والأصدقاء الذين كانوا سيزوروننا في الأيام التالية. كما أرسلوا ضلعَ خنزير قطَّعه أبي، وأوصلَه إخوتي للناس في قرية "بوواي" لكي يعلموا أن احتفالات الزفاف التي تدومُ شهراً قد بدأتْ شكل رسمي. ولكنَّ ما فاجأ والدي وأسرَّه كثيراً، ومما أظهرَ أن العملَ الجاد الذي قامتْ به عائلتي في التحضير لمستقبلي قد أثمرَ، كان وصول الجاموس الجديد. وبهذه الهدية الواحدة، أصبحَ والدي واحداً من الرجال الثلاثة الأكثر ثراءً في قريتنا.

جاءتْ زهرة الثلج لزيارتي طوال شهر "الجلوس والغناء" في الغرفة في الطابق العلوي. وخلال تلك الأسابيع الأربعة الأخيرة بينما كنتُ أنهي مهري، ساعدتني في الكثير من النواحي، وأصبحنا حتى أكثرَ قرباً من بعضنا البعض. وكانت لدى كلِّ واحدة منا أفكارٌ حمقاء حول الكيفية التي سيكونُ عليها الزواج. ولكنني وزهرة الثلج اعتقدنا أن لا شيء قد يضاهي الراحة التي كنا نشعر بها بين ذراعي بعضنا البعض. فلم يكن شيءٌ سيغيرُ محبتنا. وعندما تطلعنا إلى المستقبل، اعتقدنا أنه سيكونُ أمامنا الكثيرُ لنتشاركه فيما بيننا.

كان "الجلوسُ والغناء" في الطابق العلوي هو بداية التزام أعمق بيننا. وبعد

عشر سنوات من كوننا معاً، كانت صداقتنا ستنتقلُ إلى مستويات أعمق. وبعد بضعة أعوام من الآن حالما أكونُ قد انتقلتُ إلى بيت زوجي بشكل دائم، وتكونُ زهرة الثلج قد انتقلت إلى بيت زوجها في قرية "جينتيان"، غالباً ما كنا سنزورُ بعضنا. وبالطبع فزوجانا، وهما رجلان يتمتعان بالثروة والمكانة الرفيعة، كانا سيستأجران مِحفَّات من أجل هذا الغرض.

لأنه لم تكنْ لي أخواتٌ بالقَسَم لينضممن إليَّ خلال تلك الاحتفالات، فقد جاءت إليَّ أمي، وزوجة عمي، وزوجة أخي، وأختي الكبرى التي عادت إلى البيت حاملاً مجدداً، وبضع فتيات غير متزوجات من قرية "بوواي". وقدمن جميعاً ليحتفلن بحظي السعيد. وكانت مدام "وانغ" تنضمُّ إلينا بشكل متكرر أيضاً. فكنا أحياناً نروي قصصاً مفضلة لدينا، أو كانت إحدانا تختارُ أنشودة نغنيها معها. وفي أحيان أخرى كنا نغني من حياتنا نحن. فكانت أمي التي كانت راضية بقدرها تروي قصة: "حكاية الفتاة الزهرة" في حين كانت زوجة عمي التي كانت ما تزال في الحداد تجعلُنا جميعاً نبكي لأنها كانت تتفوه بالكلمات في ترنيمة حزينة.

عصرَ أحد الأيام بينما كنتُ أطرّزُ حزام ثوب زفافي، جاءت مدام "وانغ" لتسلينا بحكاية "الزوجة وانغ". فأخذتْ كرسياً، ووضعتْه بجانب زهرة الثلج التي كانت مستغرقةً في التفكير وهي تكتبُ كتبَ اليوم الثالث لزفافي، وتبحثُ عن الكلمات المناسبة لتخبرَ أهلَ زوجي عني. وكانت الاثنتان تتحدثان إلى بعضهما بنعومة شديدة. فكنتُ أسمعُ بين الحين والآخر صوتَ زهرة الثلج يقول: "نعم، يا خالة"، و"كلا، يا خالة". فلطالما كانت زهرة الثلج تبدي قلباً طيباً

للخاطبة. وقد حاولتُ بنجاح معتدلٍ أن أنافسَها في هذا.

عندما رأت مدام "وانغ" أننا كنا بانتظارها، عدَّلتْ وضعيتها على الكرسي لتكونَ مرتاحة، وبدأت القصة قائلة: "كانت هناك فيما مضى امرأةٌ تقية لها توقعاتٌ قليلةٌ في الحياة". وكانت مدام "وانغ" قد أصبحتْ ممتلئة الجسم تماماً خلال السنوات السابقة مما جعلَها أبطأ وأكثرَ تأنياً في روايتها للقصة وفي حركتها. ثم تابعت: "زوّجتها عائلتُها لأحد الجزّارين؛ وهو أدنى الأزواج منزلة بالنسبة لامرأة مؤمنة بالعقيدة البوذية. وبقدر ما كانت مؤمنة فقد كانت امرأة أولاً، وأنجبتِ الأبناء والبنات. ورغم ذلك، فقد كانت "الزوجة وانغ" لا تأكل السمك أو اللحم. وكانت تلقي "محاورات بوذا" لساعات كل يوم وخاصة "المحاورة الماسية". وعندما لم تكنْ تلقي المحاورات، كانت تتوسلُ إليه ألا يذبحَ الحيوانات. وحذّرته من حياة "الكَرْما" السيئة التي كانت ستأتي إليه في الحياة التالية إذا استمرَ في مهنته".

وضعت الخاطبةُ يدها على ساق زهرة الثلج بإيماءة مؤكدة. وقد كنتُ لأجدَ يدَ المرأة العجوز مبعثاً للضيق، ولكنَّ زهرة الثلج لم تدفعْها بعيداً.

تابعتْ مدام "وانغ" قائلة: "ولكنَّ "الزوج وانغ" أخبرَها، كما قد يقول البعض، أن أفراد عائلتَه كانوا جزّارين منذ أجيال لا حصرَ لها. وقال لها: يمكنكِ أن تستمرّي بإلقاء المحاورة الماسية. وستُكافئين في حياتِك التالية. وأنا سأستمرُ بذبح الحيوانات. وسأشتري أرضاً في هذه الحياة، وأُعاقَب في الحياة التالية.

كانت "الزوجة وانغ" تعلمُ أنه قد قُدِّرَ عليها أن تنامَ مع زوجها. ولكنه عندما اختبرَ معرفتها بالمحاورة الماسية، ووجدَ أنه كان يمكنُها أن تلقيها دون أي

خطأ، منحها غرفة خاصة بها لكي تبقى عزباء لبقية حياتهما الزوجية.

تابعتْ مدام "وانغ"، وهي تنقلُ يدَها مجدداً نحو زهرة الثلج. فاستقرتْ يدها بخفة على مؤخرة عنقها، ثم قالت: "في تلك الأثناء، أرسلَ ملكُ العالم الآخر أرواحاً لتبحثَ عن أولئك الذين يتمتعون بالفضيلة الكبيرة. فراقبوا "الزوجة وانغ"، وحالما اقتنعوا بطهارتها، أغروها بزيارة العالم الآخر لتلقي المحاورة الماسية. وكانت تعلمُ أن هذا يعني أنهم كانوا يطلبون منها أن تموت. فتوسلتْ إليهم ألا يجعلوها تتركُ أطفالها. ولكنَّ الأرواحَ رفضتْ أن تسمعَ توسلاتها. فطلبتْ من زوجها أن يتخذَ زوجةً أخرى. وأمرتْ أطفالها أن يكونوا طيبين وأن يطيعوا أمهم الجديدة. وحالما خرجتْ تلك الكلماتُ من فمها سقطتْ على الأرض ميتة.

تعرضتْ "الزوجة وانغ" للكثير من المحنِ قبل أن تحضرَ أخيراً إلى ملك العالم الآخر. وبالرغم من كل محنها، كان يراقبُها، ويلاحظُ فضيلتها وتقواها. فطلبَ منها كما فعلَ زوجُها تماماً أن تلقي المحاورة الماسية. ورغم أنها قد نسيتْ تسع كلمات فقد كان مسروراً جداً من جهودها خلال حياتها وفي الحياة الآخرة على حدٍّ سواء بحيث إنه سمحَ لها أن تعودَ إلى عالم الأحياء على هيئة طفل صغير. وفي هذه المرة وُلدتْ في بيت مسؤول ومثقف، ولكن اسمَها الحقيقي كان مكتوباً على أسفلِ قدمها".

وذكَّرتْنا الخاطبةُ قائلة: "لقد عاشت "الزوجة وانغ" حياة استثنائية، ولكنها كانت مجردَ امرأة. أما الآن كرجل فقد برعتْ في كل شيء فعلتْه. فحظيتْ بأعلى مرتبة علمية. وجنتْ الأموال، والشرف، والمكانة الرفيعة. ولكنها بقدر

ما حققتْ كانت تفتقدُ عائلتها، وتتوقُ لتكونَ امرأةً مجدداً. فمثلتْ أخيراً أمام الإمبراطور. وأخبرتْه بقصتها، وتوسلتْ إليه ليدعَها تعودُ إلى قريتها الأصلية. وكما حدثَ بالضبط مع ملك العالم الآخر، أثَّرتْ شجاعةُ هذه المرأة وفضيلتها بالإمبراطور، ولكنه رأى ما هو أكثر من ذلك، وهو الولاء للأسرة. فعيّنها قاضياً في قرية زوجها. فوصلتْ وهي ترتدي لباسَ العالم الكامل. وعندما خرجَ الجميعُ لينحنوا لها أذهلتْ الحشدَ بأن خلعتْ حذاءَها الرجالي مظهرةً اسمها الحقيقي. وأخبرتْ زوجها الذي أصبحَ الآن عجوزاً جداً أنها تريدُ أن تكونَ زوجتَه مجدداً. فذهبَ "الزوج وانغ" والأطفال إلى القبر وفتحوه. ثم خطا الإمبراطور "جايد" وأعلنَ أن عائلة "وانغ" بأكملها يمكنُها أن تسمو من هذا العالم إلى الـ "نيرفانا" (السعادة القصوى)، الأمرُ الذي فعلوه".

اعتقدتُ أن مدام "وانغ" قد أخبرتْنا بتلك القصة لكي تخبرَني عن مستقبلي. فبقدر ما يتمتعُ زوجي وعائلتُه بالمكانة الرفيعة والاحترام كما هم في المقاطعة فقد يفعلون أشياء يمكنُ أن تُعتبرَ مسيئةً أو حتى ملوثة. ومن الطبيعي أيضاً لرجلٍ وُلدَ تحت علامة النمر أن يكون عنيفاً، وحيوياً، وانفعالياً. فقد يهاجمُ المجتمعَ أو يهزأُ بتقاليد ملزمة. وأعترفُ أن هذا ليس سيئاً بقدر أن يكونَ المرء جزَّاراً. ولكن هذه الصفات قد تكونُ خطيرةً رغم ذلك. وأنا، كامرأة وُلدتُ تحت علامة الحصان، يمكنني أن أساعدَ زوجي ليحاربَ تلك الصفات السيئة. فلا ينبغي أبداً على المرأة "الحصان" أن تخافَ من تولّي القيادة وتوجيه زوجها بعيداً عن المتاعب. فكان هذا بالنسبة إليَّ المعنى الحقيقي لقصة "الزوجة وانغ". فربما لم تستطعْ أن تجعلَ زوجَها يقومُ بما تريدُ منه أن يفعله. ولكنها

من خلال تقواها وأعمالها الصالحة لم تنقذه من الإدانة التي سببتْها له أعماله الملوثة، ولكنها أيضاً ساعدتْ عائلتها بأكملها لتصلَ إلى الـ "تيرفانا". فكانت تلك واحدةً من القصص الوعظية القليلة التي قُصَّتْ علينا، وكانت نهايتها سعيدة. وفي ذلك اليوم من أواخر الخريف في الشهر الذي سبقَ زفافي جعلتْني تلك القصةُ سعيدة.

لكن خلافاً لذلك، كانت مشاعري مختلطة خلال موسم "الجلوس والغناء". فقد كنتُ حزينة لأنني كنتُ سأغادرُ عائلتي. ولكنني كما فعلتُ عندما ربطتُ قدميّ، حاولتُ أن أرى شيئاً أكبر، ليس ذلك الجزء الصغير من الحياة التي كنتُ أستطيعُ رؤيته من شبك نافذتِنا بل صورةِ كبيرةِ كالصور التي كنتُ أراها مع زهرةِ الثلج عندما كنا نسترقُ النظرَ من مِحفَّة مدام "وانغ". فكنتُ مقتنعة أن مستقبلاً جديداً أفضل كان بانتظاري. وربما كان ذلك شيئاً في طبيعتي؛ فقد يتجولُ الحصان في أنحاء العالم إن كان يستطيعُ ذلك. وكنتُ سعيدةً لذهابي إلى مكان جديد. وأحبُّ أن أقولَ إنني وزهرة الثلج بشكل طبيعي قد أطعنا طبيعة الحصان كما حدَّد طالعنا تماماً. ولكن الأحصنة والناس ليسوا مطيعين دائماً، فنحن نقولُ شيئاً ما ونفعلُ شيئاً آخر. ونشعرُ بطريقة ما ثم تنفتحُ قلوبنا باتجاه آخر. ونرى شيئاً ما، ولكننا لا ندركُ أن هناك غمامات تمنعنا من الرؤية. ونمشي بتهادٍ على طول طريق محبب ثم نرى طريقاً أو زقاقاً أو نهراً يغرينا...

هكذا كنتُ أشعرُ. وقد اعتقدتُ أن زهرة الثلج، رفيقتي من نفس العمر، كانت ستشعرُ بنفس الطريقة التي كنتُ أشعرُ بها. ولكنها كانت سراً غامضاً بالنسبة

لي. وكان زفاف زهرة الثلج بعد زفافي بشهر. ولكنها لم تكنْ تبدو عليها الإثارة أو الحزن. وعوضاً عن ذلك، فقد كانت هادئة على غير العادة حتى عندما كانت تغني الكلمات الصحيحة خلال إنشادنا، وعندما كانت تعملُ بتمهل على كتاب اليوم الثالث للزفاف الذي كان تصنعُه من أجلي. فاعتقدتُ أنها ربما كانت أكثرَ توتراً مما كنتُ عليه بشأن ليلة الزفاف.

قالت بمراوغة بينما كانا نطوي ونلفُ لحفنا: "إنني لستُ خائفة من ذلك".

فقلتُ: "ولا أنا أيضاً".

ولكنني لا أعتقدُ أن أياً منا تكلمتْ بقناعة كبيرة. فلم تكنْ زهرة الثلج التي كانت عادةً تعلمُ أكثرَ مني بكثير عوناً لي. وكنا بانتظار أمينا وأخواتنا الأكبر سناً أو زوجة عمي أو حتى الخاطبة ليشرحن لنا كيف نقومُ بهذا الواجب كما علمننا كيف نقومُ بأشياء أخرى كثيرة.

ولأننا كنا نشعرُ بعدم الراحة بخصوص الموضوع فقد حاولتُ أن أوجهَ المحادثة باتجاه خطتنا للأسابيع القليلة القادمة. فعوضاً عن العودة إلى البيت مباشرة بعد زفافي كنتُ سأذهبُ مباشرةً إلى بيت زهرة الثلج لكي أحضرَ شهر "الجلوس والغناء" الخاص بها. وكان يجبُ عليَّ أن أساعدَها بالتحضيرات لزفافها كما كانت تفعلُ معي. وقد كنتُ راغبةً بالذهاب إلى بيتها منذ عشر سنوات. ومن بعض النواحي، كنتُ أشعرُ بإثارة أكبر حيال ذلك من لقاء زوجي لأنني قد سمعتُ عن بيت زهرة الثلج وعائلتها لمدة طويلة في حين أنني كنتُ تقريباً لا أعرفُ شيئاً عن الرجل الذي كنتُ سأتزوجُه. ومع أنني كنتُ مفعمة بالتوقعات لكوني ذاهبةً أخيراً إلى منزل زهرة الثلج، فقد كنت أبدو مبهمة بشأن

التفاصيل.

وقالت زهرة الثلج: "سيحضرُك أحدُ أهل زوجك إليَّ".

فسألتُها: "هل تعتقدين أن حماتي ستنضمُّ إلينا من أجل احتفال "الجلوس والغناء" الخاص بك؟" وقد كان هذا سيسرُّني لأنها كانت ستراني مع رفيقتي من نفس العمر.

"إنَّ السيدة "لو" مشغولة جداً. فعليها الكثيرُ من الواجبات كما ستصبحين يوماً ما بالضبط".

"ولكنني سألتقي بأمك وأختك الكبرى و... من سيكونُ مدعواً أيضاً؟"

وكنتُ أتوقعُ أن أمي وزوجة عمي ستكونان جزءاً من طقوس زهرة الثلج. فقد كانت تبدو واحدةً من أفراد عائلتي بحيث إنني ظننتُ أنها كانت ستريدُهما هناك.

قالت: "ستحضرُ الخالة وانغ".

وكانت الخاطبة ستظهرُ عدة مرات خلال "الجلوس والغناء" الخاص بزهرة الثلج كما فعلتْ معي تماماً. وقد كان زواجنا بالنسبة لمدام "وانغ" تتمة سنواتٍ من العمل الشاق، مما يعني أن دفعاتِها الأخيرةِ كان سيتمُ سدادُها. فلم تكن لتفوَّتَ أية مناسبة يمكنُها أن تظهرَ فيها لنساء أخريات، وهن أمهاتُ زبائن محتملين، نتائجها الباهرة.

تابعت زهرة الثلج قائلة: "وباستثناء حضور الخالة "وانغ" فإنني لا أعرفْ ما خططتْ له أمي. فسيكونُ كلُّ شيء مفاجأة".

صمتنا ونحن نطوي لحافاً آخر. فنظرتُ بشكل خاطف إليها، وكانت ملامحها

تبدو منقبضة. وللمرة الأولى منذ سنوات عديدة، ظهرتْ مخاوفي القديمة. هل ما زالتْ زهرة الثلج تشعرُ أنني غير جديرة بصداقتها؟ هل كانت أمي وزوجة عمي ستسببان لها الإحراج أمام نساء قرية "تونغكو"؟ ثم تذكرتُ أننا كنا نتحدثُ عن موسم "الجلوس والغناء" الخاص بها. فكان ينبغي أن يكونَ تماماً كما كانت تريدُ له أم زهرة الثلج.

أخذتُ خصلة من شعر زهرة الثلج ودسستُها خلف أذنها، وقلت: "لا أطيقُ الانتظارَ لأقابلَ عائلتك. فسيكونُ ذلك وقتاً سعيداً".

كانت ما تزالُ تبدو قلقة عندما قالت: "إنني قلقة أن يخيبَ أملك. فقد قلتُ الكثيرَ عن أمي وأبي..".

"وقرية تونغكو ومنزلك..".

"كيف يمكنُ لهذه الأشياء أن تكونَ جيدةً بقدر ما تخيلتِ أنها ستكون؟"

فضحكتُ قائلة: "من السخف أن تقلقي. فكلُّ شيء أتخيلُه في ذهني جاءَ من كلماتِك الجميلة".

قبل موعد زفافي بثلاثة أيام، بدأتُ المراسم المرافقة ليوم "الحزن والقلق". وجلستْ أمي على الدرجة الرابعة المؤدية إلى غرفة الطابق العلوي. وجاءتْ نساءُ قريتنا ليشهدن التفجع. فكان الجميعُ يندبن، وكان هناك الكثيرُ من النحيب في الأنحاء. وحالما أنهيتُ وأمي البكاء والغناء لبعضنا البعض، كررتُ العملية مع والدي وعمي وزوجة عمي وأخويّ. وقد أكونُ شجاعة ومتطلعة لحياتي الجديدة. ولكن جسدي وروحي كانا ضعيفين بسبب الجوع لأنه لا يُسمَحُ للعروس أن تأكلَ في الأيام العشرة الأخيرة من احتفالات زفافها. هل كنا

نتبعُ ذلك التقليد ليجعلنا أكثرَ حزناً لفراق عائلاتنا أو ليجعلَنا أكثرَ إذعاناً عندما نذهبُ لبيوت أزواجنا أو ليجعلنا أكثرَ طهارة لأزواجنا؟ كيف يمكنني أن أعرفَ الإجابة؟ فكلُّ ما أعرفُه هو أن أمي ككل الأمهات قد خبأت بعض البيض المسلوق القاسي من أجلي في غرفة النساء. ولكن هذه الأشياء فعلتِ القليل لتمنحني القوة. فكانت عواطفي تضعفُ مع كل حدث جديد.

في صباح اليوم التالي أيقظني التوتر، ولكنّ زهرة الثلج كانت بجانبي تماماً وأصابعُها الناعمة على خدي محاولةً أن تهدئني. وقد كنتُ سأُعرضُ على أهل زوجي اليوم. وكنتُ خائفةً كثيراً بحيث إنني لم أكن سأستطيعُ أن آكل حتى لو سُمحَ لي بذلك. وساعدتْني زهرة الثلج على ارتداء طقم الزفاف الذي صنعتُه، وهو عبارة عن سترةٍ قصيرة لا ياقة لها محزومةٍ بحزام فوق سروال طويل. ووضعتِ الأساورَ الفضية التي أرسلتْها عائلةُ زوجي على معصمي. ثم ساعدتْني على ارتداء هداياهم الأخرى، كالحلَق، والقلادة، ودبابيس الشعر. وكانت أساوري تخشخشُ فيما كانت الحلي الفضية التي قمتُ بخياطتِها على سترتي ترنُّ بشكل متناغم. وارتديتُ بقدميَّ حذاء زفافي الأحمر، ووضعتُ على رأسي غطاء رأس مزين بكراتٍ لؤلؤية وحُلي فضية. وكانت كلُّ هذه الأشياء تهتزُ عندما كنتُ أمشي أو أحركُ رأسي أو عندما كانت مشاعري تظهر. وكان هناك خمارٌ أحمرُ اللون معلقٌ في مقدمة غطاء الرأس. فكانت الطريقة الوحيدة التي كنتُ أستطيعُ بها أن أرى وأبقى رغم ذلك محافظة على لياقة ملائمة هي أن أنظرَ مباشرة نحو الأسفل.

قادتْني زهرة الثلج إلى الطابق السفلي. ولأنني لم أكن أستطيعُ الرؤية فذلك

لم يكن يعني أنه لم تكنْ هناك مشاعرُ كثيرةٌ تعتملُ في أنحاء جسمي. وسمعتُ وقعَ خطواتِ أمي المرهقة، وصوتَ عمي وزوجة عمي يتحدثان مع بعضهما بأصواتٍ رقيقة، وصوتَ صرير كرسي والدي وهو ينهض. فمشينا معاً إلى معبد "بوواي" للأسلاف حيث شكرتُ أسلافي على عائلتي. وكانت زهرة الثلج طوال الوقت بجانبي، ترشدُني عبرَ الأزقة، وتهمسُ مشجعة ومذكرةً إياي أن أسرعَ إنْ كنتُ أستطيعُ ذلك لأنَّ أهلَ زوجي كانوا سيصلون عما قريب.

عندما وصلنا إلى المنزل، عدتُ وزهرة الثلج إلى الطابق العلوي. ولتبقيني ساكنة، أمسكتْ بيدي، وحاولت أن تصفَ ما كانت عائلتي الجديدة تفعله.

انحنت قربي، وكان خماري يرفرفُ مع كل كلمة كانت تقولُها: "أغمضي عينيك، وتصوري هذا: لا بدَّ أن السيد والسيدة "لو" يرتديان ثياباً جميلة. وقد غادرا بصحبة أصدقائهما وأقاربهما إلى قرية "بوواي". وترافقُهما فرقة تعلنُ للجميع على طول الطريق أنهم في ذلك اليوم يستولون على الطريق". ثم أخفضتْ صوتَها، وقالت: "وأين العريس؟ إنه ينتظركِ في قرية "تونغكو". وفي غضون يومين فقط سترينه!"

فجأة، سمعنا صوتَ الموسيقى. وقد كانوا قد أوشكوا على الوصول. فذهبتُ وزهرة الثلج إلى شبك النافذة. وأزحتُ خماري، ونظرتُ خارجاً. وكنا ما نزالُ لا نستطيعُ أن نرى الفرقة أو الموكب. ولكننا كنا نراقبُ معاً بينما مشى مبعوثٌ نزولاً في زقاقنا، وتوقفَ عند عتبة بيتنا، وقدَّم لوالدي رسالة على ورق أحمر اللون تعلنُ أن عائلتي الجديدة قد وصلتْ من أجلي.

ثم انعطفتِ الفرقة عند الزاوية، وكان يتبعُها حشدُ كبيرٌ من الغرباء. وحالما

وصلوا إلى بيتنا بدأت الفوضى المعتادة. فألقى الناسُ في الأسفل بالماء وورق الخيزران على الفرقة. وكان ذلك مصحوباً بالضحك والدعابات المعتادة. واستُدعيتُ للطابق السفلي. ومجدداً، أخذت زهرة الثلج بيدي، وأرشدتني. وسمعتُ أصوات النساء وهنّ يغنّين: "إن تربية فتاة وتزويجها هما كبناء طريق فخم ليستعملَه الآخرون".

خرجنا. وقامت مدام "وانغ" بتقديم الآباء لبعضهم البعض. وكان عليَّ أن أبدو محتشمة أقصى المستطاع في تلك اللحظة عندما يلمحني أهل زوجي. ولهذا السبب، لم أستطعْ حتى أن أهمسَ لزهرة الثلج لتصفَ لي كيف كانوا يبدون أو إذا كان بإمكانها أن تخمِّنَ رأيَهم بي. ثم قادَ والداي الطريقَ إلى معبد الأسلاف حيث استضافت عائلتي الوليمة الأولى من عدة ولائم احتفالية. فجلستْ زهرة الثلج وفتياتٌ أخريات من القرية حولي. وأُخرجتْ الأطباقُ الخاصة. وقُدّمَ الشراب. وأصبحتِ الوجوه حمراء. وقد كنتُ موضوعَ الكثير من الإغاظة من قبل الرجال والنساء العجائز. وطوال وقت المأدبة، كنتُ أغني المراثي وكانت النساءُ تجيب. وبحلول ذلك الوقت، لم أكنْ قد تناولتُ وجبة حقيقية منذ سبعة أيام. فجعلتني رائحة كل ذلك الطعام أشعرُ بالدوار.

شهدَ اليومُ التالي، وهو يوم "قاعة الغناء الكبيرة" مأدبةَ غداء رسمية. فعُرضتْ أعمالي اليدوية، وكتب اليوم الثالث لزفافي وترافق ذلك مع المزيد من الغناء مني، ومن زهرة الثلج، والنساء. وقادتْني أمي وزوجة عمي إلى الطاولة المركزية. وحالما جلستُ، وضعتْ حماتي أمامي وعاء من الحساء كانت قد حضَّرتْه لترمزَ لطيبة عائلتي الجديدة. وقد كنتُ لأمنحَ أي شيء مقابلَ بضعِ

رشفات فقط من الحساء.

لم أستطعْ أن أرى وجه حماتي من خلال خماري، ولكنني عندما نظرتُ إلى الأسفل ورأيتُ قدميها اللتين تشبهان زهور الزنبق كقدمي، اجتاحتني موجةٌ من الذعر. فلم تكنْ قد ارتدتْ زوج الأحذية الخاص الذي صنعتُه من أجلها. وكان يمكنني أن أعرفَ السبب. فقد كان التطريزُ على ذلك الحذاء أفضلَ بكثير من أي شيء صنعتُه. فشعرتُ بالخزي. وبالطبع، فقد شعرَ والداي بالإحراج، وفقدَ أهلُ زوجي اهتمامهم بي.

في تلك اللحظة الرهيبة، جاءتْ زهرة الثلج إلى جانبي، وأخذتْ بذراعي مجدداً. وكان التقليدُ يقضي بأن أغادرَ الحفل. لذا رافقتني خارجَ المعبد. وساعدتْني في الصعود إلى الطابق العلوي، ورفعتْ غطاء رأسي، وخلعتْ ما بقي من ملابس زفافي، ثم ألبستْني ثوبَ نومي، وزررتْه، وألبستني خُفَّ النوم، وبقيتُ هادئة. وقد أزعجَني كمالُ صنع حذاء حماتي، ولكنني كنتُ خائفةً أن أقولَ شيئاً حتى لزهرة الثلج. فلم أكنْ أريدُ أن يخيبَ أملُها بي أيضاً.

في وقت متأخر جداً من تلك الليلة عادت عائلتي إلى البيت. وكنتُ سأحظى بنصيحة من والدتي. فقد كان لا بدَّ أن يحدثَ هذا الآن. وجاءت أمي إلى الغرفة. فغادرتْ زهرة الثلج. وكانت أمي تبدو قلقة، وللحظة، ظننتُ أنها قد أتت لتخبرَني أن أهلَ زوجي كانوا يريدون أن يلغوا إجراء الزواج. فوضعتْ عكازَها على السرير، وجلستْ بجانبي.

وقالت: "لطالما قلتُ لك إن السيدة الحقيقية لا تدعُ مجالاً للقبح في حياتها، وأنك من خلال الألم فقط ستجدين الجمال".

فأومأتُ برأسي بخجل، ولكنني في داخلي كنتُ عملياً أصرخُ من الرعب، فلقد كانت تستخدمُ تلك العبارات مراراً وتكراراً خلال ربط قدميّ.

"آمل أن تتذكري يا زهرة الزنبق أنه أحياناً لا يمكنك أن تتجنبي القبح. فعليك أن تكوني شجاعة. وقد تعاهدتُما أن تجتمعا معاً مدى الحياة. فكوني السيدة التي يُفترضُ بك أن تكونيها".

وقفتْ على قدميها، وتوازنتْ على عكازها، ثم مشتْ بتثاقل خارجَ الغرفة. ولم أكنْ أشعرُ بالراحة لما قالتْه! ضعفَ إصراري، وحبي للمغامرة، وقوتي كلياً. فشعرتُ كما تشعرُ العروسُ بشكل حقيقي. فكنتُ خائفة، وحزينة، ومرعوبة جداً لمغادرتي عائلتي.

عندما عادت زهرة الثلج ورأت أنني كنتُ شاحبةً من الخوف، أخذتْ مكان أمي على السرير، وحاولتْ أن تخففَ عني.

فطمأنتني بلطف قائلة: "لقد تدربتِ طوال عشر سنوات من أجل هذه اللحظة. وأنت تطيعين القواعد المكتوبة في كتاب "تقاليد النساء". فأنتِ ناعمة في كلماتكِ، ولكنك قوية في قلبك. وأنت تسرحين شعرك بطريقة محتشمة، ولا تضعين أحمرَ الشفاه أو المساحيق، وأنت تعرفين كيف تغزلين القطن والصوف، وتنسجين، وتخيطين، وتطرزين، وتعرفين كيف تطهين، وتغسلين، وتنظفين، وتبقين الشاي دائماً دافئاً وجاهزاً، وتشعلين النار في الموقد. وأنت تعتنين جيداً بقدميك، فتزيلين أربطتك القديمة كل ليلة قبل النوم، وتغسلين قدميك جيداً، وتستعملين بالضبط الكمية الصحيحة من العطر قبل أن تضعي أربطة نظيفة".

عندها شعرتُ بحال أفضل، ولكن زهرة الثلج لم تكن قد انتهت. فساعدتْني على التمدد في السرير، وأخذتْ تدورُ حولي، واستمرتْ بمدحي.

فهمستْ في أذني قائلة: "ستكونين أماً صالحة لأنك تهتمين بالآخرين. وفي نفس الوقت، ستصبحين معلمة جيدة. وكيف أعرفُ ذلك؟ انظري إلى كل الأشياء التي علمتني إياها". وتوقفت للحظة وهي تتأكدُ أن عقلي وجسدي قد استوعبا ما قالته قبل أن تنتقلَ إلى طريقة أكثر واقعية، وقالت: "وعلاوة على ذلك، فقد رأيتُ كيف نظرتْ إليك عائلة "لو" البارحة واليوم".

استدرتُ لأواجهها، وقلت: "أخبريني. أخبريني كل شيء".

"أتتذكرين عندما أحضرتِ السيدة "لو" الحساء لك؟"

وكنتُ بالطبع أتذكرُ ذلك. فقد كانت تلك بداية ما تخيلتُ أنه سيكونُ حياةَ الذل التي كنتُ سأعيشُها.

فتابعت زهرة الثلج قائلة: "لقد ارتجفَ كل جسمك. كيف فعلتِ ذلك؟ لقد لاحظَ كل من في الغرفة. وعلَّقَ الجميعُ على هشاشتكِ المجتمعة مع تحفظك. وبينما كنتِ هناك ورأسكِ منحنٍ للأسفل مظهرةً أية فتاة مثالية أنت، نظرت السيدة "لو" إلى زوجها. فابتسمتْ في استحسان وابتسمَ لها. سترين أن السيدة "لو" صارمة، ولكنّ قلبَها طيب".

"ولكن..".

"والطريقة التي تفحَّصت فيها عائلة "لو" بأكملها قدميك! أوه، يا زهرة الزنبق، إنني واثقة أن الجميع في قريتي سيسعدهم أن يعرفوا أنك يوماً ما ستصبحين السيدة "لو" الجديدة. الآن، حاولي أن تنامي. فهناك الكثيرُ من الأيام الطويلة

بانتظارك".

تمددنا مقابلَ بعضنا البعض. ووضعت زهرة الثلج يدها على خدي كعادتِها. وأمرتني بلطف قائلة: "أغمضي عينيك". ففعلتُ كما قالت لي.

في اليوم التالي، وصلَ أهلُ زوجي إلى قرية "بوواي" في وقت مبكر كفاية ليأخذوني معهم إلى قرية "تونغكو" بحلول فترة العصر المتأخر. وعندما سمعتُ صوتَ الفرقةِ عند أطراف القرية، بدأ قلبي يخفقُ بسرعة. ولم أستطعْ أن أمنعَ نفسي. وبدأتِ الدموعُ تتساقطُ من عينيّ، وبكتْ أمي وزوجة عمي والأخت الكبرى وزهرة الثلج وهن يقدنني إلى الطابق السفلي. وصلَ مبعوثو العريس عند عتبة الباب، وساعدَني أخي على تحميل مهري في المِحفَّة التي كانت تنتظر. ارتديتُ غطاء رأسي مجدداً. لذا، لم أستطعْ أن أرى أحداً. ولكنني سمعتُ أصواتَ عائلتي بينما كنا نقومُ بالنداءات والإجابات التقليدية الأخيرة.

فصاحت أمي: "إن المرأةَ لا تصبحُ ذات قيمة قَطُّ إنْ هي لم تغادرْ قريتَها".

وأجبتُها منشدةً: "إلى اللقاء، يا أمي. شكراً لكِ لتربيتكِ ابنةً عديمة القيمة".

وقال والدي بلطف: "إلى اللقاء، يا ابنتي".

ولدى سماعي صوتَ والدي، بدأت الدموع تنهمرُ على خدي. فتشبثتُ بالسياج المؤدي إلى غرفة الطابق العلوي. وفجأة، لم أعدْ أريدُ الذهاب.

غنتْ زوجة عمي قائلة: "لقد وُلدنا كنساء لكي نغادرَ قرانا الأصلية. وأنتِ كطير يحلِّقُ نحو غيمة ولا يعود أبداً".

"شكراً لكِ يا زوجة عمي لأنك جعلتني أضحك، وشكراً لكِ لأنك أريتني المعنى الحقيقي للحزن، وشكراً لكِ لأن شاركتني بمواهبك المميزة".

ترددتْ أصداءُ نحيبِ زوجة عمي عائدةً إليَّ من مكانها المظلم. ولم أستطعْ أن أتركَها تعيشُ الحِدادَ لوحدها. فجارتْ دموعي دموعها.

نظرتُ إلى الأسفل، ورأيتُ يدي عمي المسمرَّتين من الشمس على يدي وهما تسحبان أصابعي بعيداً عن السياج.

قال بصوتٍ ينهارُ من الانفعال: "إن"كرسي جلوس الزهرة " الخاص بك ينتظرُك".

"يا عمي..".

ثم سمعتُ أصواتَ إخوتي، وكلٌّ واحد منهم يودِّعني. وقد أردتُ أن أراهم بعينيّ دون أن يعميني ذلك الخمارُ الأحمرُ على وجهي.

فأنشدتُ قائلة: "أيها "الأخ الأكبر" شكراً لك على الطيبة التي أظهرتَها لي. أيها "الأخ الثاني" شكراً لك لأنك تركتني أعتني بك وأنت طفلٌ صغير. أيتها "الأخت الكبرى" شكراً لك على صبرك".

وكانت الفرقةُ في الخارج تعزفُ بصوت مرتفع. فمددتُ يديّ، وساعدَني والدي ووالدتي لعبور عتبة الباب. وبينما كنتُ أخطو فوقها تأرجحَ خماري بشكل مؤقت إلى الأمام والخلف. فرأيتُ مِحفَّتي مغطاة بالزهور والحرير الأحمر. وكان "كرسي جلوس الزهرة" الخاص بي جميلاً.

امتلأ عقلي بكلِّ شيء قيلَ لي منذُ تمّ الترتيب لخطوبتي قبل ست سنوات. لقد كنتُ سأتزوجُ شاباً من مواليد عام النمر، وهو أفضلُ زوج لي بحسب طالعَيْنا. وكان زوجي صحيحَ الجسم، وذكياً، ومتعلماً. وكانت عائلتُه محترمة، وثرية، وكريمة. وكنتُ قد لمحتُ تلك الأشياء سابقاً في كمية ونوعية هدايا

زفافي. ورأيتُها الآن مجدداً في "كرسي جلوس الزهرة" الخاص بي. فأفلت والديّ يديّ، وتركاني أذهب.

مشيتُ خطوتين على عمى إلى الأمام، وتوقفت. ولم أستطعْ أن أرى أين كنتُ ذاهبة. فمددتُ يديّ وأنا أتوقُ لكي تمسكَهما زهرة الثلج. وكما لطالما كانت تفعل، جاءت إليَّ. فقادتْني إلى المِحفَّة وأصابعُها ملتفة حول أصابعي، وفتحتِ الباب، وسمعتُ البكاء من كل مكان من حولي. وغنّتْ أمي وزوجة عمي لحناً حزيناً، وهو اللحنُ المعتاد الذي يُغنى لتوديع الابنة. وانحنت زهرة الثلج إلى الأمام، وهمستْ إليَّ لكي لا يتمكنَ أحد من السماع.

قالت: "تذكري أننا رفيقتان إلى الأبد". ثم أخرجتْ شيئاً من داخل كمها، ودستْه داخلَ سترتي، وقالت: "لقد كتبتُ هذه من أجلك. اقرئيها وأنت في طريقك إلى قرية "تونغكو". وسأراكِ هناك".

صعدتُ إلى المِحفَّة، ورفعَني الحمالون، ومضيتُ في طريقي، ورافقتني أمي وزوجةُ عمي وأبي وزهرة الثلج وبعض الأصدقاء من قرية "بوواي" إلى طرف القرية وهم يصيحون بتمنياتهم السعيدة للمرة الأخيرة. وجلستُ وحيدةً في المِحفَّة وأنا أبكي.

لماذا كنتُ أسببُ لنفسي كل ذلك القلق في حين أنني كنتُ سأعودُ إلى بيتي الذي وُلدتُ فيه في غضون ثلاثة أيام؟ يمكنني أن أشرحَ الأمرَ بهذه الطريقة: إن العبارة التي نستخدمُها للزواج هي: "بولو فوجيا"، التي تعني عدم الإقامة في بيت الزوج مباشرة. وتعني كلمة "لو" حرفياً السقوط، كسقوط ورق الشجر في الخريف أو السقوط عند الموت. وفي لهجتنا المحلية، الكلمة التي تعني

"زوجة" هي نفسُ الكلمة التي تعني "ضيف". فسأكونُ لبقية حياتي مجردَ ضيفة في بيت زوجي، وليس ذلك النوع من الضيوف الذي يُعاملُ بالولائم الخاصة، والهدايا، والحنان، والأسرَّة الناعمة. بل من النوع الذي يُعتبَر إلى الأبد غريباً، وأجنبياً، ومثارَ شك.

مددتُ يدي إلى سترتي، وسحبتُ رزمة زهرة الثلج. وكانت تلك مروحتنا ملفوفة بالقماش. ففتحتُها متوقعةً الكلمات السعيدة التي قد كتبتْها. فتجولتْ عيناي في الطيات حتى رأيتُ رسالتَها، وكانت تقول: طيران يحلقان وقلبان يخفقان كقلبٍ واحد، والشمسُ تشعُ على جناحيهما، وتغمرُهما بالدفء الشافي، والأرضُ تمتدُ تحتَهم، وكلُّ شيء ملكهما. وفي الإكليل على قمة المروحة كان هناك طيران يحلِّقان معاً، وهما أنا وزوجي. فأعجبني أنَّ زهرة الثلج قد وضعتْ زوجي في أعز ممتلكاتنا.

ثم نشرتُ على حضني المنديل الذي كان ملفوفاً على المروحة. فنظرتُ إلى الأسفل ووشاحي يتأرجحُ مع حركة الحمالين، ورأيتُ أنها قد طرَّزت رسالة لي بكتابتنا السرية لتحتفلَ بهذه اللحظة المميزة.

وكانت الرسالة تبدأ بافتتاحية تقليدية موجهة إلى عروس:

أشعرُ بسكاكين في قلبي وأنا أكتبُ إليك. لقد تعاهدنا أننا لن نفترقَ خطوة واحدة. وأننا لن نتفوه بكلمة قاسية فيما بيننا.

كانت هذه الكلماتُ من عقد صداقتنا. فابتسمتُ لتلك الذكرى.

كنتُ أعتقدُ أننا سنعيشُ كامل حياتنا معاً. ولم أصدقْ أبداً أن هذا اليوم كان سيأتي. إنه لمن المحزن أننا أتينا إلى الحياة خطأ – كفتاتين – ولكنَّ هذا هو

قدرنا. لقد كنا يا زهرة الزنبق، كزوج من البجع. والآن تغيَّرَ كلُّ شيء. إنك في الأيام التالية ستعرفين أشياء عني. وقد كنتُ قلقةً ويعتريني الخوف. وقد كنتُ أبكي في قلبي وفي فمي معتقدةً أنك لن تحبيني بعد الآن. واعلمي من فضلك أنه مهما كان رأيكِ بي فإن رأيي بك لن يتغيرَ أبداً.

زهرة الثلج

هل يمكنُ لأحد أن يتخيلَ كيف كنتُ أشعر؟ لقد كانت زهرة الثلج هادئة جداً خلال الأسابيع الماضية لأنها كانت قلقة من أنني لن أحبَها بعد الآن. ولكن كيف يمكنُ لذلك أن يحدث؟ لقد كنتُ أعلمُ وأنا على "كرسي جلوس الزهرة" في طريقي إلى زوجي أن لا شيءَ كان سيغيرُ على الإطلاق من شعوري تجاه زهرة الثلج. فشعرتُ بهاجس مريع، وأردتُ أن أصرخ للحمالين ليعيدوني إلى البيت لكي أتمكنَ من تخفيف مخاوف رفيقتي.

لكننا كنا قد وصلنا عندئذٍ إلى بوابة قرية "تونغكو" الرئيسية. وأخذتِ المفرقعاتُ النارية تشتعلُ وتنفجرُ. وأخذتِ الفرقةُ تُصدرُ صوتَ رنين وبوق وطبول. وأخذَ الناسُ يفرغون مهري. وكان يجبُ أن تُؤخذَ تلك الأشياء مباشرةً إلى بيتي الجديد لكي يتمكنَ زوجي من تغيير ملابِسه ليرتَدي ملابس الزفاف التي صنعتُها من أجله. ثم سمعتُ صوتاً رهيباً ولكنه مألوف. وكان صوتَ دجاجة يُقطعُ عنقُها. وخارجَ "كرسي جلوس الزهرة" الخاص بي، رشَّ أحدُهم دم الدجاجة على الأرض ليدفعَ أذى أية أرواح شريرة قد تكونُ وصلتْ معي.

أخيراً، انفتحَ بابي. وساعدتْني على النزول امرأةٌ تُعتبرُ زعيمة القرية. إلاّ أن زعيمة القرية الفعلية كانت حماتي. في حين أن هذه كانت زعيمة لأنها كانت

المرأة ذات العدد الأكبر من الأبناء في قرية "تونغكو". فقادتْني إلى بيتي الجديد حيث وقفتُ عند عتبة الباب وقُدمتْ لأهل زوجي. فانحنيتُ أمامَهم، ولمسَ رأسي الأرض ثلاث مرات. وقلت: "سأطيعُكم. وسأعملُ من أجلكم". ثم صببتُ الشاي من أجلهم. وبعد ذلك، تمّتْ مرافقَتي إلى حجرة الزفاف حيث تُركتُ وحدي والباب مفتوح. وقد كانت أمامي لحظاتٌ فقط قبل أن ألتقي بزوجي. وقد كنتُ أنتظرُ هذا منذ المرة الأولى التي جاءتْ فيها مدام "وانغ" إلى منزلي لترى قدميّ. وبالرغم من ذلك، فقد كنتُ مرتبكةً، وقلقة، ومشوشة كلياً. لقد كان ذلك الرجلُ غريباً تماماً عني. لذا، كنتُ بشكل طبيعي فضولية بشأنه. فقد كان سيصبحُ أباً لأطفالي. وهكذا، كنتُ قلقةً كيف كان هذا الأمرُ سيحدث. وكنتُ قد تلقيتُ لتوي رسالة غامضة من رفيقتي. فكنتُ قلقةً بشدة بشأنها.

سمعتُ أناساً يحركون طاولة ليسدوا الباب. أملتُ رأسي قليلاً بحيث إن خماري ابتعدَ بعض الشيء ورأيتُ أهلَ زوجي يكدسون لحف زفافي على الطاولة ويضعان كأسين من الشراب على قمة الكومة، أحدهما مربوط بخيط أخضر والآخر بخيط أحمر، وكلاهما مربوطان معاً.

دخلَ زوجي إلى الحجرة المؤدية إلى الحجرة الرئيسية. فهلل الجميع. ولم أحاول في هذه المرة أن أسترقَ النظر. فقد أردتُ أن أكونَ تقليدية قدرَ استطاعتي في هذا اللقاء الأول. فسحبَ الخيط الأحمر من جانب الطاولة الذي أمامه. وسحبتُ الخيطَ الأخضر من جانب الطاولة الذي أمامي. ثم قفزَ على الطاولة على اللُّحف مباشرة، ووثبَ إلى داخل الغرفة. وبهذا العمل، أصبحنا متزوجين رسمياً.

ماذا كان يمكنني أن أقولَه لزوجي في اللحظة الأولى التي وقفنا فيها جنباً إلى جنب؟ لقد كان بإمكاني أن أشمَّ أنه قد قامَ بتنظيف جسمه جيداً. وبالنظر إلى الأسفل، استطعتُ أن أرى أن الحذاء الذي صنعتُه له كان يبدو جميلاً على قدميه، وأن بنطال الزفاف الأحمر كان بالطول المناسب تماماً. ولكن تلك اللحظة مرت، وانتقلنا إلى "الإغاظة والكلام بصوت مرتفع في حجرة الزفاف". فاندفعَ أصدقاءُ زوجي إلى الداخل ومشيتهم غير مستقرة وكلماتهم واهنة بسبب كثرة الشرب. فقدموا لنا الفول السوداني والتمر لكي ننجبَ الكثيرَ من الأطفال، وأعطونا الحلويات لكي نعيشَ حياة حلوة. ولكنهم لم يقوموا بإعطاء الفاصولياء وحسب لي كما فعلوا مع زوجي. كلا، بل علقوها بخيط ودلّوها فوق فمي تماماً. وجعلوني أقفزُ للحصول عليها وهم يحرصون ألا أصلَ إلى هدفي أبداً. وكانوا طوال الوقت يطلقون النكات. وكان هذا الأمرُ ذاته في كل مكان، حديثٌ سوقي مسموحٌ به في الليلة الأولى للزواج في كل مكان. وقد لعبتُ أيضاً. ولكنني في داخلي، كنتُ أزدادُ قلقاً.

مضت ساعات على وجودي في قرية "تونغكو". وأصبحَ الوقتُ متأخراً في الليل. وكان القرويون خارجاً في الشارع يشربون، ويأكلون، ويرقصون، ويحتفلون. وأُشعلتْ جولة أخرى من الألعاب النارية مشيرةً إلى الجميع ليعودوا إلى بيوتهم. أخيراً، أغلقتْ مدام "وانغ" الباب المؤدي إلى حجرة الزفاف. وأصبحتُ وزوجي وحدَنا.

فقال: "مرحباً".

وقلتُ له: "مرحباً".

"هل تناولتِ طعاماً؟"

"لا يُفترَضُ بي أن آكلَ لمدة يومين آخرين".

فقال: "لديك الفول السوداني والتمر، ولن أخبرَ أحداً إنْ أردتِ أن تأكليها".

هززتُ رأسي. فاهتزتِ الكراتُ الصغيرةُ على غطاء رأسي ورنَّت القطع الفضيةُ بشكل جميل. وانزاحَ خماري فرأيتُ أن عينيه كانتا تنظران إلى الأسفل، وكان ينظرُ إلى قدميّ، فاحمرَّ وجهي خجلاً. وحبستُ أنفاسي آملةً أن يستقرَّ الخمارُ على وجهي لكي لا يلمحَ مشاعري على وجنتي. فلم أتحرك، ولم يتحرك هو أيضاً. كنتُ واثقةً أنه كان ما يزالُ يتفحصني. وكل ما كان باستطاعتي فعلُه هو الانتظار.

أخيراً، قال زوجي: "لقد قيلَ لي إنكِ جميلة جداً. فهل أنتِ كذلك؟"

"ساعدني بنزعِ غطاء رأسي، واكتشفْ بنفسك".

خرجت هذه الكلماتُ لاذعةً أكثرَ مما كنتُ أنوي لها أن تكون. ولكنّ زوجي قام بمجرد الضحك. وبعد بضع لحظات، وضعَ غطاء رأسي على طاولة جانبية. واستدارَ ليواجهَني. وكنا نبعدُ عن بعضنا مسافة متر تقريباً. فتفحَّص وجهي، وتفحَّصتُ وجهه بجرأة. وكان كلُّ شيء قالتْه مدام "وانغ" وزهرة الثلج عنه صحيحاً. فلم يكنْ وجهه يحملُ علامات الجدري أو أية ندبات من أي نوع. ولم يكن داكن البشرة كوالدي أو عمي مما أكَّد لي أن ساعاتِ عمله في حقول العائلة كانت قليلة. وكانت له عظمتا وجنتين مرتفعتين، وذقنٌ واثقة جداً، ولكنها ليست وقحة. وكانت خصلة شعر طائشة منسدلة على جبينه ومضفية عليه مظهراً مبتهجاً. وكانت عيناه تلمعان موحيتين بطبعه الحسن.

خطا إلى الأمام، وأمسك يديّ بيديه، وقال: "أعتقدُ أنه يمكننا أنا وأنتِ أن نكونَ سعيدين".

هل يمكنُ لفتاة في السابعة عشرة من قبيلة "ياو" أن تأملَ بسماع كلمات أفضل؟ لقد رأيتُ كزوجي مستقبلاً ذهبياً ينتظرنا. وفي تلك الليلة، اتبعَ كل التقاليد الصحيحة حتى أنه نزعَ حذاء زفافي، وألبسَني خف النوم الأحمر. وقد كنتُ معتادةً على لمسة زهرة الثلج اللطيفة بحيث إنه لا يمكنني فعلاً أن أصفَ كيف شعرتُ ويداه على قدميّ عدا عن أن هذا العمل كان يبدو أكثرَ ألفة بكثير مما حدثَ بعدَه. فأنا لم أكن أعرفُ ما أفعله، ولم يكن هو يعرفُ ذلك أيضاً. فحاولتُ وحسب أن أتخيلَ ما كانت زهرة الثلج لتفعلَه إن كانت مع هذا الرجل الغريب بدلاً مني.

في اليوم الثاني لزواجي، نهضتُ باكراً. وتركتُ زوجي نائماً وخطوت خارجة إلى القاعة. أتعرفون ذلك الشعور حين يشعرُ المرءُ بالاشمئزاز قلقاً؟ هكذا كنتُ أشعرُ منذ اللحظة التي قرأتُ فيها رسالة زهرة الثلج. ولكنني لم أستطعْ أن أفعلَ شيئاً حيال الأمر خلال زفافي الليلة الفائتة أو حتى الآن. فكان عليَّ أن أفعلَ ما بوسعي لأتبعَ السلوك المفروض عليَّ حتى أراها مجدداً. ولكن الأمرَ كان صعباً لأنني كنتُ جائعة ومرهقة، وكان جسمي يؤلمني. وكانت قدماي متعبتين وتؤلمانني من كثرة المشي في تلك الأيام الماضية. وكنتُ أشعرُ بعدم الراحة في أماكنَ أخرى أيضاً، ولكنني حاولتُ أن أمحو تلك الأشياء وأنا أتوجه في طريقي نحو المطبخ حيث كانت هناك خادمة في حوالي العاشرة من عمرها تجلسُ على الأرض بانتظاري على ما يبدو. وكانت تلك خادمتي الخاصة. ولم

يخبرني أحدٌ بخصوص ذلك. ولم يكن الناسُ في قرية "بوواي" يوظفون خدماً. ولكنني لاحظتُ أنها كانت خادمة لأن قدميها لم تكونا مربوطتين. وكان اسمها هو "يونغانغ"، ويعني "شجاعة وقوية كالحديد". وقد ثبتَ أن هذا صحيح. وكانت قد سبقَ لها أن أشعلتْ ناراً في الموقد، وحملت الماء إلى المطبخ. وكان كلُّ ما عليَّ فعلُه هو أن أسخِّن الماء وآخذَه إلى أهل زوجي لكي يغسلوا وجوههم. وقد أعددتُ الشاي أيضاً للجميع في العائلة. وعندما جاؤوا إلى المطبخ، صببتُ الشاي دون أن أريقَ قطرة واحدة.

وفي وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، أرسلَ أهلُ زوجي دفعة أخرى من لحم الخنزير والكعك الحلو إلى عائلتي. وأقامتْ عائلة "لو" وليمة كبيرة في معبد أسلافهم. ورغم ذلك فقد كانت مأدبة أخرى لا يُسمَحُ لي فيها بالأكل. وانحنيتُ وزوجي أمام الجميع لآلهة "السماء" و"الأرض" ولأهل زوجي ولأسلاف عائلة "لو". ثم عبرنا خلال المعبد ونحن ننحني لكل من كان أكبرَ سناً منا. ثم قاموا بدورهم بإعطائنا مالاً ملفوفاً بورق أحمر. ثم عدنا إلى حجرة الزفاف.

كان اليوم التالي، وهو اليوم الثالث للزواج، اليومَ الذي تنتظره كلُّ العرائس لأن كتب اليوم الثالث للزفاف التي صنعتْها العائلة والصديقات تُقرأُ فيه. ولكنَّ كل ما استطعتُ التفكيرَ فيه عندئذٍ كان زهرة الثلج وأنني كنتُ سأراها في تلك المناسبة.

وصلتِ الأختُ الكبرى وزوجة الأخ الأكبر، وأحضرتا الكتبَ والطعام. وأخيراً، سُمحَ لي بالأكل. وانضمت كثيراتٌ من نساء قرية "تونغكو" إلى نساء عائلة زوجي ليقرأن الكتب. ولكن لم تحضرْ زهرة الثلج ولا أمُها أيضاً. وكان هذا

الأمرُ يتخطى قدرَتي على الفهم. لقد كنتُ أشعرُ بأذى عميق... وبالخوف من غياب زهرة الثلج. وكنتُ هناك في ما يعتبرُ أسعدَ طقوس الزواج، ولكنني لم أستطعْ أن أستمتعَ به.

كان كتابي يحتوي على كل السطور التي تُعبِّرُ عن بؤس عائلتي الآن لأنني لم أعدْ أعيشُ معهم. وفي نفس الوقت، كان يطري على فضائلي، ويحتوي على عبارات مثل: لو أننا فقط نقنعُ تلك العائلة المحترمة لتنتظرَ بضع سنوات فقط قبل أن تأخذَك. أو إنه من المؤسف أننا افترقنا، فيما يتوسلون لأهل زوجي أن يكونوا متساهلين وأن يعلموني تقاليد عائلتهم الجديدة بصبر. وكان كتاب زهرة الثلج كما توقعتُه أيضاً مجسِّداً حبها للطيور. فكان يبدأُ كما يلي: العنقاء تُرافقُ الدجاجة الذهبية. ويكونُ ارتباطُهما في السماء.

الحقيقة

لو أن الظروفَ كانت طبيعية لكنتُ قد عدتُ في اليوم الرابع بعد زفافي إلى عائلتي في قرية "بوواي". ولكنني كنتُ أخططُ منذ وقتٍ طويلٍ للذهاب مباشرة إلى منزل زهرة الثلج لحضور شهر "الجلوس والغناء" الخاص بها. والآن وقد أصبحتُ قريبةً من رؤيتها مجدداً كنتُ أكثرَ قلقاً من ذي قبل. وقد ارتديتُ أحدَ أطقم النهار الجيدة لديّ، وهو مكونٌ من سترة بلون أخضرمائي وسروال مطرز بشكل أوراق الخيزران. فقد أردتُ أن أتركَ انطباعاً محبباً ليس على كل من كنتُ سأمرُّ بهم في قرية "تونغكو" بل في عائلة زهرة الثلج التي قد سمعتُ عنها كثيراً خلال تلك السنوات العديدة. وقد قادتني الخادمة "يونغانغ" في أزقة قرية "تونغكو". وحملتْ ثيابي، وخيوطَ تطريزي، وقماشي، وكتابَ اليوم الثالث للزفاف الذي كنتُ قد أعددتُه من أجل زهرة الثلج في إحدى السلال. وكنتُ مسرورة لإرشاد "يونغانغ" رغم أنني لم أكنْ مسرورة لصحبتها. فكانت من الأشياء الكثيرة التي كان عليَّ أن أعتادَ عليها.

كانت قرية "تونغكو" أكبرَ وأكثرَ ازدهاراً بكثير من قرية "بوواي". فكانت الأزقةُ نظيفةً. ولم يكنْ هناك دجاج أو بط أو خنازير تتجولُ بحرية. وقفنا أمام منزلٍ كان يبدو بالضبط كما وصفتْه زهرة الثلج. فقد كان مكوناً من طابقين وهادئاً وأنيقاً. ولم أكنْ هناك لمدة طويلة كفاية لأعرفَ تقاليدَ القرية. ولكن كان هناك تقليدٌ مشابه تماماً لتقاليد قرية "بوواي"، وهو أننا لم نكن نصرخُ بتحياتنا أو نقرعُ الباب لنعلنَ عن وصولنا. بل قامت "يونغانغ" بمجرد فتح الباب الرئيسي المؤدي إلى منزل زهرة الثلج وخطتْ إلى الداخل.

تبعتُها، وسرتُ خلفَها تماماً. وسرعان ما فاجأتني رائحةٌ غريبة تجمعُ بين السماد البشري واللحم الفاسد تُغطي عليها رائحة شيء حلو بشكل مثير للاشمئزاز. ولم تكنْ لديَّ فكرةٌ عما كان من الممكن أن يكونَ مصدُرها باستثناء أنها كانت تبدو بشرية نوعاً ما. فانقلبتْ معدتي، ولكنَّ عيني تمردتا حتى أكثرَ رافضتين أن تتقبلا ما كانتا تشاهدانه.

كانت الغرفة الرئيسية أكبرَ بكثير من تلك التي كانت في بيت أهلي، ولكنها كانت تحتوي على أثاث أقلَّ بكثير. فقد رأيتُ طاولةً ولكنني لم أرَ أية كراسٍ. ورأيتُ درابزيناً منحنياً يؤدي إلى غرفة النساء. ولكن باستثناء تلك الأشياء، التي كانت تُظهرُ صنعتُها أنها من نوعية أفضلَ بكثير من أي شيء في بيت عائلتي، لم يكن هناك شيءٌ آخر. ولم تكنْ هناك نار حتى. وقد كنا في أواخرِ فصل الخريف، فكان الطقسُ بارداً. وكانت الغرفةُ قذرةً أيضاً. فكان فتاتُ الطعام مبعثراً على الأرض. ورأيتُ أبواباً أخرى لا بدَّ أنها كانت تؤدي إلى غرف النوم.

لم يكنْ هذا فقط مختلفاً كلياً عما قد يتوقَّعُه عابرُ السبيل من رؤية المنزل من الخارج، ولكنَّه كان مختلفاً بشكل هائل عما كانت زهرة الثلج قد وصفتْه. فلا بدَّ أنني كنتُ في المكان الخطأ.

كانت هناك بجوار السقف عدة نوافذ. وكانت كلُّها مختومةً باستثناء واحدة. وكان شعاعٌ واحدٌ من الضوء يخترقُ الظلام من تلك النافذة. فرأيتُ امرأةً في الظلام الكئيب تجلسُ القرفصاء أمام حوضٍ للغسيل. وكانت ترتدي ملابسَ فلاحة وضيعة، مهلهلة، ومرقَّعة، وقذرة. فالتقتْ عيناها بعينيّ فأبعدتْ نظرتَها عني بسرعة. ثم أبقت رأسَها منحنياً للأسفل، ووقفتْ في شعاع الضوء. وكانت

بشرتُها جميلة، وشاحبة، ونقية كالبورسلين. فمسحتْ أصابعَ إحدى يديها بأصابعِ يدها الأخرى، وانحنت.

وقالت: "أهلاً بكِ، يا آنسة زهرة الزنبق. انتظري هنا، فسأحضرُ زهرةَ الثلج". وأبقتْ صوتَها منخفضاً ليس مراعاةً لوضعي الاجتماعي الرفيع الذي اكتسبتُه حديثاً وإنما لأن نغمة صوتها كانت تبدو مليئة بالخوف.

والآن أصبحتُ مصدومةً كلياً. فلا بدَّ أن ذلك كان بيتَ زهرة الثلج. ولكن كيف كان يمكنُ لذلك أن يكون صحيحاً؟ وبينما كانت المرأة تعبرُ الغرفة إلى الدرج، رأيتُ أنها كانت لها قدمان صغيرتان كزهرتي زنبق ذهبيتين بنفس صغر حجم قدميّ تقريباً. فكانتا تبدوان لعينيَّ الجاهلتين جديرتين بالملاحظة بالنسبة لامرأةٍ من طبقة الخدَم.

أصغيتُ بحرص بينما كانت المرأةُ تخاطبُ أحدَهم في الطابق العلوي. ثم سمعتْ أذناي المستحيل. فقد كان صوتُ زهرة الثلج يتحدثُ بأقسى لهجة عنيدة وجدلية. فشعرتُ بالصدمة التامة. ولكن باستثناء ذلك الصوت المألوف الوحيد، كان المنزلُ نفسُه هادئاً بشكل غريب. وفي ذلك الصمت، شعرتُ بشيء يختبئُ كروح شريرة من العالم الآخر. فقاومَ جسمي بأكملِه هذه التجربة، وتخدَّرَ جلدي من الاشمئزاز. وارتجفتُ في طقمي الحريري ذي اللون الأخضر المائي الذي ارتديتُه لأثيرَ إعجابَ والدي زهرة الثلج، ولكنَّه لم يمنحني أية حماية من الرياح الرطبة التي كانت تهبُّ عبر النافذة أو من الخوف الذي شعرتُ به في هذا المكان الغريب المظلم المخيف والكريه الرائحة.

ظهرتْ زهرة الثلج في أعلى الدرج، وصاحت لي في الأسفل قائلة: "اصعدي".

فوقفتُ مشلولة الحركة محاولةً بشكل ميؤوس منه أن أستوعبَ ما كنتُ أراه. ولمسَ شيءٌ ما كُمي، فأجفلت.

قالت "يونغانغ" والقلق بادٍ على وجهها: "لا أعتقدُ أن السيد يريدُني أن أتركَكِ هنا".

فأجبتُ بدون تفكير: "إن السيدَ يعرفُ أين أنا".

نادتني زهرة الثلج، وكانت لصوتِها مسحةٌ من اليأس الحزين لم أسمعْها من قبل.

ثم خطرتْ ببالي ذكرى أمر حدثَ قبلَ بضعة أيام فحسب. فكانت أمي قد قالت لي إنني كامرأةٍ لن أستطيعَ أن أتجنَّبَ القبح وإنه عليَّ أن أكونَ شجاعة. وكانت قد قالت: "لقد تعاهدتما على أن تجتمعا مدى الحياة. فكوني السيدة التي يُفترضُ بكِ أن تكونيها". ولم تكن تتكلمُ عن زوجي، بل كانت تتكلمُ عن هذا. لقد كانت زهرة الثلج رفيقتي مدى الحياة. وقد كنتُ أحبُها حباً عميقاً عظيماً. وهذا هو المعنى الحقيقي لعلاقة الرفقة من نفس العمر.

مشيتُ خطوةً، وسمعتُ صوتاً يشبه الأنين من "يونغانغ". ولم أكن أعرفُ ما أفعل. فلم تكنْ لي خادمةٌ من قبل. فربتُّ على كتفها بتردد، وقلتُ لها محاولة أن أبدو كما ينبغي أن تكونَ السيدة: "اذهبي. وسأكونُ بخير".

فاقترحتْ "يونغانغ" وهي ما تزالُ قلقة: "إنْ كنتِ بحاجة للمغادرة لأي سبب اخطي خطوةً فحسب إلى الخارج، واطلبي النجدة. فالجميعُ هنا يعرفون السيد والسيدة "لو". وسيُعيدكِ الناسُ إلى بيت أهل زوجك".

مددتُ يدي، وأخذتُ السلة من يدها. وعندما لم تتزحزح من مكانها، أومأتُ

برأسي إليها لتذهب. فتنهَّدت مستسلمة، وانحنت بسرعة، ثم مشت إلى الوراء نحو عتبة الباب، والتفتت، وغادرت.

صعدتُ الدرجَ وأنا أمسكُ بسلتي بإحكام في يدي. وحالما اقتربتُ من زهرة الثلج رأيتُ أن الدموعَ كانت تغطي وجنتيها. وكانت كالخادمة ترتدي ملابسَ رمادية غير مناسبة ومرقَّعة على نحو سيئ. فوقفتُ على الدرجة التي تسبقُ مُنبسَط الدرج.

وقلت: "لا شيءَ قد تغيّر. فما زلنا رفيقتين".

فأخذتْ بيدي، وساعدتْني على صعود الدرجة الأخيرة، ثم قادتْني إلى حجرة النساء. واستطعتُ أن أرى أنها كانت أيضاً جميلة في وقتٍ ما في السابق. وكانت ربما بحجم ثلاثة أضعاف غرفة النساء في بيت أهلي. وبدلاً من الأعمدة على شبك النافذة، كانت هناك ستارةٌ خشبية منحوتة بشكل معقد تغطي الفتحة. وكانت الغرفةُ فارغةً باستثناء دولاب غزل وسرير. وكانت المرأةُ الجميلة التي رأيتُها في الطابق السفلي جالسةً برشاقة على حافة السرير ويداها مثنيتان بأناقة على حضنها. ولم تكن ملابسُها الوضيعة تستطيعُ أن تغطيَ تربيتها.

قالت زهرة الثلج: "يا زهرة الزنبق، أقدِّم لك أمي".

فعبرتُ الغرفة. وجمعتُ يديّ مع بعضهما، وانحنيتُ للمرأةِ التي أنجبتْ رفيقتي إلى هذا العالم.

قالت أم زهرة الثلج: "أرجو أن تسامحينا على ظروفنا. فيمكنني أن أقدِّمَ لك الشاي فقط". ثم نهضت، وقالت: "إن لديكما أيتها الفتاتان الكثيرَ لتتحدثا

عنه". وبذلك مشتْ بتأرجح خارجةً من الغرفة بالرشاقة الرفيعة التي تأتي نتيجةً للقدمين المربوطتين على نحو مثالي.

عندما غادرتُ بيت أهلي قبل أربعة أيام كانت الدموع تتدفقُ من عينيّ. وقد كنتُ حزينة، وسعيدة، وخائفة في آن معاً. ولكنني الآن جلستُ مع زهرة الثلج على سريرها. ورأيتُ على خديها دموعَ الندم، والذنب، والخزي، والإحراج. وكنتُ أتوقُ لكي أصرخَ عليها قائلة: أخبريني! وعوضاً عن ذلك انتظرتُ الحقيقة مدركةً أن كلَّ كلمة تخرجُ من شفتي زهرة الثلج كانت ستسببُ لها أن تفقدَ أي ماء وجه تبقى لديها.

أخيراً قالت زهرة الثلج: "قبلَ أن ألتقي وإياك بوقتٍ طويل، كانت عائلتي إحدى أفضل العائلاتِ في المقاطعة. ويمكنكِ أن تري ذلك". وأشارتْ حولَها بعجز، ثم قالت:" لقد كان هذا في السابق رائعاً. فقد كنا مزدهرين جداً. وكان جدي الأكبر عالماً تلقى الكثيرَ من المنح من الإمبراطور".

فأصغيتُ لها ورأسي يدور.

تابعت قائلة: "وعندما مات الإمبراطور، فقد جدي الأكبرُ الحظوة التي كان يتمتعُ بها. لذا عادَ إلى البيت ليتقاعد. وكانت الحياةُ طيبة. وعندما توفيَ أخذَ جدي مكانَه. وكان لدى جدي الكثيرُ من العمال والخدم. وكانت له ثلاث محظيات، ولكنهن كن ينجبن له البنات فقط. وأخيراً، أنجبتْ جدتي ولداً وضمنتْ منزلتها. وزوَّجا ابنَهما بأمي. وقال الناسُ إنها كانت مثل "هو يوشيو" التي كانت موهوبة وساحرةً بحيثُ إنها أعجبتْ الإمبراطور. ولم يكن والدي عالماً إمبراطورياً، ولكنَّه كان مثقفاً في الكتب الكلاسيكية. وقال الناسُ إنه كان

سيصبحُ زعيم قرية "تونغكو" يوماً ما. فصدَّقتْ أمي ذلك. أما البعضُ الآخرون فكانوا يرون مستقبلاً مختلفاً. وأحسَّ جداي في والدي الضعف لكونِه قد نشأ ابناً وحيداً في بيت فيه الكثير من الأخوات والمحظيات بينما شكَّت خالتي أنه كان جباناً وعرضةً للرذيلة".

كانت عينا زهرة الثلج شاردتين بعيداً وهي الآن تعيشُ ثانية ماضياً لم يعد موجوداً بعد، وتابعت قائلة: "بعد عامين من ولادتي، توفي جداي. وكانت عائلتي تملكُ كلَّ شيء، كالملابس الساحرة، والطعام الوافر، والكثير من الخدم. وكان والدي يأخذُني في رحلات، وكانت أمي تأخذُني إلى معبد "غوبو". فرأيتُ وتعلمتُ الكثير كفتاة. ولكن كان على والدي أن يعتني بمحظيات جدي الثلاث وأن يُزوِّجَ شقيقاتِه الأربع وأخواتِه غير الشقيقات الخمس اللواتي أُنجبن من المحظيات. وكان عليه أيضاً أن يوفر العمل، والطعام، والمأوى للعمال وخدم المنزل. وتم الترتيبُ لزواج شقيقاتِه وأخواتِه غير الشقيقات. وحاولَ والدي أن يُري الجميعَ أيَّ رجل كريم هو. وكان مهرُ كل عروس أكثرَ ترفاً من الذي سبقَه. فبدأ يبيعُ الحقول لمالك الأراضي الذي كان يعيشُ في غرب إقليمنا لكي يتمكنَ من دفعِ ثمن المزيد من الحرير أو ثمن خنزير آخر ليُذبحَ كمهر للعروس. إن أمي، وقد رأيتِها، جميلةٌ من الخارج، ولكنها من الداخل تشبُه ما كنتُ عليه قبل أن ألتقي بك. فهي مدللة ومحمية وجاهلة بالأعمال النسائية باستثناء التطريز وكتابة الـ "نو شو". أما والدي..". وترددتْ زهرة الثلج ثم قالت بدون تفكير: "أما والدي فقد اعتادَ على تدخين الغليون".

فعدتُ بذاكرتي إلى ذلك اليوم الذي جعلتْ فيه مدام "غاو" من نفسِها مصدرَ

إزعاج وهي تتحدثُ عن عائلة زهرة الثلج. وكانت قد ذكرتْ المقامرةَ والمحظيات، ولكنها ذكرتْ أيضاً أنَّ والدَ زهرة الثلج قد اعتادَ تدخين الغليون. وقد كنتُ في التاسعة فقط. فاعتقدتُ أنه كان يدخِّنُ الكثيرَ من التبغ. أما الآن فلم أدركْ فقط أن والد زهرة الثلج قد وقعَ ضحيةً لتعاطي الأفيون ولكن أن الجميعَ في غرفة النساء في ذلك اليوم، باستثنائي، قد عرفن تماماً ما كانت مدام "غاو" تتحدثُ عنه. فكانت أمي وزوجة عمي ومدام "وانغ" يعرفن جميعاً. كلهن كن يعرفن. ورغم ذلك فقد اتفقن جميعاً على أنه لا ينبغي عليهن أن يشاركنني بتلك المعلومة العامة.

فقلتُ بحذر: "هل ما يزالُ والدك على قيد الحياة؟" وقد كانت بالتأكيد لتخبرَني لو أنه قد مات. ولكن كان من الممكن لها ألا تفعلَ ذلك إذا ما أخذنا بالاعتبار كل أكاذيبها الأخرى.

أومأتْ برأسِها، ولكنها لم تقلْ شيئاً آخر.

فسألتُ وأنا أفكّرُ بالرائحة الغريبة والمقززة التي كانت تطغى على الغرفة الرئيسية: "هل هو في الطابق السفلي؟"

وكانت ملامحُها ساكنة جداً. ثم رفعتْ حاجبيها. فاعتبرتُ أن هذا كان يعني: نعم.

استأنفتْ زهرة الثلج كلامها، وقالت: "حدثتْ نقطة التحول بحلول المجاعة. هل تتذكرين ذلك؟ ولم نكن قد التقينا بعد. ولكن كان هناك محصولٌ سيئٌ بشكل خاص تبعَه شتاءٌ قاس جداً".

كيف يمكنني أن أنسى؟ فقد كان أفضلُ شيء كنا نتناولُه هو عصيدة الأرز

بنكهة اللفت المجفف. وكانت أمي مقتصدة. وكان والدي وعمي بالكاد يأكلان طعاماً. ولكننا نجونا من محنتنا.

اعترفتْ زهرة الثلج بقولها: "لم يكن والدي مستعداً لذلك. فكان يدخّنُ غليونه وينسى أمرنا. وفي أحد الأيام، غادرت محظياتُ جدي. وربما عدن إلى بيوتهن أهاليهن، وربما توفين في الثلج. ولا أحد يعلم. وبحلول الوقت الذي حلَّ فيه الربيع، كنتُ ووالدي وأخوي وأختي نعيشُ وحدنا في المنزل. فكنا ظاهرياً ما نزالُ نحافظُ على حياتنا الأنيقة. ولكن في الواقع، كان جامعو الديون يزورون منزلنا بانتظام. فباعَ والدي المزيدَ من الحقول. وأخيراً، لم يعدْ لدينا سوى المنزل. وبحلول ذلك الوقت، كان يهتمُ بغليونه أكثرَ مما كان يهتمُ بنا. وقبل أن يرهنَ الأثاث، ولا يمكنك أن تتخيلي يا زهرة الزنبق كم كان كلُّ شيء جميلاً، فكَّرَ أنه قد يبيعني".

"ليس كخادمةَ!"

"بل أسوأ من ذلك، كـ "كنة صغيرة"".

لطالما كان هذا أكثرَ الأشياء رعباً التي يمكنني أن أتخيلَها. فالكنةُ الصغيرةُ لا تربطُ قدميها، ويقومُ على تنشئتها غرباء يكونون من وضاعة الأخلاق بحيث إنهم لا يريدون كنة لائقة، وتُعامَل معاملة أسوأ من معاملة الخادمة. والآن بعد أن تزوجتْ، أدركتُ أفظعَ أوجه هذه الحياة. فهي لا تُعتبَرُ أكثرَ من جارية لأي رجل يعيشُ في العائلة.

قالت: "أنقذتْنا خالتي. فبعد أن أصبحتُ وإياك رفيقتين، رتبتْ لزواج متوسط الحال لأجل أختي الكبرى. وهي لا تأتي إلى هنا بعد الآن. وقامت لاحقاً بإرسالِ

أخي الأكبر ليعملَ كصبي متدرب في قرية أخرى. أما أخي الأصغر فيعملُ اليوم في الحقول لدى عائلة زوجك. وتوفيتْ أختي الصغرى، كما تعلمين..".

ولكنني لم أكنْ آبه للناس الذين لم أقابلْهم قَط ولم أسمعْ عنهم سوى الأكاذيب، فقلت: "ماذا حدثَ لك؟"

"غيرتْ خالتي مستقبلي بواسطة المقص والقماش وحجر الشب. فعارضَ والدي. ولكنك تعرفين الخالة "وانغ". فمن يستطيعُ أن يرفضَ ما تقولُه حالما تتخذُ قراراً؟"

أصبتُ بدوار في رأسي، وسألت: "الخالة "وانغ"؟ أتعنين الخالة "وانغ" الخاطبة؟"

"إنها خالتي".

ضغطتُ بأصابعي على صدغيَّ. ففي اليوم الأول الذي التقيتُ فيه زهرة الثلج وذهبنا إلى معبد "غويو" خاطبتْ زهرة الثلج الخاطبة بكلمة "خالة". وظننتُ أنها قد فعلتْ ذلك لياقةً واحتراماً. ومنذ ذلك الوقت وصاعداً، كنتُ أستخدمُ أيضاً ذلك اللقب عندما كنتُ أتحدثُ إلى مدام "وانغ". فشعرتُ بالغباء والحماقة.

وقلت: "إنك لم تخبريني قَطّ".

"عن الخالة "وانغ"؟ هذا هو الشيء الوحيدُ الذي كنتُ أظنّكِ تعرفينه".

الشيء الوحيدُ الذي كنتُ أظنّك تعرفينه. وحاولتُ أن أستوعبَ تلك الكلمات.

تابعتْ زهرة الثلج: "كانت الخالة "وانغ" تدركُ حقيقة والدي. وكانت تعرفُ أنه كان ضعيفاً. وأدركتْ حقيقتي أيضاً. فقد قرأتْ في وجهي أنني لم أكنْ أحبُّ إطاعة الأوامر وأنني لم أكنْ أنتبه للأمور، وأنه كان ميؤوساً مني في فنون

العناية بالمنزل، ولكن كان بإمكان أمي أن تعلِّمني كيفية التطريز، واللباس، وكيف أتصرفُ أمام أحد الرجال، وكتابتنا السرية. وخالتي هي مجردُ امرأة، ولكنها كخاطبة تتمتعُ بعقلية مهنية. فرأتْ أين كانت الأمور متفوقة بالنسبة لي ولعائلتي. وبدأت تعملُ على إيجاد علاقة رفقة مع صديقة من نفس العمر آملةً أن ينشرَ ذلك رسالة جيدة عبرَ الريف أنني كنتُ مثقفة، ووفية، ومطيعة..".

فاستنتجتُ قائلة: "ولائقةً للزواج". وكان هذا صحيحاً بالنسبة لي أيضاً.

"فبحثتْ في أنحاء المقاطعة مسافرةً إلى مناطقَ بعيدة خارجَ منطقة خطبتها المعتادة حتى سمعتْ عنك من العرَّاف. وحالما التقت بك، قررتْ أن تربطَ مصيري بمصيرك".

"إنني لا أفهمكِ".

فابتسمتْ زهرة الثلج بحزن، وقالت: "لقد كنتِ تسمين نحو الأعلى وأنا كنتُ أنحدرُ نحو الأسفل. وعندما التقيتُ بكِ أول الأمر، لم أكنْ أعرفُ شيئاً. فكان يُفترَضُ بي أن أتعلمَ منكِ".

"ولكنكِ أنتِ من علمتني. فقد كان تطريزُك دائماً أفضلَ من تطريزي. وكنتُ تعلمين الكتابة السرية على نحو جيد جداً. ودرَّبتني على العيش في بيت ذي مكانة اجتماعية رفيعة..".

"وأنتِ علمتني كيف أحملُ الماء، وأغسلُ الثياب، وأطهو، وأنظفُ المنزل. وقد حاولتُ أن أعلِّمَ أمي، ولكنها ترى الأشياء فقط كما كانت عليه".

كنتُ قد شعرتُ مسبقاً أن أم زهرة الثلج كانت تتمسكُ بماضٍ لم يعد موجوداً بعد الآن. ولكن بعد أن سمعتُ لتوي ما أخبرتني به زهرة الثلج من قصة

عائلتها، أعتقدُ أن رفيقتي أيضاً كانت ترى الأشياء من خلال ذكرى الماضي السعيد. ولمعرفتي بها طوال تلك السنوات، علمتُ أنها كانت تؤمنُ بفكرة أن عالمَ النساء الداخلي ينبغي أن يكون جميلاً وخالياً من القلق. وربما كانت تعتقدُ أن الأمورَ كانت ستعودُ بطريقة ما إلى سابق عهدها.

قالت زهرة الثلج: "لقد تعلمتُ منك ما كنتُ بحاجة لأعرفَه من أجل حياتي الجديدة باستثناء أنني لم أكنْ قادرةً أبداً على التنظيف بشكل جيد مثلك".

بالفعل، فهي لم تكنْ جيدةً قطّ في هذا الأمر. ولطالما كنتُ أعتقدُ أن تلك كانت طريقتَها بالتغاضي عن الفوضى التي كنا نعيشُ بها. والآن أدركتُ أن الأمرَ كان أسهلَ بالنسبة لذهنها أن يطفو عبر الهواء بعيداً فوق الغيوم من أن يعترفَ بحقيقة القبح الذي كان أمام عينيها.

جادلتُها بغباء محاولةً أن أجعلَها تشعرُ بحال أفضل: "ولكن منزلكم أكبرُ بكثير وتنظيفه أكثر صعوبة من تنظيف منزلنا. وقد كنتِ مجردَ فتاة صغيرة في أيام "التزين بدبابيس الشعر". ولديك..".

"أمٌ لا يمكنُها أن تساعدَني، ووالدٌ مدمنٌ على الأفيون، وإخوةٌ وأخواتٌ غادروا واحداً تلو الآخر".

"ولكنك ستتزوجين..".

تذكرتُ فجأةً ذلك اليوم عندما جاءتْ مدام "غاو" إلى حجرة الطابق العلوي، وشهدتُ جدالَها الأخير مع مدام "وانغ". ما الذي كانت قد قالتْه عن خطوبة زهرة الثلج؟ حاولتُ أن أتذكرَ ما كنتُ أعرفُه عن الأمر. ولكن زهرة الثلج كانت نادراً ما تتحدثُ عن زوجها المستقبلي. ونادراً ما كانت ترينا أياً من هدايا

زفافها. ولكننا كنا قد شاهدنا قطعاً من القطن والحرير كانت تعملُ بها. وكانت دائماً تقولُ إن تلك كانت أشغالاً للحياة اليومية، مثل حذاء لها. ولا شيء فاخر.

بدأتْ فكرةٌ مخيفة تتكونُ في ذهني. فلا بدَّ أن زهرة الثلج كانت ستتزوجُ إلى عائلة وضيعة جداً. وكان السؤال هو: إلى أي مدى كانت وضيعة؟

فبدا على زهرة الثلج أنها كانت تقرأُ أفكاري، فقالت: "لقد فعلتْ خالتي أفضلَ ما استطاعتْ فعلَه من أجلي. فلن أتزوجَ مزارعاً".

وآلمني هذا قليلاً لأن والدي كان مزارعاً.

"أهو تاجرٌ إذاً؟" وقد تكونُ للتاجرِ مهنةٌ غيرُ شريفة. ولكنه قد يكونُ قادراً على أن يعيدَ بعضاً من ظروف زهرة الثلج الجيدة المفقودة.

"سأتزوجُ إلى قرية "جينتيان" المجاورة كما قالت الخالة "وانغ" تماماً. ولكن عائلةَ زوجي..". وترددتْ مجدداً، ثم قالت: "إنهم جزّارون".

كان هذا أسوأ زواجٍ ممكن! فكان زوجُ زهرة الثلج سيحظى ببعض المال. ولكن ما كان يعملُه كان قذراً ومثيراً للاشمئزاز. وأعدتُ تذكُّرَ كلَّ شيء حدث في الشهر الماضي بينما كنا نحضِّرُ لزفافي. وتذكَّرتُ بشكل خاص كيف بقيتْ مدام "وانغ" بجانب زهرة الثلج وهي تخففُ عنها وتتوددُ إليها بهدوء. ثم تذكرتُ كيف حكتِ الخاطبة قصة "الزوجة وانغ". فعرفتُ بخزي شديد أن القصة لم تكنْ مقصودة من أجلي بل من أجل زهرة الثلج.

لم أعرفْ ما أقول. وكنتُ قد سمعتُ أجزاء صغيرة من الحقيقة منذ كنتُ في التاسعة من عمري، ولكنني اخترتُ ألا أصدقَها أو أعترفَ بها. وفكّرتُ الآن في

نفسي قائلة: أليس من واجبي أن أجعلَ رفيقتي سعيدة؟ وأن أجعلَها تنسى هذه المتاعب؟ وأن أجعلَها تؤمنُ أن كلَّ شيء سيكونُ على ما يرام؟

وضعتُ ذراعي حولَها، وقلت: "إنك على الأقل لن تجوعي". ورغم ذلك فقد ثبتَ أنني كنتُ مخطئةً في هذا. وقلت: "وهناك أشياء أسوأُ من الممكن أن تحدثَ لإحدى النساء". ولكنني لم أكنْ أعرفُ ما كان من الممكن لهذه الأشياء أن تكون.

فدفنتْ وجهها على كتفي، وأخذت تنتحبُ. وبعد لحظة، أبعدتْني عنها بخشونة. وكانت عيناها مبللتين بالدموع، ولكنني لم أرَ حزناً فيهما بل ضراوةً جامحة.

"لا تشفقي عليَّ. فأنا لا أريدُ ذلك".

ولم تكنِ الشفقةُ قد خطرتْ ببالي. فشعرتُ بالغثيان من الارتباك والحزن.

لقد دمَّرتْ رسالتُها متعة زفافي. وجرحَني في أعماقي عدم قدومها لقراءة كتب اليوم الثالث لزفافي. والآن حدثَ هذا. وكان يعتملُ تحت كل ذلك الاهتياج شعوري أن زهرةِ الثلج قد خدعتني. لماذا لم تخبرْني الحقيقة في كل الليالي التي قضيناها معاً؟ هل كان الأمرُ أنها حقاً لم تكن تصدِّقُ كيف كان مصيرُها سيكون؟ أم لأن عقلَها دائماً كان يحلقُ بعيداً، كانت تعتقدُ أن هذا قد يحدثُ في الحياة الفعلية أيضاً؟ هل كانت تعتقدُ فعلاً أن أقدامنا كانت ستغادرُ الأرضَ وأن قلوبنا كانت ستحلِّقُ فعلاً مع الطيور؟ أم أنها كانت تحاولُ وحسب أن تحفظَ ماء وجهها بالاحتفاظ بأسرارها الكثيرة معتقدةً أن هذا اليوم لم يكنْ سيأتي قَطُّ؟

ربما كان ينبغي عليَّ أن أغضبَ من زهرة الثلج لكذبها عليَّ. ولكنَّ ذلك لم يكن ما شعرتُ به. لقد اعتقدتُ أنه قد تمَّ اختياري لأحظى بمستقبل مميز مما جعلني أصبحُ أنانية بحيث إنني لم أكنْ أرى ما كان يحدثُ أمامي مباشرة. ألم يكنْ غيابي كصديقة أو رفيقة هو ما قد منعني من سؤال زهرة الثلج الأسئلة الصحيحة عن ماضيها ومستقبلها؟

لقد كنتُ في السابعة عشرة من عمري. وكنتُ قد أمضيتُ السنواتِ العشر الأخيرة بأكملها تقريباً في حجرة الطابق العلوي محاطةً بنساءٍ يتوقعن مستقبلاً معيناً من أجلي. ويمكنُ أن يُقالَ الأمرُ نفسُه عن الرجال في الطابق السفلي. ولكنني عندما فكّرتُ بهم جميعاً: بأمي وزوجة عمي وأبي وعمي ومدام "غاو" ومدام "وانغ" وزهرة الثلج، كانت الوحيدة التي أمكنني فعلاً أن ألومَها هي أمي. فقد تكونُ مدام "وانغ" قد خدَعتْها في البداية، ولكنها في نهاية المطاف علمتِ الحقيقة، وقررتْ ألا تخبرَني. فاجتمعَ والتفَ ما شعرتُه نحو أمي مع إدراكي أن مظاهرَ عطفها العرَضية، التي أعتبرُها الآن جزءاً من أكبر أكاذيبها ولا مبالاتها، قد كانت ببساطة طريقةً لتجعلني أستمرُ على طريق الزواج الجيد الذي كان سينفعُ عائلة أهلي بأكملها.

كنتُ في لحظة من أشدِّ لحظات الارتباك. وأعتقدُ أن تلك اللحظة قد مهدتِ الطريقَ لما كان سيحدثُ لاحقاً. لم أعرفْ بماذا أفكّر، ولم أرَ أو أدرك ما هو الشيء الهام. فقد كنتُ مجردَ فتاة غبية كانت تعتقدُ أنها كانت تعرفُ شيئاً لأنها كانت متزوجة. ولم أعرفْ كيف أحلُّ أياً من تلك الأشياء. لذا، دفنتُها في أعمقِ أعماقي. ولكن مشاعري لم تختفِ ولم تستطعْ ذلك. وكان الأمرُ وكأنني

ابتلعتُ لحمَ خنزيرٍ فاسد. فبدأ ببطء يتلفُ أعضاءَ جسمي.

لم أكنْ قد أصبحتُ بعد السيدة "لو" التي يحترمُها الناسُ اليومَ من أجل كرمِها، وشفقتِها، وقوتِها. ومع ذلك، فمن اللحظة التي دخلتُ فيها إلى منزل زهرة الثلج شعرتُ بشيء جديد في داخلي. وفكروا مجدداً بقطعة الخنزير الفاسدة تلك وستدركون ما أتحدثُ عنه. وكان عليَّ أن أتظاهرَ بأنني لم أكن متأثرةً أو مشمئزة. لذا، استخدمتُ إرادتي لغرض جيد. وأردتُ أن أشرِّفَ عائلة زوجي بأن أكونَ محبة للخير وكريمة مع الناس الذين يعانون من ظروف مادية سيئة. وبالطبع، لم أكنْ أعرفُ كيف أفعلُ ذلك لأن تلك الأشياء لم تكنْ طبيعية بالنسبة لي.

كانت زهرة الثلج ستتزوجُ في غضون شهر. لذا، ساعدتُها ووالدتَها على تنظيفِ المنزل. وأردتُ أن أكونَ ذات مظهر حسن أمام أهل العريس، ولكنَّ أحداً لم يستطعْ أن يعالجَ مسألة الرائحة الكريهة التي كانت تخترقُ الغرف. وكانت الرائحة المغثية تأتي من الأفيون الذي كان والد زهرة الثلج يدخنُه. وكانت الرائحة الكريهة الأخرى، كما يمكنكم أن تخمنوا، تأتي من طاساتِه المليئة. فلم يكنْ أي بخور أو إحراقٌ للخل أو فتحٌ للنوافذ يمكنُه حتى في ذلك الطقس البارد أن يغطي قذارةَ ذلك الرجل وعاداتِه السيئة.

لاحظتُ روتين تلك العائلة حيث كانت تعيشُ امرأتان خوفاً من الرجلِ الذي يقيمُ في غرفةٍ في الطابق الأرضي. واكتشفتُ أصواتهما الهامسة والطريقةَ التي كانتا تنكمشان فيها رعباً عندما كان يناديهما. ورأيتُ الرجلَ نفسَه ممداً برائحتِه القذرة وفوضاه. وحتى في فقره، كان فظاً وسريعَ الغضبِ كالطفل

المدلل. وربما كانت هناك أوقاتٌ حيث كان يضربُ زوجتَه وابنته. ولكنه الآن أصبحَ مجرد مخلوق خبلَه المُخدِّر يُفضَلُ أن يُترَكَ وشأنَه مع رذيلتِه.

حاولتُ ألا أُظهرَ مشاعري. فقد كان هناك الكثيرُ من الدموعِ التي ذرفتْ في ذلك المنزلِ ولا حاجة أن تُضافَ إليها دموعي. وقد طلبتُ أن أرى هدايا مهر زهرة الثلج. وفكّرتُ في نفسي قائلة: ربما لا تكونُ عائلةُ هذا الجزّار سيئةً جداً على أية حال. فقد رأيتُ قطعَ الحرير التي كانت زهرة الثلج تعملُ بها. وقد يكونُ هؤلاء الناس ميسوري الحال نسبياً حتى لو كانوا فاسدين روحياً.

فتحتْ زهرة الثلج صندوقاً خشبياً، ووضعتْ بحرص كل شيء كانت قد صنعتْه على السرير. فرأيتُ الحذاء الحريري السماوي اللون المطرز بالغيوم الذي أنهتْه في اليوم الذي توفيتْ فيه القمر الجميل، ورأيتُ سترةً استُخدمَ عليها بعض من الحرير نفسه. ثم وضعتْ زهرة الثلج في صفٍ أنيقٍ خمسة أزواجٍ من الأحذية من مقاساتٍ مختلفة مصنوعة من نفس القماش، ولكنها كانت مطرزةً بتصاميم إضافية. وكانت كلُّ هذه الأشياء تبدو مألوفة بالنسبة لي. وفجأةً، أدركتُ سبب ذلك. لقد كانت تلك الأشياء مأخوذةً من السترة التي ارتدتْها زهرة الثلج في اليوم الأول الذي التقينا فيه.

تجولتْ يداي على القطع الأخرى في المهر. فهنا كان القماشُ الأرجواني والأبيض، الذي كانت قد صُنعَت منه ملابس السفر الخاصة بزهرة الثلج عندما كانت في التاسعة، أعيدَ تفصيلُه وتصميمه ليصبحَ قمصاناً داخليةً أو أحذية. وهناك كان النسيجُ القطني النيلي والأبيض المفضل لديَّ وقد قصَّ ليصبحَ قطعاً وقصاصات مدموجة داخل قماش السترات، وأغطية الرأس، والأحزمة،

والزينة على اللُحف. فكانت هدايا زهرة الثلج الفعلية هي الحدّ الأدنى من الهدايا، ولكنها أخذتْ قطعاً من ملابسِها الخاصة لتصنعَ مهراً فريداً من نوعه.

فقلتُ لها وأنا أشعرُ بالدهشة فعلاً مما حققته: "ستصبحين زوجةً جديرةً بالملاحظة".

وللمرة الأولى، ضحكتْ زهرة الثلج. ولطالما كنتُ أحبُّ ذلك الصوت، فقد كان مرتفعاً جداً وفاتناً. فانضممتُ إليها لأن كلَّ هذا كان يتخطى أي شيء استطعتُ أن أتخيلَه، ويتخطى ما كان عادلاً وصحيحاً في الكون. فكان وضعُ زهرة الثلج وما فعلتْه بشأنه مرعباً، ومأساوياً، ومضحكاً، ومدهشاً في آنٍ معاً.

"إنها أشياؤكِ..".

فأجابتْ زهرة الثلج وهي تلتقطُ أنفاسَها: "إنها ليستْ حتى أشيائي بدايةً. فقد أعادتْ أمي تفصيلَ ثيابِ مهرها لتصنعَ ثيابي التي كنتُ أرتديها عندما كنتُ أزوركِ. والآن أُعيدَ تفصيلُها مجدداً من أجل زوجي وأهله".

بالطبعَ! لا بدَّ أن هذا هو الحال لأنني الآن استطعتُ أن أتذكرَ أنني اعتقدتُ أن أحدَ التصاميم كان متكلِّفاً فوق اللزوم لفتاةٍ صغيرة، وأنني كنتُ أقطعُ الخيوط الزائدةَ من أحد طوقي كُمّي زهرة الثلج عندما لم تكنْ تنظرُ إليَّ. لقد كنتُ شديدةَ الغباء. فاندفعَ الدمُ إلى وجهي، ووضعتُ يديّ على وجنتيّ، وضحكتُ بشدة أكثر.

سألتْ زهرة الثلج: "هل تعتقدين أن حماتي ستلاحظ؟"

"إذا كنتُ أنا عمياء لدرجة أنني لم ألاحظ، عندئذٍ..". ولكنني لم أستطعْ أن أنهي كلامي لأن الأمرَ بأكملِه كان مضحكاً جداً.

ربما تكونُ هذه دعابةً تفهمها الفتياتُ والنساء فقط. فنحن نعتبرُ عديمات الفائدة كلياً. وحتى لو كانت عائلاتنا التي نُولَدُ فيها تحبنا فنحن نشكِّلُ عبئاً عليهم. إننا نتزوجُ إلى عائلاتٍ جديدة، ونذهبُ إلى تحت أنظارِ أزواجنا غير مرئيات. فنتعاملُ معهم كغرباء تماماً. ونخضعُ لأوامر حمواتنا. وإذا كنا محظوظات فإننا ننجبُ أبناءً، ونؤمنُ على مراكزنا في بيوت أزواجنا. وإذا لم نكنْ كذلك فسنواجَه باحتقارِ حمواتنا، وسخريةِ محظياتِ أزواجنا، وخيبةِ أمل بناتنا. ونستخدمُ خدعاً نسائية، لم نكنْ كفتيات في سن السابعة عشرةَ نعرفُ عنها شيئاً تقريباً. ولكننا خلافاً لذلك لا يوجدُ شيءٌ يمكننا به أن نغيرَ أقدارنا. فنعيشُ لأجل نزواتِ ومتعة الآخرين، وهذا هو السببُ في أنَّ ما فعلتْه زهرة الثلج وأمها كان يتجاوزُ المعقول. فقد أخذتا قماشاً كان قد أُرسلَ في السابق من عائلة زهرة الثلج إلى أمها كهدية مهر العروس، ثم صنعَ منه مهرٌ لفتاة راقية، ثم أعيدَ تشكيلُه مجدداً ليصبحَ ثياباً لابنةٍ جميلة. والآن أعيدَ صنعُه مرة أخرى ليفصحَ عن الصفات الحسنة لشابة تتزوجُ إلى منزل جزَّار ملوث أخلاقياً. وكلُّ هذا كان عملاً نسائياً، أي العملُ نفسُه الذي يعتبرُه الرجال عملاً زخرفياً محضاً. وقد استُخدمَ ليغيرَ حياة النساء أنفسهن.

لكننا كنا بحاجة للكثيرِ من الأشياء الأخرى. فقد كان على زهرة الثلج أن تذهبَ إلى بيتها الجديد مع ملابسَ كافية لترتديها مدى حياتها، وكان لديها الآن القليل. فتسارعتْ في ذهني الأمورُ التي كان بإمكاننا أن نفعلَها في الشهر الذي تبقى أمامنا.

عندما عادت مدام "وانغ" من أجل حضور شهر "الجلوس والغناء" في حجرة

الطابق العلوي الخاص بزهرة الثلج تنحيتُ بها جانباً، وتوسلتُ إليها لتذهبَ إلى بيت أهلي. وقلتُ لها: "هناك أشياء أحتاجُها..".

كانت تلك المرأة انتقاديةً معي لمدة طويلة. وكانت أيضاً قد كذبتْ ليس على عائلتي بل عليَّ أنا، ولم أكنْ قطُّ أهتمُ بها. وأصبحتُ الآن أكرهُها أكثر لأجل نفاقِها. ولكنها فعلتْ بالضبط ما قيلَ لها. (أما الآن فقد ارتفعَ قدرُها عندي رغم كل شيء). وقد عادتْ من بيتي بعد بضع ساعاتٍ ومعها سلةٌ مليئةٌ بفاصولياء زفافي، وبعض لحم الخنزير المقطع الذي كان أهلُ زوجي قد أرسلوه، وخضرواتٍ طازجةٍ من حديقتنا، وسلةٌ أخرى مليئة بالقماش الذي كنتُ قد خططتُ لتفصيله عندما أعودُ إلى البيت. وكانت رؤيتي لأم زهرة الثلج وهي تتناولُ ذلك اللحم أمراً لن أنساهُ أبداً. فقد نشأتْ لتكونَ سيدةً راقية، ولكنها بقدر ما كانت جائعة لم تندفعْ إلى الطعام كما قد يفعلُ أحدُ أفراد عائلتي. بل استخدمتْ عيدانَها لتقطعَ قطعاً صغيرة من لحم الخنزير، ورفعتْها برقةٍ إلى شفتيها. فعلَّمني تحفُّظها وسيطرتُها درساً لم أجِدْ عنه منذ ذلك اليوم، وهو أن المرأة قد تكونُ يائسةً ولكن لا ينبغي عليها أبداً أن تسمحَ لأحدٍ برؤيتها في مستوىً أقل من مستوى المرأة الراقية.

لم يكنْ عملي قد انتهى مع مدام "وانغ"، فقلتُ لها: "سنحتاجُ لفتياتٍ من أجل "الجلوس والغناء". هل يمكنكِ أن تحضري أختَ زهرة الثلج الكبرى؟"

"لن يدعها أهلُ زوجها تعودُ إلى هذا المنزل أبداً".

فاستوعبتُ تلك الحقيقة. ولم أكنْ قد سمعتُ أن شيئاً كهذا كان ممكناً.

أصررتُ قائلة: "مازلنا نحتاجُ للفتيات".

فأفضتْ مدام "وانغ" إليَّ قائلة: "لن يأتي أحدٌ، يا زهرة الزنبق. فسمعةُ زوجِ أختي سيئةٌ جداً. ولن تسمحَ أيةُ عائلة لفتاة غير متزوجة بأن تعبرَ عتبة باب هذا البيت. ماذا عن أمك وزوجة عمك؟ إنهما تعرفان الوضعَ مسبقاً..".

"كلا!" ولم أكنْ مستعدةً للتعامل معهما بعد. ولم تكنْ زهرة الثلج بحاجة لشفقتهما. فما كانت تحتاجُه رفيقتي هو الغرباء.

كان معي بعضُ المال من زفافي. فدسستُ بعضه في يد مدام "وانغ"، وقلت: "لا تعودي حتى تكوني قد عثرتِ على ثلاث فتيات. وادفعي لآبائهن المبلغَ الذي تجدينه ملائماً. وقولي لهم إنني سأكونُ مسؤولةً عن بناتهم".

كنتُ واثقةً من أن وضعيَ الجديد بعد أن تزوجتُ إلى أفضل عائلة في قرية "تونغكو" سيكونُ مقنعاً. ورغم ذلك، فلم تكنْ لدى أهل زوجي بالتأكيد فكرةٌ أنني كنتُ أستخدمُ مركزهم الاجتماعي بهذه الطريقة. ومع ذلك، فقد استطعتُ أن أرى مدام "وانغ" تفكّر ملياً في الأمر. وكانت بحاجةٍ لتستمرَ بالعملِ في قرية "تونغكو"، وكانت على وشك أن تجني الفوائد الطويلة الأمد لإحضاري إلى عائلة "لو". فلم تكنْ تريدُ أن تخاطرَ بمكانتها، ولكنها قد سبقَ وخرقتْ الكثير من القواعد لتفيدَ ابنة أختها. وأخيراً، حلَّتْ مدام "وانغ" المعادلة في ذهنها، وأومأتْ برأسها مرة، ثم غادرت.

في اليوم التالي، عادت مع ثلاث بنات مزارعين كانوا يعملون لدى حماي. وبمعنىً آخر، فقد كن فتياتٍ مثلي باستثناء أنهن لم يكنْ يتمتعن بأية مزايا خاصة.

أردتُ لذلك الشهر أن ينجح. فقدتُ الفتياتِ في غنائهن. وساعدتهن على

العثور على كلماتٍ جيدةٍ ليكتبن كتبَ اليوم الثالث للزفاف لزهرة الثلج، تلك التي لا يعرفنها على الإطلاق. وإذا لم يعرفن أحد الحروف، كنتُ أكتبه لهن بنفسي. وإذا تلكأن في صنعِ اللحف، كنتُ آخذهن جانباً وأهمسُ في آذانهن أن آباءهن كانوا سيُعاقبون إذا لم ينفذن عملهن الذي استؤجرن من أجله.

هل تتذكرون كيف كانت الأمورُ مع أختي الكبرى؟ لقد كانت حزينة لمغادرتها بيتنا. ولكن الجميعَ كانوا يعتقدون أنها كانت ستتزوجُ زواجاً جيداً. ولم تكن أغانيها مأساوية جداً ولا سعيدةً جداً وهي تتأملُ الشكلَ الذي كان مستقبلُها سيكونُ عليه. أما أنا فقد كنتُ أحسُ بمشاعرَ مختلطة بشأن زواجي. فكنتُ حزينةً جداً لمغادرة البيت، ولكنني كنتُ أشعرُ بالإثارة لأن حياتي كانت ستتغيرُ للأفضل. وكنتُ قد غنيتُ أغنياتٍ لأثني على والديَّ لتربيتهما لي ولأشكرهما على عملهما الجاد نيابةً عني. كان مستقبلُ زهرة الثلج من ناحية أخرى يبدو كئيباً. ولم يكن بإمكان أحد أن ينكرَه أو أن يغيره. لذا، كانت أغانينا مفعمة بالكآبة.

فأنشدتْ زهرة الثلج في أحد الأيام: "يا أمي، لقد أخفقَ أبي في أن يزرعني على تلة مشمسة. فسأعيشُ في الظل إلى الأبد".

وغنتْ أمها، قائلة: "حقاً، إنه كمن يزرعُ زهرة جميلة في كومة من روث البقر".

لم يسعني والفتياتِ الثلاث سوى أن نوافقَ على هذا رافعات أصواتنا بانسجام لنكرر كِلا العبارتين. وهكذا كانت الأمور: ثقيلة على القلب، ولكن منجزةً على الطريقة التقليدية.

ازدادتِ الأيامُ برودة. وزارنا شقيقُ زهرة الثلج في أحد الأيام، فألصقَ ورقاً على شبك النافذة. ومع ذلك، فقد تسللتِ الرطوبةُ إلى الداخل. وبدأت أصابعُنا تصبحُ ضيقةً وحمراء بسبب البرد المستمر. وكانت الفتيات الثلاث خائفات أن يقلن شيئاً. ولم نستطعْ أن نستمرَ على هذا النحو. لذا، فقد اقترحتُ أن ننتقلَ إلى المطبخ في الطابق السفلي حيث كان يمكننا أن ندفئ أنفسنا بالموقد. فنزلتْ مدام "وانغ" ووالدة زهرة الثلج عند رغبتي مظهرتين لي مرة أخرى أنني كنتُ أتمتعُ بالقوة الآن.

كنتُ قد أعددتُ كتبَ اليوم الثالث للزفاف من أجل زهرة الثلج قبل وقتٍ طويل. وكانت مليئةً بالتوقعات الجميلة لزهرة الثلج ومستقبلها. ولكنَّ تلك الأمور لم تعدْ ملائمة بعد الآن. لذا، بدأتُ من جديد. فقصصتُ القماش النيلي من أجل خارج الكتاب، وقمتُ بثنيه حول بضع صفحات من ورق الأرز، وخطتُ جلدةَ الكتاب بالخيط الأبيض. وألصقتُ على داخل الورقة الأولى قصاصات الورق الأحمر على الزوايا. وكانت الورقةُ الأولى مخصصةً لأكتبَ أغنية وداعي لزهرة الثلج. وكانت الورقةُ التالية مخصصة لأقومَ بتقديمها لعائلتها الجديدة. وتركتُ البقية فارغة لكي تستخدمَها لكتابتها الخاصة، ولتحتفظَ بتصاميم تطريزها. وفركتُ الحبرَ بالحجر، واستخدمتُ ريشتي لأكتبَ الحروف بلغتنا السرية. وحاولتُ أن أجعلَ كل خط مثالياً قدرَ المستطاع. فلم أستطع أن أدعَ يدي، التي كانت غير مستقرة بسبب مشاعري في ذلك اليوم، تشوِّهُ الأفكار التي كنتُ أريدُ أن أعبرَ عنها.

عندما مضتْ الثلاثون يوماً، بدأ يوم "الحزن والقلق". فمكثتْ زهرة الثلج في

الطابق العلوي. وجلستْ أمها على الدرجة الرابعة المؤدية إلى حجرة النساء. وكانت أغنياتنا قد نمتْ وتطورتْ بحلول ذلك الوقت. وبالرغم من التهديد المنذر بالشؤم بغضب والد زهرة الثلج لدى سماعِه أية ضجة، رفعتُ صوتي لأنشدَ مشاعري وثنائي كما كانا فعلاً.

فغنيتُ قائلة: "ينبغي على المرأة الصالحة ألا تحتقرَ مساوئ زوجها". وكنتُ أتذكرُ قصة "حكاية الزوجة وانغ" وقصة "ساعدي على رفع عائلتك إلى مستوى أفضل". وقصة "اخدمي زوجك وأطيعيه".

فرددتْ والدةُ زهرة الثلج وخالتُها تلك الأفكار، وغنتا معاً "لكي نكون بناتٍ صالحات يجبُ أن نكون مطيعات". ولدى سماعِ صوتيهما المنسجمين معاً، لا يمكنُ لأحد أن يشكَّ بالإخلاصِ والعاطفة المتبادلين بينهما. ثم قالتا: "يجبُ أن نبقى في غرف الطابق العلويِ وأن نكونَ عفيفاتٍ، ومتواضعاتٍ، وبارعاتٍ في الفنون النسوية. ولنكون مطيعات لوالدينا يجبُ أن نغادرَ البيت. فهذا هو قدرُنا. وعندما نذهبُ إلى بيوتِ أزواجنا، تتكشفُ أمامنا عوالمُ جديدة. فأحياناً تكونُ أفضل وأحياناً أسوأ".

ذكَّرتُ زهرة الثلج قائلة: "لقد أمضينا أياماً سعيدة معاً ونحن بنات. وعاماً بعد عام، لم نفترق خطوةً واحدةً أبداً. والآن، سنكونُ معاً هكذا تماماً". وتذكرتُ الأشياء التي كتبناها في رسائلنا المتبادلة الأولى على المروحة وفي عقد صداقتنا، وقلت: "سنستمرُ بالتحدثِ هامستين، وسنستمرُ باختيار ألواننا، وضمِّ إبرنا والتطريز معاً".

ظهرت زهرة الثلج في أعلى الدرج. وطفا صوتُها إلى الأسفل نحوي وهي

تقول: "ظننتُ أننا سنحلّقُ معاً كطيري عنقاء إلى الأبد. وأنا الآن أشبهُ بمخلوقةٍ ميتةٍ تغرقُ في قاع بحيرة. إنك تقولين إننا سنبقى معاً هكذا تماماً. وأنا أصدقكِ، ولكنَّ منزلتي بالكاد ستضاهي منزلتك".

هبطتْ ببطء، ثم توقفتْ لتجلسَ بجانب أمها. وقد توقعنا أن نرى دموعَ المرارة في عينيها. ولكن لم تكنْ هناك أيةُ دموع، أمسكتْ بيد أمها، وأصغتْ بتهذيب بينما استمرتِ فتياتُ القرية برثائهن. وعندما نظرتُ إلى زهرة الثلج لم يسعني إلا أن أتساءلَ عن سبب انعدام مشاعرِها الظاهري في حين أنني بكيتُ في تلك المناسبة حتى مع أنني تزوجتُ زواجاً جيداً. هل كانت مشاعرُ زهرة الثلج مرتبكة كمشاعري؟ لقد كانت ستفتقدُ أمها بالتأكيد، ولكن هل كانت ستفتقدُ والدَها الوضيع أو ستفتقدُ الاستيقاظَ كلَّ صباح في ذلك المنزل الفارغ الذي كان يمكنُه فقط أن يُذكّرَ باستمرارٍ بكل خطبٍ حدثَ في عائلتها؟ لقد كان أمراً فظيعاً أن تتزوجَ جزاراً، ولكن هل كان من الممكن أن يُصبحَ الأمرُ عملياً أسوأَ من هذا الوضع؟ لقد وُلدت زهرة الثلج تحت علامة "الحصان" أيضاً. وكانت روحُها التي تعدو وتتوقُ للمغامرة قوية كروحي تماماً. ومع ذلك، فرغم أننا كنا رفيقتين من نفس العمر، وولدنا تحت علامة "الحصان"، فقد كانت قدماي دائماً على الأرض، وكنتُ عملية، ومخلصة، ومطيعة بينما كانت روحُ حصانها مجنحةً وتريدُ أن تحلّقَ وتناضلَ ضد كل شيء يقيّدُها رغم أنها كانت تتمتعُ بعقل يسعى إلى الجمال والرقي.

بعدَ يومين، وصلَ "كرسي جلوس الزهرة" الخاص بزهرة الثلج. ومجدداً، لم تبكِ أو تقاومِ المحتوم. فتلكأتْ للحظة في الحشد الصغير المثير للشفقة الذي

تجمَّع ثم خطتْ داخل المِحفَّة المزينة على نحو خفيف. ولم تنتظرِ الفتياتُ الثلاث اللواتي استأجرتُهن "كرسيَ جلوس الزهرة" لينعطفَ في الزاوية حتى انطلقنَ إلى بيوتهن. فانسحبتْ أم زهرة الثلج إلى الداخل. وتُركتُ وحيدةً مع مدام "وانغ".

فقالت الخاطبة: "لا بدَّ أنكِ تعتقدين أنني امرأةٌ شريرةٌ. ولكن ينبغي عليك أن تدركي أنني لم أكذبْ قطُّ على أمك وزوجة عمك. وهناك القليلُ مما تستطيعُ المرأةُ أن تفعلَه لتغيرَ حياتها ناهيك عن حياة شخص آخر. ولكن..".

فرفعتُ يدي لأمنعَها من تعداد أعذارَها لأنني كنتُ بحاجة لأعرفَ شيئاً مختلفاً. فقلتُ: "طوالَ تلك السنوات عندما كنتِ تأتين إلى منزلي وتتفحصين قدمي..".

"أتريدين أن تعرفي إن كنتِ مميزةً فعلاً؟"

عندما قلتُ نعم، نظرتْ إليَّ بعينين قاسيتين.

اعترفتْ قائلة: "ليس من السهل العثورُ على رفيقة محتملة. فجعلتُ عدة عرافين يجوبون في أنحاء الريف بحثاً عن فتاةٍ أستطيعُ أن أربطَها بابنة أختي. وفي الواقع، لقد كنتُ لأفضِّلَ فتاة من عائلة أرقى، ولكن العراف "هو" وجدَك. فكانت صفاتُك الثماني تنطبقُ تماماً على ابنة أختي، ولكنه كان ليأتي إليَّ على أية حال لأن قدميكِ كانتا مميزتين فعلاً. وكان مقدَّراً لمصيركِ أن يتغيرَ بوجود ابنة أختي كرفيقة لك أو بدون وجودها. والآن، آملُ أن يكونَ مصيرُها قد تغيّرَ بسبب علاقتِها بك. لقد كذبتُ كثيراً لكي تسنحَ لها فرصةٌ في الحياة، ولن أعتذرَ لكِ أبداً لأجل ذلك".

حدَّقتُ بوجهِ مدام "وانغ" الذي بالغتْ في تزيينه بأحمر الشفاه وأنا أفكّر. وأردتُ أن أكرهَها. ولكن كيف كان يمكنني ذلك؟ فقد بذلتْ أفضلَ ما في وسعها من أجل الفتاة التي كانت تهمُني أكثرَ من غيرها في العالم كله.

لم يكنْ بإمكان أخت زهرة الثلج الكبرى أن تُحضرَ كتب اليوم الثالث للزفاف. لذا، ذهبتُ مكانها. وأرسلتْ عائلةُ أهلي مِحفَّة. فوصلتُ في غضون وقتٍ قصير إلى قرية "جينتيان". ولم تكن هناك أية زينة أو أصوات فرقة زفاف توحي أن أي شيء مميز كان يحدثُ في القرية في ذلك اليوم. فخطوتُ ببساطة خارجَ المِحفَّة على طريقٍ ترابي بجانب المنزل الذي كان له سقف منخفضٌ معلَّق وكانت أمامَه كومةٌ من الخشب بجانب الجدار. وكان هناك إلى يمين الباب شيءٌ يشبه قِدْراً ضخمة مندمجٌ بإحكام في الرصيف القرميدي.

وكان ينبغي أن تكونَ هناك مأدبةٌ قد حُضِّرتْ من أجل وصولي، ولكن لم تكنْ هناك أية مأدبة. وكان ينبغي أن تحييني النساءُ الكبيراتُ في القرية. ففعلنَ ذلك. ولكنَّ خشونَةَ لهجتهن أخبرَتني، مع أن القليلَ من الناس في قرية "تونغكو" قد فعلوا ذلك، عن النوعية البغيضة لأولئك الناس الذين كانوا يعيشون في تلك القرية.

عندما حان الوقتُ لقراءة كتب الزفاف، تمَّ إرشادي إلى الغرفة الرئيسية. وكان المنزلُ ظاهرياً يشبهُ منزل عائلتي الأصلية. فكان الفلفلُ المجففُ متدلياً من عارضة السقف المركزية. وكانت الجدران مصنوعة من القرميد الخشن غير المدهون. وقد أملتُ أن تنعكسَ تلك السمات الشبيهة ببيتي على الناس الذين كانوا يعيشون هناك. ولم أصادف زوج زهرة الثلج في تلك المناسبة،

ولكنني قابلتُ أمه. وكانت مخلوقةً مريعة. فكانت عيناها حولاء. وكانت شفتاها ضيقتين مما كان يوحي بضيقِ عقلِها ولؤم روحها.

دخلتْ زهرة الثلج إلى الغرفة، وجلستْ على كرسي بجانب المكان الذي نُشرَ فيه كتابها، وانتظرتْ بهدوء. ورغم أنني شعرتُ أنني تغيرتُ بالزواج، فلم تكن تبدو مختلفةً بالنسبة لعينيّ. واجتمعتْ نساءُ قرية "جينتيان" حولَ الكتاب، ومررن أصابعهن القذرة عليه. وتحدثن مع بعضهن عن الخياطة على أطراف الكتاب وعن قصاصات الورق. ولكن لم تقلْ أيٌّ منهن أية كلمة عن نوعية الكتابة أو الأفكار المُعبَّر عنها فيه. وبعد بضع دقائق، اتخذتِ النساءُ مواقعَهن في أنحاء الغرفة.

مشتْ حماة زهرة الثلج إلى أحد المقاعد. ولم تكنْ قدماها مربوطتين على نحو سيء كقدمي أمي. ولكنَّ غرابةً في مشيتها أظهرتْ مستواها الاجتماعي حتى أكثرَ من الأصوات التي خرجتْ من فمها. فجلستْ، ونظرتْ بازدراء إلى كنتها الجديدة، ثم ركَّزت عينيها الخاليتين من الإحساس عليَّ، وقالت: "أفهمُ أنك قد تزوجتِ إلى عائلة "لو". إنكِ محظوظةٌ جداً". وكانت كلماتُها مهذبة، ولكنَّ الطريقة التي تكلمتْ بها كانت توحي بأنني كنتُ أبدو وكأنني استحممتُ بالنفايات، وتابعت: "يقولُ الناسُ إنكِ وكنتي على معرفة جيدة بكتابة الـ "نو شو". إنَّ النساء في قريتنا لا يقدرن قيمة هذه التسلية. ويمكننا أن نقرأها، ولكننا نعتقدُ أنه من الأفضل أن نسمعَها تُقرأ".

فكّرتُ بطريقة أخرى. لقد كانت هذه المرأة كأمي أميَّة بكتابة الـ "نو شو". ونظرتُ بشكل خاطفٍ في أنحاء الغرفة لأكوِّنَ رأياً عن النساء الأخريات. ولم

يكنّ قد علَّقن على الكتابة لأنهن على الأرجح كن أنفسهن يعرفن القليل عنها.

تابعت حماة زهرة الثلج كلامها: "لسنا بحاجة لنخفي رأينا بالخربشات على الورق. والجميعُ في هذه الغرفة يعرفن ما أعتقدُه". وعندما ترافقَ ذلك التعليقُ بضحكٍ مضطرب، رفعتْ ثلاثة أصابع لتسكتَ صديقاتِها، وتابعت: "سيكونُ أمراً ممتعاً لنا أن نسمعَك، وأنت تقرأين كتاب زفاف كنتي. فنحن نقدِّرُ كثيراً أن تأتينا آراءٌ تتحدثُ عن قيمة كنَّتي من فتاة تنتمي لمنزل كبير مثلك".

كان كلُّ شيء قالتْه تلك المرأةُ عبارةً عن سخرية كلامية. وجاءت ردةُ فعلي على كلامها كما قد تكونُ ردة فعل فتاة في السابعة عشرة. فتناولتُ كتابَ اليوم الثالث للزفاف الذي كانت أم زهرة الثلج قد أعدتْه، وفتحتُه. وتخيلتُ صوتَها الراقي وحاولتُ أن أقلدَه وأنا أتلو قائلة:

"أقدمُ هذه الرسالة إلى بيتكم الموقر في اليوم الثالث للزفاف. إنني أمك، وقد افترقنا لثلاثة أيام. لقد أصابَ سوء الحظ عائلتنا. والآن، تزوجتِ إلى قرية قاسية". وكما كانت العادة في كتب اليوم الثالث للزفاف، كان الموضوع يتغيّرُ. فخاطبتْ أمُ زهرة الثلج العائلة الجديدة، قائلة: " آملُ أن تعطفوا على ابنتي رغم ضآلة مهرها. إنه مهرٌ بسيط. فأرجو ألا تشيروا إلى هذا الأمر". واستمرَ الكتابُ على هذا المنوال بالحديث عن سوء حظ عائلة زهرة الثلج وهبوطهم من مستواهم الاجتماعي، والفقر الذي كانوا يعيشونه الآن. ولكنَّ عينيّ تجولتا على تلك الحروف المكتوبة وكأنها لم تكنْ موجودة. وعوضاً عن ذلك، اخترعتُ كلماتٍ جديدة، فقلت: "إن امرأة صالحة كابنتنا زهرة الثلج ينبغي لها أن تعيشَ في مكان صالح. فهي تستحقُ عائلة محترمة".

وضعتُ الكتابَ أرضاً، وكانت الغرفةُ هادئة جداً. وتناولتُ كتابَ اليوم الثالث للزفاف الذي كتبتُه لزهرة الثلج، وفتحته. وتوجهتْ عيناي إلى حماة زهرة الثلج. فأردتُها أن تعرفَ أنني كنتُ سأحمي رفيقتي دائماً.

غنيتُ باتجاه زهرة الثلج قائلة: " قد يتحدثُ الناسُ عنا كفتاتين تزوجتا، ولكننا لن نفترقَ بقلبينا. أنتِ تهبطين إلى الأسفل وأنا أصعدُ إلى الأعلى. عائلتكِ تذبحُ الحيوانات، وعائلتي هي الأفضلُ في المقاطعة، ولكنكِ قريبةٌ مني كقلبي. ومستقبلي مرتبط بمستقبلك. فنحن جسرٌ يعبرُ نهراً عريضاً. ونحن نسيرُ جنباً إلى جنب". وكنتُ أريدُ من حماة زهرة الثلج أن تسمعَني. ولكنَّ عينيها حدَّقتا بي بارتياب، وضغطت شفتيها استياءً.

عندما وصلتُ إلى النهاية، قمتُ مجدداً بإضافةِ بعض الكلمات الجديدة، فقلتُ: "لا تعبِّري عن بؤسكِ عندما يمكنُ للآخرين أن يروك، ولا تدعي نحيبك يزداد، ولا تمنحي الناس ذوي الأخلاق السيئة سبباً ليسخروا منك ومن عائلتك. اتبعي القواعد، وخففي من قلقك. وسنكونُ رفيقتين إلى الأبد".

لم أُمنحْ وزهرة الثلج الفرصة للتحدث معاً. فتم إرشادي إلى مِحفَّتي، ثم عدتُ إلى بيت أهلي. وحالما أصبحتُ وحدي، أخرجتُ مروحتنا وفتحتُها. وكانت ثلثُ الطياتِ الآن قد كتبَتْ عليها كتاباتٌ تُحيي ذكرى اللحظات المميزة بالنسبة إلينا. وكان هذا يبدو صحيحاً. فقد كنا قد عشنا أكثر من ثلث ما يُعتبرَ حياة طويلة للنساء في مقاطعتنا. ونظرتُ إلى كل الأشياء التي حدثتْ في حياتنا حتى تلك اللحظة، كالكثير من السعادة والكثير من الحزن والكثير من المودة.

وصلتُ إلى الرسالة الأخيرة التي كانت زهرة الثلج قد كتبتها عن زواجي إلى

عائلة "لو". وكانت تغطي نصفَ طية في المروحة. فمزجتُ الحبر، وسحبتُ أرفعَ ريشاتي. وتحت أمنياتِها لي مباشرة، كتبتُ بعنايةٍ كلماتٍ جديدة: إن العنقاء تحلقُ فوق الديك العادي. وهي تشعرُ بالريح حولَها. ولا شيء سيقيدُها إلى الأرض. والآن فقط بعد أن أصبحتُ وحيدة مع تلك الكلمات التي كتبتُها، واجهتُ أخيراً حقيقة مصير زهرة الثلج. فرسمتُ على الإكليل في أعلى المروحة زهرةً ذابلةً ودموعاً صغيرةً تقطرُ منها. وانتظرتُ حتى جفَّ الحبر.

ثم أغلقتُ المروحة.

معبد غويو

كان والداي سعيدين لرؤيتي عندما عدت، وكانا أكثرَ سعادةً مع ذلك بالكعك الحلو الذي أرسلَه أهلُ زوجي كهدية. ولكنني بصراحة لم أكنْ سعيدة كثيراً لرؤيتهم. فقد كذبوا عليَّ طوال عشر سنوات. وكنتُ في داخلي مهتاجةً بمشاعر الكره. ولم أعد الفتاةَ الصغيرةَ التي كان يمكنُها أن تدعَ مياهَ النهر تغسلُ المشاعر البغيضة. فقد أردتُ أن أتهمَ عائلتي، ولكنني ما زلتُ من أجل مصلحتي بحاجة لأتبعَ قواعد الطاعة البنوية. لذا، فقد تمردتُ من نواحٍ صغيرة. وقمتُ بعزل نفسي عاطفياً وجسدياً قدر ما استطعت.

أول الأمر، بدتْ عائلتي غير مدركة للتغيير الذي حلَّ بي. فاستمروا بعمل وقول الأشياء الاعتيادية. وبذلتُ ما بوسعي لأرفضَ عروضَهم. فأرادتْ أمي أن تفحصَ جسمي، ولكنني رفضتُ ذلك معتذرةً لشعوري بالإحراج. وسألتْ زوجةُ عمي عن علاقتي بزوجي، ولكنني أشحتُ بنظري بعيداً متظاهرةً أنني كنتُ أشعرُ بالخجل. وحاولَ أبي أن يمسكَ بيدي، ولكنني لمّحتُ إلى أنني كنتُ امرأةً متزوجةً وأن هذا النوعَ من العاطفة لم يعدْ ملائماً. وسعى الأخ الأكبرُ إلى صحبتي ليضحكَ ويروي القصص. فأخبرتُه أنه كان ينبغي عليه أن يفعلَ تلك الأشياء مع زوجته. وشاهدَ الأخُ الثاني وجهي فابتعدَ عني. ولم أفعلْ شيئاً لأغيرَ ذلك معتقدةً ببساطة أنه كان سيدركُ ذلك عندما تصبحُ له زوجة. وكان عمي فقط بمظهره المرتبك ووثبه المتوتر هو من انتزعَ التعاطف مني، ولكنني لم أفضِ له بشيء. فكنتُ أؤدي أعمالي المنزلية، وأعملُ بهدوء في حجرة الطابق العلوي. وكنتُ مؤدبة. فكنتُ أمسكُ عليَّ لساني لأنهم جميعاً باستثناء

أخي الأصغر كانوا أكبرَ مني سناً. وحتى كامرأة متزوجة، لم أكن أتمتعُ بمرتبة تُخوِّلني لأتهمهم بأي شيء.

لكنني لم أستطعْ أن أتصرفَ على هذا النحو، وأبقى دون أن يُلاحظني أحد لوقتٍ طويل. فكان سلوكي بالنسبة لأمي غير مقبول رغم أنه كان لطيفاً من كل النواحي. فقد كنا عدداً كبيراً من الناس في عائلة صغيرة بحيث لا يستطيعُ أحدهم أن يتحمَّل ما اعتبرتْه تفاهتي.

كانت خمسة أيام قد مضتْ على وجودي في البيت عندما طلبتْ أمي من زوجة عمي أن تذهبَ إلى الطابق السفلي لتحضر الشاي. وحالما ذهبتْ زوجةُ عمي، عبرتْ أمي الغرفة، ووضعتْ عكازَها على الطاولة أمامي حيث كنتُ أجلس. ثم أمسكتْ بذراعي، وغرزتْ أظافرَها في لحمي.

واتهمتني بصوتٍ كالحفيف قائلة: "هل تعتقدين أنكِ أفضلُ منا الآن؟ هل تعتقدين أنكِ متفوقةٌ علينا لأنك تزوجتِ ابن زعيم القرية؟"

رفعتُ عينيّ إلى عينيها. ولم أكنْ قَطُّ قد أظهرتُ لها قلة احترام. أما الآن فقد أظهرتُ لها الغضبَ على وجهي. فواجهتني بنظرتِها إليَّ معتقدةً أنه كان بإمكانها أن تضعفني بعينيها الباردتين. ولكنني لم أُبعد نظري عنها. ثم أفلتت ذراعي بحركة سريعة واحدة، وتراجعتْ نحو الخلف، ثم صفعتني على وجهي. فارتجَّ وجهي جانباً، ثم ارتدَ إلى وضعيته الطبيعية. فتوجهتُ إليها بعينيَّ مجدداً، مما أزعجَ أمي أكثر.

وقالت: "إنك تُخزين هذا المنزل بسلوككِ. إنكِ أكثر من مُخزية".

فقلتُ متأملةً بصوتٍ منخفضٍ، وأنا أعلمُ أن هذا الصدى الهادئ كان

سيغضبُها أكثر: "أكثرُ من مخزية". ثم قبضتُ على ذراعِها، وجذبتُها نحو الأسفل حتى أصبحنا متقابلتين. فسقطتْ عكازُها بضجة على الأرض.

فصاحتْ زوجةُ عمي من الطابق السفلي قائلة: "هل أنتِ على ما يرام، يا أختاه؟"

فأجابتْ أمي بلا مبالاة: "نعم. أحضري الشاي وحسبْ عندما يصبحُ جاهزاً".

اهتزَّ جسمي من الانفعالاتِ التي كانت تعتملُ تحتَ جلدي. فشعرتْ أمي بها، وابتسمتْ بطريقتِها المتعمَّدة. فغرزتُ أظافري في لحمها كما فعلتْ بي، وأبقيتُ صوتي منخفضاً لكي لا يسمعَ أحدٌ في البيت، وقلت: "إنكِ كاذبة. أنت والجميعُ في هذه العائلة خدعتموني. هل اعتقدتِ أنني لن أكتشفَ أمر زهرة الثلج؟"

فانتحبتْ قائلة: "إننا لم نخبرْك رأفةً بزهرة الثلج. فنحن نحبُّها، وقد كانت سعيدةً هنا، فلماذا كان ينبغي علينا أن نغيّرَ رأيكِ فيها؟"

"ما كان لذلك أن يغيّرَ شيئاً. فهي رفيقتي".

أنتأتْ أمي ذقنها بعناد، وغيرتْ خطتَها قائلةً: "كلُّ ما فعلناه كان لمصلحتك".

فغرزتُ أظافري أعمقَ في يدِها، وقلت: "تعنين لمصلحتكم".

كنتُ أعرفُ الأذى الجسدي الذي كنتُ أسببُه لها. ولكنَّها بدلاً من أن تعبسَ، غيرتْ ملامحَها لتصبحَ لطيفةً ومتوسلةً. وكنتُ أعلمُ أنها كانت ستحاولُ أن تجدَ لنفسها مبرراً، ولكنني لم أستطعْ أن أتخيلَ قَطُّ العذرَ الذي كانت ستختلقُه.

"كانت علاقتُك بزهرة الثلج وقدماك المثاليتان تعنيان زوجاً جيداً ليس من أجلكِ وحسب ولكن من أجل ابنةِ عمك أيضاً. لقد كانت القمر الجميل لتكونَ سعيدة".

كان هذا التحولُ عن الأمرِ الذي كان يزعجُني يفوقُ احتمالي تقريباً، ولكنني حافظتُ على هدوئي.

قلتُ بصوتٍ أجش: "ماتت القمر الجميل قبل عامين. أما زهرة الثلج فقد أتتْ إلى هذا المنزل قبل عشر سنوات. ومع ذلك فلم تجدي وقتاً قَطٌّ لتخبريني عن ظروفها".

"إنَّ القمرَ الجميل..".

"إنَّ هذا الأمرَ لا يتعلَّقُ بالقمر الجميل".

"أنتِ من أخرجَها من البيت. ولو لم تفعلي ذلك، لكانت ما تزالُ هنا اليوم. لقد حطَّمتِ قلبَ زوجة عمكِ".

كان ينبغي عليَّ أن أتوقعَ هذا التلاعبَ بالحقائق من أمي المولودة في عام القرد. وحتى لو فعلتُ ذلك، فقد كان الاتهامُ شديداً وقاسياً جداً بحيث إنني لم أستطعْ أن أصدقَه. ولكن ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ لقد كنتُ ابنةً مطيعة. وكان ما يزالُ عليَّ أن أعتمدَ على عائلتي إلى أن أصبحَ حاملاً وأنتقلَ بعيداً. كيف كان بوسعِ فتاة مولودة تحتَ علامة الحصان أن تنتصرَ قَطٌّ في معركة ضدَّ قرد مراوغ؟

لا بدَّ أنَّ أمي أحستْ بأفضليتها لأنها تابعتْ قائلة: "إن ابنةً لائقة كانت لتشكرَني..".

"على ماذا؟"

"لقد منحتكِ الحياة التي لم يكنْ باستطاعتي أبداً أن أحظى بها بسبب هذا". وأشارتْ إلى قدميها المشوهتين. "لقد لففتُ وربطتُ قدميكِ. وأنتِ الآن من

يتلقى المكافأة".

أعادتْني كلماتُها إلى الساعاتِ التي اختبرتُ فيها أسوأ آلام ربط قدميّ عندما كانت غالباً ما تردد لي نسخةً عن ذلك الوعد. فأدركتُ برعبٍ أنها خلال تلك الأيام الفظيعة لم تكنْ تظهرُ لي حبها الأمومي على الإطلاق. وعلى العكس من ذلك، كان الألمُ الذي كانت تتسببُ به لي يتعلقُ برغباتِها وحاجاتِها الأنانية.

كان الغضبُ وخيبة الأمل اللذين كنتُ أشعرُ بهما لا يُطاقان، فقلتُ بدون تردد وأنا أُفلتُ يدَها باشمئزاز: "إنني لن أتوقعَ قَطُّ أي لطف منك. ولكن تذكري هذا، أنتِ تسببتِ بأنني يوماً ما سأتمتعُ بالسلطة لأسيطرَ على ما يحدثُ لهذه العائلة. وسأكونُ امرأة صالحة ومترفقة. ولكن لا تعتقدي للحظةٍ أنني سأنسى ما فعلتِه بي".

مدَّتْ أمي يدَها إلى الأسفل، والتقطتْ عكازها، وتوكأتْ عليها قائلة: "إنني أشفقُ على عائلةِ "لو" لأنَّ عليهم أن يأخذوك. واليومُ الذي ستغادرين فيه سيكونُ أكثرَ يومٍ مباركٍ في حياتي. وإلى أن يحينَ ذلك اليوم، لا تحاولي أن تفعلي هذا الهراء مجدداً".

"وإلا ماذا؟ لن تطعميني؟"

فنظرتْ أمي إليَّ، وكأنني كنتُ غريبة. ثم التفتتْ، ووثبتْ نحو كرسيها. وعندما صعدتْ زوجةُ عمي إلى الطابق العلوي، لم يُقلْ شيءٌ آخر.

هكذا بقيتِ الأمور معظمَ الوقت. وقد تلطفتُ مع الآخرين، وهم إخوتي وزوجة عمي وعمي ووالدي. وأردتُ أن أُخرجَ أمي من حياتي بشكل كلي،

ولكنَّ ظروفي لم تكنْ ستسمحُ بذلك. فقد كان عليَّ أن أبقى في المنزل إلى أن أصبحَ حاملاً وعلى وشك الولادة. وحتى عندما أنتقلُ إلى بيت زوجي، كانت التقاليدُ ستتطلبُ مني أن أعودَ إلى بيت أهلي لبضع مراتٍ في السنة. ولكنني حاولتُ أن أحافظَ على مسافةٍ بعيدةٍ عاطفياً عن أمي – رغم أننا في معظم الأيام كنا في نفس الغرفة – عن طريق التمثيل أنني قد نضجتُ وأصبحتُ امرأة ولم أعدْ بحاجة للحنان. وكانت هذه هي المرةَ الأولى التي أفعلُ فيها هذا، وهو أنني كنتُ أتبعُ التقاليدَ والقواعدَ بشكلٍ ملائم خارجياً، وأحررُ مشاعري لبضعِ لحظات مريعة ثم أتمسكُ بحزني كأخطبوط على صخرة. فنجحَ الأمرُ مع الجميع. وتقبلتْ عائلتي سلوكي، وما زلتُ أبدو كابنة مطيعة. وكنتُ لاحقاً سأفعلُ شيئاً كهذا مجدداً لأسباب مختلفة جداً وبنتائج مشؤومة.

أصبحتْ زهرة الثلج أعزَّ بالنسبة لي من ذي قبل. فكنا نكتبُ لبعضنا البعض. وكانت مدام "وانغ" توصلُ الرسائل فيما بيننا. وكنتُ قلقةً بشأن ظروفها وفيما إذا كانت حماتُها تعاملُها جيداً، وكيف كانت تتعاملُ مع زوجها، وفيما إذا كانت الأمور قد ازدادتْ سوءاً في بيتِ أهلها. وكانت قلقةً من ألاّ أهتمَ لأمرِها بنفس الطريقة. وكنا نريدُ أن نرى بعضنا البعض، ولكنْ لم يكنْ لدينا العذرُ للزيارة للعملِ على مهورنا. فكانت الزياراتُ المسموحُ بها فقط هي إلى بيتي زوجينا.

ذهبتُ إلى بيت زوجي أربع أو خمس مرات في السنة. وفي كلِّ مرة كنتُ أغادرُ فيها، كانت النساء في عائلة أهلي يبكين من أجلي. وكلَّ مرة، كنتُ أحملُ طعامي معي لأن أهلَ زوجي لم يكونوا ليقدموا لي الوجبات إلى أن أقيمَ في بيتهم بشكلٍ دائم. وكلَّ مرة كنتُ أقيمُ في قرية "تونغكو" كانت المعاملةُ

تشجعُني. وكلَّ مرة كنتُ أعودُ إلى البيت، كانت مشاعرُ عائلتي حلوة ومرة لأن كلَّ ليلة كنتُ أقضيها بعيداً كانت تجعلُني أكثرَ قيمةً وتجعلُ حقيقة أنني سرعان ما كنتُ سأغادرُهم إلى الأبد أمراً واقعاً.

في كلِّ رحلة كنتُ أقومُ بها، كنتُ أصبحُ أكثرَ جرأةً. فكنتُ أنظرُ خارجَ نافذة المِحفَّة حتى عرفتُ الطريق جيداً. وكنتُ أسافرُ فوق ما كان عادةً طريقاً موحلاً مخدداً. وكانت حقولُ الأرز ومحاصيل القلقاس بين الحين والآخر تحاذي الطريق. وكانت هناك على أطراف قرية "تونغكو" شجرةُ نخيل تقفُ بشكلٍ ملتوٍ على الطريق تحيةً. وفي مكانٍ أبعد إلى اليسار كانت تقعُ بحيرة السمك. وورائي من حيث جئت، كان النهر يشقُّ طريقَه بتعرج. وأمامي كانت قرية "تونغكو" تحتضنُها ذراعا التلال كما وصفتها زهرة الثلج تماماً.

حالما وضعَني الحمالون أرضاً أمام بوابة قرية "تونغكو" الرئيسية، خطوتُ على الحصى الذي كان مفروشاً على شكل دقيق يشبه حراشفَ السمك. وكانت هذه المنطقةُ مشكلةً على هيئة حدوة الحصان. وكانت غرفةُ نزع قشور أرز القرية تقعُ إلى اليمين، وكان هناك إسطبلٌ إلى اليسار، وكانت دعائمُ البوابة – التي كانت مزينة بالمنحوتات المطلية – تحملُ سقفاً متقنَ الصنع ذا إفريز يمتدُ نحو السماء، وكانت الجدرانُ مطليةً بمشاهدَ من حياة الشخصيات الخالدة. وكانت عتبة البوابة الأمامية مرتفعة ليجعلَ ذلك كل الزائرين يعلمون أن قرية "تونغكو" كانت تتمتعُ بأعلى مكانة في المقاطعة. وكان حجران من العقيق منحوتان على شكل السمك الواثب يحيطان بالبوابة لكي يترجَّل الزوار الراكبون عن جيادهم.

بعد العتبة بالضبط كانت تقعُ ساحة قرية "تونغكو" الرئيسية التي لم تكنْ مرحبةً وكبيرةً فقط، ولكنها كانت مغطاة بقبة منحوتة ومطلية ذات موقع استثنائي. وإذا عبرتُ البوابة الثانوية إلى اليمين، كنتُ أصلُ إلى قاعة قرية "تونغكو" الرئيسية التي كانت تُستخدمُ لاستقبال الزوار العاديين والتجمعات الصغيرة. وخلفَ ذلك، كان يقعُ معبدُ الأسلاف الذي كان يُستخدمُ لاستقبال المبعوثين، والموظفين الحكوميين، وللمناسبات الاحتفالية كحفلات الزفاف. وكانت بيوتُ القرية الأقل شأناً، وبعضُها مبنيٌ من الخشب، تتجمعُ معاً خلفَ المعبد بالضبط.

كان بيتُ أهل زوجي يقعُ بشكلٍ بارز على الجانب الآخر من البوابة الثانوية إلى اليسار. وكانت كل المنازل في تلك المنطقة فخمة. ولكنَّ منزلَ أهل زوجي كان جميلاً بشكل خاص. وإنني حتى اليوم سعيدةٌ بالعيش فيه. فالمنزلُ مؤلفٌ من طابقين كما هو المعتاد. وهو مبنيٌ من الآجُر ومطليٌ بالجص من الخارج. وتحتَ الإفريز الخارجي، هناك لوحاتٌ مرسومةٌ لفتيات جميلاتٍ ورجال وسيمين وهم يدرسون ويعزفون على الآلات الموسيقية، ويكتبون ويدرسون الحساب. فذلك هو نوعُ الأشياء التي تحدثُ دائماً في هذا المنزل. وهكذا، فتلك اللوحاتُ توصلُ رسالةً لعابر السبيل عن نوعية الناس الذين يعيشون هنا، والطرق التي نمضي بها وقتنا. والجدرانُ الداخليةُ مزينةٌ بألواح من الخشب الجميل من تلالنا، في حين أن الغرفَ مزينةٌ بشكلٍ راقٍ بالأعمدة المنحوتة وشبك النوافذ والدرابزين.

عندما وصلتُ أولَ الأمر، كانت الغرفةُ الرئيسية تشبهُ إلى حدٍّ كبير ما هي

عليه الآن بأثاثِها الأنيق وأرضيتِها الخشبية والنسيم العليل الذي يهبُّ من نوافذِها العالية. وكان الدرجُ الذي يصعدُ على طول الجدران الشرقية إلى شرفة خشبية مزيناً بشكل الماس متشابك. وفي ذلك الوقت في الماضي، كانت والدا زوجي ينامان في أكبر غرفة عند مؤخرةِ المنزل في الطابق الأرضي. وكان كل واحد من إخوة زوجي يحظى بغرفتِه الخاصة التي كانت تقعُ على محيط الغرفة الرئيسية. وبعد ذلك بوقتٍ، جاءت زوجاتُهم ليعشن معهم. وإذا لم تنجبْ تلك الزوجاتُ أبناء، كن سينتقلن في نهاية المطاف إلى غرف أخرى. فكانت المحظيات أو"الكنات الصغيرات" سيحللن محلهن في غرف إخوة زوجي.

أثناءَ زياراتي، كانت الليالي مكرسة لأقضيها مع زوجي. فقد كان يجبُ علينا أن ننجبَ ابناً. وبذلنا ما في وسعنا لنفعلَ ما كان ضرورياً ليحدثَ ذلك. وخلافاً لذلك، لم أرَ وزوجي بعضنا البعض كثيراً. فكان يقضي نهارَه مع والدِه بينما كنتُ أقضي نهاري مع أمِه. ولكننا مع مضي الوقت تعرفنا على بعضنا البعض أكثر مما جعلَ مهمتنا المسائية أكثر سهولة.

كما في معظم الزيجات، كان الشخصُ الأهم من أجلي لأبني علاقةً جيدة معه هو حماتي. وكان كلُّ شيء أخبرَتني به زهرة الثلج عن اتباع السيدة "لو" للتقاليد صحيحاً. فكانت تراقبُني وأنا أقومُ بنفس الأعمال المنزلية التي كنتُ أقومُ بها في منزل أهلي كإعداد الشاي، والفطور، وغسل الملابس وملاءات الأسرَّة، وتحضير الغداء، والخياطة، والتطريز، والحياكة في فترة العصر وأخيراً، طهو العشاء. وكانت حماتي تأمرني بحرية عندما كنتُ أحضِّرُ حساء البطيخ قائلة: "قطعي البطيخ إلى مكعبات أصغر، فالقطعُ التي قَطّعتها لا تلائمُ سوى

خنازيرنا". أو كانت تقول: "لقد اتسخَت ملاءةُ سريري، لذا عليك أن تفركيها بقوة لكي تزيلي البقع". أما بالنسبة للطعام الذي كنتُ أحضرُه من البيت، فكانت تتنشقُ وتقول: "في المرة القادمة، أحضري شيئاً لا تكونُ رائحتُه كريهة. فرائحة وجبتك السيئة تفسدُ شهية زوجي وأبنائي". وحالما كانت الزيارةُ تنتهي، كنتُ أُرسَلُ عائدةً إلى البيت دون كلمة "شكراً" أو "إلى اللقاء".

هذا يُلخصُ ما كانت عليه الأمور بالنسبة لي. فلم تكن سيئةً جداً ولا جيدةً جداً، بل كانت عادية. فكانت السيدة "لو" منصفة. وكنتُ مطيعةً وراغبةً بالتعلم. وبكلمات أخرى، كانت كل واحدة منا تفهمُ ما كان مُتوقعاً منها، وكنا نبذلُ بما في وسعنا لنؤدي التزاماتنا، وهكذا على سبيل المثال، في اليوم الثاني للعام الجديد بعد زفافي، دعتْ حماتي كل فتيات قرية "تونغكو" غير المتزوجات وكل الفتيات اللواتي كنَّ مثلي متزوجاتٍ حديثاً ليقمن بالزيارة. وقدَّمت الشاي والمأكولات. وكانت مهذبة وكريمة. وعندما غادرَ الجميع، ذهبنا معهم، وزرنا خمسَ عائلاتٍ في ذلك اليوم، وقابلتُ خمسَ كناتٍ جديدات، ولو لم أكنْ رفيقة زهرة الثلج لفتَّشتُ في وجوههن بحثاً عن أولئك اللواتي قد يرغبن بتشكيل أخوية بالقَسَم للزوجات.

في المرة الأولى التي التقيتُ بها وزهرة الثلج مجدداً من أجل زيارتنا السنوية لمعبد "غويو"، ربما كان المرء ليعتقدَ أنه كان لدينا الكثيرُ لنقولَه. ولكننا كنا هادئتين. فاعتقدتُ أنها كانت نادمةً لكذبها عليَّ طوال تلك السنوات بشأنِ زواجها الوضيع. ولكنني شعرتُ أيضاً بعدم الراحة. فلم أعرفْ كيف أناقشُ مشاعري المتعلقة بأمي دون أن أذكّرَ زهرة الثلج بكذبِها. وإذا لم تكنْ تلك

الأسرارُ غير كافية لتعيقَ المحادثة، فقد كنا عندئذٍ متزوجتين، وكنا نفعلُ مع زوجينا أشياء محرجة جداً. ومع ذلك، فقد كان عليَّ وعلى زهرة الثلج أن نناقشَ شيئاً ما. وكان الحديثُ عن واجبنا أن نحملَ أكثرَ أماناً من الخوض في مواضيع شائكة أخرى.

تحدثنا برقة عن العناصر الأساسية التي ينبغي أن تتوفرَ لكي يثبتَ الحمل وفيما إذا كان زوجانا يتبعان تلك القواعد. إن الجميعَ يعلمون أن الجسم البشري هو عبارة عن نسخة مصغرة من الكون. فالعينان والأذنان هما القمر والشمس، والتنفسُ هو الهواء، والدمُ هو المطر. وبالمقابل، فإن تلك العناصر تلعبُ دوراً هاماً في نمو الطفل. لذا، لا ينبغي أن يتمَّ إنجابُ الطفل عندما يكونُ المطرُ غزيراً لأنَّ ذلك يجعلُ الطفلَ يشعرُ أنه محبوسٌ ومقيدٌ. ولا ينبغي أن يتمَ ذلك أثناء عاصفة رعدية لأن ذلك سينمّي في الطفل مشاعر الدمار والخوف. ولا ينبغي أن يتم عندما يكونُ الزوجُ أو الزوجة يشعران بالكآبة، الأمرُ الذي قد يجعلُ تلك الأرواح المظلمة تنتقلُ إلى الجيل التالي.

قالت لي زهرة الثلج: "لقد سمعتُ أنه لا ينبغي أن يتمَّ الإنجابُ بعد الكثير من العمل الشاق، ولكنني لا أعتقدُ أن حماتي قد سمعتْ بذلك". بدت زهرة الثلج منهكة القوى. وقد كنتُ أشعرُ بنفس الشيء بعد زيارة بيت زوجي بسبب العمل الذي لا يتوقف وبسبب محاولتي لأكونَ مهذبة وبسبب كوني مراقبة على الدوام.

فقلتُ لها مواسية: "هذه هي القاعدةُ الوحيدة التي لا تحترمُها حماتي. ألم يسمعوا أن البئر المستنفدَ لا يُعطي ماء؟"

هززنا رأسينا لطبيعة حماتينا، ولكننا أيضاً كنا قلقتين من أننا لو حملنا فعلاً فقد لا نحظى بأبناء أصحاء وأذكياء.

قلتُ: "لقد أخبرتني زوجةُ عمي بالوقتِ الأفضلِ لتحملَ فيه المرأةُ. وهكذا، لن تكونَ هناك تعاسةٌ في حياتها". ورغم أن جميعَ أبناء زوجة عمي قد ماتوا عند ولادتهم باستثناء القمر الجميل فمازلنا نثقُ بخبرتها في هذا المجال.

فتنهَّدتْ زهرة الثلج، وتلتْ قائلة: "أعرفه. إنه عندما يسكنُ الماء ويتنفسُ السمك بحرية، وعندما تذهبُ الريح وتقفُ الشجرةُ بثبات".

"كلتانا بحاجة لليلة هادئة يكونُ فيها القمرُ بدراً ساطعاً مما يوحي باستدارة بطن الأم الحامل وطهارتها".

أضافتْ زهرة الثلج: "وعندما تكونُ السماءُ صافية مما يُعلمنا أن الكونَ هادئ ومستعد".

"ونكونُ وزوجانا سعداء مما يجعلُ السهمَ يصيبُ هدفه. وتقولُ زوجة عمي إنه بظل تلك الظروف حتى الحشراتُ تخرجُ للتزاوج".

فتنهدتْ زهرة الثلج مجدداً وقالت: "أعرفُ ما يجبُ أن يحدث. ولكن يصعبُ أن تجتمعَ كل تلك الأمور مع بعضها البعض في آن واحد".

"ولكن يجبُ علينا أن نحاول".

هكذا، في رحلتنا الأولى إلى معبد "غوبو" بعد زواجنا، قدمتُ وزهرة الثلج القرابين، وصلَّينا لكي تحدثَ تلك الأمورُ معنا. وعلى أية حال فبالرغم من أننا اتبعنا القواعد، لم نحمل. وقد يعتقدُ المرءُ أنه من السهل أن تحملَ المرأةُ بعد أن تلتقي بزوجها بضع مراتٍ فقط في السنة.

خلال زيارتنا الثانية إلى المعبد بعد زواجنا، أصبحتْ صلواتنا أعمقَ وقرابيننا أكبر. وبعد ذلك كما كانت عادتنا، زرتُ وزهرة الثلج بائعَ القلقاس من أجل الحصول على غدائنا الخاص المكون من الدجاج وتتبعُه الحلوى التي كنا نفضلُها. وبقدر ما كنا نحبُ ذلك الطبق، لم تأكلُ أيٌّ منا باستمتاع. فقارنَّا ملاحظاتنا، وحاولنا أن نخترعَ طرقاً جديدةً لكي نحمل.

طوال الأشهر التالية، بذلتُ ما بوسعي لأرضي حماتي عندما زرتُ عائلة "لو". وحاولتُ في بيت أهلي أن أكون منسجمةً قدر الإمكان. ولكن أياً يكن المكانُ الذي كنتُ فيه كان الناسُ قد بدؤوا ينظرون إليَّ بطريقة فسَّرتُها على أنها تلومني لقلة خصوبتي. وبعد شهرين، سلمتني مدام "وانغ" رسالة من زهرة الثلج. فانتظرتُ حتى غادرتِ الخاطبة قبل أن أفضَ الرسالة. وكانت زهرة الثلج قد كتبتْ بكتابة الـ "نو شو":

إنني حامل، وأشعرُ بالغثيان في معدتي كل يوم. وتقولُ حماتي إن هذا يعني أن الطفلَ سعيدٌ في جسدي. آملُ أن يكونَ صبياً. وأتمنى أن يحدثَ هذا لكِ.

لم أستطعْ أن أصدقَ أن زهرة الثلج قد هزمتني. فقد كنتُ من تتمتعُ بالمكانة الأرفع. وكان ينبغي أن أحملَ أولاً. وكان شعوري بالإهانة عميقاً جداً بحيث إنني لم أخبر أمي أو زوجة عمي بالخبر الجيد. فقد كنتُ أعلمُ ما ستكون عليه ردّة فعلهما. إذ كانت أمي لتنتقدني بينما كانت زوجة عمي لتكونَ سعيدةً من أجل زهرة الثلج.

في المرة التالية التي زرتُ فيها زوجي، بقيتُ مستيقظةً لوقت طويل، وأنا أتنفسُ بعمق، وأفكرُ بالقمر المكتمل في السماء، وأستمعُ لأي حفيف من

أشجار الخيزران بجانب نافذتنا. وعندما نهضَ زوجي في الصباح، وارتدى ملابسَه ليبدأ يومَه، بقيتُ هادئةً جداً، وسمعنا صوتَ أمه في المطبخ تبدأ بالقيام بالمهمات التي كان ينبغي عليَّ أن أكونَ قد قمتُ بها مسبقاً. فنظرَ زوجي إليَّ مرة واحدة مرسلاً إليَّ رسالة بصوت مرتفع أنني إن لم أنهضْ قريباً، وأبدأ القيام بأعمالي المنزلية، فستترتبُ نتائجُ خطيرة على ذلك. لم يصرخْ عليَّ أو يضربني كما قد يفعلُ بعض الأزواج، ولكنه غادرَ الغرفة دون أن يقولَ إلى اللقاء. وسمعتُ الهمسات المنخفضة لصوتِه وصوتِ أمه بعد لحظات قليلة. ولم يأتِ أحدٌ ليستدعيني. وعندما نهضتُ أخيراً، وارتديتُ ملابسي، ودخلتُ المطبخَ، ابتسمتْ حماتي بسعادة، بينما تبادلتْ "يونغانغ" والفتيات الأخريات نظراتٍ متعمدة.

بعد أسبوعين لاحقاً وأنا نائمةٌ على سريري في بيت أهلي، استيقظتُ وأنا أشعرُ وكأن أرواحاً شريرة كانت تهزُّ المنزل. فوصلتُ إلى وعاء التبوّل وتقيأتُ فيه. فجاءتْ زوجةُ عمي إلى الغرفة، وركعتْ على الأرض بجانبي، ومسحتِ الرطوبة من على وجهي بظهر يدها، وقالت: "الآن سترحلين عنا فعلاً". وللمرة الأولى منذ وقت طويل انفرجَ فمُها الكبير الذي يشبهُ الكهف بابتسامة عريضة.

عصرَ ذلك اليوم، جلستُ ومعي الحبرُ والريشة، وكتبتُ رسالة إلى زهرة الثلج قائلة: "عندما نرى بعضنا البعض هذه السنة في معبد "غوبو" سنكون مستديرتين كالقمر".

كانت أمي، كما يمكنُ للمرء أن يتخيل، صارمةً معي خلال تلك الأشهر كما كانت خلال ربط قدميّ. وأعتقدُ أن طريقتَها كانت أن تفكرَ فقط بالأشياء السيئة

التي يمكنُ لها أن تحدث. فقالت لي مؤدِبة: "لا تتسلقي التلال". وكأنه كان مسموحاً لي على الإطلاق أن أفعلَ ذلك، ثم قالت: "ولا تعبري جسراً ضيقاً أو تقفي على قدم واحدة أو تراقبي كسوف الشمس أو تستحمي بالماء الحار". ولم أكنْ في خطر أن أفعلَ أياً من تلك الأشياء. ولكن التقييدات على الطعام كانت مسألة مختلفة. إننا نفتخرُ في مقاطعتنا بطعامنا المبهَّر، ولكن لم يكنْ مسموحاً لي أن آكلَ شيئاً متبَّلاً بالثوم أو البهارات أو الفلفل مما قد يؤخرُ خروج المشيمة، أو أن آكلَ أي جزء من لحم الحمل مما قد يسببُ في ولادة ابني مريضاً، أو أن آكلَ السمك مع الحراشف مما قد يتسببُ في صعوبة الولادة. فمُنعتُ عن أي شيء مالح أو مر أو حلو أو حامض أو حار فوق الحدّ. وهكذا، فلم أكن أستطيعُ أن آكلَ الفولَ الأسود المخمر أو البطيخ المر أو اللوز المختر أو الحساء الحار أو الحامض أو أي شيء ذا نكهة قوية. وكان يُسمحُ لي بتناول الحساء غير الحار والخضار المسلوقة مع الأرز والشاي. فقبلتُ بتلك القيود وأنا أعلمُ أن قيمتي تعتمدُ كلياً على الطفل الذي كان ينمو داخلي.

كان زوجي وعائلتُه مبتهجين بالطبع. فبدؤوا الاستعدادَ لوصولي. وكان موعدُ ولادة طفلي في نهاية الشهر القمري السابع. فكنتُ سأقومُ بزيارة المهرجان السنوي في معبد "غوبو" لأصلي طالبةً ابناً، ثم كنتُ سأسافرُ إلى قرية "تونغكو". ووافقَ أهلُ زوجي على هذه الرحلة، فقد كانوا ليفعلوا أي شيء ليضمنوا وريثاً ذكراً، بشرط أن أمضيَ الليلة في أحد النُزُل وألا أرهقَ نفسي. أرسلتْ عائلة زوجي مِحفَّة لكي تأخذَني. فوقفتُ عند عتبة باب بيت أهلي.

وودعَني الجميعُ بالدموع والعناق. صعدتُ إلى المِحفَّة، وحُملتُ بعيداً وأنا أعلمُ أنني كنتُ سأعودُ مراراً وتكراراً لحضور المهرجانات بالإضافة لأي احتفالات قد تحدثُ في بيت عائلتي. فلم يكنْ ذلك وداعاً نهائياً بل مؤقتاً كما كان الأمرُ مع أختي الكبرى.

بحلول ذلك الوقت كانت زهرة الثلج، التي سبقتني في حملها بوقت طويل، تعيشُ في قرية "جينتيان". لذا، أخذتُها معي. وكان بطنُها كبيراً جداً بحيث إنني لم أستطعْ أن أصدقَ أن عائلتَها الجديدة قد سمحتْ لها بالسفر على الإطلاق حتى لو كان ذلك لتصلي حتى تنجبَ ابناً. وكان مظهرنا مضحكاً ونحن واقفتان على التراب محاولتين أن نعانقَ بعضنا البعض وبطنانا الكبيران بيننا ونحن نضحكُ طوال الوقت. وقد كانت أجملَ من أي وقتٍ مضى في السنوات التي عرفتُها فيها. وكان يبدو أن السعادةَ الحقيقية كانت تنبضُ داخلَها.

تحدثتْ زهرة الثلج طوال الرحلة إلى المعبد عن كيفية شعورها بجسمها، وكم كانت تحبُ الطفلَ داخلَها، وكم كان الجميعُ لطفاء معها منذ انتقلتْ إلى بيت زوجها. وكانت تقبضُ على قطعة من حجر اليشب الأبيض معلقة حول عنقها لتساعدَ على منح طفلها لونَ الحجر الصافي الشاحب بدلاً من بشرة زوجها المتوردة. وكنتُ أيضاً أرتدي حجر اليشب. ولكنني خلافاً لزهرة الثلج، كنتُ آملُ أن يحمي طفلي ليس من لون بشرة زوجي ولكن من لون بشرتي أنا التي كانت - رغم أنني كنتُ أمضي أيامي داخل المنزل - ذات لون أدكنَ بشكل طبيعي من لون بشرة رفيقتي القشدي.

في السنوات التي مضت، كنا نزورُ المعبد بسرعة، وننحني، ونضعُ رأسينا

على الأرض ونحن نتوسلُ للآلهة. أما الآن فقد دخلنا بفخر مبرزتين بطنينا المستديرين، ونحن ننظرُ بشكل خاطف إلى النساء الحوامل الأخريات لنرى من كانت أكبر حجماً ومن كان بطنها أعلى ومن كان بطنها أخفض. وبالرغم من ذلك فقد كنا دائماً حريصتين أنه كان ينبغي لعقلينا ولسانينا أن تحملَ فقط الأفكار النبيلة والخيرة لكي تنتقلَ تلك الصفاتُ إلى ابنينا.

توجهنا نحو المذبح، حيث كانت ربما مائة زوج من أحذية الأطفال مصفوفة. وكانت كلُّ واحدة منا قد كتبتْ قصائدَ على مروحة كقربان للآلهة. وكانت قصيدتي تتحدثُ عن نعمة الحصول على ابن، وكيف كان سيجعلُ سلالة "لو" تستمرُ، وسيعتزُّ بأسلافه. وأنهيتُها بقولي: أيتها الآلهة إن طيبتكِ تشرِّفنا. إن الكثيرات يأتين إليك يتوسلن إليك لتمنحيهن الأبناء، ولكنني آملُ أن تسمعي طلبي. من فضلك، حققي رغبتي. وكان هذا يبدو ملائماً عندما كتبتُه، ولكنني الآن تخيلتُ ما كانت زهرة الثلج قد فعلتْه بمروحتها. فلا بدَّ أنها كانت مليئة بالكلمات العذبة والزينة الجديرة بالذكر. فصليتُ لئلا تكونَ الآلهة متحيزةً لقربان زهرة الثلج، فأنشدتُ هامسةً: "من فضلك اسمعيني. من فضلك اسمعيني. من فضلك اسمعيني".

وضعتُ وزهرة الثلج مروحتينا معاً على المذبح باليد اليمنى بينما قامت كل واحدة منا بيدها اليسرى بانتشال زوجين من أحذية الأطفال من على المذبح وخبأته في كُمّيّها. ثم غادرنا المعبدَ بسرعة على أمل ألا يمسكَ بنا أحد. فكلُّ النساء في مقاطعتنا اللواتي يردن أن ينجبن طفلاً صحيحَ الجسم يسرقن زوجاً من الأحذية من مذبح الآلهة بشكل خفي. ولكن لماذا؟ كما تعلمون، إن كلمة

"حذاء" في لهجتنا المحلية تُلفَظ ككلمة "طفل". وعندما يُولدُ أطفالنا نعيدُ زوجاً من الأحذية إلى المذبح، مما يفسرُ وجودَ الأحذية التي سرقنا منها، ثم كنا نقدمُ القرابين تعبيراً عن شكرنا.

خطونا خارجَ المعبد إلى اليوم الجميل، وتوجهنا نحو كشك بيع الخيوط. وكما كنا نفعل طوال اثنتي عشرة سنة، بحثنا عن الألوان التي كنا نشعرُ أنها توحي لنا بأفكار للتصاميم التي كنا نبحثُ عنها. فأخرجت زهرة الثلج مجموعة من تدرجات اللون الأخضر لكي أتفحصَها. فهنا كان لون أخضرُ ساطعٌ كالربيع أو جافٌ كالعشب الذابل أو ترابي كأوراق الشجر عند نهاية الصيف أو نابضٌ بالحياة كالعشب بعد المطر أو معتمٌ كلون الأوراق في اللحظة التي تسبقُ بداية ألوان الخريف الحمراء والصفراء.

قالت زهرة الثلج: "دعينا نتوقف غداً بجانب النهر في طريقنا إلى البيت. فنجلسُ ونراقبُ الغيوم وهي تتحركُ في السماء فوقنا، ونصغي إلى صوت الماء وهو يغسلُ الحجارة، ونطرزُ ونغني معاً. وبهذه الطريقة يولدُ ابنانا وهما يتمتعان بذوق مرهف وراقٍ".

قبَّلتُ خدَها. وكنتُ بعيداً عن زهرة الثلج أدعُ عقلي يهيمُ في أماكن مظلمة. ولكنني الآن كنتُ أحبُها كما لطالما أحببتها. وقد اشتقتُ إليها كثيراً.

لم تكنْ زيارتُنا إلى معبد "غوبو" لتكتملَ بدون غدائنا عند كشكِ القلقاس. فابتسمَ الرجل العجوز "زو" بفمه الخالي من الأسنان عندما شاهد بطنينا الكبيرين. فأعدَّ لنا وجبةً خاصة مراعياً اتباعَ كل المتطلبات الغذائية التي تناسبُ حالتنا. وقد استمتعنا بكل لقمة أكلناها. ثم أحضرَ لنا طبقنا المفضل،

وهو القلقاس المقلي المغطى بسكر الكراميل. فكنتُ وزهرة الثلج نشبهُ فتاتين صغيرتين في طيشنا أكثر من سيدتين متزوجتين على وشك الولادة.

في تلك الليلة في النُزُل بعد أن ارتديتُ وزهرة الثلج ملابسَ النوم، تمددنا في السرير مقابلَ بعضنا. وكانت تلك آخر ليلة نقضيها معاً قبل أن نصبحَ أُمَّين. وكنا قد تعلمنا الكثير من الدروس حول ما ينبغي وما لا ينبغي فعلُه وكيف يمكنُ لتلك الأمور أن تؤثرَ على جنينينا. وإذا كان ابني يستطيعُ أن يستجيبَ لسماع اللغة غير اللائقة أو للمس حجر اليشب الأبيض على جلدي، عندئذٍ كان عليه بالتأكيد أن يشعرَ بحبي لزهرة الثلج في جسمه الصغير أيضاً.

وضعتْ زهرة الثلج يديها على بطني. وفعلتُ الأمرَ نفسَه لها. وكنتُ قد اعتدتُ على الطريقة التي كان طفلي يركلُ بها ويدفعُ جلدي من الداخل وخاصة ليلاً. والآن شعرتُ بطفل زهرة الثلج يتحركُ داخلها بيدي. فكنا في تلك اللحظة مقربتين كما يمكنُ لأي امرأتين أن تكونا.

فقالت وهي تضعُ إصبعَها على مكان كان طفلي يمدُّ فيه كوعه أو ركبته إليها: "إنني سعيدةٌ لأننا معاً".

"وأنا سعيدةٌ أيضاً".

"إنني أشعرُ بطفلكِ، وهو قويٌّ كأمه".

فجعلتني كلماتُها أشعرُ بالفخر والحيوية. وتوقفَ إصبعُها عن الحركة. ثم أمسكتْ ببطني مجدداً بيديها الدافئتين.

وقالت: "سأحبُه كما أحبك". ثم وضعتْ يدَها على خدي، كما لطالما كانت تفعلُ منذ كانت طفلة، وتركتْها هناك حتى استغرقنا في النوم.

كنتُ سأبلغُ العشرين من عمري في غضون بضعة أسابيع، وكان طفلي على وشك أن يوُلدَ. فكانت حياتي الحقيقية على وشك أن تبدأ.

أيام الأرز والملح

الأبناء

عزيزتي زهرة الزنبق،

أكتبُ إليك كأم.

فقد وُلدَ طفلي البارحة.

وهو صبي ذو شعر أسود.

وهو طويل ونحيل.

مازلتُ في فترة النفاس.

وهكذا فسأنامُ وزوجي منفصلين لمدة مائة يوم.

أفكرُ بك في حجرتكِ في الطابق العلوي.

وأنتظرُ أن أسمعَ خبراً عن طفلك.

أرجو أن يُولدَ حياً.

وأصلي للآلهة لتحميكِ من أية متاعب.

أتوقُ لأراكِ وأعلمَ أنك بخير.

من فضلك تعالي لتحضري احتفال الشهر الأول لولادة طفلي.

وسترين ما كتبتُه عن ابني في مروحتنا.

زهرة الثلج

كنتُ سعيدةً لسماعي أن ابن زهرة الثلج قد وُلد معافى الجسم، وتمنيتُ أن يبقى كذلك لأنَّ الحياة في مقاطعتنا كان هشة جداً. ونحن النساءُ نأملُ أن نحظى بخمسة أطفال يصلون إلى سن الرشد. ولكي يحدثَ هذا، ينبغي علينا أن نحملَ كل عام أو عامين. فالكثيرُ من هؤلاء الأطفال يموتون جراء

الإجهاض غير المتعمد أو عندَ الولادة أو بسبب المرض. أما البنات، وهن معرضاتٌ للضعف من سوء التغذية والإهمال، فلا يكبرن إلى ما بعد سنوات طفولتهن. فإما أن نموتَ صغيرات بسبب ربط القدمين كأختي الصغرى أو أثناء الولادة أو بسبب العمل الشاق المترافق مع سوء التغذية، أو أننا نعيشُ بعد أن نفقدَ من نحبُّهم. ويمكنُ للأبناء رغم معزَّتهم لدى أهلهم، أن يموتوا بسهولة. فأجسامهم صغيرةٌ جداً وأرواحهم مغرية للأرواح الشريرة من العالم الآخر. ثم يصبحون كرجال لاحقاً في خطر الإصابة بالعدوى من الجروح والتسمم الغذائي والمشكلات في الحقول، والطرق، والقلوب التي لا يمكنُها أن تحتملَ الضغط النفسي لإعالة عائلة بأكملها. ولهذا السبب هناك الكثيرُ من الأرامل. ولكن مهما يكن من أمر، فالسنواتُ الخمس الأولى هي ضعيفةٌ بالنسبةِ لكلٍّ من الأولاد والبنات.

لم أكنْ قلقة بشأن ابن زهرة الثلج فقط، ولكن بشأن الطفل الذي كنتُ أحملُه أيضاً. وكان الأمرُ صعباً علّي أن أكونَ خائفةً وألا يكونَ لديّ أحدٌ ليشجعني ويخففَ عني. فعندما كنتُ في بيتِ أهلي، كانت أمي مشغولة جداً بفرضِ التقاليد والعادات القمعية بحيث إنها لم تتمكن من تقديم النصائح العملية لي، بينما حاولت زوجة عمي، التي فقدتِ الكثيرَ من الأطفال قبل ولادتهم، أن تتجنبني كلياً لكي لا يصيبني سوء حظها. والآن بعد أن أصبحتُ في بيت زوجي، لم يعد لي أحد. فكان زوجي وأهله قلقينَ على صحة الطفل بالطبع. ولكن أحداً منهم لم يبدُ مهتماً بأنني قد أموتُ وأنا ألدُ وريثهم.

أشعرتْني رسالة زهرة الثلج بأنها فألٌ حسن. فإذا كانت الولادةُ قد مرَّتْ

بسهولة معها، فيمكنني وطفلي بالتأكيد أن نتخطاها أيضاً. فمنحني ذلك القوة، وذلك بأن أعرفَ أننا حتى في حياتنا الجديدة لم يتضاءلْ حبنا لبعضنا البعض. فكان حبنا قد ازدادَ قوة ونحن نباشرُ "أيام الأرز والملح". وكنا من خلال رسائلنا سنتشاركُ محننا وانتصاراتنا، ولكن كان يجبُ علينا أن نتبعَ قواعدَ محددة كما هو الأمرُ في كل شيء. وكان علينا كامرأتين مقيمتين في بيتي زوجينا أن نهجرَ طرقنا الطفولية. فكنا نكتبُ رسائلَ عادية ذات صيغ مقبولة وكلمات ذات شكل معين. فمن ناحية، كان ذلك لأننا كنا غريبتين في بيتي زوجينا ومشغولتين بتعلم طرق عائلتين جديدتين. ومن ناحية أخرى، لأننا لم نكنْ نعرفُ من قد يقرأُ رسائلَنا.

كان على كلماتنا أن تكونَ حذرة، فلم يكن باستطاعتنا أن نكتبَ شيئاً سلبياً كثيراً عن ظروفنا. وكان هذا أمراً دقيقاً لأن صيغة رسالة المرأة المتزوجة بحدّ ذاتها يجبُ أن تتضمنَ الشكاوى المعتادة، وهي أننا مثيراتٌ للشفقة ولا حيلة لنا، ونعملُ بجهد كبير ونشعرُ بالغربة والحزن. ويفترَضُ بنا أن نتحدثَ بشكل مباشر عن مشاعرنا دون أن نبدو جاحداتٍ أو كسولاتٍ أو غير مطيعات. وأية كنة تجعلُ حقيقة حياتها تصبحُ علنية تسببُ الخزي لكلٍ من عائلة أهلها وعائلة زوجها، الأمرُ الذي، كما تعلمون، هو السبب في أنني انتظرتُ حتى ماتوا جميعاً لأكتبَ قصتي.

في البداية، كنتُ محظوظةً إذْ لم يكنْ لديّ شيء سيئ لأتحدثَ عنه. فعندما تمتْ خطوبتي، علمتُ أن عمَّ زوجي كان عالماً إمبراطورياً من أعلى منزلة. وأصبحَ المثلُ الذي كنتُ أسمعُه وأنا فتاة صغيرة الآن واضحاً. فقد كان يقول:

"إذا أصبحَ أحدُهم موظفاً حكومياً فإن جميعَ كلاب وقطط عائلته تذهبُ إلى الجنة". وكان العم "لو" يعيشُ في العاصمة. وقد تركَ العناية بممتلكاته لحماي السيد "لو" الذي كان يخرجُ من البيت في معظم الأيام قبل الفجر. فكان يسيرُ في الأرض، ويتحدثُ إلى المزارعين عن المحاصيل، ويشرفُ على مشاريع الري، ويقابلُ بعضَ كبار السن في قرية "تونغكو". فكانت كل الحسابات ومسؤولية ما يحدث في الأرض تقعُ على عاتقه. فكان العم "لو" ينفقُ المال دون أن يقلقَ كيف كان يصلُ إلى خزنته. وكان يبلي بلاءً حسناً بحيث إن أخويه الصغيرين كانا يعيشان في منازلَ قريبة خاصة بهما رغم أنها لم تكنْ بمستوى فخامة هذا المنزل. وغالباً ما كانا يزوراننا مع عائلتيهما لتناول العشاء، بينما كانت زوجتاهما تأتيان بشكل يومي تقريباً إلى حجرة النساء في الطابق العلوي. وبكلمات أخرى، كان الجميعُ في عائلة العم "لو" يستفيدُ من منصبه بما فيهم الكلاب والقطط، وحتى الخادمات الخمس ذوات الأقدام الكبيرة اللواتي كن يتشاركن العيشَ في غرفة بجانب المطبخ.

كان العم "لو" هو السيد المطلق، ولكنني أمَّنتُ على موقعي بكوني الكنة الأولى ثم بمنح زوجي ابنه الأول. فحالما وُلدَ ابني ووضعتْه القابلة بين يديّ، كنتُ أشعرُ بالسعادة وبالراحة بحيث إنني نسيتُ ألمَ الولادة، فلم أقلقْ بشأن كل الأشياء السيئة التي كان ما زال من الممكن أن تحدثَ له. وكان الجميعُ في العائلة سعداء وظهرَ امتنانهم لي بعدة أشكال. فأعدتْ لي حماتي حساء خاصاً من الشراب والزنجبيل والفول السوداني لكي يساعدَ حليبي على الإدرار ورحمي على التقلص. وأرسلَ حماي عن طريق محظياتِه حريراً أزرقَ مطرزاً لكي أصنعَ

سترة لحفيده. وجلسَ زوجي وتحدثَ إليَّ.

لهذا السبب كنتُ أخبرُ الشابات اللواتي كن يتزوجن إلى عائلة "لو" والنساء اللواتي كنتُ في نهاية المطاف أعلمهن كتابة ال "نو شو" أنه كان ينبغي عليهن أن يسرعن بإنجاب صبي. فالأبناء هم دعامة شخصية للمرأة. فهم يمنحون المرأة هويتها بالإضافة للكرامة، والحماية، والقيمة الاقتصادية. وهم يشكلون الرابطة بين زوجها وأسلافه. وهذا هو الإنجازُ الوحيدُ الذي لا يستطيعُ الرجلُ أن يحققَه بدون مساعدة زوجته. فهي وحدَها من تستطيعُ أن تضمنَ استمرار سلالة العائلة، وهو بالمقابل الواجبُ المطلقُ لكل ابن. وهذه هي الطريقة الأسمى التي يتمُّ بها واجبَه البنوي. والأبناءُ هم مجد المرأة المشرِّف. وقد فعلتُ كلَّ ذلك. فكنتُ أشعرُ بنشوة عارمة.

عزيزتي زهرة الثلج،

إن ابني هنا بجانبي.

ولم تنتهِ فترةُ نفاسي بعد.

ويزورني زوجي في الصباح.

والسعادةُ تبدو على وجهه.

إنَّ لابني عينان تحدقان بي متسائلتين.

لا أطيقُ الانتظار حتى أراكِ في حفل الشهر الأول للولادة.

من فضلكِ استخدمي أفضلَ كلماتكِ لتصفي ابني على مروحتنا.

اخبريني عن عائلتكِ الجديدة.

إنني لا أرى زوجي في غالب الأحيان. فهل ترين أنتِ زوجَك؟

إنني أنظرُ من شبك نافذتي إلى نافذتكِ.
إنك دائماً تغنين في قلبي.
وأفكرُ بكِ كل يوم.
زهرة الزنبق

لماذا يدعونَ هذه الأيام بأيامِ الأرز والملح؟ لأنها تتألفُ من الأعمال المنزلية الاعتيادية، كالتطريز، والحياكة، والخياطة، والإصلاح، وصنع الأحذية، وطهو الوجبات، وغسل الأطباق، وتنظيف المنزل، وغسل الثياب، وإشعال الموقد، والاستعداد لقضاء الوقت ليلاً مع زوجي الذي كنتُ ما أزال لا أعرفُه جيداً. وهذه أيضاً أيامٌ مليئةٌ بالقلق والكد لكوني أصبحت أماً شابةً مع طفلي الأول. لماذا يبكي؟ هل هو جائع؟ هل يحصلُ على ما يكفيه من الحليب؟ هل سينامُ بشكل ملائم؟ هل ينامُ فوق اللزوم؟ وماذا عن الحمى، والطفح الجلدي، ولسعات الحشرات، والحرارة الزائدة، والبرد الزائد، والمغص؛ ناهيك عن كل الأمراض التي تجتاحُ المقاطعة متسببةً بموت الكثير من الأطفال كل سنة رغم كل جهود أطباء الأعشاب، والقرابين على مذابح العائلة، ودموع الأمهات؟ إلى جانبِ الطفل الذي كان يرضعُ على صدري، كان عليَّ أن أقلقَ بشكل أعمق بشأن المسؤولية الحقيقية للمرأة، وهي أن أنجبَ المزيدَ من الأبناء وأضمنَ الجيلَ التالي والأجيال التي بعدَه. ولكنني خلال الأسابيع القليلة الأولى من حياة ابني كنتُ أعاني من قلق آخر لم تكنْ له علاقةٌ بواجباتي ككنة أو زوجة أو أم.

عندما طلبتُ من حماتي أن تدعوَ زهرة الثلج إلى حفل الشهر الأول من عمر

ابني، رفضت. وكان هذا الازدراءُ شيئاً يعتبرُه الناسُ في مقاطعتنا إهانة مريعة. فكنتُ مقهورة ومرتبكة لأنها فعلتْ ذلك، ولكنني كنتُ عاجزةً عن تغيير رأيها. فبرهنَ اليومُ على أنَّه أحدُ أهم وأكثر المناسبات احتفاليةً في حياتي. وقد عشتُه دون أن تكون زهرة الثلج بجانبي. وزارت عائلة "لو" معبدَ الأسلاف ليضعوا اسمَ ابني على الجدار مع كل أفراد عائلتهم الآخرين. وقُدِّمَ البيضُ الأحمر – وهو رمزُ الحياة ويُصبغُ باللون الأحمر للاحتفال – للضيوف والأقارب. وأعدَّتْ وليمة فخمة قدِّمَ فيها حساءُ أعشاش الطيور، ولحم الطيور المملح الذي قد جرى تخليله لمدة ستة أشهر، ويخنة البط مع الزنجبيل والثوم والفلفل الأحمر والأخضر الحارِّ. ورغم كل ذلك، افتقدتُ زهرة الثلج إلى حدٍّ كبير. فكتبتُ لها أكثرَ تفاصيلَ استطعتُ أن أتذكرَها دون أن أفكرَ أنها قد تذكِّرُها بالخطأ الرهيب. ولكنها على ما يبدو تقبلت تلك الهفوة لأنها أرسلتْ هدية عبارةً عن سترة مطرزة للطفل وقبعة مزينة بحلي صغيرة.

عندما رأتْ حماتي هذه الهدية، قالت: "يجبُ أن تكونَ الأمُ حذرةً دائماً عندما تختارُ من تُدخلُ إلى حياتها. ولا يمكنُ لأم ابنك أن يرتبطَ اسمُها بزوجة جزار، والنساءُ المطيعاتُ يُنشئن أبناءً مطيعين، ونحن نتوقعُ منك أن تطيعي رغباتنا".

فأدركتُ بتلك الكلمات أن أهلَ زوجي لم يكونوا يرفضون قدوم زهرة الثلج إلى الحفل وحسب بل كانوا لا يريدونني أن أراها على الإطلاق. فأصبتُ بالرعب والفزع. ولأنه لم يكن لديّ سوى الطفل الذي كان يبكي طوال الوقت، لم أعرفْ ما أفعل. وقد كنتُ لأحاربَ أهل زوجي من أجل هذا الأمر دون أن أدركَ كم قد يكونُ هذا خطيراً.

في أثناء ذلك، كنتُ وزهرة الثلج نكتبُ لبعضنا البعض سراً كلَّ يوم تقريباً. وقد كنتُ أعتقدُ أنني أعرفُ كلَّ شيء عن لغة الـ "نو شو" وأنه لا ينبغي للرجال أن يلمسوها أو أن يروها. ولكنني الآن بعد أن عشتُ في منزل عائلة "لو" حيث يعرفُ كل الرجال كتابة الرجال عرفتُ أن كتابتنا النسائية السرية لم تكن سرية إلى هذا الحدّ. ثم اتضحَ لي أنه لا بدَّ أن الرجال في كافة أنحاء مقاطعتنا يعرفون بأمر الـ "نو شو". وكيف لا يمكنهم ذلك؟ فهم يرتدونها على أحذيتهم المطرزة، ويروننا ننسجُ رسائلنا على القماش، ويسمعوننا نغني أغانينا ونظهرُ كتبَ اليوم الثالث للزفاف. فكان الرجال وحسب يعتبرونَ كتابتنا أدنى منزلةً منهم.

يُقالُ إن الرجالَ لهم قلوبٌ من حديد وأن النساء مخلوقاتٌ من ماء. ويتضحُ هذا في كتابة الرجال وكتابة النساء. فكتابةُ الرجال تحتوي على أكثر من 5000 حرف، وكل واحد منها مختلفٌ بشكل خاص عن الآخر وله معانٍ عميقة وفروق دقيقة. أما كتابتنا النسائية فتحتوي على 600 حرف نستخدمُها بشكل صوتي كالأطفال لنشكل نحو 10000 كلمة. وتستغرقُ كتابة الرجال حياة بأكملها لكي يتعلمها المرء ويفهمها. أما كتابة النساء فهي شيء نلتقطه ونحن فتيات صغيرات ونعتمدُ على السياق لنحصل على معنى. ويكتبُ الرجال عن العالم الخارجي، عالم الأدب، والحسابات، والمحاصيل. وتكتبُ النساءُ عن العالم الداخلي، عالم الأطفال، والأعمال المنزلية اليومية، والمشاعر. والرجالُ في عائلة "لو" فخورون بطلاقة نسائهم في كتابة الـ "نو شو" وبراعتهن في التطريز رغم أن تلك الأشياء عديمةُ الأهمية في الحياة.

ولأن الرجالَ كانوا يعتبرون كتابتنا عديمة الأهمية، فلم يكونوا يبدون اهتماماً بالرسائل التي كنتُ أكتبُها أو أستلمُها. أما حماتي فقد كانت مسألة مختلفة. وكان عليَّ أن أتجنبَ ملاحظتَها. ولم تكن تطالبُ في ذلك الوقت أن تعرفَ لمن كنتُ أكتبُ، فأتقنتُ وزهرة الثلج على مدى الأسابيع القليلة التالية نظاماً لتسليم الرسائل. فكنا نستخدم "يونغانغ" لتنقل الرسائل، والمناديل المطرزة، والحياكة بين قريتينا. وكنتُ أحبُّ أن أجلسَ عند شبك النافذة لأراقبَها. وكنتُ أفكرُ عدة مرات أنه كان بإمكاني أن أقومَ بالرحلة بنفسي. فلم يكن المكانُ بعيداً، وكانت قدماي قويتين كفاية لأنجحَ في ذلك، ولكننا كنا نلتزمُ بقواعدَ تحكمُ تلك الأشياء. فحتى لو كانت المرأة تستطيعُ أن تمشي لمسافة طويلة فإنه لا ينبغي عليها أن تُشاهدَ وحدَها في الشارع. فكان هناك خطرُ الاختطاف على يد أشخاص من منزلة وضيعة، بينما كانت سمعة المرأة لتصبحَ حتى في خطر أكبر إذا لم يكنْ يرافقُها الشخصُ الملائم، كزوجها أو أبنائها أو خاطبتها أو حمَّاليها. فكنتُ لأمشي إلى زهرة الثلج، ولكنني لم أكنْ لأجازفَ بحدوث ذلك قَطُّ.

عزيزتي زهرة الزنبق،

لقد سألتني عن عائلتي.

وأنا محظوظةٌ جداً.

ففي بيت أهلي لم تكنْ هناك سعادةٌ.

وكان عليَّ وعلى أمي أن نبقى هادئتين طوال النهار والليل.

لقد رحلتِ المحظياتُ وإخوتي وأخواتي والخدم.

فكان بيتُ أهلي يبدو فارغاً.
أما هنا فلدي حماتي وحماي وزوجي وأخواته الأصغر سناً.
وليست هناك محظيات أو خادمات في بيت زوجي.
فأنا فقط أقوم بتلك الأدوار.
ولا أمانعُ العمل الشاق.
وكلُّ شيء أحتاجُ لمعرفتِه تعلمتُه منك ومن أختك وأمك وزوجة عمك.
ولكن النساء هنا لسن كالنساء في عائلتك.
فهن لا يحببن المرح.
ولا يروين القصص.
لقد وُلدتْ حماتي في عام الجرذ.
هل يمكنكِ أن تتخيلي شخصاً أسوأ بالنسبة لشخص ولد في عام الحصان؟
فالجرذُ يعتقدُ أن الحصان أناني وطائش، رغم أنني لستُ كذلك.
والحصانُ يعتقدُ أن الجرذَ ماكرٌ وقاس، الأمرُ الذي ينطبقُ عليها.
ولكنها لا تضربني،
ولا تصرخُ عليَّ أكثرَ مما هو معتادٌ بالنسبة للكنة الجديدة.
هل سمعتِ أخباراً عن أمي وأبي؟
فبعد إقامتي بشكل دائم في بيت زوجي بأيام
باعَ أبي وأمي آخرَ أمتعتهما،
وأخذا المال وتسللا تحت جنح الظلام.
وبعد أن أصبحا متسولين، لن يترتبَ عليهما أن يدفعا الضرائبَ أو الديون

الأخرى.

ولكن أين هما؟

إنني قلقةٌ بشأن أمي؟

هل هي على قيد الحياة؟

أم أنها في العالم الآخر؟

لستُ أدري.

ربما لن أراها مجدداً.

من كان ليظن أن عائلتي سيئةُ الحظ هكذا؟

لا بدَّ أنهما قد ارتكبا أفعالاً سيئة في حياتهما السابقة.

ولكن إذا كانا قد فعلا ذلك، فماذا عني؟

هل سمعتِ أية أحاديث يمكنك أن تخبريني بها.

وماذا عنكِ؟ هل أنتِ سعيدة؟

زهرة الثلج

الآن، بعد أن عرفتُ هذا الخبرَ المأساوي عن والدي زهرة الثلج بدأتُ أصغي بحرص أكبر لثرثرة العائلة. وبدأتِ الإشاعةُ تأتي من التجار والبائعين الذين كانوا يتجوّلون في أنحاء المقاطعة بأنهم قد شاهدوا والديّ زهرة الثلج نائمين تحت إحدى الأشجار أو يتسولان الطعام أو يرتديان ثياباً قذرة وممزقة. فكنتُ غالباً ما أفكرُ كيف كانت عائلة رفيقتي في السابق قوية في قرية "تونغكو" وكيف لا بدَّ وكان شعورُ أمها الجميلة حيال زواجها إلى عائلة عالم إمبراطوري. أما الآن فانظروا إلى أين آلَ حالُها. وقد شعرتُ بالخوف عليها

بقدميها الصغيرتين. لقد ساءتْ حالُ والدَيْ زهرة الثلج دون أصدقاء ذوي نفوذ ليصبحا تحت رحمة عوامل الطقس. وأصبحتْ زهرة الثلج بدون عائلة أهلها أسوأ من يتيمة. وكنتُ أعتقدُ أنه من الأفضل أن يكونَ لها والدان ميتان تقدسُهما وتتشرفُ بهما كأسلاف من أن يكونَ لها والدان تلاشيا إلى حياة المتسولين الرحَّل. كيف كان يمكنُها أن تعرفَ إذا ماتا؟ كيف كان سيسعُها أن تعدَّ جنازة ملائمة وأن تعتني بقبريهما في عيد السنة الجديدة أو أن تسترضيهما عندما يغضبان في العالم الآخر؟ لقد كان وضعُها وهي حزينة بدون وجودي إلى جانبها لأسمعَ أفكارَها قاسياً عليَّ، ولا بدَّ أنه كان لا يُطاق بالنسبة لها.

أما بالنسبة لسؤال زهرة الثلج الأخير: هل كنتُ سعيدة؟ فلم أكنْ واثقةً كيف أجيبُ عنه. هل كان ينبغي عليَّ أن أكتبَ عن النساء في بيتي الجديد؟ لقد كانت غرفتي الجديدة في الطابق العلوي تأوي الكثير من النساء اللواتي لا تحبُّ إحداهن الأخرى. وكنتُ الكنة الأولى، ولكن لم يمضِ وقتٌ طويلٌ بعد أن وصلتُ إلى قرية "تونغكو" حتى جاءت زوجة الابن الثاني لتعيشَ في المنزل. فأصبحتْ حاملاً على الفور. وكانت بالكاد في الثامنة عشرة من عمرها، فكانت تبكي بشكل لا يتوقف من أجل عائلتها. وولدتْ بنتاً، مما أزعجَ حماتي وجعلَ الأمورَ تزدادُ سوءاً. وقد حاولتُ أن أكونَ صديقةً للكنة الثانية، ولكنها انعزلتْ في إحدى الزوايا مع الحبر، والأوراق، والريشة وهي تكتبُ باستمرار لأمها وأخواتِها بالقَسَم اللواتي كن ما يزلن في قريتها الأصلية. وكان يمكنني أن أخبرَ زهرة الثلج عن الطرق غير اللائقة التي كانت الكنة الثانية تتبعُها لتحاولَ

إثارة إعجاب السيدة "لو" عن طريق انحنائها المستمر لها، وهمسها بكلماتٍ متذللة، ومناورتِها لتحظى بموقع جيد. وكانت المحظياتُ يتشاحنَّ بين بعضهن البعض، وغيرتهن التافهة تقرصُ وجوههن وتجعلُهن بغيضات. ولكنني لم أكن أجرؤ على كتابة هذا الكلام على الورق.

هل كان يمكنني أن أكتبَ عن زوجي؟ أعتقدُ أنه كان يمكنني ذلك، ولكنني لم أكنْ أعرفُ ما أقول، فقد كنتُ نادراً ما أراه، وعندما كنتُ أراه كان غالباً يتحدثُ مع شخص آخر أو منهمكاً في مهمات هامة. وكان خلال ساعات النهار يخرجُ ليعاينَ الحقول، ويشرفَ على المشاريع على الأرض بينما كنتُ أطرزُ أو أقومُ بالأعمال المنزلية الأخرى في غرفة الطابق العلوي. وكنتُ أخدمُه على مائدة الفطور، والغداء، والعشاء وأنا أتذكرُ أن أكون محتشمة وهادئة كما كانت زهرة الثلج تتصرفُ على طاولة عائلتي. ولم يكنْ يتحدثُ إليَّ في تلك المناسبات. وكان يأتي مبكراً أحياناً ليزورَ ابننا أو ليقضي الوقتَ معي. وأعتقدُ أننا كنا كأي زوجين، حتى كزهرة الثلج وزوجها. لذا لم يكن هناك أي شيء مثير للاهتمام لأكتبه.

كيف كان يمكنني أن أجيبَ زهرة الثلج عن سؤالها الذي يتعلقُ بسعادتي في حين أن المشكلةَ الرئيسيةَ في حياتي كانت تتعلقُ بها؟

قالت حماتي في أحد الأيام وقد ضبطتْني أكتبُ لرفيقتي: "أعترفُ أنك قد تعلمتِ الكثيرَ من زهرةِ الثلج ونحن ممتنون لهذا. ولكنها لم تعدْ واحدة من سكان قريتنا، ولم تعد تحت حماية السيد "لو" أيضاً. وهو لا يستطيعُ ولا ينبغي عليه أن يغيرَ قدرَها، وكما تعلمين، لدينا قوانينُ تحكمُ حياة الزوجات تتعلقُ

بالحرب والنزاعات الحدودية الأخرى. ولا يُفترَض بالنساء كضيفات أن يتعرضن للأذى أثناء الخلافات، والغارات، والحروب لأنه يُنظرُ إلينا على أننا ننتمي لكلٍّ من قرية الزوج وقرية الأهل. فكما ترين، يا زهرة الزنبق، نحن النساء نتمتعُ بالحماية والولاء من كلا المكانين. ولكن إذا حدثَ شيءٌ لك في قرية زهرة الثلج فأي شيء نفعلُه قد يؤدي إلى الانتقام أو ربما حتى إلى قتال مستمر".

أصغيتُ إلى أعذار السيدة "لو". ولكنني كنتُ أعلمُ أن أسبابَها كانت أكثر وضاعة بكثير. فقد كانت عائلة أهل زهرة الثلج مخزية، وتزوجتْ من رجل ملوث أخلاقياً. فلم يكن أهل زوجي يريدونني ببساطة أن أصادقَها.

تابعت حماتي وهي تخاطرُ أكثر بقول الحقيقة: "إن قدرَ زهرة الثلج محتوم، وهو لا يناسبكِ بأي حال من الأحوال. وإنني والسيد "لو" ننظرُ بعين الرضا إلى الكنة التي تقررُ أن تقطعَ علاقتها بامرأة لم تعدْ رفيقة لها بعد الآن. وإذا أردتِ الصحبة، فإنني أذكرُكِ بالشابات المتزوجات في قرية "تونغكو" اللواتي عرفتكِ عليهن".

فتمتمتُ قائلة: "إنني أتذكرُهن، شكراً لك". بينما كنتُ في داخلي أصرخُ رعباً قائلة: أبداً أبداً أبداً!

"إنهن يرغبن أن تنضمي إليهن في أخوية بالقسم للنساء المتزوجات".

"أشكركِ مجدداً..".

"ينبغي أن تعتبري هذه الدعوة شرفاً لك".

"إنني أعتبرُها كذلك".

فقالت: "إنني أقولُ وحسب إنه ينبغي عليك أن تُخرجي زهرة الثلج من

أفكارك". ثم أنهتْ كلامها بنصيحتها المعتادة: "لا أريدُ لذكرى هذه الفتاة المنحوسة أن تؤثرَ على حفيدي".

ضحكتِ المحظياتُ خلسةً من خلف أصابعهن. وكن يستمتعن برؤيتي وأنا أعاني. وفي لحظات كهذه كان وضعهن يرتفع، ووضعي يهبط. ولكن بغض النظر عن هذا النقد المستمر الذي كانت الأخريات يستمتعن به وكان يخيفني بعمق، كانت معاملةُ حماتي معي ألطفَ مما كانت معاملة أمي. وكانت تتبعُ كلَّ القواعد كما كانت زهرة الثلج قد قالت. وكنتُ قد سمعتُ طوال حياتي المقولة القائلة: "عندما تكونين فتاة أطيعي والدك، وعندما تكونين زوجة أطيعي زوجك، وعندما تكونين أرملة أطيعي ابنك". ولم أخفْ من ذلك. ولكن حماتي علَّمتني حقيقةً أخرى في أحد الأيام عندما كانت غاضبة من زوجها، فقالت: "أطيعي واستمري بالطاعة ثم افعلي ما تريدين". فكان باستطاعة أهل زوجي الآن أن يمنعوني من رؤية زهرة الثلج، ولكنهم لن يستطيعوا أبداً أن يجعلوني أتوقفُ عن محبتها.

عزيزتي زهرة الثلج،
إن زوجي يعاملُني معاملةً حسنة.
وأنا لا أعرفُ حتى أين تقعُ كل حقول عائلتنا.
وأنا أيضاً أعملُ بجدّ.
فحماتي تراقبُ كل شيء أفعله.
والنساء في عائلتنا مثقفاتٌ جيداً بكتابة ال- "نو شو"
وقد علَّمتني حماتي حروفاً جديدة.

وسأريكِ إياها عندما نلتقي في المرة القادمة.

إنني أقومُ بالتطريز، والحياكة، وصنع الأحذية.

وأقوم بحياكة القماش وتحضير الوجبات.

لدي ابن.

وأصلي للآلهة لكي أحظى بابن آخر يوماً ما.

وينبغي عليكِ أن تفعلي ذلك أيضاً.

من فضلكِ أصغي إليَّ.

يجبُ عليك أن تطيعي زوجك.

ويجب أن تصغي لحماتك.

وأطلبُ منك ألا تقلقي كثيراً.

وعوضاً عن ذلك، تذكري عندما طرَّزنا معاً وتحدثنا هامستين ليلاً.

فنحن طيرا بجع وطيرا عنقاء يحلِّقان عبرَ السماء.

زهرة الزنبق

في رسالتِها التالية، لم تذكرْ زهرة الثلج شيئاً عن عائلتها الجديدة باستثناء أن ابنها قد تعلَّم الجلوس. وعندما وصلتْ إلى نهاية الرسالة استفسرتْ مجدداً عن حياتي.

أخبريني عن وجباتكم وماذا يناقشون أثناءها.

هل يروون القصص الكلاسيكية عندما يتناولون طعامهم؟

هل تسلي حماتك الرجال برواية القصص؟

هل تغني لهم لتساعدَهم على الهضم؟

حاولتُ أن أجيبَ بصدق. وكان الرجالُ في عائلتي يناقشونَ الأمور المالية، مثل: أية قطعة زائدة من الأرض يمكنهم أن يؤجروها، ومن كان سيحرثُها، وكم يجبُ أن يطلبوا أجرةً لها، وكلفة الضرائب. فكانت لديهم الرغبة "للصعود إلى الأعلى" و"للوصول إلى قمة الجبل". وكانت كل عائلة تقولُ تلك الأشياء عند احتفال السنة الجديدة مجسدين أطباقاً خاصة لتلك الأمنيات وهم يعرفون أن هذا هو بالضبط ما هي عليه. ولكن أهل زوجي كانوا يعملون عملاً شاقاً ليجعلوا أمنياتهم تتحقق. وكانت محادثاتهم مملة بحيث إنني لم أكن أفهمها، ولم أكن آبه لأفهمها أيضاً. وكانوا مسبقاً يملكون أكثرَ من أي شخص آخر في قرية "تونغكو". فلم يكنْ يسعني أن أتخيلَ أي شيء آخرَ يمكنهم أن يتمنوه أيضاً. ومع ذلك، فعيونهم لم تكنْ تبتعدُ عن قمة الجبل.

كنتُ أملُ أن تكونَ زهرة الثلج تشعرُ بسعادة أكبرَ الآن، وقد تكيفت، كما يجب على النساء جميعهن، مع ظروف مختلفة كلياً عن أي شيء عرفته من قبل. ثم سمعتُ عصرَ يوم مظلم وأنا أرضعُ ابني مِحفَّة مدام "وانغ" تقفُ خارجَ عتبة بيتنا. وتوقعتُ أن أراها تصعدُ الدرج. وعوضاً عن ذلك، دخلتْ حماتي الغرفة بتقطيبة مستنكرة، وألقتْ رسالة على الطاولة بجانبي. وحالما نام ابني، سحبتُ مصباح الزيت أقربَ وفتحتُها. فلاحظتُ على الفور أن الصيغة كانت مختلفة. وبدأتُ أقرأ بشعور من الذعر.

عزيزتي زهرة الزنبق،

إنني جالسةٌ في الطابق العلوي وأنا أبكي. وأسمع صوتَ زوجي في الخارج وهو يقتلُ خنزيراً. إنه يزيدُ انتهاكه لقوانين التلوث.

عندما تزوجتُ أول الأمر، جعلتْني حماتي أقفُ على الرصيف خارجَ المنزل وأراقبُ خنزيراً وهو يُقتلُ لكي أتمكنَ من رؤية من أين نكسبُ رزقنا. وأحضرَ زوجي وحماي الخنزير إلى عتبة بابنا. وكان معلقاً رأساً على عقب من عمود بين كتفي زوجي وحماي. وكان الخنزيرُ بينهما يصرخ ويصرخ. فقد كان يعلمُ ما كان آتياً. وكنتُ قد سمعتُ هذا الصوتَ مرات عديدة من قبل لأنها جميعاً تعرفُ ما على وشك أن يحدث لها. فيترددُ صدى أصواتها في أنحاء قريتنا في كثير من الأوقات.

أنزلَ حماي الخنزيرَ تالياً إلى قدر كبيرة مملوءة بالماء المغلي. (أتتذكرين القدرَ الكبيرة خارجَ منزلي؟ تلك المندمجة مع الرصيف؟ يوجدُ تحتها مكان لحرق الفحم). قطعَ زوجي حنجرة الخنزير. ثم جمعَ الدماء من أجل صنع كستردة الدم، ثم دفعَ الجسمَ في القدر. وكان الخنزيرُ يُغلى في الماء لتتم تطرية جلده. وطلبَ مني زوجي أن أكشط الشعرَ عن جلد الحيوان. فصحتُ وصحت، ولكن ليس بصخب كما فعلَ الخنزير. وقلتُ لهم إنني لن أشاهدَ هذا التلوث أو أكون جزءاً منه مجدداً قَطُّ. فاتهمتني حماتي بالضعف الشديد.

أصبحتُ يوماً بعد يوم شبيهة بـ "الزوجة وانغ". هل تتذكرين عندما أخبرتْنا خالتي بالقصة؟ لقد أصبحتُ نباتية. ولا يهتمُ أهل زوجي بالأمر. فهذا يتركُ لهم المزيد من اللحم.

إنني وحيدة في هذا العالم لولا وجودك ووجود ابني.

أتمنى لو أنني لم أكذبْ عليك أبداً. لقد وعدتكِ أن أخبرَك الحقيقة دائماً، ولكنني لا أريدُكِ أن تعرفي عن حياتي البشعة.

أجلسُ عند شبك النافذة، وأنظرُ عبرَ الحقول إلى قريتي الأصلية. وأتخيلُك جالسةً عند نافذتك تنظرين إليَّ. وقلبي يطيرُ عبر الحقول إليك. هل تجلسين هناك؟ هل ترينني؟ هي تشعرين بي؟

إنني حزينة بدونك. ألحُ عليك أن تكتبي إليَّ أو أن تزوريني.

زهرة الثلج

كان هذا رهيباً! فنظرتُ من شبك النافذة نحو قرية "جينتيان" متمنية لو أنني أستطيع أن أرى زهرة الثلج على الأقل. وشعرتُ بالفظاعة لمعرفتي أنها كانت تعاني، وأنني لم أكنْ أستطيعُ أن أضعَ ذراعي حولها لأخفف عنها. فسحبتُ ورقةً وحبراً ممزوجاً أمام حماتي والنساء الأخريات في حجرة الطابق العلوي. وقبل أن أتناولَ الفرشاة، أعدتُ قراءةَ رسالة زهرة الثلج. ففي المرة الأولى، أدركتُ حزنها فقط. أما الآن فقد أدركتُ أنها قد خرجت عن الأسطر التقليدية ذات الأسلوب الخاص الذي كانت تتبعه الزوجات في كتابة رسائلهن وأنها كانت تستخدمُ كتابة الـ "نو شو" لتكتب على نحو أكثر صراحة ومباشرة عن حياتها.

أدركتُ من فعلها الجريء الهدفَ الحقيقي لكتابتنا السرية. فهي ليست لكتابة رسائل طفولية لبعضنا البعض، وليست لتقديم أنفسنا للنساء في عائلات أزواجنا. بل كانت تمنحنا صوتاً. لقد كانت كتابتنا السرية وسيلة لأقدامنا المربوطة لتحملنا لبعضنا البعض، ولأفكارنا لتطير عابرةً الحقول كما كانت زهرة الثلج قد كتبت. لم يكن الرجالُ في عائلاتنا يتوقعون أبداً أن يكون لدينا أي شيء مهم نقوله. ولم يكونوا يتوقعون أن تكون لنا مشاعرُ أو أن نعبرَ عن

أفكار خلاقة. والنساء كحمواتنا وغيرهن يضعن أمامنا عقبات أكبر حتى. ولكنني منذ ذلك الوقت وصاعداً كنتُ آمل أن أتمكنَ وزهرة الثلج من كتابة حقيقة حياتنا سواء أكنا معاً أم كنا بعيدتين. وأردتُ أن أتخلصَ من تلك العبارات الجامدة التي كانت شائعة جداً بين الزوجات في "أيام الأرز والملح" لأعبرَ عن أفكاري الحقيقية. فكنا سنكتبُ كما كنا نتحدثُ عندما كنا نجلسُ معاً في حجرة الطابق العلوي في بيت أهلي.

كان عليَّ أن أرى زهرة الثلج، وأخبرَها أن الأمور كانت ستصبحُ أفضل. ولكنني إن زرتُها ضدَّ رغبات حماتي فسأكونُ مرتكبةً لأسوأ الجرائم. وكان التسلل في الأنحاء لكتابة أو قراءة الرسائل يبدو أقل أهمية مقارنة بهذا، ولكن كان عليَّ أن أفعلَ ذلك إذا أردتُ أن أرى رفيقتي.

عزيزتي زهرة الثلج،

إنني أبكي عندما أفكّرُ بك في ذلك المكان. فأنتِ صالحةٌ بحيث لا تستحقين تلك البشاعة في حياتك. يجب أن نخفّفَ عن بعضنا البعض. لذا، من فضلك تعالي إلى بيت أهلي لحضور مهرجان "رحيل الطيور". وسنحضرُ معنا ابنينا. وسنكون سعيدتين مجدداً. وستنسين متاعبك. فتذكري أن المرء لا يعطشُ بجانب بئر، ولا ييأسُ بجانب أخت. فسأكونُ في قلبي أختاً لك إلى الأبد.

زهرة الزنبق

جلستُ في حجرة الطابق العلوي لأرسم خطتي، ولكنني كنتُ خائفة. وكانت البساطة تبدو هي الأفضل. فكنتُ سآخذُ زهرة الثلج في مِحفَّتي في طريقي إلى البيت، ولكن تلك كانت لتكونَ أسهلَ طريقة ليُمسكَ بنا. فقد تنظرُ المحظيات

من شبك النافذة ويرين محفتي تتوجه نحو اليمين إلى قرية "جينتيان". والأمرُ الأخطرُ من ذلك حتى هو أن الطرقَ كانت ستصبحُ مزدحمة بالعديد من النساء، ومن بينهن حماتي، وهن عائداتٌ إلى بيوت أهلهن لحضور المهرجان. فكان من الممكن لأيٍّ كان أن يرانا ويخبرَ عنا ولو فقط ليتملق عائلة "لو" كسباً لرضاهم. ولكن بحلول الوقت الذي بدأ فيه المهرجان، كنتُ قد استجمعتُ شجاعتي إلى درجة أنني كنتُ أعتقدُ أننا قد ننجح.

كان اليوم الأول من الشهر القمري الثاني يشهدُ بداية موسم الزراعة ثم مهرجان "رحيل الطيور". وفي داخل البيت، نهضتْ نساءُ عائلتنا مبكرات صباح ذلك اليوم ليحضِّرن كرات الأرز اللزج. وخارجاً، كانت الطيور تنتظرُ الرجالَ ليبدؤوا بزراعة بذور الأرز. فعملتُ إلى جانب حماتي ونحن نعصرُ الكرات معاً مستخدمتين هذا الأرز لنحمي المزيد من الأرز، وهو أغلى أنواع الطعام اليومي. وعندما حان الوقت، حملتْ نساء "تونغكو" غير المتزوجات وليمة الطيور ووضعن الكرات على العصي في الحقول لتجذبَ انتباه الطيور بينما كان الرجالُ يرشون الحبوب المسمومة على طول أطراف الحقول من أجل الطيور. وحالما التقطتِ الطيور أول لقمها المميتة، خطت نساء "تونغكو" المتزوجات إلى المِحفَّات أو صعدن إلى العربات أو تسلقن على ظهور نساء كبيرات الأقدام ليُؤخذن عبر الحقول عائدات إلى بيوت عائلاتهن. وكانت النساء العجائزُ يخبرننا أننا إن لم نغادر فستأكلُ الطيور بذور الأرز التي كان أزواجنا سيبذرونها ولن نعودَ قادرات على أن نمنحهم المزيد من الأبناء.

كما خططتُ، توقفَ حماليَّ في قرية "جينتيان". ولم أخرجْ من المِحفَّة خوفاً

من أن يراني أحدٌ ما. ثم فُتِحَ الباب، وانضمتْ زهرة الثلج إليَّ وابنها نائمٌ على كتفها. وكان قد مضى من الوقت ثمانية أشهر منذ رأيتُها عند معبد "غويو". وكنتُ قد تخيلتُ، مع كل العمل الذي قامتْ به، أن أي زيادة في الوزن اكتسبتها خلال الحمل قد اختفت. ولكنها كانت لا تزالُ جميلة الشكل بسترتها وتنورتها. وكان ابنها يبدو هزيلاً مقارنة بابني. وكان بطنها منتفخاً، مما كان السبب في أنها كانت تضعُ ابنها على كتفها عوضاً عن احتضانه بين يديها.

أدارتْ ابنها بلطف لكي أتمكنَ من رؤيته. وسحبتُ ابني من على صدري ورفعتُه حتى أصبحَ الطفلان متقابلين. وكان عمرهما ستة أشهر وسبعة أشهر. ويُقال إن كل الأطفال جميلون. وكان ابني كذلك. ولكنَّ ابنها، رغم شعره الكثيف، كان نحيلاً كقصب النهر ببشرة صفراء شاحبة وملامح مسحوقة وعابسة. ولكنني جاملتُها بشأنه وفعلت هي الأمرَ نفسه معي.

بينما كان جسمانا يتأرجحان ويرتطمان ويتمايلان مع مشية الحمالين، تحدثنا عن مشاريعنا الجديدة. وكانت تنسجُ قطعة قماش تتضمنُ بيتاً شعرياً، وهو مشروعٌ صعبٌ جداً ومُرهق. وكنتُ أتعلمُ كيف أُعدُّ الطيور المخللة، وهي مهمة سهلة نسبياً باستثناء أنها تحتاجُ أن يتمّ القيامُ بها بشكل صحيح لمنع الفساد. ولكن ذلك كان مزاحاً، وكانت لدينا أمورٌ جدية لنتحدثَ عنها. وعندما سألتُها كيف كانت الأمور تجري معها، لم تترددْ للحظة.

فاعترفتْ وعيناها مثبتتان على عينيّ قائلة: "عندما أستيقظُ صباحاً لا يكونُ هناك فرحٌ سوى الذي أشعرُ به نحو ابني. وأنا أحبُّ أن أغني عندما أغسلُ الثياب أو أحضرُ الحطب، ولكنَّ زوجي يغضبُ عندما يسمعني. وعندما يكونُ

غاضباً لا يسمحُ لي بأن أجتازَ عتبة بابنا لأي شيء باستثناء أعمالي المنزلية. وإذا كان سعيداً يدعني أجلسُ في الأمسيات خارجاً على الرصيف حيث يقتل الخنازير. ولكنني عندما أكونُ هناك لا أفكّرُ سوى بالحيوانات التي تموت. وعندما أنامُ ليلاً أعرفُ أنني سأنهضُ مجدداً، ولكن لن يكون هناك فجر بل ظلام فقط".

فحاولتُ أن أطمئنَها قائلة: "إنك تقولين هذه الأشياء لأنك أصبحتِ أماً حديثاً ولأن الفصل هو فصل الشتاء". ولم يكن لي الحق بمقارنة وحدتي بوحدتها. ولكن حتى أنا كنتُ مغلفة بالكآبة في تلك المناسبات عندما كنتُ أفتقدُ عائلتي أو عندما كان الظلامُ الباردُ في الأيام القصيرة يسببُ الانقباض لقلبي. فعرضتُ قائلة لها ولنفسي: "إن الربيعَ قادمٌ. وسنصبحُ سعيدتين بقدوم الأيام الأطول".

أجابتْ بشكل واقعي: "إن أيامي تكونُ أفضلَ عندما تكون قصيرة. وفقط عندما أذهبُ وزوجي إلى الفراش تتوقفُ الشكوى. فلا أسمعُ حماي يتضجرُ من قلة تركيز شايه، ولا تعاقبُني حماتي لرقة قلبي، ولا تطالبُ أخواتُ زوجي بملابس نظيفة، ولا يأمرُني زوجي ألا أكونَ مصدرَ إحراج في القرية، وتتوقفُ طلبات ابني".

أصبتُ بالرعب من مدى سوء وضع رفيقتي. فقد كانت بائسة ولم أكنْ أعرفُ ما أقولهُ لها رغم أنني منذ أيام قليلة وحسب كنتُ قد وعدتُ نفسي أننا سنكونُ أكثر صراحة مع بعضنا البعض. فسمحتُ لنفسي رغم ارتباكي وإحراجي أن أكون مرتبطة بالتقاليد.

فعرضتُ قائلة: "لقد حاولتُ أن أتكيفَ مع زوجي وحماتي. وقد جعلَ ذلك

حياتي أفضل. وينبغي عليك أن تفعلي ذلك أيضاً. فأنت تعانين الآن. ولكن حماتك ستموت يوماً ما، وستصبحين سيدة المنزل. فكل الزوجات الأوليات اللواتي هن أمهاتٌ لأبناء ينتصرن في النهاية".

ابتسمتْ بحزن. ففكرتُ بشكواها بسبب ابنها. ولم أفهم ذلك حقاً. فالابن هو حياة المرأة. وكانت وظيفتُها وإنجازُها أن تحققَ كل طلباته.

فقلت: "سرعان ما سيمشي ابنك. وستلحقين به في كل مكان، وتكونين سعيدة".

شدَّت ذراعيها حول طفلها، وقالت: "إنني حاملٌ ثانيةً أصلاً".

فابتسمتُ لها مهنئةً، ولكنَّ عقلي كان مشوشاً. فكان هذا يفسرُ بروز بطنها. ولا بدَّ أن مدة طويلة قد مضتْ عليها. ولكن كيف كان يمكنُ أن تصبحَ حاملاً بهذه السرعة؟ هل كان هذا هو التلوثُ الذي كتبتْ عنه في رسالتها؟ هل تمَّ الحمل قبل أن تكتملَ فترة المائة يوم؟ لا بدَّ أن الأمر كان كذلك.

فتمكنتُ من أن أقولَ لها: "أتمنى لك ابناً آخر".

وتنهدت قائلة: "آمل ذلك لأن زوجي يقولُ إنه من الأفضل أن أنجبَ كلباً على أن أنجبَ ابنة".

كنا جميعاً نعلمُ حقيقة هذه الكلمات، ولكن من قد يقولُ هذا لزوجته الحامل؟

أنقذني الشعور بهبوط المحفة والهتافات الفرحة والتحية الآتية من إخوتي من محاولة اختراع إجابة ملائمة. فقد وصلتُ إلى البيت.

كم تغيرت العائلة! فقد كان لأخي الأكبر وزوجته الآن طفلان. وكانت الزوجةُ قد ذهبتْ إلى بيت أهلها لحضور احتفال "رحيل الطيور"، ولكنها تركتِ الطفلين

لنراهما. ولم يكنْ أخي الأصغر قد تزوجَ بعد، ولكن التحضيرات لزفافه كانت مستمرة. فكان قد أصبحَ رجلاً بشكل رسمي. وكانت الأختُ الكبرى قد وصلت مع ابنتيها وابنها. وكانت تتقدمُ في السن أمام أعيننا رغم أنني كنتُ ما أزالُ أفكرُ بها كفتاة في أيام "التزين بدبابيس الشعر". ولم تستطعْ أمي أن تنتقدَني بسهولة رغم أنها حاولت ذلك. وكان والدي فخوراً، ولكنني استطعتُ أن أرى العبء الذي كان يشعرُ به لوجود الكثير من الأفواه التي كان عليه أن يطعمَها، حتى وإن كان ذلك لأيام قليلة. فقد كان هناك سبعة أطفال مجتمعين من سن الستة أشهر إلى سن الست سنوات تحت سقف بيتنا. وكان البيتُ يضجُ بأصوات الخطوات الصغيرة التي كانت تجري على أرض الغرف وبطلب الانتباه وبالأغاني الهادئة. وكانت زوجة عمي سعيدة بوجود كل الأطفال حولها. فقد كان بيتٌ مليءٌ بالأطفال حلمَ حياتها. ورغم ذلك، كنتُ بين الحين والآخر أرى عينيها تدمعان. فلو كان العالمُ أكثرَ عدلاً لكانت القمر الجميل هناك مع أطفالها أيضاً.

أمضينا ثلاثة أيام ونحن نثرثرُ، ونضحكُ، ونأكل، وننام. ولم يكن أحدٌ منا يجادلُ أو يغتابُ أو يدينُ أو يتهمُ أحداً. وبالنسبة لي ولزهرة الثلج كانت الأوقات الأفضلُ لنا هي ليلاً في غرفة الطابق العلوي. فكنا نضعُ ابنينا بيننا على السرير. وبعدَ رؤيتهما جنباً إلى جنب، أصبحَ الفرقُ بينهما أكثرَ وضوحاً حتى. فكان ابني بديناً ذا خصلة شعر سوداء كأبيه. وكان يحبُّ أن يرضعَ ويقرقر على صدري حتى يشبعَ من حليبي متوقفاً بشكل مؤقت فقط لينظرَ إليَّ ويبتسم. وكان ابن زهرة الثلج يُعاني من حليب أمه، فكان يبصقُه على كتفها

عندما كانت تساعدُه على التجشؤ. وكان صعبَ الإرضاء من نواح أخرى أيضاً، فكان يبكي في فترات العصر المتأخر، ويصبحُ وجهه أحمر من الغضب، وكانت مؤخرتُه زهرية ومتقرحة من الطفح الجلدي. ولكن حالما تمددنا نحن الأربعة تحت اللحاف، ونام الطفلان، أصغينا لأنفسنا نهمس:

وسألت زهرة الثلج عندما تأكدتْ أن الجميع قد ناموا: "هل تحبين قضاء الوقت مع زوجك؟"

وكنا لسنوات عديدة قد سمعنا النكات التي كانت النساء العجائز يلقينها، والملاحظات المرتجلة التي كانت زوجة عمي تدلي بها عنها وعن عمي. وكان كلُّ ذلك يبدو مربكاً، ولكنني أدركُ الآن أنه لا يوجدُ شيء مربك في الأمر.

قالت زهرة الثلج بسرعة: "إنني وزوجي كزوجين من البجع". وعندما لم أجبها على الفور، تابعت قائلة: "ونجد سعادة مشتركة بالتحليق معاً".

فأُخذتُ بما قالته. هل كانت تكذبُ مجدداً كما كانت تفعلُ لسنوات عديدة؟ فتحدثتْ مجدداً أثناء صمتي المرتبك.

تابعت قائلة: "ولكن بقدر ما نستمتعُ بوقتنا يزعجني أن زوجي لا يتبعُ قواعد فترة ما بعد الولادة. فقد انتظرَ لعشرين يوماً فقط". وتوقفت مجدداً ثم اعترفت قائلة: "إنني لا ألومه. فقد وافقتُ، وأردتُ لذلك أن يحدث".

ورغم أنني كنتُ مرتبكةً تماماً من كلامها، فقد كنتُ أشعرُ بالراحة. فلا بدَّ أنها كانت تخبرُني بالحقيقة لأنه لا أحدَ قد يكذبُ ليغطي حقيقة أسوأ. وما الذي يمكنُ أن يكونَ أكثرَ خزياً من ارتكاب عمل ملوث؟

فأجبتُها هامسة: "هذا الأمرُ سيئ، فيجبُ عليك أن تتبعي القواعد".

"أو ماذا؟ هل سأصبحُ ملوثة كزوجي؟"

كانت تلك الفكرةُ قد سبقَ وخطرتْ ببالي، ولكنني قلت: "لا أريدُ لك أن تمرضي أو تموتي".

فضحكتْ في الظلام، وقالت: "لا أحدَ يمرضُ بسبب ذلك، بل هو أمرٌ ممتع. إنني أعملُ طوال اليوم بمشقة لحماتي. ألا أستحقُ بعض السعادة؟ وإذا أنجبتُ ابناً آخر فهذا سيجعلُني أكثر سعادة أيضاً".

علمتُ أن الجزء الأخيرَ كان صحيحاً. فقد كان الطفل النائم بيننا صعباً وضعيفاً في آن معاً. فكانت زهرة الثلج بحاجة لتنجبَ ابناً آخر... تحسباً...

انقضتْ أيامنا الثلاثة بسرعة كبيرة. وكان قلبي يشعرُ براحة أكبر، وأوصلتْ محفتي زهرة الثلج أمام منزلها. ثم عدتُ إلى البيت. ولم يلاحظْ أحدٌ انحرافي على الطريق. وضمنَ المالُ الذي دفعتُه للحمالين صمتهم. وقد ازدادتْ جرأتي لنجاحي. وعلمتُ أنني سأكونُ قادرة على رؤية زهرة الثلج مرات عديدة. فقد كانت الكثيرُ من المهرجانات تتطلبُ من النساء المتزوجات العودة إلى بيوت أهاليهن، وكانت لدينا زيارتنا السنوية إلى معبد "غويو". فقد نكون سيدتين متزوجتين، ولكننا كنا ما نزال رفيقتين أياً يكنْ ما تقوله حماتي.

استمررتُ وزهرة الثلج على مدى الأشهر التالية بالكتابة لبعضنا البعض. وكانت كلماتنا تطيرُ جيئةً وذهاباً عبرَ الحقول حرة كطيور تحلّقُ في النسيم العليل. وقلّت شكاواها وكذلك شكاواي. فكنا أمّين شابتين، وكانت حياتنا مضيئة بالمغامرات اليومية لأبنائنا، كسن جديد يبزغ لهما أو كلمات أولى ينطقانها أو خطوات يمشيانها. فكنا في ذهنينا راضيتين ونحن مستقرتان في

إيقاع بيتينا الجديدين. فتعلمنا كيف نرضي حماتينا، ونتكيفُ مع واجبات الزوجة. حتى أنني أصبحتُ أكثرَ اعتياداً على الكتابة لزهرة الثلج عن علاقتي بزوجي. وبحلول ذلك الوقت فهمتُ النصيحة القديمة التي تقول: "عندما تكونُ مع زوجتك تصرفْ كزوج وعندما لا تكونُ معها تصرفْ كسيد نبيل". وقد كنتُ أفضلُ زوجي وهو سيدٌ نبيل. وكان أثناء النهار يتبعُ "الدروس التسعة". فكان صافي الذهن يصغي بعناية ويبدو دمثاً. وكان متواضعاً، ومخلصاً، ومحترماً، وصالحاً. وعندما كان يرتابُ في شيء ما كان يسأل والدَه أسئلة. وفي المناسبات النادرة التي كان يغضبُ فيها، كان يحرصُ ألا يُظهرَ ذلك. هكذا، ففي الليل عندما كان يستلقي في الفراش كنتُ أفرحُ لسعادته، ولكنني كنتُ أرتاحُ عندما كان يبتعدُ عني. فلم أكنْ أفهمُ الأشياء التي كانت زوجة عمي تتحدثُ عنها عندما كنتُ في "أيام التزيّن بدبابيس الشعر". ولم أكن أستوعبُ فعلاً سعادة زهرة الثلج مع زوجها. ولكن مهما كان جهلي عميقاً، فقد كنتُ أعرفُ شيئاً واحداً، وهو أنه لا يمكنُ للمرء أن ينتهكَ قوانين التلوث دون أن يدفعَ ضريبة كبيرة.

عزيزتي زهرة الزنبق،

لقد وُلدتْ ابنتي ميتة. ورحلتْ دون أن تغرسَ جذورَها في هذا العالم. وهكذا لن تعرفَ شيئاً عن أحزان الحياة. وأمسكُ بقدميها بين يدي. فهي لن تعرفَ آلام ربط القدمين. وألمسُ عينيها. فهما لن تعرفا أبداً ألم فراق بيت أهلها أو رؤية أمها للمرة الأخيرة أو توديع طفل ميت. وأضعُ أصابعي على قلبها. فهو لن يعرفَ أبداً الألم، والحزن، والوحدة، والخزي. أفكرُ بها في العالم الآخر. هل

أمي معها؟ إنني لا أعرفُ قدرَ أيٍّ منهما.

الجميعُ في عائلتنا يولمني. فتقول حماتي: "لماذا تزوجت إن لم يكن ذلك لتنجبي الأبناء؟" ويقولُ زوجي: "إنك شابة. وستحظين بالمزيد من الأطفال. وفي المرة القادمة ستنجبين لي ابناً".

ليست لديَّ طريقة لأنفسَ عن حزني. ليس لديَّ أحدٌ يصغي إليَّ. وأتمنى لو أسمعكِ تصعدين الدرج.

أتخيلُ نفسي كطير. فأحلقُ إلى الغيوم. ويصبحُ العالم تحتي بعيداً جداً.

إن قطعة حجر اليشب التي ارتديتها حول عنقي لتحمي طفلتي تثقلُ عليَّ. ولا أستطيعُ التوقف عن التفكير بطفلتي الميتة.

زهرة الثلج

كانت حالاتُ الإجهاض غير المتعمد شائعةً في مقاطعتنا. ولم يكنْ يُفترَضُ بالنساء أن يأبهن إذا تعرضن لإجهاض وخاصة إذا كان المولود طفلة. وكانت ولادة جنين ميت لتكون رهيبة فقط إن كان الطفل صبياً. وإذا كان المولود الميت طفلة عادة ما يكون الوالدان شاكرين. فلا أحد يحتاجُ فماً آخرَ عديم القيمة لإطعامه. وبالنسبة إليَّ، رغم أنني كنتُ خائفة بشدة عندما كنتُ حاملاً من أن يحدثَ شيءٌ لطفلي، فلم أكنْ أعرفُ صراحةً كيف كنتُ لأشعرَ لو كان طفلي فتاة وماتت قبل أن تتنفسَ هواء هذا العالم. وما أحاولُ قولَه هو أنني كنتُ محتارة من الطريقة التي كانت زهرة الثلج تشعرُ بها.

كنتُ قد رجوتُها أن تقولَ لي الحقيقة. ولكنني الآن بعد أن أخبرتْني بها لم أعرف كيف أجيبُها. فأردتُ أن أجيبَ بتعاطف، وأردتُ أن أمنحها الراحة

والعزاء. ولكنني كنتُ خائفةً عليها ولم أعرفْ ما أكتب. فكلُّ شيء حدثَ في حياة زهرة الثلج، كحقيقة طفولتها وزواجها المريع والآن هذا، كان يتجاوزُ إدراكي. وكنتُ للتو قد بلغتُ الحادية والعشرين من عمري. ولم أكنْ قَطُّ قد عشتُ بؤساً حقيقياً في حياتي، وكانت حياتي طيبة. فتركَني هذان الشيئان أشعرُ بالقليل من التعاطف.

بحثتُ في ذهني عن الكلمات المناسبة لأكتبَها لصديقتي التي كنتُ أحبها. ومما كان سبباً في خزيي، فقد تركتُ التقاليد التي نشأتُ عليها تغلفُ قلبي كما فعلتُ ذلك اليوم في المِحفَّة. وعندما أمسكتُ بالريشةُ، لجأتُ للأمان الذي كنتُ أشعرُ به نحو الأسطر التقليدية التي تلائمُ امرأةً متزوجة على أمل أن يذكِّرَ هذا زهرة الثلج أن حمايتنا الوحيدة كنساء كانت عبارةً عن الوجه الهادئ الذي كنا نظهرُ به حتى في لحظات الكآبة الشديدة كتلك. لقد كان عليها أن تحملَ مجدداً وسريعاً لأنَّ واجبَ النساء جميعاً هو أن يستمررن بالمحاولة لينجبن الأبناء.

عزيزتي زهرة الثلج،

إنني أجلسُ في حجرة الطابق العلوي أفكّرُ بعمق.

وأكتبُ لأخففَ عنك.

من فضلك، أصغي إليَّ.

يا عزيزتي، هدئي قلبك.

فكّري بي بجانبك ويدي على يدك.

وتخيليني أبكي بجانبك.

إن دموعنا تشكَّلُ أربعة أنهار تجري إلى الأبد.
واعلمي هذا. إن حزنك عميقٌ،
ولكنكِ لستِ وحيدة. فلا تحزني.
إنَّ هذا مقدَّرٌ كما أن الغنى والفقر مقدَّران.
والكثيرُ من الأطفال يموتون.
وهذا يحطِّمُ قلبَ الأم.
ولا يمكننا أن نتحكَّمَ بهذا.
بل يمكننا فقط أن نحاولَ ثانية.
وفي المرة التالية... أرجو أن يكونَ ابناً...
زهرة الزنبق

مضتْ سنتان تعلَّم ولدانا خلالهما المشي والكلام. وقد فعلَ ابنُ زهرة الثلج هذه الأمور أولاً. وكان ينبغي له أن يفعلَ ذلك. فقد كان أكبرَ بستة أسابيع، ولكنَّ ساقيه لم تكونا قويتين كساقي ابني. وقد لازمَه هزاله. وكان يبدو هزيلاً في شخصيته أيضاً. ولا يعني هذا أنه لم يكن ذكياً. بل كان ذكياً جداً، ولكنه لم يكنْ ذكياً بقدر ذكاء ابني. فبحلول سن الثالثة من عمر ابني، كان يريدُ أن يمسكَ بريشة الكتابة. وكان مذهلاً، ومحبوباً في غرفة الطابق العلوي. وحتى المحظيات كن يمطرنَه بالانتباه ويتشاجرن من أجله كما كن يفعلن على قطع الحرير الجديدة.

بعد مرور ثلاث سنوات على ولادة ابني الأول، وُلدَ ابني الثاني. ولم يكن حظُ زهرة الثلج مشابهاً لحظي الجيد. فربما كانت تستمتعُ بقضاء الوقت مع

زوجها، ولكن ذلك كان بلا نتيجة باستثناء ابنة ميتة أخرى. وبعد هذه الخسارة، نصحتُها بالذهاب إلى طبيب أعشاب محلي ليدبِّرَ لها بعض الأعشاب التي كانت ستساعدُها على الحملِ بابن وستزيدُ من قوة زوجها. وبفضل نصيحتي، استفادتْ زهرةِ الثلج وزوجُها بطرقٍ عديدة، كما أعلمتْني.

الفرح والحزن

عندما بلغَ ابني الخامسةَ من عمره، بدأ زوجي يتحدثُ عن إحضار معلِّم متنقِّل ليبدأ تعليمَ ولدنا الرسمي. ولأننا كنا نعيشُ في بيت أهل زوجي، ولم نكنْ نملكُ مصادرَ مالية خاصة بنا، فقد كان علينا أن نطلبَ منهم أن يتحملوا التكلفة. وقد كان ينبغي عليَّ أن أخجلَ من رغبات زوجي، ولكنني لم أندمْ قَطُّ أنني لم أفعل ذلك. ومن جهتهم، لم يكن أهل زوجي ليكونوا أكثرَ سروراً من اليوم الذي كان المعلم سينتقلُ فيه إلى البيت وكان ابني سيغادرُ حجرة الطابق العلوي. وقد بكيتُ لرؤيته يغادرُ، ولكنَّ تلك كانت إحدى أكثر اللحظات فخراً في حياتي. وقد كنتُ آملُ في سرّي أنه ربما يوماً ما كان سيخضعُ للامتحانات الإمبراطورية. وقد كنتُ مجرد امرأة، ولكنني كنتُ أعرفُ أن تلك الامتحانات كانت تمنحُ خطوة للأعلى نحو حياة أرقى حتى لأفقر العلماء من أكثر الظروف بؤساً. ورغم ذلك، فقد تركَني غيابه في حجرة الطابق العلوي في فراغ كبير لم يملأه سلوك ابني الثاني المسلي، أو تذمر المحظيات، أو شجار زوجات إخوة زوجي، أو حتى الزيارات الدورية مع زهرة الثلج. ولحسن الحظ، فقد وجدتُ نفسي في الشهر الأول من السنة القمرية حاملاً مجدداً.

كانت حجرةُ الطابق العلوي بحلول ذلك الوقت مزدحمة جداً. فكانت الكنة الثالثة قد انتقلتْ إلى البيت، وأنجبتْ ابنة. وتبعتْها الكنة الرابعة التي كانت شكواها تزعجُ الجميع. وأنجبتْ هي أيضاً ابنة. وقد زادتْ حماتي من قسوتها بشكل خاص على الكنة الرابعة التي فقدتْ لاحقاً ابنين لها أثناء الولادة. لذا، فمن العدالة أن أقولَ إن النساء الأخريات في العائلة قد استقبلنَ خبرَ حملي

بالحسد. ولم يكنْ شيء يثيرُ الرعب في حجرة الطابق العلوي أكثر من حيض إحدى الزوجات. فكان الجميعُ يعرف ويتحدثُ عن الأمر. وكانت السيدة "لو" تشيرُ إلى تلك المناسبات وتسبُ بصوت مرتفع المرأة موضوع الحديث على مسمعٍ منا جميعاً قائلة: "إنَّ الزوجة التي لا تنجبُ ابناً يمكنُ دائماً استبدالُها". وكان ذلك يحدثُ رغم أنها كانت تكرهُ محظيات زوجها من كلِّ قلبها. أما الآن وأنا أنظرُ في أنحاء حجرة النساء، أرى الغيرة والاستياء المكبوتين. ولكن ماذا كان يسعُ النساء الأخريات سوى أن ينتظرن ويرين إن كنتُ سألدُ ابناً آخر؟ على أية حال، فقد شعرتُ بتغير في شعوري. وكنتُ أريدُ ابنة، ولكنَّ ذلك كان لسبب عملي. فقد كان ابني الثاني سيغادرُ إلى عالم الرجال عما قريب بينما لا تغادرُ البناتُ أمهاتهن حتى يتزوجن. وقد توهَّج طموحي السري بعد سماعي الخبرَ أن زهرة الثلج كانت حاملاً أيضاً. ولا يسعني أن أقولَ كم كنتُ أتمنى لها أن تنجبَ ابنة.

كانت فرصتُنا الأولى والأفضل لنلتقي ونتشاركَ بتطلعاتنا وتوقعاتنا قد سنحتْ لنا مع قدوم مهرجان "التذوق" في اليوم السادس من الشهر السادس. وكنتُ أعلمُ بعد خمس سنوات من العيش مع عائلة "لو" أن حماتي لم تكن قد تراجعتْ عن موقفها من زهرة الثلج. وكنتُ أشكُّ أنها كانت مدركةً أننا كنا نلقى بعضنا البعض أثناء الاحتفالات. ولكن لأنني لم أكنْ أظهرُ صداقتها، وكنتُ أحافظُ على واجباتي المنزلية، فقد تجاهلتْ حماتي الموضوع.

وكما كان الأمر دائماً، وجدتُ وزهرة الثلج السعادة في حجرة الطابق العلوي في بيت أهلي. ولكنَّ ألفتنا القديمة لم تعدْ لسابق عهدها بوجود أطفالنا معنا

في السرير أو في مهادهم حولنا. ومع ذلك، فقد تحدثنا هامستين معاً. واعترفتُ لها أنني كنتُ أتوقُ لابنةٍ تصبحُ رفيقةً لي. فمسدتْ زهرة الثلج بطنها وذكَّرتني بصوتٍ منخفضٍ أن البنات لسن سوى فروعٍ عديمة القيمة غير قادرة على أن تحملَ أسماء عائلات آبائهن.

فقلت: "لن تكونا عديمتي القيمة بالنسبة لنا. ألا نستطيعُ أن نجعلَهما رفيقتين من نفس العمر الآن قبل أن تُولدا؟"

جلستْ زهرة الثلج. واستطعتُ أن أرى وجهها في ضوء القمر. وقالت: "إننا عديمات القيمة، يا زهرة الزنبق. وأنتِ تعلمين هذا، أليس كذلك؟"

فصححتُ كلامَها قائلة: "إن النساءَ هن أمهاتُ الأبناء". وكان هذا قد ضمنَ مكاني في بيت زوجي. وبالتأكيد فقد ضمنَ ابنُ زهرة الثلج مكانها أيضاً.

"أعلمُ أنهن أمهاتُ الأبناء، ولكن..".

"لذا، ستكون ابنتانا رفيقتينا".

"لقد سبقَ وفقدتُ ابنتين..".

"ألا تريدين لابنتينا أن تكونا رفيقتين من نفس العمر، يا زهرة الثلج؟"

فنظرتْ إليَّ بابتسامة حزينة، وقالت: "بالطبع فإذا أنجبنا ابنتين فستحتفظان بمحبتنا لبعضنا البعض حتى بعد أن نذهبَ إلى العالم الآخر".

"حسناً، اتفقنا. والآن، تمددي إلى جانبي، ولا تقطبي حاجبيكِ. إنَّ هذه لحظة سعيدة. فدعينا نكونُ سعيدتين معاً".

عدنا إلى قرية "بوواي" مع ابنتينا المولودتين حديثاً في الربيع التالي. ولم يكنْ يوما ميلادهما متوافقين. ولم يكن شهرا ميلادهما متوافقين أيضاً. وقد

خلعنا قماطيهما وحملنا أقدامهما حتى أصبحَ أخمصا أقدامهما متقابلين. وحتى كطفلتين، لم يكنْ قياسُ أقدامهما متساوياً. وربما كنتُ لأنظرَ إلى ابنتي، واسمها "حجر اليشب" بعيني الأم، ولكنني استطعتُ أن أرى أن ابنة زهرة الثلج، واسمها قمرُ الربيع كانت جميلة مقارنة بابنتي. فقد كانت بشرة حجر اليشب داكنةً فوق الحدّ بالنسبة لعائلة "لو" بينما كانت بشرة قمر الربيع تشبه لبَّ خوخة بيضاء. وكنتُ آملُ أن تكون حجر اليشب قوية كالحجر الذي سُميتْ تيمناً به، وكنتُ أتمنى أن تكونَ قمر الربيع أقوى من ابنة عمي التي كانت زهرة الثلج تبجلُها باسم ابنتها. وهكذا، لم تكنْ أيٌّ من صفاتهما الثماني متوافقة، ولكننا لم نكنْ نأبه بذلك. فكنا نريدُ الفتاتين أن تصبحا رفيقتين.

فتحنا مروحتنا، ونظرنا إلى حياتنا معاً. وكان الكثيرُ من السعادة قد سُجلَ عليها، كرباط صداقتنا، وزواجنا، وولادة ابنينا، وولادة ابنتينا، ورباط صداقتهما المستقبلي. وكتبتُ عليها: "يوماً ما ستلتقي فتاتان وتصبحان رفيقتين، وستكونان كزوج من البجع. وستجلسُ رفيقتان أخريان وقلباهما مبتهجان معاً على جسر لتراقباهما وهما تحلّقان". وفوق على قمة الإكليل، رسمتْ زهرة الثلج جناحين صغيرين يطيران نحو القمر. وكان هناك طيران آخران معششان بجانب بعضهما البعض ينظران نحو الأعلى.

عندما انتهينا، جلسنا معاً، ونحن نحتضنُ ابنتينا. وقد شعرتُ بالكثير من الفرح. ومع ذلك، فلم أستطع أن أتوقفَ عن التفكير أننا بتجاهل القواعد التي تحكمُ ارتباطَ الصداقة بين فتاتين كنا نرتكبُ أمراً محرماً.

بعد مرور سنتين، أرسلتْ زهرة الثلج رسالة لي تعلنُ فيها أنها أخيراً قد

أنجبتْ ابناً ثانياً. فكانت شديدة البهجة، وكنتُ أنا كذلك، معتقدةً أن مكانتها كان سترتفعُ في بيت زوجها. ولكن بالكاد كان لدينا وقتٌ لنبتهجَ لأنه بعد ثلاثة أيام فقط تلقت بلادُنا أخباراً حزينة. فقد رحلَ الإمبراطور "داوغوانغ" إلى العالم الآخر. وسادَ الحدادُ بلادنا. وأصبحَ ابنُه، "شيافينغ" الإمبراطور الجديد.

كنتُ قد تعلمتُ من تجربة عائلة زهرة الثلج المريرة أنه عندما يموتُ إمبراطورٌ ما فإن حاشيتَه تصبحُ خارجَ الحظوة بحيثُ إنه مع كل تغيير إمبراطوري يحدثُ اضطرابٌ وفوضى ليس في القصر وحسب ولكن في أنحاء البلاد. وعندما ناقشَ حماي، وزوجي، وإخوتُه على العشاء ما كان يحدثُ خارجَ "تونغكو"، استوعبتُ فقط ما لم أستطعْ أن أتجاهلَه. فقد كانت الثوراتُ تسببُ الفوضى في مكان ما، وكان مالكو الأراضي يلحّون طلباً لأجرة أعلى من مستأجريهم المزارعين. فشعرتُ بشعور أناس، كأولئك في عائلة أهلي، الذين كانوا سيعانون. ولكن تلك الأمور كانت تبدو فعلاً بعيدةً عن الرفاهية التي كانت تعيشُها عائلة "لو".

ثم فقدَ العم "لو" منصبَه، وعادَ إلى قرية "تونغكو". وعندما خطا خارجاً من مِحفَّتِه، انحنينا جميعاً له، ووضعنا رؤوسنا على الأرض. وعندما طلبَ منا أن ننهضَ، رأيتُ رجلاً عجوزاً يرتدي ملابسَ حريرية، وكانت له شامتان على وجهه، وقد كان جميعُ الناس يعتزون بالشعر الذي ينمو على شاماتهم. ولكنَّ شعرَ شامتي العم "لو" كان مذهلاً. فقد كان له على الأقل عشر شعرات تنمو من كل شامة، وكانت طبيعتُها خشنة، ولونها أبيض، وطولها ثلاثة سنتمترات. وعندما تعرفتُ عليه أكثر، رأيتُ أنه كان يحبُّ أن يعبثَ بتلك الشعرات،

فيسحبها قليلاً ليحثها على النمو أكثر.

نظرتْ عيناه الذكيتان من وجه إلى وجه قبل أن تستقرا على ابني الأكبر. وقد أصبحَ عمرُ ابني ثماني سنوات الآن. فمدَّ العم "لو" الذي كان ينبغي عليه أن يحيي أخاه أولاً يداً معروقةً ووضعَها على كتف ابني. وقال بصوت يرنُّ بالمعرفة، ولكنّ نبرتَه اختلفت بعد العيش في العاصمة لسنوات عديدة: "اقرأ ألفَ كتاب وستتدفقُ كلماتُكَ كالنهر. والآن، أيها الصغير، أرني الطريقَ إلى البيت". وبهذا، أمسكَ أكثرُ الرجال احتراماً في العائلة يدَ ابني، وعبرا بوابة القرية معاً.

مرّت سنتان أخريان. وكنتُ مؤخراً قد أنجبتُ ابناً ثالثاً. وكنا جميعاً نعملُ بجدّ لنبقي الأمور على حالها الذي كانت عليه. ولكنَّ أي شخص كان يستطيعُ أن يرى أنه بين خسارة العم "لو" للحظوة والثورة وارتفاع الأجرة، لم تبقَ الحياة على نفس الحال. فقد بدأ حماي يقللُ من استهلاك التبغ، وبدأ زوجي يقضي أياماً أطول في الحقول. حتى أنه كان أحياناً يتناولُ الأدوات بنفسه، وينضمُ للمزارعين في عملهم. وغادرَ المعلمُ الخصوصي. فتولى العمُ "لو" دروسَ ابني الأكبر بنفسه. أما في حجرة الطابق العلوي، فقد ازداد الشجارُ بين الزوجات والمحظيات لأن الهدايا المعتادة من الحرير وخيوط التطريز قد تضاءلت.

عندما التقيتُ بزهرة الثلج في بيت أهلي في تلك السنة، كنتُ بالكاد أقضي أي وقتٍ مع عائلتي. وقد كنا نتناولُ وجباتنا معاً، ونجلسُ خارجاً في الليالي كما كنا نفعلُ عندما كنتُ فتاة صغيرة. ولكنَّ أمي وأبي لم يكونا السبب في أنني زرتُ البيت، فقد كنتُ أريدُ أن أرى زهرة الثلج. وكنا قد بلغنا الثلاثين من

عمرنا، وكنا رفيقتين لمدة ثلاث وعشرين سنة. وقد كان من الصعب أن نصدقَ أن هذا الوقتَ الكثير قد مضى، ومن الأصعب حتى أن نصدقَ أننا كنا مقربتين منذ ذلك الوقت. لقد كنتُ أحبُّ زهرة الثلج كرفيقة لي، ولكنّ أيامي كانت مليئة بالأطفال والأعمال المنزلية. فقد كنتُ حينئذٍ أماً لثلاثة أبناء وابنة، بينما كان لها ابنان وابنة. وكانت بيننا علاقة صداقة كنا نعتقدُ أنها لن تنفصلَ أبداً، ولكنَّ عاطفة محبتنا قد خبت. ولم نكن قلقتين بشأن هذا لأن كلَّ الصداقات العميقة يجبُ عليها أن تصمدُ أمام الحقائق العملية لأيام "الأرز والملح". وكنا نعلم أننا عندما نبلغ أيام "الجلوس بهدوء" سنكونُ معاً مجدداً على طريقتنا القديمة. أما الآن، فكلُّ ما كان يسعُنا أن نفعَله هو أن نتشاركَ قدرَ الإمكان في حياتنا اليومية.

في عائلة زهرة الثلج، تزوجت آخرُ أخوات زوجها، مما أزالَ الأعمالَ التي كانت في السابق بحاجة لتقومَ بها من أجلهن. وكان حماها قد تُوفي أيضاً. فقد كان أحدُ الخنازير التي كان يذبحُها قد تلوَّى بقوة شديدة في اللحظة الأخيرة بحيث إن السكين قد انزلقت من يده وقطَعت يدَه إلى العظم. فنزفَ حتى الموت على عتبة منزل العائلة كما فعلتِ الكثيرُ من الخنازير. وقد أصبحَ زوجُ زهرة الثلج هو السيد الآن رغم أنه كان إلى حدٍّ كبير تحت سيطرة أمه كما كان جميعُ من كانوا يعيشون تحت سقف ذلك البيت. ولعلم حماة زهرة الثلج أنه لم يكن لديها شيء أو أحد من عائلتها، فقد ضاعفت إزعاجَها، بينما كان زوجُها يقللُ من حمايتِه ضد لها. ومع ذلك، فقد كانت زهرة الثلج تجدُ الفرحَ مع ابنها الثاني الذي سبقَ ونما من الطفل الرضيع ليصبحَ طفلاً نشيطاً في أول مشيه.

وكان الجميعُ يحبون هذا الطفل معتقدين أن الابن الأول لم يكنْ سيبلغُ عيد ميلاده العاشر ناهيك عن سن العشرين.

رغم أن ظروف زهرة الثلج لم تكنْ جيدة كظروفي إلا أنها كانت تنتبهُ وتصغي بشكل أعمق مما كنتُ أفعل. وكان ينبغي عليَّ أن أتوقعَ هذا. إذ لطالما كانت أكثرَ اهتماماً بالعالم الخارجي مما كنتُ. فشرحتْ لي أن الثورات التي كنتُ قد سمعتُ عنها كانت تُدعى ثورة الـ "تايبنغز". وكانت تسعى إلى نظام أكثر انسجاماً. فكانوا يعتقدون، كما يفعلُ الناس من سلالة الـ "ياو"، أن الأرواح والآلهة تتمتعُ بسيطرة على المحاصيل، والصحة، وولادة الأبناء. فكان الـ "تايبنغز" يحرمون الخمر، والأفيون، والقمار، والرقص، والتبغ. وكانوا يقولون إن الملكية ينبغي أن تُؤخذَ من مالكي الأراضي، الذين كانوا يملكون 90 بالمائة من الأرض ويتلقون 70 بالمائة من المحاصيل، وإن أولئك الذين كانوا يعملون في الأراضي ينبغي أن يتشاركوا معهم بالأرض بالتساوي. وكان مئاتُ الآلاف من الناس في إقليمنا قد تركوا بيوتهم لينضموا للـ "تايبنغز". فكانوا يستولون على القرى والمدن. وتحدثتْ عن قائدهم، الذي كان يعتقدُ أنه ابن إله شهير، وعن شيء كان يدعوه "مملكته السماوية"، وعن كرهه للأجانب والفساد السياسي. ولم أفهمْ ما كانت زهرة الثلج تحاولُ أن تقولَه لي. فقد كان الأجنبيُ بالنسبة لي هو الشخص من مقاطعة أخرى. وكنتُ أعيشُ ضمن الجدران الأربعة لحجرة الطابق العلوي، ولكنَّ زهرة الثلج كانت تتمتعُ بعقل يحلّقُ إلى أماكنَ بعيدة، فينظرُ ويسعى ويتساءل.

عندما عدتُ إلى البيت، سألتُ زوجي عن الـ "تايبنغز". فأجاب قائلاً: "ينبغي

على الزوجة أن تهتمَ بأطفالها وبإسعاد عائلتها. وإذا كان أهلك يزعجونك هكذا فلن أعطيك الإذن لزيارتهم في المرة القادمة".

فلم أتفوّهْ بكلمة أخرى عن العالم الخارجي.

جعلَ شحُّ المطر وما فعلَه للمحاصيل الجميعَ في قرية "تونغكو" جياعاً من أدنى ابنة رابعة لأحد المزارعين إلى العم "لو" الموقر. ومع ذلك، فلم أقلق حتى رأيتُ غرفة مخزوننا تبدأُ بالتناقص. وسرعان ما كانت حماتي تضبطنا بشأن الشاي المُراق أو بشأن النار الكبيرة في الموقد. وكان حماي يمسكُ عن تناول الكثير من اللحم من الطبق الرئيسي مفضلاً أن يتناولَ حفيدُه هذا الطعام الغالي أولاً. أما العم "لو" الذي كان يعيشُ في القصر سابقاً فلم يتذمرْ كما كان من الممكن له أن يفعل، ولكنه بعد أن اتضحت حقيقة ظروفنا أصبحَ أكثرَ تطلباً من ابني آملاً أنَّ هذا الصبي الصغير قد يصبحُ ممرَ عودة العائلة نحو ظروف أفضل.

كان هذا يشكلُ تحدياً لزوجي. فعندما كنا في الفراش ليلاً وخُفِّضتْ الأنوار، أفضى إليَّ قائلاً: "إن العمَّ "لو" يرى شيئاً هاماً في ابننا. وأنا سعيدٌ أنه قد تولى أمر دروس الصبي، ولكنني الآن أنظرُ إلى المستقبل، وأرى أنه قد يتوجبُ علينا أن نرسلَه بعيداً ليتابعَ دراساته. وكيف نفعلُ ذلك في الوقت الذي تعرفُ فيه المقاطعة بأكملها أننا سرعان ما سيكونُ علينا أن نبيعَ الحقول لنسد رمقنا؟" وأخذَ زوجي يدي في الظلام، وقال: "لديَّ فكرةٌ، يا زهرة الزنبق، ويعتقدُ والدي أنها فكرةٌ جيدة، ولكنني قلقٌ عليك وعلى أبنائنا".

فانتظرتُ وأنا خائفةٌ مما كان سيقولُه تالياً.

تابعَ كلامَه قائلاً: "إن الناسَ يحتاجون إلى أشياء محددة ليعيشوا. إن الهواء، والشمس، والماء، وحطب الموقد كلها مجانية إن لم نقلْ إنها وافرةٌ دائماً. ولكن الملح ليس مجانياً، والجميعُ يحتاجون الملح ليعيشوا".

شددتُ يدي على يده. أين كان هذا يقودهُ؟

قال: "لقد سألتُ والدي إن كان يمكنني أن آخذَ آخرَ مدخراتنا وأسافرَ إلى إقليم" غويلين" وأشتريَ الملح ثم أعودَ به إلى هنا لأبيعَه. وقد منحني إذنه".

كانت هناك مخاطرُ أكثرُ من أن أستطيعَ أن أعددَها. وكان "غويلين" هو الإقليم المجاور لنا. وكان على زوجي ليصلَ إلى هناك أن يعبرَ إقليماً يحتلُه الثوار. وأولئك الذين لم يكونوا ثواراً كانوا مزارعين يائسين فقدوا بيوتهم وتحولوا إلى عصابات تسرقُ من أولئك الذين يتجرؤون على السفر في الطرق. وكان عملُ الملح بحدّ ذاته خطراً، وهو السببُ الوحيد في أن مخزونه كان دائماً قليلاً. وكان الرجالُ الذين يتحكمون بالملح في إقليمنا يملكون جيوشهم الخاصة، ولكن زوجي كان مجرد رجل واحد. ولم تكنْ لديه خبرة بالتعامل مع أيٍّ من سادة الحرب أو التجار المخادعين. وإذا لم يكنْ هذا كافياً، فقد تخيلَ عقلي الأنثوي أن زوجي كان سيصادفُ الكثيرَ من النساء الجميلات في إقليم "غويلين". فإذا نجحَ في مغامرته فقد يحضرُ واحدة أو أكثر منهن إلى البيت كمحظيات. فخرجَ ضعفي كامرأة من فمي أولاً.

توسلتُ إليه مستخدمة تعبيراً ملطَّفاً لنوعيات النساء اللواتي قد يقابلهن، وقلت: "لا تقطف الزهور البرية".

طمأنني قائلاً: "إن قيمة المرأة هي في فضيلتها وليست في وجهها. فأنت قد

منحتني الأبناء. سيسافرُ جسمي مسافة بعيدة، ولكنَّ عيني لن تنظرَ إلى ما لا ينبغي عليها أن تراه". وتوقف قليلاً، ثم أضاف: "ابقي مخلصة، وابتعدي عن الإغراء، وأطيعي أمي، واخدمي أبناءنا".

فوعدتُه قائلة: "إنني لن أفعلَ أقلَ من ذلك، ولكنني لستُ قلقةً على نفسي".

حاولتُ أن أخبرَه عن مخاوفي الأخرى، ولكنه أجابني قائلاً: "هل نتوقفُ عن العيش لأن بعض الناس تعساء؟ يجبُ أن نستمرَ باستخدام طرقنا وأنهارنا. فهي كلُّها ملك للشعب الصيني".

وقال لي إنه قد يغيبُ لمدة سنة.

منذ اللحظة التي غادرَ فيها زوجي، بدأتُ أشعرُ بالقلق. وبينما مرّت الأشهر، كنتُ أزداد قلقاً وخوفاً. ماذا كان ليحدثَ لي إن أصابَه شيء ما؟ لقد كنتُ كأرملة لأحظى بخيارات قليلة جداً. ولأن أطفالي كانوا صغاراً جداً ليعتنوا بي فقد كان يمكنُ لحماي أن يبيعني لرجل آخر. ولمعرفتي أنني في ظل ظروف كتلك لم أكنْ لأتمكنَ من رؤية أطفالي مجدداً أدركتُ لماذا كانت الكثيرُ من الأرامل يقتلن أنفسهن. ولكنَّ البكاء ليلاً ونهاراً والتفكيرَ بالاحتمالات لم يكن سيمنحني مخرجاً من أزمتي. فحاولتُ أن أحافظَ على مظهر هادئ في غرفة الطابق العلوي حتى بينما كنتُ أتألمُ من أجل سلامة زوجي.

ولأنني كنتُ أتوقُ لمنظر ابني الأكبر ليخففَ عني، فقد فعلتُ شيئاً لم أفعلْه من قبل. فتطوعتُ مرات عديدة في اليوم لأحضرَ الشاي للنساء في حجرة الطابق العلوي. وعندما كنتُ في الطابق السفلي في إحدى المرات، جلستُ بهدوء على مرمى السمع من دروسه مع العم "لو".

كان ابني يقول: "إن القوى الثلاث الأكثر أهمية هي السماء، والأرض، والإنسان. والأجسام النيرة الثلاثة هي الشمس، والقمر، والنجوم. وإنَّ الفرصَ التي تمنحُها السماء لا تُضاهي الفوائد التي تعطيها الأرض في حين أن فوائدَ الأرض لا تضاهي البركة التي تأتي من الانسجام بين بني الإنسان".

كان العم "لو" حاداً في تأديبه، فقال: "أيُّ صبي يستطيعُ أن يحفظَ الكلمات، ولكن ماذا تعني؟"

هل تعتقدون أنه كان يمكنُ لابني أن يجيبَ إجابة خاطئة؟ كلا، ولكنني سأذكرُ السبب. إذا لم يجب بشكل صحيح عن أحد الأسئلة أو إذا ارتكبَ خطأ في إلقائه كان العم "لو" ليضربَه على راحة يده المفتوحة بعصا من خشب الخيزران. وإذا أخطأ في المرة التالية تكونُ العقوبة مضاعفة.

أجابَ ابني: "إن السماء تمنحُ الإنسان الطقسَ، ولكنه عديم القيمة دون تربة الأرض الخصبة. والتربةُ الخصبة هي عديمة الفائدة بدون الانسجام بين الرجال".

ابتسمتُ بابتهاج وفخر من الزاوية الظليلة التي كنتُ أجلسُ فيها، ولكنَّ العم "لو" لم يختتم درسَه بسبب إجابة صحيحة واحدة.

"جيدٌ جداً. والآن، لنتحدث عن الإمبراطورية. إذا قوينا العائلة واتبعنا القواعد المكتوبة في كتاب الطقوس، عندئذٍ سيعمُّ النظام في العائلة. فينتشرُ هذا من عائلة إلى أخرى، ويبني أمانَ الدولة حتى يصلَ ذلك إلى الإمبراطور. ولكنَّ ثورةً تولِّدُ ثورة أخرى، وسرعان ما يحدثُ اضطراب. انتبه، أيها الصغير، إن عائلتنا تملكُ الأرض. وكان جدُّك يديرها بينما كنتُ أنا غائباً، ولكنَّ الناس الآن

يعرفون أنني لم أعد أتمتعُ بمنصب في البلاط بعد الآن. فهم يرون ويسمعون عن الثوار. لذا، يجبُ علينا أن نكون حذرين جداً جداً".

لكنَّ الشيء المروع الذي كان خائفاً منه لم يصل بصورة الـ "تايبنغز". وكان الشيءُ الأخيرُ الذي سمعتُ عنه قبل أن تهبطَ أرواحُ الموت علينا هو أن زهرة الثلج كانت حاملاً مجدداً. فطرزتُ لها منديلاً، متمنيةً لها الصحة والسعادة في الأشهر التالية، ثم زينتُه بأسماك فضية تقفزُ من جدول أزرق فاتح معتقدة أن هذه كانت ألطفَ وأبردَ صورة كان بإمكاني أن أصنعَها لامرأة ستكونُ حاملاً أثناء فصل الصيف.

في ذلك العام، حلَّ موسم الحرارة الشديد باكراً. وكان الوقتُ مبكراً جداً لنذهبَ إلى بيوت أهالينا. لذا، فقد كنا نحن النساء والأطفال ذابلين في حجرة الطابق العلوي ونحن ننتظرُ وننتظر. وعندما استمرت درجةُ الحرارة بالارتفاع، أخذَ الرجالُ في قرية "تونغكو" والقرى المحيطة بها الأطفال إلى النهر ليخوضوا في الماء ويسبحوا. وكان هذا هو نفس النهر الذي كنتُ أبردُ فيه قدمي عندما كنتُ فتاة صغيرة. لذا، فقد كنتُ مبتهجة عندما عرضَ حماي وإخوة زوجي أن يعاملوا الأطفال بتلك الطريقة. ولكنه كان أيضاً نفس النهر حيث كانت الفتياتُ ذوات الأقدام الكبيرة يقمن بالغسيل ونقل الماء من أجل الشرب والطهو لأن آبار القرية فسدتْ بسبب يرقات الحشرات.

حدثت أول إصابة بالتيفوئيد في أفضل قرية في المقاطعة، قرية "تونغكو". فأصابتْ الابن الأول العزيز لأحد مستأجرينا المزارعين ثم انتشرَ المرضُ في أنحاء العائلة متسبباً بمقتل الجميع. وكان المرضُ يبدأ كحمى، ثم يتبعُها

صداع شديد، ثم غثيان في المعدة. وأحياناً كان يتلوه سعالٌ ناشف وطفحٌ جلدي ذو بقع زهرية اللون. ولكن حالما يبدأ الإسهالُ، يبقى الأمرُ مجرد ساعات قبل أن يصبحَ الموتُ نهاية رحيمة. وحالما كنا نسمعُ أن أحدَ الأطفال قد مرض، كنا نعرفُ ما كان سيحدثُ تالياً. فكان الطفلُ أولاً يموت، ثم يتبعُه الإخوة والأخوات الآخرون ثم الأم ثم الأب. وكان ذلك نمطاً كنا نسمعُه مراراً وتكراراً لأن الأم لا تستطيعُ أن تديرَ ظهرها لطفل مريض والزوجُ لا يستطيعُ أن يهجرَ زوجةً تحتضر. وسرعان ما كانت كل قرية تُعاني من حالات المرض.

انسحبتْ عائلة "لو" من حياة القرية، وأغلقتْ أبوابها، واختفى الخدم. فربما أرسلَهم حماي بعيداً، وربما هربوا من الخوف. ومازلتُ حتى هذا اليوم لا أعرف السبب. وقد جمعتْ نساءُ العائلة الأطفالَ في حجرة الطابق العلوي معتقداتٍ أننا كنا سنصبحُ أكثرَ أماناً هناك. وكان ابن الكنة الثالثة هو أولَ من ظهرت عليه الأعراض. فأصبحتْ جبهتُه جافة وحارة، وتوهجَ خداه باللون الوردي الداكن. وقد رأيتُ هذه الأعراض فأخذتُ أطفالي إلى حجرة نومي، واستدعيتُ ابني الأكبر. وقد كان ينبغي عليَّ في غيابِ زوجي أن أستسلمَ لرغبته بالبقاء مع عمه وبقية الرجال، ولكنني لم أمنحه أي خيار.

فقلتُ لأطفالي: "أنا فقط من ستغادرُ هذه الغرفة. وسيكونُ الأخ الأكبر مسؤولاً عنكم عندما لا أكونُ هنا. ويجبُ عليكم أن تطيعوه بكل الأحوال".

كنتُ في كل يوم أثناء هذا الموسم الرهيب أغادرُ الغرفة مرة واحدة صباحاً ومرة واحدة ليلاً، ولمعرفتي بالطريقة التي كان ينتقل فيها المرض من الناس الذي يهاجمهم، كنتُ أخرجُ وعاءَ التبوّل، وأفرغهُ بنفسي مع الحرص ألا يلمسَ

شيءٌ من منطقة تخزين السماد البشري يدي أو قدمي أو ثيابي أو الوعاء. وكنتُ أسحب ماء مالحاً من البئر، وأغليه، ثم أصفيه حتى يصبحَ نقياً ونظيفاً قدر الإمكان. لقد كنتُ خائفة من الطعام، ولكن كان علينا أن نأكل، فلم أعرف ما أفعل، هل كان ينبغي علينا أن نتناولَ الطعام نيئاً من الحديقة مباشرة؟ ولكنني عندما فكّرتُ بالسماد البشري الذي كنا نستخدمُه في حقولنا، وكيف كان المرضُ يخرجُ من الكثير من الأجسام، علمتُ أن ذلك لا يمكنُ أن يكونَ صحيحاً. وعدتُ بذاكرتي إلى الشيء الوحيد الذي كانت أمي تطهوه عندما كنتُ مريضة، وهو عصيدة "الكونجي". فكنتُ أعدُّها مرتين في اليوم.

كنّا بقية الوقت محبوسين في غرفتي. وكنّا أثناء اليوم نسمعُ الناس يجرون ذاهبين وعائدين. أما أثناء الليل، فكانت تصلنا الصيحات المتقطعة للمرضى والصراخ المتألم للأمهات. وكنتُ في الصباح، أضعُ أذني على الباب، وأصغي لأخبار من انتقلَ إلى العالم الآخر. ولعدم وجود أحد يهتمُّ بالمحظيات عدا بعضهن البعض، فقد توفين متألمات ووحيدات باستثناء النساء اللواتي كن يتآمرن عليهن.

سواءٌ أكان الوقتُ ليلاً أم نهاراً كنتُ أقلقُ على زهرة الثلج وعلى زوجي. هل كانت تحاولُ القيام بنفس الإجراءات الوقائية التي كنتُ أقومُ بها؟ هل كانت بخير؟ هل توفيت؟ هل توفيَ ابنها الأول المثير للشفقة؟ هل توفيت كلُّ عائلتها؟ وماذا عن زوجي؟ هل مات في إقليم آخر أو على الطريق؟ وإذا حدثَ شيءٌ لأي منهما فلم أكنْ أعرفُ ما كان بوسعي أن أفعلَه. فشعرتُ أنني مسجونة في خوفي.

كانت لحجرة نومي نافذةٌ واحدةٌ. وكانت مرتفعةً فوق الحدّ بحيثُ لا أتمكنُ من النظر منها. وكانت رائحة الجثث المنتفخة والموبوءة أمام البيوت تخترقُ الهواء المشبع بالرطوبة. فغطينا أنوفنا وأفواهنا، ولكن لم يكن هناك أي منفذ، بل كانت هناك فقط تلك الرائحة الفاسدة تلسعُ عيوننا، وتفسدُ ألسنتنا، فسجلتُ في ذهني كل الأعمال التي كان يتوجبُ عليَّ القيامُ بها، وهي: أن أصلي بشكل مستمر للآلهة، وأن ألبسَ الأطفال قماشاً أحمرَ داكناً، وأن أكنسَ الغرفة ثلاث مرات في اليوم لأخيفَ أي أرواح شريرة تبحثُ عن ضحية لها. وقد سجلتُ أيضاً الأشياء التي كان يتوجبُ علينا الامتناعُ عنها، وهي: لا طعامَ مقلي، ولو كان زوجي موجوداً في البيت لكان ممنوعاً علينا قضاءُ الوقت معاً. ولكنه لم يكن في البيت. فلم يكن لديَّ سوى نفسي لأكونَ حذرة.

في أحد الأيام بينما كنتُ أطهو عصيدة الأرز، دخلتْ حماتي إلى المطبخ ومعها دجاجةٌ مذبوحة معلقةٌ من بين أصابعها.

فقالت بفظاظة وهي تخلعُ مفاصل الطير وتقطِّع الثوم: "ليس هناك سببٌ للاحتفاظ بهذه بعد الآن، وسيموتُ أطفالك بدون اللحم والخضار، فأنت تجعلينهم يتضورون جوعاً حتى الموت قبلَ أن يمرضوا".

حدَّقتُ في الدجاجة. فسال لعابي، وأصدرتْ معدتي أصواتاً، ولكنني للمرة الأولى في حياتي الزوجية تظاهرتُ بعدم السمع. ولم أجبْها. بل قمتُ بمجرد صب العصيدة في الأوعية، ووضعتُها على صينية، وتوقفتْ في طريقي إلى غرفتي أمام باب غرفة العم "لو"، فطرقتُ الباب، وتركتُ وعاءً من أجله، لقد كان عليَّ أن أفعلَ ذلك. ألا تدركون السبب؟ إنه لم يكنْ العضو الأكبر سناً

والأكثر احتراماً في العائلة وحسب ولكنه كان معلمَ ابني أيضاً، وكانت الكتبُ التقليدية تخبرُنا في العلاقات بين الناس أن العلاقة بين المعلم والتلميذ تأتي في المرتبة الثانية فقط بعد العلاقة بين الأب والابن.

أوصلتُ الأوعية الأخرى لأطفالي، وعندما اعترضتْ حجر اليشب على عدم وجود الكراث وقطع لحم الخنزير وحتى أية خضار محفوظة، صفعتُها بقوة على وجهها، فكبتَ الأطفال الآخرون شكواهم، بينما عضتْ أختهم شفتها السفلى، وحبست دموعها. ولم أُعِر اهتماماً لأيٍّ من ذلك، بل قمتُ ببساطة بتناول مكنستي، وعدتُ للكنس.

مرّت الأيام، ولم تظهرْ أية أعراض في غرفتنا، ولكنَّ الحرارة كانت قد ارتفعت أكثر مما جعلَ رائحة المرض والموت تزداد سوءاً. وفي مساء أحد الأيام عندما ذهبتُ إلى المطبخ، وجدتُ الكنة الثالثة واقفةً كالشبح في منتصف الغرفة المظلمة وهي ترتدي من رأسها حتى أخمص قدميها ملابس الحداد البيضاء، فخمنتُ من مظهرها أنه لا بد وقد توفي زوجُها وأطفالها، وتسمّرتُ في مكاني من النظرة الفارغة عديمة الروح في عينيها. فلم تتحرك ولم تشعرني أنها قد رأتني على بعد متر واحد فقط أمامها. وكنتُ خائفة جداً بحيث إنني لم أستطع العودة للخلف أو التقدم للأمام. وسمعتُ في الخارج صوت صياح طيور الليل والأنين المنخفض للجاموس. فخطرتْ فكرةٌ غبية ببالي أثناء رعبي، لِمَ لَمْ تكنِ الحيواناتُ تموت؟ أو هل كانت تموت ولم يتبق أحدٌ ليخبرَني بذلك؟

صاحَ صوتٌ قاسٍ ومرير من خلفي قائلاً: "لقد عاشتْ الخنزيرة عديمةُ القيمة!"

فلم ترمشِ الكنة الثالثة بعينيها، ولكنني التفتُّ لأواجهَ مصدرَ الصوت. وكانت تلك حماتي. وكانت دبابيسُ شعرها قد نُزعتْ. فكان شعرُها منسدلاً في خصلات مدهنة (وسخة) حول وجهها. فتابعت قائلة: "ما كان ينبغي علينا أبداً أن ندخلَكِ إلى هذا البيت. إنك تدمرين سلالة عائلة "لو"، أيتها الخنزيرة القذرة الملوثة".

وبصقتْ حماتي في وجه الكنة الثالثة التي لم تكن تتمتعُ بالإرادة لتمسحَ وجهها.

وشتمتها حماتي ووجهها أحمرُ من الغضب والحزن، فقالت: "إنني ألعنكِ. وآملُ أن تموتي. ولكن إذا لم تموتي، سأصلي للآلهة أن تجعلك تعانين، فسيزوِّجُك السيد "لو" خارجَ هذا البيت بحلول الخريف. ولكن لو عادت الأمور لي، فلن تعيشي لتري ضوءَ النهار".

بذلك استدارت حماتي بعيداً، والتي لم تعترف بوجودي لمرة واحدة، وأمسكتْ بالجدار لتدعمَ مشيتها، وخرجتْ مترنحة من الغرفة. فاستدرتُ عائدة إلى زوجة أخ زوجي التي كانت ما يزالُ يبدو عليها الضياع. وكان كلُّ شيء يُشعرُني أن ما كنتُ سأفعلُه خطأ، ولكنني مددتُ يدي، ووضعتُ ذراعي حولها، وأرشدتُها إلى أحد الكراسي، ووضعتُ ماءً لأسخنَه، ثم قمتُ مستخدمةً كل الشجاعة التي استطعتُ استجماعها، وغمستُ قطعة قماش في دلو الماء الفاتر، ومسحتُ وجهها، وألقيتُ بقطعة القماش في الموقد، وراقبتُها وهي تحترق، وحالما غلى الماء، أعددتُ إبريقاً من الشاي، وصببتُ فنجاناً لزوجة شقيق زوجي، ووضعتُه أمامها، فلم تتناوله. لم أعرف أيَّ شيء آخر كان يمكنني أن أفعلَه.

لذا، بدأتُ بإعداد عصيدة "الكونجي" محركةً أسفلَ القِدْر بصبر لكي لا يلتصقَ الأرز أو يحترق.

تمتتِ الكنة الثالثة قائلة: "إنني أجهدُ نفسي لأسمعَ صراخَ أطفالي، وأبحثُ في كل مكان عن زوجي". فالتفتُّ لأواجهها معتقدةً أنها كانت تتحدثُ معي. ولكن كان يبدو على عينيها أنها لم تكن تفعلُ ذلك". ثم قالت: "إذا تزوجتُ مرة أخرى فكيف سيمكنني أن أقابلَ زوجي وأطفالي في العالم الآخر؟"

لم تكنْ لديَّ أية كلمات مواسية لأقولها لها لأنه لم تكنْ هناك أية كلمات لتخفف عنها. ولم تكنْ لها شجرةُ عائلة كبيرة لتحميها ولا جبلٌ مخلصٌ يقفُ خلفها. وقفتْ، ومشت مترنحة على قدميها الصغيرتين، وكانت ضعيفة وكأنها فانوس أرسلَ في مهرجان الفوانيس وكان ينجرفُ بعيداً. فعدتُ لتحريك عصيدتي.

في صباح اليوم التالي عندما نزلتُ إلى الطابق السفلي، بدا الأمرُ وكأن تغييراً قد حدث. كانت "يونغانغ" والخادمات الأخريات قد عدن، وكنَّ ينظفن المطبخ، ويجهزن كومة جديدة من حطب الموقد. وأعلمتني "يونغانغ" أن الكنة الثالثة قد وُجدت ميتة في وقتٍ مبكر من صباح ذلك اليوم. لقد قتلت نفسها بأن ابتلعت محلول القِلْي، وكنتُ غالباً ما أتساءلُ ما كان ليحدثَ لو أنها قد انتظرتْ لبضع ساعات فقط، لأنه بحلول وقت الغداء سقطتْ حماتي مريضة بالحمى، ولا بدَّ أنها كانت مريضةً أصلاً في الليلة الفائتة عندما كانت قاسية جداً.

الآن كان أمامي خيارٌ مريع. لقد كنتُ قد احتفظتُ بأطفالي محميين في

غرفتي، ولكنَّ واجبي كزوجةٍ لزوجي كان موجهاً نحو والديه أولاً فوق الجميع. فلم تكن خدمتهما تعني أن أحضرَ لهما الشاي في الصباح، وأغسلَ ثيابهما أو أتقبلَ انتقادهما بوجه باسم. بل كانت خدمتهما تعني أنه كان ينبغي عليَّ أن أضعهما فوق الآخرين جميعاً، فوق والديَّ وفوق زوجي وفوق أطفالي، وبما أن زوجي بعيد كان عليَّ أن أنسى خوفي من المرض، وأطردَ كل مشاعري نحو أطفالي من قلبي، وأقومَ بالأمور الصحيحة. وإذا لم أفعلْ ذلك، وتوفيت حماتي فكان خزيي سيكونُ كبيراً جداً.

لكنني لم أتخلَّ عن أطفالي بسهولة. وكانت الزوجاتُ الأخريات في غرفهن مع أطفالهن. ولم أكنْ أعرفُ ما حدثَ لهم خلفَ أبوابهم المغلقة. فقد يكونون مرضى، وقد يكونون موتى. لم أكنْ لأثقَ بحماي ليعتني بأطفالي أيضاً. ألم يكنْ قد قضى الليلة بجانب زوجته؟ ألم يكن هو من سيمرضُ تالياً؟ ولم أكنْ قد رأيتُ العم "لو" منذ بداية الوباء رغم أنه كان يتركُ وعاءه الفارغ خارج غرفته كل صباح ومساء لأعيدَ ملأه.

جلستُ في المطبخ، وأنا أفتلُ أصابعي قلقاً. فأتت "يونغانغ" إليَّ وركعت أمامي، وقالت: "سأعتني بأطفالك".

تذكرتُ كيف كانت قد رافقتني إلى منزل زهرة الثلج بعد زفافي مباشرة، وكيف اعتنتْ بي بعد ولادتي لأطفالي، وكيف برهنتْ على أنها مخلصة وكتومة في نقلها لرسائلي إلى رفيقتي. لقد فعلت كلَّ ذلك من أجلي. طوال ذلك الوقت، كانت قد نمتْ دون أن ألاحظَها من فتاة عمرها عشر سنوات لتصبحَ شابة ضخمة كبيرة القدمين في الرابعة والعشرين من عمرها. وكانت بالنسبة لي ما

تزالُ قبيحة، ولكنني كنتُ أعلمُ أنها لم تكنْ قد مرضتْ بعد وأنه كان يمكنُها أن تعتني بأطفالي وكأنهم أطفالها.

أعطيتُها التعليمات الصحيحة للطريقة التي كنتُ أريدُ أن يُحضَّرَ بها طعامهم وماؤهم. وأعطيتُها سكيناً لتحتفظَ بها معها تحسباً من أن تسوءَ الأحوالُ فيكونُ عليها أن تحرسَ باب الغرفة. بذلك، تركتُ أطفالي بين يدي الأقدار، ووجهتُ انتباهي لأم زوجي.

طوال الأيام الخمسة التالية، كنتُ أعتني بحماتي بكل الطرق التي كان يمكنُ لكنة أن تقومَ بها. فكنتُ أنظفُ جسمها عندما لم تعدْ قادرةً على استخدام وعاء التبوُّل. وكنتُ أعدُ لها نفس عصيدة "الكونجي" التي كنتُ أعدُّها لأطفالي، ثم جرحتُ ذراعي كما كنتُ قد رأيتُ أمي تفعل لكي تتحركَ طاقتي الحيوية في العصيدة. وهذه هي الهبةُ الأسمى التي تمنحها الكنة. فأعطيتُها لها آملة أن ما منحني الحيوية قد يزودُها بالحيوية من جديدة بمعجزة ما.

لكن ليس عليَّ أن أخبرَكم كم هو فظيعٌ هذا المرض. إذ إنكم تعلمون ما يحدث. لقد ماتت. ولطالما كانت عادلة وغالباً ما كانت لطيفة معي. لذا، كان من الصعب أن أودعَها. وعندما خرجتْ آخرُ أنفاسها علمتُ أنه لم يكن بإمكاني أن أفعلَ أي شيء ينبغي أن يتمّ فعلُه لامرأة في مكانتها. فغسلتُ جسدَها المتسخ والجاف بالماء الدافئ المعطَّر بخشب الصندل، وألبستُها ثيابها، ودسستُ كتاباتِها بلغة ال "تو شو" في جيوبها، وأكمامها، وسترتها. ولم تكنْ قد كتبتْ لتتركَ اسماً طيباً لمائة جيل قادم كما يفعل الرجال، بل كتبت لتخبرَ صديقاتها عن أفكارها ومشاعرها. وقد كتبن لها بنفس الطريقة. لقد كنتُ

في ظل ظروف أخرى لأحرقَ تلك الأشياء بجانب قبرها. ولكن مع ارتفاع درجة الحرارة والوباء، كان يجبُ أن تُدفن الجثث بسرعة دون التفكير بقضايا الطاقة، وال. "تو شو"، وواجب الأبناء نحو آبائهم. فكلُّ ما كان باستطاعتي أن أفعلَه هو أن أتأكدَ من أن تحظى حماتي بمواساة كلمات صديقاتها ليقرأن ويغنين في العالم الآخر. وحالما انتهيتُ، نُقلَ جسدُها بالعربة لدفنها بسرعة.

لقد عاشتْ حماتي حياةً طويلة. وكان بإمكاني أن أكونَ سعيدةً من أجلها من هذه الناحية. لقد أصبحتُ، بسبب وفاة حماتي، السيدة الأولى في العائلة رغم أن زوجي كان ما يزال بعيداً. وكان على الزوجات الأخريات الآن أن يطعنني. كن سيحتجن لرأيي الطيب بهن، ليحظين بالمعاملة الحسنة. بموت المحظيات كنتُ أتطلعُ للمزيد من الانسجام لأنني كنتُ واضحة في أمر واحد، وهو أنه لن تكون هناك أية محظيات تحت سقف هذا البيت بعد الآن.

كما أدركتِ الخادماتُ بالحدس تماماً، رحلَ الوباءُ عن مقاطعتنا. ففتحنا الأبواب، وأحضرنا المؤونة. كانت خسائرنا العائلية فقدان حماتي، وشقيق زوجي الثالث وعائلته بأكملها، والمحظيات. وبقي الأخوان الثاني والرابع على قيد الحياة مع عائلتيهما. في عائلة أهلي، توفي أبي وأمي. وقد ندمتُ بالطبع لأنني لم أكنْ قد قضيتُ وقتاً أطول معهما في زيارتي السابقة. ولكن علاقتي بوالديّ كانت قد أصبحت محدودة بعد أن ربطتُ قدمي. ولم تعد الأمور قَطُّ إلى سابق عهدها مع أمي بعد شجارنا بسبب الأكاذيب التي أخفتْها عني بخصوص زهرة الثلج. وكان واجبي كابنة متزوجة هو أن أعلنَ الحداد على والديَّ لمدة عام. فحاولتُ أن أشرِّف أمي لما فعلتْه من أجلي، ولكن قلبي لم يكنْ حزيناً.

كنا محظوظين إجمالاً. لم أتبادلْ والعم "لو" أية كلمات. كان ذلك ليكون غير ملائم، ولكنه عندما خرجَ من غرفته لم يعد ذلك العمَ اللطيف الذي كان يقضي سنوات تقاعده بكسل. فكان يدرِّبُ ابني بحدة، وتركيز، وإخلاص بحيث إنه لم يكن علينا أبداً أن نستأجرَ معلماً خصوصياً من خارج المنزل مجدداً. لم يكنْ ابني يتهرَّبُ من دراساته، تدعمُه معرفته أن ليلة زفافه واليوم الذي كان اسمُه سيظهرُ فيه على لائحة الإمبراطور الذهبية سيكونان أعظم أيام حياته. ففي اليوم الأول كان سيؤدي دورَه كابن مطيع لوالديه، وفي اليوم الثاني كان سيقفزُ من غموض مقاطعتنا إلى الشهرة بحيث إن كلَّ الصين كانت ستعرفُه.

لكن قبلَ أن يحدثَ كل هذا، عادَ زوجي إلى البيت. ولا يسعني أن أصفَ الراحة التي شعرتُ بها عندما رأيتُ مِحفَّته تصعدُ الطريق الرئيسي يتبعُها موكبٌ من العربات التي تجرُّها الثيران محملة بأكياس من الملح والبضائع الأخرى. فلم تكن كلُّ الأشياء التي قلقتُ بشأنها وبكيتُ ستحدثُ لي، أو ليس بعد على الأقل. كانت تغمرُني السعادة عندما ظهرتْ كلُّ نساء قرية "تونغكو" بينما كان رجالنا يفرِّغون العربات. فبكينا جميعاً، وتخلَّصنا من الأعباء، والخوف، والحزن الذي كنا نحمله. فكان زوجي بالنسبة لي ولنا جميعاً أولَ علامة جيدة رآها أيٌّ منا منذ أشهر.

بِيعَ الملحُ في كافة أرجاء المقاطعة لأناس يائسين وممتنين. فكان ثمن هذه المبيعات قد أزاح بعيداً كل قلقنا المالي. فدفعنا ضرائبنا، واشترينا الحقول التي بعناها. لقد ازدادت مكانة عائلة "لو" وثروتها. وثبتَ أن محصول السنة كان وافراً، مما جعلَ احتفال الخريف يبدو مبهرجاً أكثر من المعتاد. لم يكن ممكناً

أن نشعرَ براحة أكبر بعد أن قضينا أياماً مظلمة ذات طقس سيئ. وقد استأجرَ حماي حرفيين ليأتوا إلى قرية "تونغكو"، ويدهنوا أفاريزَ جديدة تظهرُ لجيراننا ولكل من يأتون إلى قريتنا في المستقبل رخاءنا وحظنا الجيد. وكان بإمكاني أن أسيرَ خارجاً الآن وأن أرى زوجي مرتدياً سترته، وهو يركبُ متنَ قاربه ليأخذَه نزولاً في النهر من أجل تعاملاته مع التجار في إقليم "غويلين"، وأن أرى النساءَ في عائلتنا يرتدين أثواباً متهدلة وهن يقمن بالتطريز من أجلنا ونحن ننتظر، وأن أرى عودةَ زوجي السعيدة.

تمَّ طلاء كلِّ شيء تحت الأفاريز، باستثناء صورة حماي. فكان يجلسُ في الإفريز على كرسي مرتفع وهو يشرفُ على ممتلكاته ويبدو فخوراً، ولكنه في الحقيقة كان يفتقدُ زوجته ولم يعد يهتمُ بالأمور الدنيوية. فتوفي بهدوء في أحد الأيام وهو يسيرُ في الحقول. وكان أول واجباتنا هو أن نكون أفضلَ من يقوم بالحداد في المقاطعة. مُدِّدَ حماي في التابوت، ووضعَ خارجاً لمدة خمسة أيام. واستأجرنا بمالنا الجديد فرقة لتعزفَ الموسيقى طوال النهار والليل، وجاء الناسُ من أنحاء قرية "تونغكو" لينحنوا أمام التابوت، وأحضروا معهم هدايا هي عبارة عن نقود ملفوفة بظروف بيضاء وأعلام حريرية ولفائف ورق مزينة بكتابة الرجال التي تثني على حماي. لقد ذهبَ جميعُ الإخوة وزوجاتهم إلى القبر على ركبهم، وتبعَهم أهالي "تونغكو" مع آخرين من قرى مجاورة على الأقدام. كنا نبدو كنهر من اللون الأبيض بثياب الحداد ونحن نسيرُ في طريقنا ببطء عبر الحقول الخضراء. كان الجميعُ عند كل سبع خطوات ينحنون حتى تلمسَ جباههم الأرض. كان القبرُ على بعد كيلومتر واحد. لذا يمكنُ للمرء أن

يتخيلَ كم مرة توقفنا على ذلك الطريق الصخري.

انتحبَ الشبانُ والعجائزُ حزناً بينما كانت الفرقةُ تدوي بأبواقها، وتصفرُ بناياتها، وتضرب صناجها، وتقرعُ طبولها. بما أن زوجي هو الابن الأكبر، أحرقَ المال الورقي، وأشعلَ الألعاب النارية. غنى الرجال وكذلك فعلت النساء. استأجرَ زوجي أيضاً بضعة رهبان أدوا طقوساً ليساعدوا حماي وجميع من ماتوا في الوباء، كما كنا نأمل، للوصول إلى حياة سعيدة في عالم الأرواح. بعد الدفن استضفنا كلَّ من كان في القرية إلى وليمةٍ. وبينما كان الضيوف يرحلون، أعطى أبناء عم العائلة رفيعو المكانة لكل شخص قطعةً نقدية جالبة للحظ السعيد وقطعةَ سكر لتبعدَ طعم الموت المر ومنشفةً منظفة للجسم. فتولَّى ذلك أمرَ الأسبوع الأول من الطقوس. وعشنا معاً تسعة وأربعين يوماً من المراسم، والقرابين، والولائم، والخطب، والموسيقى، والدموع. في النهاية – رغم أنني وزوجي لم نكن قد انتهينا من فترة الحداد الرسمية بعد – كان الجميعُ في المقاطعة يعلمون أننا كنا، ولو بالاسم على الأقل، قد أصبحنا السيد والسيدة "لو" الجديدين.

إلى الجبال

كنتُ ما أزالُ لا أعرفُ ما حلَّ بزهرة الثلج وعائلتها أثناء انتشار وباء التيفوئيد. فأنا في أثناء قلقي على أطفالي، وفي واجباتي نحو حماتي، وفرحي بعودة زوجي، وتلا ذلك وفاة حماي وجنازته، وأخيراً بعد أن أصبحت وزوجي السيد والسيدة "لو" الجديدين في وقت أبكرَ ربما مما كنا مستعدين له، نسيتُ للمرة الأولى في حياتي أمرَ رفيقتي. ثم أرسلتْ لي رسالة.

عزيزتي زهرة الزنبق،

لقد سمعتُ أنك على قيد الحياة. وأنا آسفةٌ من أجل أهل زوجك. إنني أشعرُ بحزن أكبر لما سمعتُه عن والدك ووالدتك. فقد كنتُ أحبهما كثيراً.

لقد نجونا من الوباء. وقد أصبتُ بالإجهاض في بداية الوباء. وكان الجنين فتاة أخرى. ويقولُ زوجي إن هذا أفضل. فلو كنتُ قد حملتُ كلَّ أطفالي حتى أوان المخاض، لكانت لديَّ أربع بنات، أي كارثة. ومع ذلك، فحملُ طفل ميت بين يديك ثلاث مرات هو أمرٌ كثير.

إنكِ دائماً تخبرينني أن أحاولَ مجدداً. وسأفعلُ ذلك. أتمنى لو كان بإمكاني أن أكونَ مثلك، وأن أنجبَ ثلاثة أبناء. فكما تقولين، الأبناء هم قيمةُ المرأة.

لقد مات الكثيرُ من الناس هنا. وقد كنتُ لأخبرَك أن الأمورَ أصبحتْ أهدأ الآن، ولكنَّ حماتي بقيتْ على قيد الحياة. وهي تقولُ أشياء سيئة عني كل يوم، وتقلِّبُ زوجي ضدي.

إنني أدعوكِ لزيارتي. وبالكاد تضاهي منزلتي منزلتك، ولكنني أتوقُ لكي نرمي متاعبنا وراءَ ظهورنا. من فضلك تعالي إن كنتِ تحبينني. فأنا أريدُ أن

نكونَ معاً قبل أن نبدأ ربط أقدام ابنتينا. فلدينا الكثيرُ لنتحدثَ عنه بهذا الشأن.

زهرة الثلج

بعد أن أصبحتْ حماتي في العالم الآخر، كنتُ أفكرُ باستمرار بما كانت قد قالتْه لي عن واجب الزوجة. فقد قالت: "أطيعي واستمري بالطاعة، ثم افعلي ما تريدينه". وبدون أن تراقبني عينا حماتي، أصبحَ بإمكاني أن أقابلَ زهرةَ الثلج علناً.

كان لزوجي الكثيرُ من الاعتراضات. لقد كان أبناؤنا قد بلغوا الحادية عشرة والثامنة وسنة ونصف، وكانت ابنتنا قد بلغت السادسة مؤخراً. فكان يحبُّ أن أتواجدَ في البيت، فخفّفتُ قلقَه على مدى بضعة أيام، وغنيتُ له لأهدئَ باله، وأعطيتُ كلَّ واحد من الأطفال مشاريعَ ليخففَ ذلك عن قلب أبيهم، وحضّرتُ كل أطباقه المفضلة، وكنتُ أقومُ بغسل قدميه وتدليكهما كل ليلة بعد عودته من التجول في الحقول، وكنتُ أعتني بنظافة جسمه. ولكنه مع ذلك لم يكن يريدني أن أذهبَ. وأتمنى لو أنني أصغيتُ له.

في اليوم الثامن والعشرين من الشهر العاشر، ارتديتُ سترة حريرية أرجوانية اللون مطرزة بشكل أزهار الأقحوان المناسب لفصل الخريف. وكنتُ في السابق أعتقدُ أن الثيابَ الوحيدة التي كنتُ سأرتديها على الإطلاق هي التي صنعتُها خلال "أيام التزين بدبابيس الشعر". ولم أكنْ قد اعتقدتُ أن حماتي كانت ستموتُ مخلفةً وراءها قماشاً لم يُمس أو أن زوجي كان سيجني مالاً كافياً بحيث إنني سأصبحُ قادرةً على أن أشتري كميات لا حدَّ لها من أفضل أنواع

الحرير. ولكنني كنتُ أعرفُ أنني كنتُ ذاهبةً عند زهرة الثلج، وتذكَّرتُ أنها كانت ترتدي ثيابي عندما كنا فتاتين صغيرتين. فلم آخذ معي شيئاً آخر لأرتديه مدة الليالي الثلاث التي كنتُ سأغيبها عن البيت.

أنزلتني المِحفَّة عند منزل زهرة الثلج. كانت جالسةً تنتظرُ على الرصيف خارجَ عتبة بيتها مرتدية سترة، وسروالاً، ومئزراً، وغطاء رأس مصنوعاً من قماش قطني مهترئ، ومتسخ، ومصبوغ باللونين الأبيض والنيلي على نحو سيئ. لم ندخلْ إلى البيت على الفور. فقد كانت زهرة الثلج مسرورة لوجودي معها في نسيم العصر العليل. بينما كانت تثرثرُ عن هذا الأمر وذاك، رأيتُ بوضوح للمرة الأولى القِدرَ الضخمة حيث كانت جثث الخنازير تُغلى فيها ليصبحَ بالإمكان إزالة شعرها وتطرية جلدها. داخلَ الباب المفتوح للمبنى الإضافي، لمحتُ لحماً معلقاً من عوارض السقف، فجعلتني الرائحة أشعرُ بالغثيان، ولكنّ الأمرَ الأسوأ من ذلك كان الخنزيرة الأم وصغارها التي استمرت بالصعود على الرصيف بحثاً عن الطعام. بعد أن أنهيتُ وزهرة الثلج تناول الغداء المكون من الأرز والعشب المطبوخين ببخار الماء، أخذتِ الأوعية، ووضعتْها عند أقدامنا لكي تتمكنَ الخنزيرةُ وصغارها من أكل ما تركناه.

عندما رأينا الجزَّار يعودُ إلى البيت وهو يدفعُ عربةً محملةً بأربع سلال تحتوي كلُّ واحدة منها على خنزير ممدد على بطنه بطوله الكامل، صعدنا إلى الطابق العلوي حيث كانت ابنة زهرة الثلج تطرز وحماتُها تنظفُ القطن. كانت الغرفةُ رطبةً ومظلمة. فكان شبكُ نافذة زهرة الثلج أصغرَ وأقل زخرفة حتى من النافذة في بيت أهلي رغم أنني كنتُ أستطيعُ من خلالها أن أرى نافذتي في

قرية "تونغكو". وحتى هناك في الأعلى لم نستطع أن نهربَ من رائحة الخنازير.

جلسنا، وتحدثنا حول الموضوع الرئيسي في ذهنينا، ألا وهو ابنتينا.

فسألتني زهرة الثلج، "هل فكّرتِ بالوقت الذي يجبُ أن نبدأ فيه ربطَ أقدامهما؟"

كان من الصحيح والمناسب أن يبدأَ هذا في هذه السنة، ولكنني كنتُ آملُ من سؤال زهرة الثلج أن يكونَ ما تفكرُ به مشابهاً لما كنتُ أفكرُ به.

فغامرتُ بحذر قائلة: "لقد انتظرتْ أمانا حتى بلغنا السابعة من عمرنا، وقد كنا سعيدتين معاً منذ ذلك الحين".

فابتسمتْ زهرة الثلج ابتسامةً عريضة، وقالت: "هذا هو بالضبط ما كنتُ أُفكّرُ به. لقد كانت الصفاتُ الثماني لي ولك متوافقة بشكل مثالي. ألا ينبغي علينا ألا نوافقَ بين صفات ابنتينا الثماني فقط ولكن أن نوافقَ أيضاً بين تلك الصفات وصفاتنا قدرَ المستطاع؟ ويمكن لهما أن تبدأا ربطَ أقدامهما في نفس اليوم ونفس العمر الذي بدأنا نحن فيه".

نظرتُ إلى ابنة زهرة الثلج. وكانت قمر الربيع تتمتعُ بجمال أمها في ذلك السن ببشرتها الحريرية وشعرها الأسود الناعم، ولكنَّ سلوكها كان يبدو استسلامياً وهي جالسةٌ برأسها المنحني نحو الأسفل تحدِّق بتطريزها محاولةً بجهد ألا تسترقَ السمعَ على ما كان يدورُ من حديث حول مصيرها.

قلت: "ستكونان كزوجٍ من البجع". كنتُ أشعرُ بالراحة لأننا قد توصلنا إلى اتفاق سهل كهذا رغم أنني كنتُ واثقةً من أننا كنا نأملُ أنَّ تَوافقَ صفاتنا

الثماني سيعوضُ عن أن صفاتِ ابنتينا لم تكنْ متلائمةً على نحو مثالي.

لقد كانت زهرة الثلج محظوظة حقاً لتواجد قمر الربيع معها، وإلا لكانت لتبقى وحدَها طوال اليوم مع حماتها. يمكنني أن أقولَ هذا: لقد كانت تلك المرأةُ ما تزالُ سليطة اللسان ووضيعة كما كنتُ أتذكرُها. كانت تكررُ جملة واحدة، وهي: "إنَّ ابنك الأكبر ليس أفضلَ من فتاة. إنه ضعيف. كيف سيتمتعُ بالقوة ليذبحَ خنزيراً؟" ففكّرتُ بشيء لا يناسبُ السيدة "لو"، وهو: لِمَ لَمْ تستطعِ الأرواحُ أن تأخذَها أثناء الوباء؟

أعادتْ وجبتنا المسائية نكهة طفولتي قبل أن تبدأ هدايا مهري بالوصول، فكانت تحتوي على: الفاصولياء الطويلة، وأرجل الخنزير بالصلصة الحارة، وقطع اليقطين المقلية والأرز الأحمر. كانت كلُّ وجبة كنا نتناولها في قرية "جينتيان" تبدو نفسها بحيث إننا كنا دائماً نتناولُ جزءاً من الخنزير، كدهن الخنزير مع الفاصولياء السوداء، وأذني الخنزير في وعاء طيني، وأمعاء الخنزير الساخنة، ولحم الخنزير المقلي مع الثوم والفلفل الحار. ولم تأكلْ زهرة الثلج أياً من ذلك، بل كانت تأكلُ خضارها وأرزها بهدوء.

بعد العشاء، انسحبتْ حماتُها لقضاء الليلة. ورغم أن التقليدَ كان يقضي بأنه ينبغي أن تتشاركَ الرفيقتان بالفراش عندما تزوران بعضهما البعض، مما يعني أن ينامَ الزوجُ في مكان آخر، ولكنَّ الجزار أعلنَ أنه لن ينتقلَ إلى غرفة أخرى. أتعرفون ما كان عذره؟ إنها المقولة القائلة: "لا يوجدُ شيء شرير كقلبِ المرأة". وهذه مقولةٌ قديمة وصحيحةٌ على الأرجح، ولكنَّه لم يكن شيئاً لبقاً ليقولَه للسيدة "لو". ومع ذلك، فقد كان ذلك منزلَه، وكان علينا أن نفعلَ ما

يقوله.

أعادتْني زهرة الثلج إلى حجرة النساء في الطابق العلوي، حيث أعدتْ لي سريراً من بعض لحف مهرها النظيفة وإن كانت مهترئة، ووضعتْ على الخزانة وعاءً صغيراً مليئاً بالماء الدافئ لكي أغسلَ وجهي. وكم تمنيتُ لو أغمسُ قطعة قماش بذلك الماء وأمسحُ الهموم التي كانت تعلو وجهَ رفيقتي! وبينما كنتُ أفكرُ بذلك، أحضرتْ ثوباً مطابقاً لثوبها تقريباً، وذلك لأنني تذكرتُ عندما أصلحتْه من كنوز مهر أمها. انحنتْ زهرة الثلج إلى الأمام، وقبّلتْ خدي، وهمستْ في أذني قائلة: "غداً سيكونُ أمامنا اليومُ بأكمله لنقضيه معاً. فسأريك تطريزي وما فعلتُه في مروحتنا، وسنتحدث ونتذكر". ثم تركتني وحدي.

أطفأتُ الفانوس، وتمددتُ تحت اللحف. في تلك الليلة، كان القمرُ مكتملاً تقريباً، ونقلَني الضوء الأزرقُ الذي كان يعبرُ شبكَ النافذة سنواتٍ عديدة في الماضي. فدفنتُ وجهي حيث كان عطرُ زهرة الثلج منعشاً ورقيقاً كما كان عندما كنا في "أيام التزين بدبابيس الشعر". وملأت ذكرى أصوات تلك السعادة أذني. لم تذهبْ تلك الأصواتُ بعيداً، فجلستُ. ولم تكنِ الضجة في رأسي بل كانت قادمة من حجرة زهرة الثلج. وقد تكونُ رفيقتي قد أصبحتْ نباتية، ولكنها لم تكنْ شبيهة بالزوجة "وانغ" في القصة. فغطيتُ أذني، وحاولتُ أن أستغرقَ في النوم، ولكنّ الأمرَ كان صعباً عليَّ. فقد جعلَني حظي الجيد نافدة الصبر وقليلة التحمل. كان ذلك المكانُ الملوث وطبيعتهُ التي تلوثُ الآخرين والناسُ الذين كانوا يعيشون هناك يزعجُ حواسي، وجسمي، وروحي.

في صباح اليوم التالي، غابَ الجزّارُ طوالَ اليوم، وعادتْ أمه إلى غرفتها.

وساعدتُ زهرة الثلج على تنظيف وتجفيف الأطباق، وإحضار خشب الموقد، وحمل الماء، وتقطيع الخضار من أجل وجبة منتصف اليوم، والذهاب إلى السقيفة حيث كان لحم الخنزير يحفظُ لنحضرَ اللحم، كما ساعدتُها في العناية بابنتها. حالما انتهى كلُّ ذلك، وضعتْ زهرة الثلج الماء لتسخنَه لنتمكنَ من استخدامه من أجل الاستحمام. أخذتِ الإبريقَ، وصعدتْ به إلى حجرة النساء في الطابق العلوي، وأغلقت الباب. كان الهواء في ذلك البيت الصغير دافئاً بشكل مدهش رغم أننا كنا في الشهر العاشر.

عندما كنتُ أنظرُ إلى زهرة الثلج كنتُ أرى جلدَها الشاحب، الذي لطالما كان جميلاً، قد بدأ يصبحُ أسمكَ وأدكن، ويديها اللتين لطالما كانتا ناعمتين، وقد أصبحَ ملمسهما خشناً. وكانت هناك خطوطٌ محفورةٌ فوق إحدى شفتيها وزوايا عينيها. وكان شعرُها معقوصاً إلى الوراء بشكل كعكة ضيقة في مؤخرة عنقها. وكانت خصلٌ من الشعر الرمادي تتخلله. وقد كانت في مثل سني، أي: في الثانية والثلاثين. كانت النساء في مقاطعتنا غالباً لا يعشن أكثرَ من أربعين عاماً، ولكنني كنتُ لتوي قد رأيتُ حماتي ترحلُ إلى العالم الآخر، وكانت مع ذلك تبدو جميلة جداً بالنسبة لامرأة وصلت إلى سن الواحدة والخمسين الجدير بالملاحظة.

في تلك الليلة، كان العشاء خنزيراً آخر.

لم أدركِ الأمرَ حينئذٍ، ولكنَّ العالمَ الخارجي، عالم الرجال المضطرب، كان يشقُّ طريقَه نحو حياتي وحياة زهرة الثلج، فخلال ليلتي الثانية في بيتها، أُوقظنا على أصوات فظيعة. فالتقينا في الغرفة الرئيسية وتجمَّعنا معاً. كنا

جميعاً، حتى الجزار، مرعوبين، وكان الدخان يملأُ الغرفة، فكان أحدُ المنازل – أو ربما قرية بأسرها – يحترق في مكان ما. واستقرَّ الغبارُ والرمادُ على ثيابنا. تردد صوتُ قعقعة المعادن وضرب حوافر الجياد في رؤوسنا. لم تكنْ لدينا أية فكرة عما كان يحدثُ في ظلام الليل. أكانت تلك كارثةً في قرية واحدة وحسب أو أن ذلك كان شيئاً أسوأَ بكثير؟

لقد كانت كارثةٌ كبيرةٌ قادمة. وكان الناسُ في القرية خلفنا يبدؤون بالهرب تاركين مزارعَهم ليذهبوا إلى أمان التلال. رأينا من نافذة زهرة الثلج في صباح اليوم التالي رجالاً، ونساءً، وأطفالاً على عربات تُجرُّ باليد أو بالثيران أو على الأقدام أو على الجياد. فجرى الجزَّارُ إلى حافة القرية، وصرخ إلى قافلة الهاربين.

"ماذا حدثَ؟ أهي الحرب؟"

فناداه صوتٌ مجيباً.

"لقدَ أرسلَ الإمبراطور إلى مدينة "يونغمينغ" أنه يجبُ على حكومتنا أن تتخذَ إجراء ضد ثوار "التايبنغز"!"

"لقد وصلتِ القواتُ الإمبراطورية لتشتتَ الثوار!"

"هناك قتالٌ في كلِّ مكان!"

فجمعَ الجزَّارُ يديه أمام فمه وصاح: "ماذا ينبغي علينا أن نفعلَ؟"

"اهربوا بعيداً!"

"ستصلُ المعركةُ إلى هنا قريباً!"

كنتُ مصعوقة، ومسحوقة، ومذهولة من الخوف. لِمَ لم يأتِ زوجي من

أجلي؟ ويخثُ نفسي بقسوة مراراً وتكراراً لاختياري هذا الوقت بعد كل تلك السنوات لأزور زهرة الثلج، ولكنَّ هذه كانت طبيعة القدر. فنحن نتخذُ قرارات جيدة وسليمة، ولكنّ الآلهة تعدُّ خططاً أخرى لنا.

ساعدتُ زهرة الثلج لنجمعَ حقائبَ لها ولأطفالها. ذهبنا إلى المطبخ وجمعنا كيساً كبيراً من الأرز وكحولاً للشرب ولمعالجة الإصابات. أخيراً، لففنا أربعة من لحف زفاف زهرة الثلج في رزم ضيقة، ووضعناها بجانب الباب. عندما جهزَ كلُّ شيء، ارتديتُ ثوبَ السفر الحريري، وذهبتُ إلى الخارج لأقفَ على الرصيف، وانتظرتُ زوجي، ولكنَّه لم يأتِ. ونظرتُ إلى طريق "تونغكو"، فكانت قافلةٌ من الناس تغادرُ من هناك أيضاً. عوضاً عن صعود التلال خلف القرية، كانوا يعبرون الحقول نحو مدينة "يونغمينغ". فكانت قافلتا الناس، وإحداهما متجهةٌ نحو التلال والأخرى نحو المدينة، تحيرانني. ألم تكنْ زهرة الثلج لطالما قالت إن التلال هي الأذرعُ التي تحتضننا؟ فإذا كان ذلك صحيحاً، لِمَ كان سكان قرية "تونغكو" متجهين في الاتجاه المعاكس؟

في فترة العصر المتأخر، رأيتُ مِحفَّةً تغادرُ مجموعة قرية "تونغكو" وتنحرفُ في طريقها نحو قرية "جينتيان". فعرفتُ أنها كانت قادمة من أجلي، ولكنَّ الجزَّار رفضَ أن ينتظر.

قالَ بصوت مرتفع: "حان وقتُ الذهاب!"

أردتُ أن أتخلَّف عنهم وأن أنتظرَ عائلتي لتأخذَني. فرفضَ الجزار.

فقلت: "إذاً سأمشي لألتقي بالمِحفَّة". كنتُ قد تخيلتُ لمرات عديدة وأنا جالسةٌ عند شبك نافذتي أنني أمشي إلى هنا. ألم يكنْ باستطاعتي الآن أن

أذهبَ إلى عائلتي؟

رفعَ الجزَّارُ يدَه في الهواءِ ليمنعَني من قول أية كلمة أخرى. وقال: "إن الكثيرَ من الرجال قادمون. هل تعرفين ما الذي قد يفعلونه لامرأة وحيدة؟ هل تعرفين ما قد تفعلُه عائلتكِ لي إذا حدثَ أي مكروه لك؟"

"ولكن..".

فقاطعتني زهرة الثلج قائلة: "يا زهرة الزنبق، تعالي معنا. إننا راحلون لبضع ساعات فقط، ثم سنرسلكِ إلى عائلتك. من الأفضل أن تكوني بأمان".

رفعَ الجزَّارُ أمه وزوجته وأطفاله الصغار، ثم رفعَني إلى العربة. فيما بدأ الابن الأكبرُ بدفعنا، نظرتُ إلى الوراء عبر الحقول خلفَ قرية "جينتيان"، فرأيتُ ألسنةً وسحباً من الدخان ترتفعُ في الهواء.

استمرت زهرة الثلج بتمرير الماء إلى زوجها وابنها الأكبر. كان الوقتُ في منتصف الخريف الآن. عندما غربت الشمس، بدأ البردُ يحلُّ علينا، لكنَّ زوج زهرة الثلج وابنها كانا يتعرقان وكأننا كنا في منتصف الصيف. قفزت قمر الربيع من العربة دون أن يطلبَ منها أحدٌ ذلك آخذةً آخاها الصغير معها. فحملتِ الطفلَ على وركِها، ثم على ظهرها. أخيراً، وضعتْه على الأرض، وأخذت بيده، وأبقتْ يدَها الأخرى على العربة.

أكَّد الجزَّارُ لأمه وزوجته أننا كنا سنتوقفُ عما قريب، ولكننا لم نتوقف. فقد كنا جزءاً من قافلة بائسة في تلك الليلة. في أحلك ساعات الظلام قبل الفجر، وطئنا أولى التلال المنحدرة. كان الإجهاد يبدو على وجه الجزار، وكانت عروقه منتفخة، وكانت ذراعاه تهتزان من الجهد الذي كان يبذلُه في محاولة دفع

العربة صعوداً في التلة. أخيراً، استسلمَ، وانهارَ خلفنا. انزلقت زهرة الثلج إلى حافة العربة، وعلَّقت ساقيها على الحافة للحظة ثم تركتهما تنزلان إلى الأرض. ونظرتْ إليَّ، فنظرتُ إليها. كانت السماء خلفَ زهرة الثلج حمراءَ بسبب النيران. دفعتْني الأصواتُ التي كانت تعبرُ الهواء خارجَ العربةَ. ربطتُ وزهرة الثلج لحافين لكل واحدة منا على ظهرينا. علَّق الجزار كيس الأرز فوق كتفه، وحملَ الأطفالُ قدرَ ما استطاعوا من الطعام. فأدركتُ أمراً. إذا كنا راحلين لبضع ساعات فقط لِمَ إذاً أحضرنا هذا المقدار الكثير من الطعام؟ هكذا، أدركت أنني ربما لن أرى زوجي وأطفالي لبضعة أيام. في غضون ذلك، سأكونُ خارجاً معرضة لعوامل الطقس مع الجزَّار. فوضعتُ يدي فوق وجهي لأستعيد السيطرة على نفسي. إذ إنني لم أستطعْ أن أدعَه يرى ضعفي.

انضممنا للآخرين سيراً على الأقدام. أخذتُ وزهرة الثلج ذراعي أم الجزَّار، وسحبناها صعوداً في التلة. كانت تثقلُ علينا، وكم كان هذا شبيهاً بطبيعة الجرذ الذي وُلدتْ تحت علامته! فعندما أرادَ "بوذا" أن ينشرَ الجرذُ تعاليمَه، حاولَ المخلوق الماكر أن يحصلَ على توصيلة مجانية من الحصان، فرفضَ الحصان ذلك بحكمة. هذا هو السبب أن العلامتين ليستا متوافقتين منذ وقت طويل. لكن في ذلك الطريق المريع في تلك الليلة الرهيبة، ماذا كان يمكننا نحن "الحصانان" أن نفعل؟

كانت وجوهُ الرجال حولنا عابسة، فقد خلَّفوا وراءهم بيوتهم ومعيشتهم، وكانوا يتساءلون الآن إن كانوا سيعودون إلى بيوتٍ تحولتْ لأكوام من الرماد. كانت وجوه النساء مبللة بدموع الخوف وألم السير في ليلة واحدة لأطول

مسافة سرن فيها منذ ربط أقدامهن. لم يتذمر الأطفالُ. إذ إنَّهم كانوا خائفين فوق الحدّ. وكنا قد بدأنا هروبنا للتو فقط.

في وقت متأخر من عصر اليوم التالي – ولم نكن قد توقفنا ولو لمرة واحدة – أصبحَ الطريقُ أضيقَ وأكثر تعرجاً وانحداراً. فساءت أعينَنا الكثيرُ من المشاهد، وآذت آذاننا الكثيرُ من الأصوات. كنا أحياناً نمرُّ برجال ونساء عجائزَ كانوا قد جلسوا ليستريحوا، فلم ينهضوا مجدداً أبداً. لم أكنْ أتخيلُ أنني قد أرى في مقاطعتنا آباءً يُهجرون بهذا الشكل. غالباً ما كنا نسمعُ ونحن في طريقنا طلبات يتمتمُها أصحابها وكلمات أخيرة لأحد الأبناء أو البنات تُكرَّرُ الآن كعون أخير، مثل: "اتركوني، وعودوا غداً عندما ينتهي الأمر". أو "استمروا بالسير، وأنقذوا الأبناء، وتذكروا أن تضعوا مذبحاً لي في مهرجان الربيع". كلما كنا نمرُّ بأحد هكذا، كانت أفكاري تعودُ إلى أمي. فلم تكنْ لتستطيعَ أن تقومَ بهذه الرحلة وعكازُها هي كلُّ ما يسندُها. هل كانت لتطلبَ أن تتركَ وحدَها؟ هل كان والدي ليهجرَها؟ هل كان أخي الأكبر ليفعلَ ذلك؟

كانت قدماي تؤلمانني ألماً شبيهاً بالألم الذي كنتُ أحسُّ به أثناء ربط قدمي. كان الألم يرتفعُ إلى ساقيَّ مع كلِّ خطوة، وكنتُ أرى نساءً في مثل سني وأصغر، نساء في سنوات "الأرز والملح"، كانت أقدامهن قد كُسرت بسبب مجهود السير لهذه المسافة البعيدة أو تمزقت إلى قطع على إحدى الصخور. كنَّ من الكاحل وما فوق غير مصابات بأذى، ولكنهن كن مقعدات كلياً. كن ممدَّاتٍ هناك دون حراك، وهن يبكين فقط، وينتظرن أن يمتن من العطش أو الجوع أو البرد. لكننا استمررنا بالسير دون أن ننظرَ إلى الخلف قَطُّ دافنين

خزينا في أعماق قلوبنا الفارغة ومحاولين أن نصمَّ آذاننا عن أصوات المعاناة والحزن قدر استطاعتنا.

عندما حلَّت الليلةُ الثانيةُ، وهبطَ الظلام، أحاطَ الجزعُ بنا جميعاً. كنا قد تخلينا عن ممتلكاتنا، وإفترقَ الناسُ عن عائلاتهم. فكان الأزواجُ يبحثون عن زوجاتهم، وكانت الأمهاتُ ينادين أطفالهن. كنا في أواخر فصل الخريف، وهو الموسمُ الذي يبدأ فيه ربطُ الأقدام. هكذا، فقد صادفنا مرات عديدة فتياتٍ صغيراتٍ كانت عظامهن قد تكسرت مؤخراً، وقد خلفَّهن أهلهن ورائهم الآن كما فعلوا بالطعام، والثياب الفائضة، والماء، ومذابح السفر، وهدايا المهور، وكنوز العائلات. رأينا أيضاً صبية صغاراً، أبناء ترتيبهم الثالث أو الرابع أو الخامس في أسرهم، وهم يستجدون المساعدة من أيِّ شخص يمرُّ بهم. لكن كيف كان يمكنُ للمرأة أن تساعدَ الآخرين في حين أنه كان عليها أن تستمرَ بالسير وهي تتمسكُ بإحكام بابنها المفضل، ويدُ زوجها تمسكُ بيدها بإحكام؟ وإذا كان المرءُ خائفاً على حياته فهو لا يفكرُ بالآخرين، بل يفكرُ فقط بالناس الذين يحبهم، وقد لا يكونُ هذا حتى كافياً.

لم تكنْ هناك أجراسٌ لتطلعنا على الوقت، ولكنَّ الظلام كان حالكاً، وكنَّا أكثرَ من متعبين. كنا حينئذٍ قد مشينا لأكثر من ست وثلاثين ساعة دون راحة ودون طعام وبرشفة واحدة من الماء بين الحين والآخر. بدأنا نسمعُ صيحاتٍ طويلةً مرعبة. لم نستطع أن نتخيلَ ماذا يمكنُ لها أن تكون. لقد انخفضتْ درجةُ الحرارة، فتجمَّع الصقيعُ على أوراق وأغصان الأشجار من حولنا، وكانت زهرة الثلج ترتدي ثيابها القطنية النيلية اللون، وكنتُ أرتدي ثوبي الحريري. لم

يكنْ أيٌّ من ثوبينا ليحمينا كثيراً مما كان سيأتي لاحقاً. أصبحتِ الصخور تحت أحذيتنا زلقة. كنتُ واثقةً أن قدميَّ كانتا تنزفان لأنني كنتُ أشعرُ بهما دافئتين بشكل غريب. مع ذلك، فقد استمررنا بالسير. كانت والدةُ الجزَّار تترنحُ بيننا، وقد كانت امرأة عجوزاً ضعيفة، ولكنّ شخصية "الجرذ" فيها كانت تتمتعُ بإرادة العيش.

ضاق الطريقُ ليصبحَ بعرض ثلث متر. كان الجبلُ إلى يميننا، فلم يعدْ يمكنني أن أدعوه تلة بعد الآن، إنه يرتفعُ بشكل منحدر بحيث إنه كان يلمسُ أكتافنا، ونحن نمشي مجهدين في رتل أحادي. إلى يسارنا، كان الجبلُ ينحدرُ نحو الظلام. ولم أستطعْ أن أرى ما كان في الأسفل هناك. لكن كانت هناك على الطريق أمامي وورائي نساءٌ مربوطات الأقدام. فكنا شبيهات بالزهور في عاصفة. لم تكنْ أقدامنا هي نقطة ضعفنا الوحيدة. فكانت عضلات سيقاننا، التي لم نجهدها بهذا الشكل قَطُّ، تؤلمنا، وترتجفُ، وتهتزُّ، وتتشنج.

لمدة ساعة، تبعنا إحدى العائلات، وهي عبارة عن أب وأم وثلاثة أطفال، حتى انزلقتِ المرأةُ على إحدى الصخور، وسقطت في الهاوية المظلمة تحتنا. كان صراخها مرتفعاً وطويلاً حتى توقفَ فجأة. كنا نسمعُ صوت هذا النوع من الموت طوال الليل. منذ ذلك الوقت وصاعداً، كنتُ أمررُ إحدى يدي تلو الأخرى، وأتشبثُ بالأعشاب، وأدع يديَّ تتمزَّقان بالصخور الناتئة التي كانت بارزة من الجرف إلى يميني. فقد كنتُ لأفعلَ أي شيء لأحميَ نفسي من أن أصبحَ صرخة أخرى في الليل.

وصلنا إلى تجويف مغطى، وكانت الجبالُ تبدو كصورة ظليلة على خلفية

السماء حولنا. كانت نيرانٌ صغيرة تشتعل، وقد كنا نقفُ في مكان مرتفع. مع ذلك، فلم يكن ثوار "التايبنغز" ليتمكنوا من رؤية وهج النيران بسبب ذلك المنخفَض، أو أننا على الأقل كنا نأملُ ألا يتمكنوا من ذلك. تقدمنا شيئاً فشيئاً في طريقنا نزولاً في التجويف.

ربما لأنني كنتُ بدون عائلتي، كنتُ أرى وجوه الأطفال فقط في ضوء النيران. كانت في عيونهم نظراتٌ فارغة وزجاجية. فربما يكونون قد فقدوا جدة أو جداً أو ربما أماً أو أختاً. لقد كانوا جميعاً خائفين، ولا ينبغي لأحد أن يرى طفلاً خائفاً في تلك الحالة.

توقفنا عندما تعرَّفت زهرة الثلج على ثلاث عائلات من قرية "جينتيان" كانت قد عثرت على بقعة محمية نسبياً تحت شجرة كبيرة. فرأوا أن الجزَّار كان يحملُ كيساً من الأرز على ظهره وانطلقوا بسرعة ليفسحوا مجالاً لنا لنجلسَ بجانب النار. حالما جلستُ بقدميّ ويديّ قريبتين من النار، بدأت الحرارة تتوهج ليس بسبب حرارة النار ولكن بسبب العظام واللحم المتجمد الذي كان يبدأ بالذوبان.

فركتُ وزهرة الثلج أيدي أطفالها. فبكوا بهدوء حتى الولد الأكبر سناً. دفعنا الأطفال الثلاثة بجانب بعضهم البعض وغطيناهم بلحاف. تمددتُ وزهرة الثلج تحت لحاف آخر، بينما أخذتْ حماتُها لحافاً كاملاً لنفسها. كان اللحافُ الأخيرُ للجزار. فلوَّح لنا لنبتعد، وسحبَ أحدَ الرجال من قرية "جينتيان" جانباً، وهمسَ له ببضع كلمات، وأومأ برأسه. ثم انحنى إلى الأسفل بجانب زهرة الثلج.

أعلنَ قائلاً: "إنني ذاهبٌ لأبحثَ عن المزيد من حطب النار".

فأمسكتْ زهرة الثلج بذراعه قائلة: "لا تذهب! لا تتركنا!"

قال لها: "لن نبقى على قيد الحياة طوال الليلة بدون نار. ألا تشعرين بذلك؟ إنَّ الثلجَ قادم". أبعدَ أصابعَ زهرة الثلج بلطف عن ذراعه، وقال: "سيعتني جيراننا بكم أثناء غيابي. لا تخافي. و..". ثم خفّضَ صوتَه وهو يقول: "إذا اضطررت فادفعي هؤلاء الناس بعيداً عن النار، وأفسحي مجالاً لك ولصديقتك. إذ يمكنك أن تفعلي ذلك".

فكّرتُ في نفسي أنها ربما لم تكن تستطيعُ ذلك، ولكنني لم أستطعْ أن أسمحَ لنفسي بأن أموتَ هناك بدون وجود عائلتي.

بقدر ما كنا متعبين جميعاً، فقد كنا خائفين فوق الحدّ أن ننام أو حتى أن نغمضَ أعيننا. كنا جميعاً جائعين وعطاشاً. في الدائرة الصغيرة حولنا، أبعدت النساء – اللواتي كنَّ أخوات بالقسم ومتزوجات – تفكيرنا عن مخاوفنا بغناء إحدى القصص. من الغرابة أنه رغم أن حماتي كانت مثقفة إلى حدٍّ كبير بكتابة الـ "نو شو"، ربما لأنها كانت متطلعة جداً على عدد كبير من الأحرف، فلم يكن الغناءُ والإنشادُ مهمين كثيراً بالنسبة لها. كانت مهتمة بكتابة رسالة مثالية أو قصيدة محببة أكثرَ من الصفات المسلية والمواسية للغناء. بسبب ذلك، تخليتُ والكنات الأخريات عن الكثير من أناشيدنا القديمة التي نشأنا عليها. على أية حال، كانت الأغنية التي غنيناها تلك الليلة مألوفة، ولكنني لم أكنْ قد سمعتُها منذ الطفولة. كانت تتحدثُ عن قبيلة الـ "ياو" وموطنها الأول وقتالها الشجاع من أجل الاستقلال.

قالت زهرة اللوتس وهي امرأة تكبرني ربما بعشر سنوات: "إننا قبيلة "ياو". وفي قديم الزمان، كان هناك امبراطور طيب ومحب للخير يدعى "غاو خين"

هاجمَه قائدٌ طموحٌ وشرير. سمعَ "بانهو" وهو كلبٌ أجرب لا يريدُه أحد، عن متاعب الإمبراطور، وتحدى القائد في معركة. فانتصر فيها، ومُنحَ يدَ إحدى بنات الإمبراطور. كان "بانهو" سعيداً، ولكنَّ خطيبته كانت محرجة. فلم تكن تريدُ أن تتزوجَ كلباً. مع ذلك فقد كان واجبها واضحاً. هكذا، هربت و"بانهو" إلى الجبال، حيث أنجبتْ اثني عشرَ طفلاً. وهم أوائلُ قبيلة الـ "ياو". وعندما كبروا، بنوا مدينة "كيانجيادونغ"؛ وهي مدينة "غروتو" ذات الألف عائلة".

انتهى القسم الأول من القصة. فتابعت امرأةٌ أخرى تُدعى شجرة الصفصاف الإنشاد. وارتجفت زهرة الثلج إلى جانبي. هل كانت تتذكرُ أيام طفولتنا، عندما كنا نصغي لأختي الكبرى وأخواتها بالقسم أو إلى أمي وزوجة عمي وهن يغنين القصة عن بدايتنا؟

سألت شجرة الصفصاف في أغنيتها: "هل يمكنُ أن يكونَ هناك مكانٌ فيه ماء كثيرٌ وأرضٌ طيبةٌ كهذا؟ وهل كان يمكن أن يكونَ محمياً من المتطفلين لأنه كان مخبئاً عن الأنظار وكان المدخلُ الوحيدُ إليه عبرَ نفق في كهف؟ لقد كانت مدينة "كيانجيادونغ" تحملُ سحراً لقبيلة الـ "ياو"، ولكنَّ جنةً كتلك لا تستطيعُ أن تبقى إلى الأبد دون أن يعكِّرَ صفوَها أحدٌ".

بدأتُ أسمعُ شعراً كانت تغنيه نساء جالسات حول نيران أخرى في التجويف. وكان ينبغي أن يوقفَ الرجالُ إنشادنا لأن الثوارَ بالتأكيد كان بإمكانهم أن يسمعونا، ولكنَّ طهارة أصوات النساء منحتنا جميعاً القوة والشجاعة.

تابعت شجرة الصفصاف قائلة: "بعد عدة أجيال لاحقة، عندما جاءَ حكمُ سلالة "يوان" مشى شخصٌ من الحكومة المحلية جريء في استكشافاته عبرَ

النفق ووجدَ قبيلة الـ "ياو". كان الجميعُ مرتدين ثياباً متألقة، وكان الجميعُ سماناً من الثروة التي كان تمنحُها الأرض. عندما سمعَ الإمبراطور، الذي كان طماعاً وجاحداً، عن هذا المكان طالبَ بضرائبَ مرتفعة من قبيلة الـ "ياو"".

حالما سقطتْ أول رقاقات الثلج على شعرنا ووجوهنا، وضعتْ زهرة الثلج ذراعَها في ذراعي، ورفعتْ صوتَها لتروي الجزء التالي من القصة، فقالت وصوتها يرتجفُ من البرد: "لقد أرادَ أهالي قبيلة "ياو" أن يعرفوا لماذا كان ينبغي عليهم أن يدفعوا؟ فبنوا على قمة الجبل الذي كان يحجزُ قريتهم عن المتطفلين متراساً من الحجر. فأرسلَ الإمبراطور ثلاثة من جامعي الضرائب إلى الكهف ليتفاوضوا مع الأهالي. فلم يخرجوا منه، فأرسلَ الإمبراطور ثلاثة آخرين..".

فانضمت النساءُ حول النار إلينا قائلات: "فلم يخرجوا".

استجمعَ صوتُ زهرة الثلج قوتَه، فقالت: "أرسلَ الإمبراطور فرقة ثالثة". ولم أكنْ قد سمعتُ صوت زهرة الثلج قَطُّ على هذا النحو. فقد كان صوتها يطفو صافياً وجميلاً عبر الجبال. ولو كان الثوار قد سمعوها لهربوا بعيداً خوفاً من الأرواح الشريرة.

أجبنا نحن النساء قائلات: "فلم يخرجوا".

"فأرسلَ الإمبراطور قواتاً عسكرية، وحدثَ حصارٌ دموي. مات الكثيرُ من أهالي قبيلة "ياو" رجالاً، ونساء، وأطفالاً. ماذا سنفعل؟ ماذا سنفعل؟ أخذَ الزعيمُ قرن جاموس وقسَّمه إلى اثنتي عشرة قطعة. ثم أعطاه إلى جماعات مختلفة وأخبرَهم أن يتفرَّقوا ويعيشوا حياتهم".

فكررت النساء قائلات: "أن يتفرقوا ويعيشوا حياتهم".

قالت زهرة الثلج ببطء: "وهكذا جاء أهالي قبيلة "ياو" إلى الوديان وإلى الجبال في هذا الإقليم وغيره".

أنهت برعم الخوخ، وهي المرأة الأصغر سناً في المجموعة، القصة قائلة: "يقولون إنه بعد خمسمئة سنة، سيمشي أهالي قبيلة "ياو" أينما كانوا عبر الكهف مجدداً، فيجمعون أجزاءَ القرن معاً ويبنون ديارنا السحرية، وسيحين هذا الوقتُ عما قريب".

مضتْ سنواتٌ عديدةٌ منذ سمعتُ القصة، ولم أكنْ أعرفُ بماذا أُفكّر. لقد كان أهالي قبيلة الـ "ياو" يعتقدون أنهم كانوا آمنين وهم مختبئون خلف أمان الجبل وخلف متراسهم وفي كهفهم السري، ولكنَّهم لم يكونوا كذلك. كنتُ أتساءلُ الآنَ من كان سيأتي إلى التجويف الجبلي أولاً وما كان سيحدثُ عندما يأتي. فقد يحاولُ ثوار "التايبنغز" أن يكسبوا تأييدنا بينما قد يظننا الجيشُ خطأ من الثوار. في كلتا الحالتين، هل كنا نخوضُ معركة خاسرة كما فعلَ أسلافنا؟ هل كنا سنتمكنُ على الإطلاق من العودة إلى ديارنا؟ فكّرتُ بثوار "التايبنغز"، الذين كانوا كأهالي قبيلة "ياو" قد ثاروا ضد الضرائب المرتفعة والنظام الإقطاعي. هل كانوا على حق؟ هل كان ينبغي علينا أن ننضمَ إليهم؟ هل كنا نسيء لأسلافنا بعدم احترامنا لهم؟

لم ينمْ أحدٌ منا في تلك الليلة.

الشتاء

بقيتِ العائلاتُ الأربع من قرية "جينتيان" مع بعضها البعض تحت حماية الشجرة الكبيرة وأغصانها الممتدة. لكنَّ المحنة لم تنتهِ بعد يومين أو حتى أسبوع. عانينا من ثلجٍ في تلك السنة في إقليمنا أسوأَ مما قد يتذكرُ أيٌّ منا. تحمَّلنا درجاتِ الحرارةِ المتجمدة في كل لحظة، وتحوَّلت أنفاسنا إلى سحبٍ من البخار ابتلعَها هواء الجبال. كنا دائماً جياعاً، وكانت كلُّ عائلة تخزِّن طعامها لأنهم كانوا غير واثقين من الوقت الذي كنا سنمضيه بعيداً. كان السعالُ، والزكامُ، والتهابُ البلعوم تصولُ وتجولُ بين الناس في المخيم. استمرَّ الرجالُ، والنساءُ، والأطفالُ يموتون بسبب تلك الأمراض وبسبب الليالي الباردة القاسية.

وكانت قدماي – وأقدامُ معظم النساء في الجبال – قد تعرضتا لأذىً شديد أثناء هروبنا. ولم نكن نتمتعُ بالخصوصية. فهكذا، كان علينا أن نفكَّ، وننظفَ، ونعيدَ ربطَ أقدامنا أمام الرجال. لقد تغلَّبنا على إحراجنا بشأن الوظائف الجسدية، فتعلمنا أن نقضي حاجتنا خلف إحدى الأشجار أو في المرحاض العمومي حالما تمَّ حفره. لكنني، خلافاً لجميع النساء هناك، كنتُ بدون عائلتي. كنتُ أفتقدُ ابني الأكبر وبقية أطفالي بشدة. كنتُ قلقة بشكل مستمر بشأن زوجي، وإخوته، وزوجاتهم، وأطفالهم، وحتى الخدم وفيما إذا كانوا قد وصلوا إلى حماية مدينة "يونغمينغ".

استغرقت قدماي شهراً تقريباً لتشفيا بما يكفي لأتمكنَ من السير عليهما مجدداً قبل أن تبدأا بالنزف مجدداً. في بداية الشهر القمري الثاني عشر، قررتُ أن أذهبَ كلَّ يوم بحثاً عن أخويَّ وعائلتيهما، وأختي الكبرى وعائلتها.

كنتُ آملُ أن يكونوا آمنين هنا، ولكن كيف كان يمكنني أن أحدِّدَ مكانهم في حين أن عشرة آلاف شخص كانوا منتشرين عبر الجبال؟ فكنتُ كلَّ يوم أضعُ أحدَ اللحف على كتفي، وأنطلقُ ماشية بحذر. كنتُ دائماً أعلِّمُ المكانَ الذي تقدمتُ في الوصول إليه لإدراكي أنني إن لم أعثر على طريق العودة إلى عائلة زهرة الثلج فكنتُ سأموتُ بالتأكيد.

في أحد الأيام، ربما بعد أسبوعين من بحثي، صادفتُ جماعة من قرية "غيتان" متجمِّعين معاً تحت نتوء صخري. فسألتُ إن كانوا يعرفون أختي الكبرى.

فقالت إحدى النساء بسرعة: "نعم، نعم، إننا نعرفها!"

قالت صديقتها: "لقد افترقنا عنها في الليلة الأولى. أخبريها إن عثرتِ عليها أن تأتي معنا. إذ بإمكاننا أن نأوي عائلة أخرى".

رغم ذلك، فقد حذَّرت امرأةٌ أخرى، كان يبدو أنها قائدتهن، أنه كان لديهن مكان فقط للناس من قرية "غيتان" تحسباً أن تكونَ لديَّ أية أفكار.

قلتُ: "إنني أفهمكن، ولكن إن رأيتموها فهل يمكنكن أن تقلن لها إنني أبحثُ عنها؟ إنني أختها؟"

"أختُها؟ هل أنت السيدة المعروفة باسم السيدة "لو"؟"

فأجبتهن بحذر قائلة: "نعم". وإذا كن يعتقدن أنه كان لديَّ شيءٌ لأعطيه لهن فقد كن مخطئات.

"لقد أتى بعضُ الرجال بحثاً عنك".

فقفزتْ معدتي لسماع ذلك، وقلت: "من كانوا؟ أهم أخواي؟"

نظرتِ النساءُ لبعضهن البعض، ثم نظرن إليَّ محاولات أن يكونَّ رأياً عني. تكلمت قائدتهن مجدداً قائلة: "لقد كانوا حريصين ألا يفصحوا عن هويتهم. فأنت تعرفين كيف هي الأمور هناك. كان أحدُهم هو السيد. يمكنني أن أقولَ إنه كان يتمتعُ ببنية قوية، وكان حذاؤه وثيابه من نوعية جيدة. كان شعره منسدلاً على جبهته هكذا".

إنه زوجي! لا بدَّ أنه هو!

"ماذا قال؟ أين هو الآن؟ كيف..".

"إننا لا نعرفُ ذلك. ولكن إن كنتِ السيدة "لو" فاعلمي أنَّ هناك رجلاً يبحثُ عنك. فلا تقلقي". مدّت المرأة يدَها وربتت على يدي، وقالت: "لقد قال إنه سيعود".

لكنني بقدر ما بحثتُ لم أسمع قطُّ قصة أخرى كهذه. سرعان ما بدأتُ أعتقدُ أن أولئك النسوة كن يستخدمن قسوتهن ضدي. لكن عندما عدتُ إلى نفس المكان حيث قابلتهن، كانت مجموعةٌ أخرى من العائلات مجتمعة تحت النتوء الصخري. فبعد هذا الاكتشاف، عدتُ إلى مخيمي وأنا لا أشعرُ بشيء سوى اليأس العميق. كنتُ السيدة "لو" كما يفترض، ولكنَّ أحداً لم يكن سيعرفُ ذلك بالنظر إليَّ. فقد كان ردائي الحريري الأرجواني المطرز على نحو خبير بشكل زهور الأقحوان متسخاً وممزقاً، بينما كان حذائي مسودَّاً بسبب الدم الذي نزفته، وبالياً من الارتداء اليومي خارجَ المنزل. كان يمكنني فقط أن أتخيلَ ما كانت الشمسُ، والريحُ، والبردُ قد فعلَته بوجهي. يمكنني أن أعودَ بذاكرتي إلى الوقت الذي كنتُ أبلغُ فيه الثامنة عشرة من عمري وأن أقولَ إنني كنتُ شابة

غبية وتافهة لأفكرَ بالغرور في حين أن قلة الطعام والبرد القارس كانا أعداءنا الحقيقيين.

أصبحَ زوج زهرة الثلج بطلاً في مجموعة الناس الصغيرة التي كنا فيها. فلكونه يعملُ في مهنة قذرة، كان يقومُ بالكثير من الأمور التي كان ينبغي عليه فعلُها دون تذمر ودون أن يتوقعَ شكراً على ذلك. لقد وُلدَ تحت علامة "الديك"، التي تعني أنه كان وسيماً، وإنتقادياً، وعدوانياً، وقاتلاً إن تطلَّبَ الأمرُ منه ذلك. كان من طبيعته أن ينظرَ إلى الأرض ليبقى على قيد الحياة. فكان يمكنه أن يصطاد، وأن ينظفَ حيواناً، وأن يطهوه على نار مكشوفة، وأن يجفف الجلود لكي نستخدمها للتدفئة. كان يمكنه أن يحملَ أحمالاً ثقيلة من الماء وحطب النار. لم يكنْ يتعب قَطُّ، ولم يكن هنا ملوِّثاً، بل كان حارساً وبطلاً. كانت زهرة الثلج فخورة به لكونه قائداً بهذا الشكل. كنتُ ومازلتُ ممتنةً إلى الأبد أن أعمالَه قد أبقتني على قيد الحياة.

لكن أمَّه المولودة تحت علامة "الجرذ" كانت دائماً تتسللُ وتتهربُ في الأنحاء. فعندما كنا في أسوأ الظروف الصعبة كانت مستمرةً باتهام الآخرين والشكوى منهم حتى بشأن أقل الأمور أهمية. كانت دائماً تجلسُ أقربَ الجميع إلى النار. لم تترك قَطُّ اللحاف الذي كان قد سُلِّمَ لها في الليلة الأولى. كانت في كل فرصة تسنحُ لها تأخذُ أحد اللحف الأخرى حتى نطالبها بإعادته. كانت تخبئ الطعام في أكمامها، وتسحبُه خارجاً عندما كانت تعتقد أننا لم نكن ننظرُ إليها لتدسَّ في فمها قطعاً من اللحم. إننا غالباً ما كنا نسمعُ أن الجرذَ متعصبٌ لبني قومه. كنا نرى مظاهرَ من هذا التعصب كل يوم. كانت تعملُ

باستمرار على تملق واستغلال ابنها مع أنه لم يكن عليها أن تفعلَ ذلك. كان يفعلُ ما كان أيُّ ابن مطيع ليفعلَه. كان يطيعُها لذا، فعندما كانت تستمرُ وتستمرُ في الكلام عن حاجتها للطعام أكثرَ من كنتها، كان يحرصُ على أن تأكلَ هي وليس زوجته، ولأنني كنتُ ابنة مطيعة، فلم أستطع أن أجادلَه في منطق هذا الأمر. لذا، بدأتُ وزهرة الثلج نتقاسمُ حصتي من الطعام. في أحد الأيام بعد أن كنا قد وصلنا لقعر كيس الأرز الذي كان لدينا، قالت أم الجزَّار إنه لا ينبغي للابن الأكبر أن يُعطى من الطعام الذي كان الجزَّارُ يصطادُه أو يجده.

فقد قالت: "إنه غالٍ جداً لتبدده على شخص ضعيف إلى هذا الحدّ. سنرتاحُ جميعاً عندما يموت".

نظرتُ إلى الصبي، وكان في الحادية عشرة من عمره في تلك السنة، وهو في نفس عمر ابني. حدَّق الصبي إلى جدتِه بعينين غائرتين، وكان مثيراً للشفقة فوق الحدّ بحيث إنه لم يكنْ يستطيعُ أن يدافعَ عن نفسه. كانت زهرة الثلج بالتأكيد لتقولَ شيئاً نيابةً عنه. فقد كان ابنها الأكبر رغم كل شيء. لكنَّ رفيقتي لم تكنْ تحبُّ ذلك الصبي كما كان ينبغي عليها أن تفعل. فلم تكن عيناها، حتى في تلك اللحظة التي كان فيها يُحكَمُ عليه بالموت المحقق، تنظران إليه بل إلى ابنها الثاني، وبقدر ما كان الصبيُ الثاني ذكياً ومرناً وقوياً، لم أستطعْ أن أدعَ هذا يحدثُ للابن الأكبر. فقد كان ذلك يخالفُ كل التقاليد. كيف كنتُ لأجيبَ أسلافي عندما يسألونني كيف تركتُ الطفل يموت؟ كيف كنتُ لأحيِّي الطفلَ المسكين عندما أراه في العالم الآخر؟ لقد كان كابن

أكبر يستحقُ طعاماً أكثرَ من أي واحد منا بمن فينا الجزار. لذا، بدأتُ أشاركُ حصتي مع زهرة الثلج وابنها. عندما أدركَ الجزارُ ما كان يحدثُ صفعَ الصبي ثم زوجتَه.

"هذا الطعامُ هو للسيدة "لو"".

قبل أن يتمكنَ أيٌّ منهما من الإجابة، قفزت أمه "الجرذ"، وقالت: "لماذا تعطي تلك المرأة طعاماً، يا بني؟ إنها مجرّد غريبة بالنسبة لنا. ويجب علينا أن نُفكّر بأفراد عائلتنا، أي: أنت وابنك الثاني وأنا".

لم يكنْ هناك ذكرٌ بالطبع للابن الأكبر وقمر الربيع اللذين كانا قد عاشا حتى ذلك الوقت على فتات الطعام، وكانا قد أصبحا أكثرَ ضعفاً بمرور كلِّ يوم.

ولكنَّ الجزار لمرة واحدة فقط لم يرضخ لضغط أمه.

قال: "إنَّ السيدة "لو" هي ضيفتنا. وإذا أعدتُها إلى عائلتها على قيد الحياة فقد تكونُ هناك مكافأة".

فسألتْ أمه: "مال؟"

هذا سؤال نموذجي بالنسبة لـ "الجرذ". فلم تكنْ تلك المرأة تستطيعُ أن تخفي طمعَها وحرصَها على المكاسب.

"هناك أمورٌ يستطيعُ السيد "لو" أن يفعلَها لنا تتجاوزُ موضوع المال".

فضاقت عينا المرأة العجوز لتصبحا كشقين بينما كانت تُفكّرُ بالأمر. وقبل أن تتمكنَ من أن تتحدث، قلتُ: "إذا كنتَ لتحظى بمكافأة، فيجبُ أن أحظى بكمية أكبر من الطعام. وإلا..". وهنا أدرتُ وجهي في تكشيرة مدللة تذكرتُها من وجوه محظيات حماي، وقلت: "فسوف أقولُ إنني لم أجدْ من هذه العائلة

أي حسن ضيافة، بل وجدتُ فقط البخلَ، وعدمَ مراعاة الآخرين، والسوقية".

يا لها من مخاطرة هائلة تلك التي قمتُ بها في ذلك اليوم! فقد كان يمكنُ للجزارَ أن يرميني خارجَ المجموعة حالاً عندئذٍ. وعوضاً عن ذلك وبالرغم من شكاوى والدته التي لا تنتهي، تلقيتُ أكبرَ حصة من الطعام. فتمكنتُ من اقتسامها مع زهرة الثلج، وابنها الأكبر، وقمر الربيع. ولكننا كنا جائعين جداً. فقد أصبحنا أفضلَ من الجثث بقليل، ونحن مستلقون بهدوء طوال اليوم، وعيوننا مغلقة، ونحن نتنفسُ تنفساً سطحياً قدر المستطاع محاولين أن ندَّخرَ كل المصادر التي كانت قد بقيت لدينا. وكانت الأمراضُ التي تعتبرُ معتدلةً في الديار تُنقصُ عددنا باستمرار. بوجود القليل من الطعام، والطاقة، وأكواب الشاي الساخنة، وجرعات الأعشاب المقوية لم تكن لدى أحد القوة ليقاومَ تلك الأمراض. بموت المزيد من الناس، كان القليلُ من بيننا لديهم القوة لتحريك الجثث.

كان ابن زهرة الثلج الأكبر يسعى للبقاء إلى جانبي كلما كان يتمكنُ من ذلك. ولم يكنْ صبياً محبوباً بالفعل، ولكنه لم يكن غبياً كما كانت عائلتُه تعتقد. فكّرتُ باليوم الذي كنتُ قد ذهبتُ فيه وزهرة الثلج إلى معبد "غوبو" لنصلي من أجل ابنينا وكيف أننا أردنا لهما أن يتمتعا بذوق أنيق ومهذب. فكان بإمكاني أن أرى تلك الأشياء مخبأة في ذلك الصبي رغم أنه لم يتلقَ تعليماً مناسباً. لم أتمكنْ من مساعدته في تعلم كتابة الرجال، ولكنني استطعتُ أن أكررَ ما كنتُ قد سمعتُ العم "لو" يعلمُه لابني، مثل: "إنَّ الأشياء الخمسة التي يحترمها الشعبُ الصيني أكثر هي: السماء، والأرض، والإمبراطور، والوالدان،

والمعلمون..". وعندما نفدتِ مني الدروسُ التي استطعتُ أن أتذكرَها، قصصتُ عليه قصةً وعظيةً كانت النساءُ ترويها في مقاطعتنا عن صبي هو الثاني لعائلته أصبحَ موظفاً كبيراً في البلاط وعاد إلى عائلته. ولكنني غيرتُ القصة لتلائمَ ظروف هذا الصبي المسكين.

فبدأتُ قائلة: "كان هناك ابنٌ هو الابنُ الأول لعائلته يجري بجانب النهر. وكان غضاً كغصن الخيزران، ولا يعرفُ شيئاً عن الحياة. فقد كان يعيشُ مع أمه وأبيه وأخيه الأصغر وأخته الصغرى، وكان الابنُ الأصغرُ سيتبعُ مهنة أبيه. وكانت الأختُ الصغرى ستتزوجُ. ولم تكنْ عينا الأم والأب تنظران إلى ابنهما الأكبر. وعندما كانا يفعلان ذلك، كانا يضربانه على رأسه حتى يتورَّم كالبطيخة".

غيَّرَ الصبي جلستَه بجانبي محولاً نظرَه من النار إلى وجهي وأنا أتابعُ الكلام.

"في أحد الأيام، ذهبَ الصبي إلى المكان الذي كان أبوه يخبئ فيه ماله. فأخذَ بعض المال وخبأه في جيبه. ثم ذهبَ إلى المكان الذي كانت أمه تخبئ فيه الطعام، وملأ حقيبة بأكبر قدر استطاعَ حملَه من الطعام. وبدون كلمة وداع واحدة، رحلَ عن منزله، وسارَ عبر الحقول، وسبحَ عبر النهر، ومشى قليلاً أكثر". وفكّرتُ بمكان بعيد، وقلت: "مشى كل المسافة إلى قرية "غويلين". أتعتقدُ أن هذه الرحلة إلى الجبال صعبة؟ أتعتقدُ أن العيشَ خارجاً في الشتاء صعب؟ إنَّ هذا لا شيء. لقد كان خارجاً على الطريق، بدون أصدقاء وبدون أحد يحسنُ إليه، بل لم يكن معه سوى ثيابه على ظهره. وعندما نفدَ المالُ

والطعامُ منه، أصبحَ يعيلُ نفسه بالتسول".

فتغيرَ لون الصبي ليس من حرارة النار ولكن من الخزي. فلا بدَّ أنه سمعَ أن جديه لأمه قد هبطا إلى مستوى تلك المعيشة.

تابعتُ قائلة: "بعضُ الناس يقولون إن هذا سيئ السمعة، ولكنَّه فقط طريقةٌ للعيش. وهو يتطلبُ شجاعة كبيرة".

فشخرتْ أمُ الجزار من الجانب الآخر من النار، وقالت: "إنك تروين القصة بشكل خاطئ".

فلم أعرْها انتباهاً. وكنتُ أعلمُ كيف كانت القصة، ولكنني أردتُ أن أمنحَ هذا الطفل شيئاً ليتمسكَ به.

"تجوَّل ذلك الصبيُ في شوارع قرية "غويلين" بحثاً عن الناس الذين كانوا يرتدون ملابسَ موظفي البلاط. فأصغى للطريقة التي كانوا يتحدثون بها، وحرَّك فمه ليصدرَ نفس الأصوات. كان يجلسُ بجانب صالات الشاي، ويتحدثُ مع الرجال الذين كانوا يدخلون. وفقط عندما أصبحَ كلامُه مهذباً، نظرَ أحدُهم باتجاهه".

هنا خرجتُ عن القصة، فقلت: "إنَّ هناك أشخاصاً لطفاء في العالم، أيها الصبي. وقد لا تصدقُ هذا، ولكنني قد التقيتُ بهم. فينبغي عليك دائماً أن تبحثَ عن أحد يمكنُه أن يكونَ محسناً".

فسألني قائلاً: "مثلك؟"

فشخرت الجدة. وتجاهلتُها مجدداً.

استأنفتُ قائلة: "لقد اتخذَ هذا الرجلُ الصبي خادماً له. وبينما كان الصبي

يخدمُه، علّمه الرجل المحسن كلَّ شيء يعرفُه. وعندما لم يعد يمكنه أن يعلمَه المزيد، استأجرَ له معلماً. وبعد سنوات عديدة، خضعَ الصبي، الذي أصبحَ الآن رجلاً ناضجاً، للامتحان الإمبراطوري، وأصبحَ موظفاً في البلاط، ولكنه كان في المرتبة الأدنى فقط". وأضفتُ ذلك معتقدةً أنَّ شيئاً كهذا كان ممكناً حتى بالنسبة لابن زهرة الثلج.

"عادَ الموظفُ الكبير إلى قريته الأصلية، ونبحَ الكلبُ أمام بيت عائلته ثلاث مرات تحيةً له. فخرجَ الأبُ والأمُ من المنزل، ولم يميزا ابنهما، وخرجَ الابن الثاني، ولم يميز أخاه. أما بالنسبة للأخت فكانت قد تزوجت. وعندما أخبرَهم الابن عن هويته، انحنوا له. وسرعان ما بدؤوا يطلبون منه الخدمات. فقال والدُه: "إننا بحاجة لبئر جديد. هل يمكنك أن تستأجرَ أحداً ليحفرَه لنا؟" وقالت الأم: "ليس لديَّ أيُّ حرير. هل يمكنك أن تشتري لي بعض الحرير؟" وقال الأخ الأصغر: "لقد اعتنيتُ بوالدينا لسنوات عديدة. هلاَّ دفعتَ لي ثمنَ الوقت الذي أنفقتُه؟" فتذكَّر موظفُ البلاط كم كانت معاملتهم له سيئة. وعاودَ الركوب في مِحفَّته، وعاد إلى قرية "غويلين"، حيث تزوجَ وأنجبَ العديد من الأبناء، وعاش حياة سعيدة جداً".

بصقتِ المرأةُ العجوز في النار مرة أخرى، ونظرت إليَّ بغضب قائلة: "أتقصِّين هذه القصص، وتدمرين حياة الصبي المدمرة أصلاً؟ أتمنحينه الأملَ عندما لا يكونُ هناك أي أمل؟ لماذا تفعلين ذلك؟"

كنتُ أعلمُ الإجابة، ولكنني لم أكنْ أبداً لأخبرَها لتلك المرأة العجوز "الجرذ". وكنتُ أعلمُ أننا لم نكنْ في ظروف طبيعية، ولكنني بعيداً عن عائلتي كنتُ

بحاجة لأحد أعتني به، وكنتُ في بالي أرى زوجي كالمحسن لهذا الصبي. لِمَ لا؟ وإذا استطاعت زهرة الثلج أن تساعدَني عندما كنا فتاتين، أفلا تستطيعُ عائلتي أن تغيرَ مستقبلَ هذا الصبي؟

سرعان ما أصبحتِ الحيوانات في التلال حولنا نادرة الوجود بعد أن أبعدَها من موطنها وجود الكثير من الناس أو الموتى – لأن الكثيرين منا قد ماتوا – وقسوة برد ذلك الشتاء. أصبحَ الرجالُ، وكلهم مزارعون، ضعفاء، وكانوا يحضرون فقط ما كان يمكنهم أن يحملوه. وعندما كان طعامُهم ينفد، كانوا وعائلاتهم يتضورون جوعاً. كان العديد من الأزواج يطلبون من زوجاتهم أن يعدن إلى سفح الجبال ليحضرن المؤن. وكما هو معروفٌ، لم يكن من الممكن أن تتعرضَ النساءُ في مقاطعتنا للأذى في وقت الحرب. وهذا هو السبب أنهم غالباً ما كانوا يرسلوننا لنجدَ طعاماً أو ماءً أو مؤناً أخرى أثناء الثورات. فكانت أذيةُ النساء أثناء الحروب تؤدي إلى تصعيد القتال. ولكن لم يكن ثوار "التايبنغز" ولا الجنود في الجيش من الجوار. فلم يكونوا يعرفون تقاليدَ شعب قبيلة الـ "ياو". بالإضافة لذلك، كيف كان يمكننا نحن النساء الضعيفات من الجوع أن نسيرَ على أقدامنا المربوطة لنهبط الجبل في الشتاء ونحملَ المؤن.

هكذا، فقد انطلقت مجموعةٌ صغيرة من الرجال يمشون بحذر نازلين الجبل آملين أن يجدوا الطعام والضروريات الأخرى في القرى التي كنا قد أخليناها. وتمكنَ القليلُ منهم من العودة. فأخبرونا عن رؤية أصدقائهم وأعناقهم تُضرَب ورؤوسهم تُرفَعُ على العِصي. فانتحرتِ النساءُ اللواتي أصبحنَ أراملَ حديثاً لعدم قدرتهن على تحمل الخبر. فرمين أنفسهن من على الجرف الذي كن قد

أجهدن أنفسهن كثيراً ليتسلقنه، أو ابتلعن جمراً محترقاً من نيران المساء، أو قطعن أعناقهن، أو قمن بتجويع أنفسهن ببطء. أما أولئك اللواتي لم يتخذن هذا الطريق فقد أخزين أنفسهن أكثرَ بأن سعين وراء حياة جديدة مع رجال آخرين حول نيران أخرى. وكان يبدو أن النساء قد نسين في الجبال قواعد الترمُّل. فحتى لو كنا فقراء، وحتى لو كنا شابات، وحتى لو كان لدينا أطفال، فمن الأفضل لنا أن نموت وأن نبقى مخلصات لأزواجنا وأن نحتفظَ بفضيلتنا من أن نجلبَ العارَ لذكراهم.

أثناء وجودي بعيداً عن أطفالي، لاحظتُ أطفال زهرة الثلج عن قرب مراقبة كيف كانوا متأثرين بها، وتعلمتُ المزيدَ عنها منهم. ولأنني كنتُ أفتقدُ أطفالي بشكل رهيب، كنتُ أقارنُهم بأطفالها. ففي بيتي، كان ابني الأكبر قد سبقَ واتخذَ موقعَه الصحيح. وكان مستقبلٌ باهرٌ يمتدُّ أمامَه. أما في هذه العائلة، فكان ابن زهرة الثلج الأكبر يتمتعُ بمكانة أدنى حتى من مكانتها. ولم يكنْ أحدٌ يحبه. وكان يبدو بلا هدف. ومع ذلك، فقد كان بالنسبة لي أكثرَ من يشبهُ رفيقتي. فقد كان لطيفاً ورقيقاً. ربما كان هذا هو السبب في أنها ابتعدتْ عنه بقلب قاسٍ هكذا.

كان ابني الثاني طيباً وذكياً، ولكنَّه لم يكن يتمتعُ بفضول ابني الأكبر. كنتُ أتخيلُه يعيشُ معنا لبقية حياته، ويتزوجُ عروساً، وينجبُ أطفالاً، ويعملُ عندَ أخيه الأكبر. أما ابن زهرة الثلج الثاني، من ناحية أخرى، فقد كان نورَ هذه العائلة المضيء. وكان يتمتعُ ببنية أبيه. فكان قصيراً وقوياً وممتلئ الجسم يمتلك ساقين وذراعين قويتين. ولم يكن هذا الطفل قَطُّ يبدي خوفاً أو يرتجفُ

من البرد أو ينتحبُ من الجوع. كان يتبعُ والدَه كظله حتى عندما كان يذهبُ في حملاتٍ للصيد. ولا بدَّ أنه كان عوناً لأبيه بطريقة ما أو أن الجزار ما كان ليسمحَ له بشيء كهذا. عندما كانا يعودان مصطحبين جثة حيوان ما، كان الصبي يجلسُ بجانب أبيه ليتعلمَ كيف يحضِّرُ اللحم للطهو. وقد علَّمني شبهُه بأبيه الكثير عن زهرة الثلج. فقد يكونُ زوجها فظاً، وقذراً، وأدنى من رفيقتي من نواحٍ كثيرة، ولكنَّ الحبَّ الذي كانت تظهرُه للصبي جعلني أعلمُ أنها كان تهتمُ كثيراً بأمر زوجها أيضاً.

كان وجه قمر الربيع وسلوكها شيئاً لم تكن ابنتي تتمتعُ به. فقد كانت حجر اليشب تحملُ ملامحَ عائلتي الخشنة، وهو السبب أنني كنتُ قاسية كثيراً معها، ولأنَّ المالَ الذي جنيناه من تجارة الملح كان يمكنه أن يؤمنَ لها مهراً جيداً، فقد كان يمكنها أن تتزوجَ زواجاً جيداً. كنتُ أعتقدُ أن حجر اليشب كانت ستصبحُ زوجة جيدة، ولكن قمر الربيع كانت ستصبحُ زوجة مميزةً إذا سنحتْ لها الفرص التي سنحت لي.

كلُّهم جعلوني أفتقدُ عائلتي.

كنتُ وحيدة وخائفة. ولكنَّ هذا كانت تلطفُه الليالي التي كنتُ أقضيها مع زهرة الثلج. فكانت زهرة الثلج تأتي إليَّ، وتحيطني بذراعيها كما كنا نفعلُ ونحن فتاتان صغيرتان. وقد كنتُ ممتنةً لدفئها في درجات الحرارة المتجمدة. وبدون جسمها بجانبي، كنتُ لأصبحَ مجردَ امرأة أخرى تموتُ في الليل.

أصبحتْ زهرة الثلج حاملاً مجدداً، رغمَ أنني كنتُ آملُ أن يكونَ انقطاعُ عادتها الشهرية قد حدثَ لها نتيجة للبرد أو المشقة أو قلة التغذية. لكنها لم

تكن تريدُ أن تسمعَ كلاماً من هذا النوع.

قالت: "لقد كنتُ حاملاً من قبل. وأعرفُ الأعراض".

"إذاً، أتمنى لك ابناً آخر".

فلمعت عيناها بمزيج من السعادة والتأكيد وقالت: "هذه المرة، سأنجبُ ابناً".

"إن الأبناء هم حقاً نعمة دائمة. وينبغي أن تكوني فخورة بابنك الأكبر".

فأجابتْ بلطف قائلة: "نعم". ثم أضافت: "لقد راقبتكما معاً. إنكِ تحبينه. فهل تحبينه بقدر كافٍ لكي تجعليه صهرك؟"

كنتُ أحبُ الصبي. ولكنَّ هذا العرض كان غير وارد.

قلت: "لا يمكنُ أن يكونَ هناك ارتباطٌ بين رجل وامرأة في عائلتينا". كنتُ مدينة لزهرة الثلج بمقدارٍ كبيرٍ لما أصبحته. أردتُ أن أفعلَ الشيء نفسَه لقمر الربيع، ولكنني لم أكن لأسمحَ لابنتي أن تتنازلَ إلى هذا الحدّ، وقلت: "إن ارتباط صداقة عميقة حقيقية بين ابنتينا هو أهم بكثير، ألا توافقين على ذلك؟"

فأجابت زهرة الثلج، وهي غيرُ مدركة لمشاعري الحقيقية، كما أعتقد: "إنك بالطبع محقة. وعندما نعودُ إلى البيت سنلتقي الخالة "وانغ"، كما خططنا. وحالما تستقرُ أقدام الفتاتين في شكلهما الجديد، ستذهبان إلى معبد "غوبو" لتوقعا عقدَ صداقتهما، وتشتريا مروحة لتكتبا عن حياتهما معاً، وتأكلا عند كشكِ القلقاس".

"ينبغي أن نلتقي في مدينة "شيشيا" أيضاً. وإذا كنا حذرتين، فسنراقبهما".

فسألتني زهرة الثلج والشك يبدو عليها: "هل نتجسسُ عليهما؟" وعندما ابتسمتُ، ضحكتْ، وقالت: "لطالما كنتُ أعتقدُ أنني كنتُ الشريرة. ولكن انظروا

مَن الذي يخطط الآن!"

رغم الحرمان الذي كنا نعيشُه في تلك الأسابيع والأشهر، فقد منحتنا خططنا لابنتينا الأمل. حاولنا أن نتذكَّر طيبةَ الحياة مع كل يوم يمر، واحتفلنا بعيد الميلاد الخامس لابن زهرة الثلج الأصغر. وكان طفلاً طريفاً صغيراً. وكنا نتسلى بمراقبته ووالده، فكانا يتصرفان كخنزيرين، وهما يدفعان بعضهما بأنفيهما ويتصادمان بجسديهما القويين ضد بعضهما البعض، وكلاهما ملوثان بالتراب، والأوساخ، ومبتهجان بصحبة بعضهما الآخر. كان الابن الأكبرُ مقتنعاً بالجلوس مع النساء، وبسبب اهتمامي بالصبي، بدأت زهرة الثلج تعيره انتباهاً أيضاً. فكان تحت ناظريها يبتسمُ عن طيب خاطر. كنتُ أرى في تعبير وجهه وجهَ أمه عندما كانت في هذا العمر، وكان عذباً، وبريئاً، وذكياً. وكانت زهرة الثلج تنظرُ إليه، ليس بحب الأم تماماً، ولكن كأنها كانت تحبُّ ما كانت تراه فيه الآن أكثرَ مما كانت تعتقدُه سابقاً.

في أحد الأيام بينما كنتُ أعلمُه أغنية، قالت لي: "لا ينبغي له أن يتعلمَ أغاني النساء. لقد كنا نتعلمُ بعض الشعر عندما كنا فتيات..".

"عن طريق أمك..".

"وأنا واثقةٌ أنك قد تعلمتِ أكثرَ في بيت زوجك".

"لقد فعلتُ ذلك".

فشعرنا كلتانا بالإثارة، ونحن نرددُ عناوينَ القصائد التي كنا نعرفها.

أمسكتْ زهرة الثلج بيد ابنها، وقالت: "لنعلمْه ما نستطيع لنجعلَه رجلاً مثقفاً".

كنتُ أعلمُ أن هذا لن يشكلَ الكثير لأننا كلتينا كنا أميتين. ولكنَّ الصبي كان كحبة فطر مجففة ألقيت في ماء مغلي. فكان يمتصُّ كل شيء كنا نمنحه إياه، وسرعان ما كان باستطاعته أن يلقي قصيدة "سلالة تانغ" التي كنتُ وزهرة الثلج نحبها كثيراً ونحن فتاتان صغيرتان، ومقاطعَ كاملة من كتاب "التقاليد" للصبية كنتُ قد حفظتُها عن ظهر قلب لأساعدَ ابني في دروسه. للمرة الأولى، رأيتُ فخراً حقيقياً في وجه زهرة الثلج. لم تشعرْ بقية العائلة بنفس هذا الشعور. لكنَّ زهرة الثلج لم تنكمش أو تستسلم ولو لمرة واحدة لمطالبهم منا أن نتوقف. فقد كانت تتذكرُ الفتاة الصغيرة التي اعتادت أن تسحبَ الستارة في المِحفَّة لكي نتمكنَ من اختلاس النظر.

بقدر ما كانت تلك الأيام باردة، وغير مريحة، ومليئة بالخوف والمشقة فقد كانت رائعة لأن زهرة الثلج كانت سعيدة بطريقة لم أرَها منذ سنوات عديدة. فقد كانت وهي حامل بدون طعام كافٍ يبدو عليها أنها تتوهجُ من الداخل وكأنها كانت منارة بمصباح زيتي. وكانت تستمتعُ بصحبة أخوات القَسَم الثلاث من قرية "جينتيان"، وتحبُّ عدم كونها محبوسة لوحدها مع حماتها. كانت زهرة الثلج وهي جالسةٌ مع أولئك النسوة تغني الأغاني التي لم أسمعها منذ وقت طويل. فقد كانت روحها التي تشبهُ روح الحصان حرة في هذا المكان المكشوف بعيداً عن قيود بيتها الصغير المظلم الكئيب.

في إحدى الليالي القارسة بعد أن كنا قد أمضينا عشرة أسابيعَ فوق في الجبال، خلدَ ابن زهرة الثلج الثاني للنوم بجانب النار، ولم يستيقظ أبداً. ولا أعرف ما الذي قد تسببَ في موته، أهو المرض أم الجوع أم البرد. لكننا في

ضوء الصباح الباكر رأينا أن الصقيعَ كان يغطي جسمه وأن وجهه كان متجمِّداً ومزرقّاً. كانت أصداءُ عويل زهرة الثلج تترددُ بين التلال، ولكنَّ الجزّار تلقّى الخبرَ بشكل أسوأ. فأمسكَ الصبي بين ذراعيه، والدموع تنهمرُ على وجنتيه ورطوبتها تحفرُ أخاديدَ على التراب الذي تجمعَ لعدة أسابيع على وجهه. ولم يكن من شيء ليُخففَ عنه. ولم يكنْ ليستمعَ لزوجته أو حتى لأمه. فدفنَ وجهه في جسم ابنه محاولاً ألا يسمعَ توسلاتهما. وحتى عندما جلسَ المزارعون في مجموعتنا حوله ليخفوه عن نظرنا وليخففوا عنه بالهمسات المنخفضة، لم يستسلم. وكان كل برهة قصيرة، يرفعُ وجهه ويصرخُ نحو السماء قائلاً: "كيف كان من الممكن لي أن أفقدَ ابني العزيز؟" وكان سؤال الجزّار المحطم الفؤاد من الأسئلة التي تظهرُ في الكثير من القصص والأغنيات بلغة الـ "تو شو". نظرتُ إلى وجوه النساء الأخريات حول النار، ورأيتُ السؤال الذي لم يسألنه: هل يمكن لرجل، كهذا الجزار، أن يشعرَ بنفس اليأس والحزن اللذين نشعرُ بهما نحن النساء عندما نفقد طفلاً؟

بقي على ذلك النحو ليومين، بينما غنى البقيةُ منا أغاني الحداد. ثم نهضَ في اليوم الثالث، وضمَّ الصبي إلى صدره، واندفعَ بعيداً عن نارنا عبر مجموعات العائلات الأخرى إلى الغابات التي كان وابنُه قد غامرا بالدخول إليها مرات عديدة من قبل. وعادَ بعد يومين صِفرَ اليدين. عندما سألتُه زهرة الثلج أين دفن الصبي، استدارَ الجزارُ وضربَها بقوة بحيث إنها طارت إلى الوراء على بعد مترين، واستقرت مع صوت خبطة على الثلج المضغوط.

استمرَ يضربُها بشدة مما أدى إلى إجهاضها مع نزيف شديد من الدم

الأسود الذي صبغَ الصخور الثلجية في أنحاء موقع مخيمنا. ولم يكن قد مضى عليها وقتٌ طويلٌ في الحمل. لذا، لم نجدِ الجنينَ أبداً. ولكنَّ الجزَّار كان مقتنعاً أنه قد خلَّصَ العالم من فتاة أخرى. كان يرددُ مراراً وتكراراً قائلاً: "ليس هناك شيء شريرٌ كقلب المرأة". وذلك رغم أن أيّاً منا لم تكن قد سمعَت بهذه المقولة من قبل. استمررنا ببساطة بالقيام بعملنا على إسعاف زهرة الثلج، فخلعنا عنها سروالها وأذبنا الثلج لنغسلَه، وغسلنا ساقيها من بقع الدم، واستخدمنا الحشوة من أحد لحف زفافها لنوقفَ النزيف الرهيب الذي كان يتدفقُ منها. ولم نكنْ نرفعُ عيوننا أو أصواتنا إلى زوجها.

عندما أعودُ بذاكرتي إلى الماضي، أعتقدُ أن زهرة الثلج قد بقيت على قيد الحياة بمعجزة في الأسبوعين الأخيرين في الجبال وهي تتقبلُ بخنوع الضرب المستمر. لقد ضعفَ جسمها بسبب فقدانها كثيراً من الدم بسبب الإجهاض. وكان جسمها مليئاً بالكدمات والجروح نتيجةً للعقوبة اليومية التي كان زوجها يوقعُها بها. لِمَ لَمْ أوقفه؟ لقد كنتُ السيدة "لو". ولقد جعلتُه يفعلُ ما أريدُه من قبل. لِمَ لا أفعلُ ذلك هذه المرة؟ إنني لم أكنْ أستطيعُ أن أفعلَ المزيدَ لأنني كنتُ السيدة "لو". لقد كان رجلاً قوياً ولا يخجلُ من استخدام تلك القوة. كنتُ امرأة وحيدة رغم وضعي الاجتماعي، وكنتُ ضعيفة. لقد كان مدركاً تماماً لتلك الحقيقة كما كنتُ أدركُها أيضاً.

في تلك اللحظة من أدنى لحظات حياة رفيقتي، أدركتُ كم كنتُ بحاجة لزوجي. فقد كان مقدارٌ كبير من حياتي معه بالنسبة إليَّ يتعلقُ بالواجب والأدوار التي كان يُطلبُ منا أن نؤديها. فندمتُ على كل المناسبات التي لم

أكنْ فيها الزوجةَ التي كان يستحقها، وعاهدتُ نفسي أنني إن نجحتُ بالنزول عن الجبال، فسأصبحُ المرأة التي قد تكتسبُ لقب السيدة "لو" فعلاً وألا أكونَ مجردَ ممثلة في مهرجان. تمنيتُ ذلك وعزمتُ على تحقيقه، ولكنَّ ذلك لم يحدث قبل أن أُظهرَ نفسي أكثرَ وحشية وقسوة بكثير من زوج زهرة الثلج.

استمرتِ النساءُ تحت الشجرة بمراقبة زهرة الثلج. فاعتنينا بجروحها، واستخدمنا الثلجَ المذابُ لكي ننضحَ بالماء أيَّ التهابات يُحتملُ حدوثها، وقمنا بلفها بقماش مشقوق من ثيابنا. أرادتِ النساء أن يعددن لها حساء من لبّ عظام الحيوانات التي كان الجزَّار قد أحضرَها لإطعامنا. فعندما ذكَّرتُهن أن زهرة الثلج كانت نباتية، تقاسمنا الأدوار بالذهاب في مجموعات من اثنتين لنطوفَ في الغابة بحثاً عن لحاء الأشجار، والأعشاب، والجذور، فأعددنا لها عصيدة مرة وأطعمناها إياها بالملعقة، وغنينا لها أغاني لتخففَ عنها.

لكنَّ كلماتِنا وأفعالنا لم تهدئ بالها، فزهرة الثلج لم تكنْ تنام، وكانت تجلسُ بجانب النار وركبتاها مثنيتان وذراعاها ملفوفتان حولهما. كان جسدُها بكامله يهتزُّ بيأس تتمزَّقُ له الأحشاء. لم تكن أيٌّ منا تملكُ ثياباً نظيفة، ولكننا كنا نحاولُ أن نبقى بمظهر مرتب. لكنَّ زهرة الثلج لم تعدْ تهتم بذلك، فأهملت غسلَ وجهها بكتل الثلج، وفركَ أسنانها بحافة ثوبها. كان شعرُها منسدلاً مذكراً إياي بالليلة التي مرضتْ فيها حماتي، وبدأت تصبحُ أكثرَ فأكثرَ شبيهة بكَنَّة أهل زوجي الثالثة في تلك الليلة بالذات، فكانت بالكاد حاضرة الذهن معنا، وكان عقلُها يطفو ويطفو بعيداً.

كانت هناك أوقاتٌ حيث كانت زهرة الثلج تنأى بنفسها عن النار لتتجولَ في

الجبال المكسوة بالثلج. كانت تمشي وكأنَّها في حلم فكانت تائهة، ومدمَّرة، وضائعة. كنتُ كلَّ يوم أذهبُ معها، دون أن يُطلبَ مني ذلك، وكنتُ أتمسكُ بذراعها. كنا نترنحُ فوق الصخور المتجمدة على أقدامنا الصغيرة بينما كانت تمشي متعرجةً في طريقها إلى حافة الجرف حيث كانت تنتحبُ نحو الامتداد البعيد. كان صوتُها يطيرُ بعيداً مع الريح الشمالية القوية.

كنتُ أشعرُ بالرعب وأنا أعودُ بذاكرتي دائماً إلى هروبنا المريع إلى التلال والأصوات الرهيبة لصراخ النساء وهن يقعن إلى حتفهن على بعد أمتار ليست بقليلة تحتنا. لم تكن زهرة الثلج تشعرُ بنفس خوفي، بل كانت تنظرُ من الأعلى فوق الجروف، وهي تراقبُ صقور الثلج وهي تحلِّق في الريح الجبلية. فكّرتُ بكل تلك المرات التي تحدثت بها زهرة الثلج عن الطيران. كم كان من السهل عليها أن تخطو خطوة واحدة إلى الخارج فوق الجرف. لكنني لم أكنْ أبتعدُ عن جانبها، ولم أكنْ أفلتُ ذراعها أبداً.

حاولتُ أن أتحدثَ معها عن أشياء تعيدُها إلى أرض الواقع، فكنتُ أقول أشياء مثل: "هل تفضلين أن تفاتحي مدام "وانغ" بشأن ابنتينا أم أفعلُ أنا؟" وعندما لم تكنْ تجيبني، كنتُ أحاولُ شيئاً آخر، فأقول: "إنني وإياك نعيشُ قريبتين من بعضنا البعض. لماذا ينبغي علينا أن ننتظرَ الفتاتين لتصبحا رفيقتين قبل أن تلتقيا؟ ينبغي عليكما أن تأتيا لزيارة طويلة. وسنقومُ بربط أقدامهما معاً. فستحظيان بتلك الأيام لتتذكراها معاً أيضاً". أو أنني كنتُ أقول: "انظري إلى زهرة الثلج تلك، إن الربيعَ قادمُ، قريباً سنغادرُ هذا المكان". فكانت لمدة عشرة أيام تجيبُ بكلمة واحدة فقط.

في اليوم الحادي عشر بينما كانت تتوجه في طريقها نحو حافة الجرف، تكلمت أخيراً، وقالت: "لقد فقدتُ خمسة أطفال. وقد كان زوجي يلومني في كلِّ مرة، فكان يفرِّغ إحباطه في قبضتيه، وعندما كانت تلك الأسلحة تبحثُ عن ضحية، كانت تجدني أنا. لقد اعتدتُ أن أعتقدَ أنه كان غاضباً لأنني أنجبتُ بناتٍ. ولكن الآن، بعد ما حدثَ لابني... هل الحزنُ هو ما كان يشعرُ به طوال الوقت؟" توقفت، وأمالت رأسَها، وهي تحاولُ أن تستجمعَ أفكارها، ثم ختمت كلامها بيأس قائلة: "على أية حال، فقد كان عليه أن يستخدمَ قبضتيه في مكان ما".

لقد كان كلامها يعني أن الضربَ كان مستمراً معها منذ السنة الأولى التي أقامتْ فيها بشكل دائم في بيت الجزار. ورغم أن أفعالَ زوجها كانت شائعة ومقبولة في مقاطعتنا، فقد كان الأمرُ يؤلمني أنها قد أخفت هذا عني جيداً لوقت طويل. كنتُ قد اعتقدتُ أنها لن تكذبَ عليَّ مجدداً قَطُّ وأنها لن تحتفظَ بالأسرار بعد الآن، ولكنني لم أكنْ منزعجةً بشأن هذا الأمر. عوضاً عن ذلك، فقد شعرتُ بالذنب لأنني قد تجاهلتُ العلامات التي كانت تدلُّ على تعاسة حياة رفيقتي لوقت طويل جداً.

"يا زهرة الثلج..".

"كلا، أصغي إليَّ. إنك تظنين أن زوجي يُضمرُ الشر في قلبه، ولكنَّه ليس رجلاً شريراً".

"إنه يعاملك معاملة أقل من معاملة البشر..".

فحذَّرتني قائلة: "إنَّه زوجي، يا زهرة الزنبق". ثم غاصت أفكارُها في مكان

أكثرَ ظلاماً حتى، وقالت: "لقد أردتُ أن أموتَ منذ وقتٍ طويل، ولكن لطالما كان أحدهم في مكانٍ ما قريباً مني".

"لا تقولي أشياء كهذه".

فتجاهلتني وقالت: "كم مرة تفكرين بالقدر؟ إنني أفكرُ به تقريباً كلَّ يوم. ماذا لو لم تتزوج أمي إلى بيت أبي؟ ماذا لو لم يصبحْ والدي مدمناً على الأفيون؟ ماذا لو لم يزوِّجني والداي إلى عائلة الجزار؟ ماذا لو وُلدتُ ابناً؟ هل كنتُ لأتمكنَ من إنقاذ عائلتي؟ آه، يا زهرة الزنبق، لقد كنتُ أشعرُ بالخجل الشديد من ظروفي قبل أن تشعري..".

"لم أشعر بذلك قَطُّ..".

فهزَّت رأسَها لتمنعني من الكلام، وقالت: "منذ اليوم الأول الذي دخلتِ فيه بيت أهلي، رأيتُ شفقتكِ. فلا تنكري ذلك. بل أصغي إليَّ وحسب". توقفتْ للحظة قبل أن تتابعَ قائلة: "إنك تنظرين إليَّ وتعتقدين أنني قد أخفقتُ حتى الآن، ولكنَّ ما حدثَ لأمي كان أسوأ بكثير. فأنا أتذكرُ عندما كنتُ فتاة صغيرة أنني كنتُ أسمعها تبكي طوال النهار والليل حزناً. أنا واثقة من أنها كانت تريدُ أن تموت، ولكنَّها لم تكن لتتخلى عني. وبعد أن غادرتُ إلى بيت زوجي بشكل دائم، لم تكنْ لتتخلى عن والدي".

كنتُ أرى إلى أين كان ذلك سيؤدي بها، فقلتُ لها: "إن أمك لم تسمحْ لنفسها أبداً أن تكونَ قاسية القلب. ولم تستسلمْ أبداً..".

"لقد ذهبتْ مع والدي إلى الشارع، ولن أعرفَ أبداً ما حدثَ لهما. لكنني واثقةٌ أنها لم تسمحْ لنفسها بأن تموت قبل أن تنتهي حياتها أولاً. لقد مرّت

اثنتا عشرة سنة الآن. أنا غالباً ما أتساءلُ إن كنتُ لأتمكنَ من أن أساعدَها. هل كانت لتستطيعَ الحضور إلي؟ سأجيب عن هذا السؤال بهذه الطريقة. لقد كنتُ أحلمُ أنني كنتُ سأتزوجُ وأجدُ السعادة بعيداً عن غثيان والدي وحزن أمي. لم أكن أعرفُ أنني كنتُ سأصبحُ متسولة في بيت زوجي، ثم تعلمتُ كيف أجعلُ زوجي يُحضِرُ إلى البيت طعاماً يمكنني أن آكله. كما تعلمين، يا زهرة الزنبق هناك أشياء لا يخبروننا بها عن الرجال. ويمكننا أن نجعلَهم سعداء إن منحناهم المتعة، وكما تعلمين، إنَّ الأمرَ ممتعٌ بالنسبة لنا أيضاً إن نحن جعلنا الأمرَ كذلك".

كانت تبدو كواحدة من أولئك النساء العجائز اللواتي يحاولن دائماً أن يخفن الفتيات قبل أن يتزوجن بذلك النوع من الكلام.

"ليس عليك أن تكذبي. فأنا رفيقتك، ويمكنك أن تكوني صريحة معي".

أبعدت عينيها عن الغيوم، وللحظة قصيرة جداً، نظرت إليَّ رغم أنها لم تكن تميزني، وقالت: "يا زهرةِ الزنبق، وأصبحَ صوتُها حزيناً ومثيراً للشفقة، لديك كل شيء، ومع ذلك لا تملكين أيَّ شيء".

جرحتني كلماتها، ولكنني لم أُفكّر بها عندئذٍ وهي تعترف، ثم قالت: "لم أتبع وزوجي القواعد التي تتعلقُ بتلوث الزوجة بعد الولادة. فقد كنا كلانا نريدُ المزيد من الأبناء".

"الأبناءُ هم قيمة المرأة..".

"ولكنكِ رأيتِ ما حدثَ معي، لقد حملتُ بالكثير من البنات".

وكان لديَّ جوابٌ عملي لتلك المشكلة التي لا يمكنُ إنكارها.

فقلت: "لم يكن مقدراً لهن أن يعشن. كوني ممتنة، فربما كان هناك خطبٌ ما بهن. ويمكن لنا نحن النساء فقط أن نحاول مجدداً..".

"آه، يا زهرة الزنبق، عندما تتحدثين بهذه الطريقة أشعرُ بالفراغ في رأسي. أسمعُ فقط حفيف الريح في الأشجار. هل تشعرين كيف تريدُ الأرضُ أن تنهار تحت قدمي؟ ينبغي عليك أن تعودي الآن. دعيني أذهبْ إلى أمي..".

كانت سنواتٌ عديدةٌ قد مرّت منذ فقدت زهرة الثلج ابنتها الأولى. ولم أكنْ عندئذٍ قادرةً على أن أفهمَ حزنها. أما الآن فقد عشتُ مقداراً أكبر من أحزان الحياة، وأصبحتُ أرى الأمور بطريقة مختلفة. وإذا كان أمراً مقبولاً تماماً لأرملة أن تشوِّه نفسها أو أن تنتحر لتحفظَ ماء وجه عائلة زوجها، لِمَ لا ينبغي على الأم أن تتأثرَ إلى أقصى حدّ لفقدانها طفلاً أو أطفالاً؟ إننا من يتوكلُ بأمر الأطفال، فنحن نحبهم، ونمرِّضهم عندما يكونون مرضى. وفي حالة الأبناء، نجهِّزهم ليخطوا خطواتهم الأولى إلى عالم الرجال. أما في حالة البنات، فنربط أقدامهن، ونعلمهن كتابتنا السرية، وندربهن ليصبحن زوجات، وكنات، وأمهات صالحات فينسجمن مع غرف الطابق العلوي في بيوتهن الجديدة. ولكن لا ينبغي على أية امرأة أن تعيشَ حياةً أطولَ من حياة أبنائها. هذا أمرٌ يخالفُ الطبيعة، وإنْ فعلت ذلك، لِمَ لن تتمنى أن تقفزَ من على أحد الجروف أو أن تشنقَ نفسها من أحد الأغصان أو أن تبتلعَ محلول القِلي؟

اعترفت زهرة الثلج وهي تنظرُ إلى الأسفل نحو الوادي العميق تحتها: "إنني كلَّ يوم أصلُ إلى نفس النتيجة. وعندئذ، تخطرُ زوجة عمك ببالي. فكري، يا زهرة الزنبق، كم عانت وكم كنا لا نأبه بمعاناتها".

فأجبتُها بالحقيقة قائلة: "لقد كانت تتألمُ بشدة، ولكنني أعتقدُ أننا كنا نخففُ عنها".

"أتتذكرين كم كانت القمر الجميل عذبة؟ أتتذكرين كم كانت محتشمة حتى في موتها؟ أتتذكرين عندما جاءت زوجة عمك إلى البيت، ووقفت أمام جثمانها؟ لقد كنا جميعاً مهتمين بمشاعرها، لذا لففنا وجه القمر الجميل. إنَّ زوجة عمك لم ترَ ابنتها مجدداً. لِمَ كنا قساة إلى هذا الحدّ؟"

كنتُ لأقولَ إن جثة القمر الجميل كانت ذكرى رهيبة لنجعلَها تعلقُ في ذهن أمها، ولكنني قلتُ عوضاً عن ذلك: "سنزورُ زوجة عمي في أقرب فرصة. وستكونُ سعيدة لرؤيتنا".

فقالت زهرة الثلج: "لرؤيتكِ أنت ربما، ولكن ليس لرؤيتي أنا. فأنا أذكرُها كثيراً بنفسها. لكن اعلمي هذا، إنها تذكرُني كل يوم بأن أثبت". مدَّت ذقنها إلى الأمام، وألقت نظرة أخيرة عبر التلال التي يغطيها الضباب، وقالت: "أعتقدُ أنه ينبغي علينا أن نعود. فيمكنني أن أرى أنك تشعرين بالبرد. بالإضافة لهذا، هناك شيءٌ أريدُك أن تساعديني على كتابته". ومدّت يدَها إلى سترتها وأخرجت مروحتنا، وقالت: "لقد أحضرتُها معي. فقد خفتُ أن يحرقَ الثوارُ بيتي فتضيع". حدَّقت بعينيّ، وكانت قد عادتْ إلى رشدها تماماً الآن. فتنهَّدت وهزَّت رأسَها، وقالت: "لقد قلتُ إنني لن أكذبَ عليك مجدداً قَطُّ. في الحقيقة كنتُ أعتقدُ أننا كنا كلتينا سنموت هنا. ولم أكنْ أريدُ أن نكونَ بدونها".

سحبتني من ذراعي، ثم قالت: "ابتعدي عن الحافة، يا زهرة الزنبق. فرؤيتك وأنت تقفين هكذا تخيفني".

سرنا عائدتين إلى مخيمنا، حيث صنعنا شيئاً نستعيضُ به عن الحبر والفرشاة. فأخذنا خشبتين نصف محروقتين من النار، وتركناهما حتى تبردا. ثم قشرنا الأجزاء المتفحمة بالحجارة، وحافظنا بعناية على ما خرجَ منها. فمزجناها بالماء الذي كنا قد غلينا به بعض الجذور. ولم يكن المزيجُ أسودَ أو كامداً كالحبر، ولكنّه كان سينفعُ معنا بشكل كافٍ تماماً. ثم فككنا طرفَ إحدى السلال، واستخرجنا عوداً من الخيزران وقمنا ببريه قدر استطاعتنا، واستخدمنا هذا العود كفرشاة. وتبادلنا الأدوارَ في تسجيل أحداث رحلتنا إلى هنا بلغتنا السرية، فتحدثنا عن فقدان ابن زهرة الثلج وجنينها، وعن الليالي الباردة، وعن نعمة الصداقة. وعندما انتهينا، أغلقت زهرة الثلج المروحة بلطف، وعاودتْ دسَّها داخلَ سترتها.

في تلك الليلة، لم يضربِ الجزَّارُ رفيقتي. بل عوضاً عن ذلك، فقد أرادَ أن يقضي الوقت معها. بعدَ ذلك، جاءت إلى جانب النار حيث كنت أجلس، واندست تحت لحاف زفافها، وتمددت بجانبي، ووضعت راحة يدها على وجهي. لقد كانت متعبة بسبب الأرق في الكثير من الليالي. وشعرتُ بجسدها يصبحُ نحيفاً بسرعة. قبل أن تستغرقَ في النوم بالضبط، همست لي قائلة: "إنَّه يحبني بقدر ما يستطيع، وسيكون كل شيء أفضلَ الآن. سترين ذلك. فقد تغيَّر قلبُه". فكّرتُ في نفسي قائلة: نعم، سيفعلُ ذلك إلى أن تحينَ المرةُ القادمة التي سيلقي فيها بحزنه على المرأة المحببة التي كانت بجانبي.

في اليوم التالي، تلقينا خبراً أنه كان من الأمان أن نعودَ إلى قرانا. بعد ثلاثة أشهر قضيناها في الجبال، أودّ أن أقول إننا كنا قد رأينا آخرَ الأموات، ولكننا

لم نفعل. لقد كان علينا أن نمرَّ بكل أولئك الذين تُركوا أثناء هروبنا، فرأينا جثث الرجال والنساء والأطفال وكلها كانت متحللة بصورة سيئة من التعرض لعوامل الطبيعة، وبسبب ولائم الحيوانات، وبسبب التحلل الطبيعي للحم. كانت العظام البيضاء تضيء أمامنا كضوء الشمس، وكانت الثيابُ تساعدُ على التعرف عليهم بشكل خاطف، فغالباً ما كنا نسمعُ صرخات أناس تعرفوا على إحدى الجثث.

إذا لم يكن كلُّ ذلك كافياً، فقد كان الكثيرُ منا ضعفاء إلى حدٍّ كبير بحيث إن الموت كان محتوماً الآن في هذه المرحلة عندما كنا نكادُ نصلُ إلى البيت. كانت النساء في الغالب من تعرضن للموت في طريق العودة من الجبال. فكنا ونحن نتوازن على أقدامنا الصغيرة غير مستقرات. وكان شيءٌ ما يجرُّنا نحو الهاوية التي كانت تنحدرُ إلى يميننا. وهذه المرة، في ضوء النهار، لم نكن نسمعُ وحسب الصرخات، ولكننا كنا نرى رفرفة أذرع النساء وهن يقاومن الهواء بشكل لا طائلَ منه. وكنتُ في اليوم السابق لأقلقَ على زهرة الثلج، ولكنَّ وجهها كان يظهرُ تركيزها وهي تضعُ بحرص كل قدم بعد الأخرى أمامها.

حملَ الجزَّارُ أمَّه على ظهره. وفي إحدى المرات، عندما ترنحت زهرة الثلج وتراجعت إلى الوراء بشك لرؤية أمٍّ تلف بقايا طفل بالية لتأخذَها إلى البيت ليُدفن بشكل لائق، توقفَ، وأنزلَ أمه، وأخذَ بكوع زهرة الثلج، وناشدَها بلطف قائلاً: "من فضلك استمري بالمشي، سنركبُ في عربتنا قريباً، وستركبين بقية الطريق إلى "جينتيان"". وعندما رفضت أن ترفعَ نظرَها عن المرأة وطفلها، أضافَ قائلاً: "سأعودُ في الربيع، وأحضرُ عظامَه إلى البيت، أعدكِ أنه سيكونُ

قريباً منا".

عدَّلت زهرة الثلج كتفيها، وأجبرت نفسها على السير على مضض بجانب المرأة وصرَّتها الصغيرة.

لم تكن العربة التي تُجرُ باليد في مكانها حيث كنا قد تركناها. فقد كانت هذه والكثير من الأشياء الأخرى قد تمَّ رميها قبل ثلاثة أشهر. ويبدو أن الثوار أو الجيش قد أخذوها، ولكن حالما أصبحتِ الأرضُ مسطحة، مشينا إلى بيوتنا ناسين أجسامنا المؤلمة، والنازفة، والجائعة. كانت قرية "جينتيان" سالمة، على حدّ علمي. فساعدتُ أم الجزَّار على الدخول إلى البيت، وعدتُ إلى الخارج. فكنتُ أريدُ أن أذهبَ إلى البيت، وكنتُ قد مشيتُ مسافة كافية بحيث إنني كنتُ أعلمُ أنني كنتُ أستطيعُ أن أمشي المسافة الباقية إلى قرية "تونغكو"، ولكنَّ الجزَّار ركض ليخبرَ زوجي أنني قد عدتُ ليأتي ويأخذَني.

حالما انطلق، أمسكت زهرة الثلج بذراعي، وقالت: "ادخلي، فليس لدينا الكثيرُ من الوقت". سحبتني داخلَ البيت حتى رغم أن عينيّ كانتا تتوقان لمراقبة الجزَّار وهو يقفزُ صاعداً في الطريق إلى قريتي. عندما صعدنا إلى الطابق العلوي، قالت: "لقد صنعتِ لي معروفاً كبيراً في السابق بأن ساعدتني في مهري. والآن يمكنني أن أسددَ جزءاً صغيراً من ذلك الدين". أخرجت صندوقاً، وسحبتْ منه سترة كحلية اللون وقطعة قماش حريرية زرقاء فاتحة منسوجة بشكل غيمة في مقدمتها. تذكرتُ القطعة القماشية الزرقاء من سترة زهرة الثلج التي كانت ترتديها في اليوم الأول الذي التقينا فيه. فقدمتها لي، وقالت: "يشرِّفني أن ترتدي هذه عندما ترين زوجك مجدداً".

كنتُ أرى كم كان مظهرُ زهرة الثلج رهيباً، ولكنني لم أكن أفكر كيف كنتُ سأبدو لزوجي. كنتُ قد ارتديتُ سترتي الحريرية الأرجوانية وعليها تطريز الأقحوان طيلة ثلاثة أشهر متواصلة. ولم تكن قذرة وممزقةً وحسب، ولكن بالنظر إلى نفسي بالمرآة بينما كان الماء يُسخَّن لكي أتمكنَ من الاستحمام، رأيتُ على وجهي آثارَ ثلاثة أشهر من العيش في الطين والثلج تحت شمس لا ترحم على ارتفاع كبير.

كان لديَّ الوقت لأغسلَ فقط الأماكن التي كان زوجي سيراها أو يشمُّها أولاً كيديّ، وذراعيّ، ووجهي، وعنقي، وإبطيّ. فعلتْ زهرة الثلج ما بوسعها بشعري، فعقَصت الكومة المعتمة المتسخة على شكل كعكة ثم لفّتها بغطاء رأس نظيف. وبينما كانت تساعدُني على ارتداء سروال مهرها، سمعنا صوت حوافر المهر وصوتَ عجلات العربة وهي قادمة. فزررتْ أزرار السترة بسرعة، ووقفنا وجهاً لوجه، ووضعت راحة يدِها على الحرير الأزرق الفاتح على صدري.

وقالت: "تبدين جميلة".

كنتُ أرى أمامي المرأة التي كنتُ أحبها أكثر من الجميع. ومع ذلك، فقد كان يزعجُني ما كانت قد قالته قبل أن نهبطَ عن الجبل في ما يتعلقُ بإشفاقي عليها لظروفها. ولم أكن أريدُ أن أغادرَ قبل أن أشرحَ موقفي.

فقلت: "إنني لم أعتقد قطُّ أنك كنت...". وجاهدتُ لأعثرَ على كلمات لبقة، واستسلمتُ فقلت: "أقلَّ مني".

فابتسمت، ودقَّ قلبي تحت يدها، وقالت: "إنكِ لا تكذبين".

عندئذٍ، قبلَ أن أتمكنَ من قول أيِّ شيء آخر، سمعتُ صوتَ زوجي

يناديني: "يا زهرة الزنبق، يا زهرة الزنبق، يا زهرة الزنبق!"

بذلك، جريت، نعم جريت، إلى الطابق السفلي وإلى الخارج. وعندما رأيتهُ هبطتُ على ركبتيّ، ووضعتُ رأسي عند قدميه. كنتُ أشعرُ بالإحراج الشديد للطريقة التي لا بدَّ وكان عليها مظهري ورائحتي. فرفعني إلى الأعلى، وأخذَني بين ذراعيه.

"يا زهرة الزنبق، يا زهرة الزنبق، يا زهرة الزنبق". وكان اسمي يخرجُ مكبوتاً وهو يقبِّلني مراراً وتكراراً غافلاً عن الآخرين الذين كانوا يراقبون لقاءنا.

"يا "دالانغ..". ولم أكن قد نطقتُ باسمه من قبل قَطُّ.

أمسك بكتفيَّ، وأرجعَني إلى الخلف لكي يتمكنَ من رؤية وجهي، وكانت الدموع تترقرقُ في عينيه. ثم سحبني مجدداً إليه، وضمني إلى صدره.

قال شارحاً: "لقد كان عليَّ أن أخرجَ الجميعَ من قرية "تونغكو". ثم كان عليَّ أن أطمئن على ذهاب الأطفال بأمان في طريقهم..".

كانت تلك الأفعال، التي لم أكن أفهمها كلياً حتى وقت لاحق، هي ما غيَّر زوجي من ابن زعيم صالح وكريم إلى زعيم محترم يستحقُ ذلك المنصب.

كان جسدُه يرتجفُ وهو يقولُ مضيفاً: "لقد بحثتُ عنكِ مرات عديدة".

لقد كنا غالباً ما نقولُ في أغاني النساء: "إنني لا أكنُّ أية مشاعر لزوجي". أو "إنَّ زوجي لا يكنُّ لي أية مشاعر". وكانت هذه أبياتاً شعرية شعبية، تُستخدمُ في أغنية تلو الأخرى. ولكنني في ذلك اليوم كنتُ أكنُّ مشاعرَ عميقة لزوجي وكان هو يكنُّ مشاعرَ عميقة لي.

مضت لحظاتي الأخيرة في قرية "جينتيان" بسرعة. وقد دفعَ زوجي مكافأة

مجزية للجزار. عانقتُ وزهرة الثلج بعضنا البعض. عرضتْ عليَّ المروحة لآخذَها معي إلى البيت، ولكنني أردتُها أن تحتفظَ بها لأنها كانت ما تزالُ تشعرُ بالحزن، وكان كلُّ ما كنتُ أشعرُ به هو السعادة. ودَّعتُ ابن زهرة الثلج ووعدتُه أن أرسلَ إليه بعض الكتب ليدرسَ كتابة الرجال. أخيراً، انحنيتُ نحو ابنة زهرة الثلج، وقلتُ لها: "سأراك قريباً جداً". ثم صعدتُ إلى عربتي بينما كان زوجي يشدُّ اللجام. التفتُّ إلى زهرة الثلج، ولوَّحت لها، ثم استدرتُ نحو قرية "تونغكو"، نحو بيتي وعائلتي وحياتي.

رسالة ذَمّ

بدأ الناسُ في أنحاء المقاطعة بإعادة بناء حياتهم، وكان من بقي منّا على قيد الحياة قد عانى الكثير من الوباء أولاً ثم من الثورة. فقد كنا مستنزفين عاطفياً بسبب عدد الناس الذين فقدناهم، ولكننا كنا ممتنين لبقائنا على قيد الحياة. بدأنا نكتسبُ الوزن ببطء، وعادَ الرجالُ إلى الحقول، وعادَ الأبناء إلى القاعة الرئيسية لتلقي العلم، بينما انسحبتِ النساءُ والفتيات إلى غرفهن في الطابق العلوي ليعملن بالتطريز والحياكة، فكنا جميعاً نتقدمُ نحو الأمام، وكان حظُّنا الجيد يقوّينا.

لقد كنتُ في وقتٍ ما من الماضي قد تساءلتُ عن عالم الرجال الخارجي. أما الآن فقد عاهدتُ نفسي بعدم الخروج إليه مجدداً. لقد كان مُقدَّراً لحياتي أن تُمضى في الطابق العلوي. كنتُ سعيدةً لرؤية وجوه زوجات إخوة زوجي، فكنتُ أتطلعُ قدماً لقضاء فترات عصر طويلة معهن بالعمل على الحياكة، وشرب الشاي، والغناء، ورواية القصص. لكنَّ ذلك كان لا يُقارن بكيفية شعوري عندما رأيتُ أولادي. كانت الأشهر الثلاثة الماضية تشبهُ الأبدية بالنسبة إليَّ وإليهم. كانوا قد كبروا وتغيروا. لقد بلغَ ابني الأكبر الثانية عشرة وأنا بعيدة عنه. كان قد درس بجدٍّ بسبب شعوره بالأمان في مقرّ المقاطعة أثناء الفوضى ولأنه كان محمياً لكونه في قوات الإمبراطور. كان قد تعلَّم الدروس الأهم، وكان كلُّ الطلاب مهما كان المكان الذي يعيشون فيه أو اللهجة التي يتكلمونها يقرؤون نفس النصوص ويخضعون لنفس الامتحانات لكي يستمرَّ الولاء، والنزاهة، والرؤية الواحدة في كافة أنحاء العالم. حتى في مكان بعيد

عن العاصمة ومقاطعات بعيدة كمقاطعتنا، كان القضاة المحليون - وكلّهم مدربون بطريقة متماثلة - يساعدون الناس ليفهموا العلاقة بينهم وبين الإمبراطور. وإذا استمرَّ ابني على هذا المسار فإنه كان بالتأكيد سيخضعُ يوماً ما للامتحان.

قابلتُ زهرة الثلج في تلك السنة أكثر مما كنا نرى بعضنا عندما كنا فتيات. لم يحاول زوجانا أن يمنعانا من ذلك بالرغم من أن الثورة كانت ما تزالُ مندلعة في أجزاء أخرى من البلاد. فبعد كلّ ما كان قد حدث، أصبحَ زوجي يعتقدُ أنني سأكونُ بأمان في رعاية الجزار، بينما كان الجزَّار يشجعُ زوجته على زيارة بيتنا عالماً أنها كانت ستعود دائماً بهدايا من الطعام، والكتب، والنقود. كنا نتشاركُ النوم في السرير في بيت كل واحدة منا، بينما كان زوجانا ينتقلان إلى غرف أخرى ليسمحا لنا بقضاء الوقت معاً. لم يكن الجزَّار يجرؤ على الاعتراض، فكان بذلك يحذو حذو زوجي في هذا المجال. ولكن كيف كان يمكنهما أن يمنعا زياراتنا ولياليناا التي كنا نقضيها معاً وأسرارنا التي كنا نهمسها لبعضنا؟ إننا لم نكن نخاف الشمس أو المطر أو الثلج. "أطيعي واستمري بالطاعة، ثم افعلي ما تريدين".

استمررتُ وزهرة الثلج نلتقي في قرية "بوواي" لحضور المهرجانات كما لطالما كنا نفعل. كان أمراً جيداً لها أن ترى عمي وزوجته، اللذين منحتهما حياتُهما الطيبة ضمن عائلتنا الحبَّ والاحترام. كانت زوجة عمي جدة محبوبة لكل "أحفادها"، وكان عمي يتمتعُ بموقع في البيت أفضل مما كان موقعه عندما كان والدي على قيد الحياة. أما أخي الأكبر فكان يحتاجُ إلى نصيحة

عمي في الحقول وفي إجراء الحسابات. كان يُشرِّف عمي أن يقوم بذلك، لقد وجدَ عمي وزوجته نهاية سعيدة لم يكن أحدٌ يستطيعُ أن يتخيلها.

في ذلك العام عندما ذهبتُ وزهرة الثلج إلى معبد غوبو، كان شُكرنا عميقاً. قدّمنا القرابين، وركعنا شكراً لنجاتنا في ذلك الشتاء. ثم مشيناً يداً بيد إلى كشك القلقاس، فخططنا ونحن جالستان هناك مستقبل ابنتينا، وناقشنا طرق ربط القدمين التي تضمنُ أقداماً صغيرة مثالية كزهور الزنبق. عندما عدنا إلى بيتينا، صنعنا أربطة، واشترينا أعشاباً مخففة للألم، وطرَّزنا أحذية مصغرة لنضعها على مذبح الإلهة "غوانين"، وصنعنا كرات الأرز اللزج لنقدمها "للعذراء ذات القدمين الصغيرتين"، وأطعمنا ابنتينا الفاصولياء الحمراء لتطرية أقدامهما، وتحدثنا بشكل منفصل إلى مدام "وانغ" بشأن ارتباط صداقة ابنتينا، وعندما التقيتُ وزهرة الثلج، قارنا الأحاديث ببعضها البعض، وضحكنا لاستمرار خالتها على حالها بوجهها المغطى بالمساحيق وطرقها الماكرة.

حتى الآن عندما أعودُ بذاكرتي إلى أشهر الربيع وأوائل الصيف، أرى كم كنتُ سعيدة ومبتهجة. لقد كنتُ أحظى بعائلتي وبرفيقتي، وكما قلت، فقد كنتُ أتقدمُ نحو الأمام. لم تكن تلك حال زهرة الثلج. فهي لم تستعد الوزن الذي فقدتْه، وكانت تأكلُ طعاماً قليلاً، عبارةً عن بضع حبات أرز وقطعتين من الخضار، مفضلةً شرب الشاي عوضاً عن ذلك. أصبحَ جلدُها شاحباً مجدداً، بينما لم تعد وجنتاها ممتلئتين، وعندما أتت إلى قرية "تونغو"، واقترحتُ عليها أن نزورَ صديقاتها القدامى، رفضت بأدب قائلة: "إنهن لن يردن أن يرينني". أو "إنهن لن يتذكرنني"، فألححتُ عليها حتى وافقت أن تأتي معي في العام

القادم إلى احتفال "الجلوس والغناء" لإحدى الفتيات في قرية "تونغكو"، وهي ابنة عم زهرة الثلج من الدرجة الثانية وجارتي في البيت المجاور.

كانت زهرة الثلج تجلسُ معي في فترات العصر، وأنا أقومُ بالتطريز، ولكنَّها كانت تحدِّق من شبك النافذة وعقلها في مكان آخر. كان الأمرُ وكأنها كانت قد سقطتْ من الجرف في آخر يوم لنا في الجبال. كانت تسقطُ بلا صوت، ورأيتُ حزنها، ولكنني رفضتُ أن أتقبله. وقد حذَّرني زوجي عدة مرات بهذا الشأن. فقال لي في إحدى الليالي بعد أن عادت زهرة الثلج إلى قرية "جينتيان": "إنك قوية، فقد عدتِ من الجبال وأنت تجعلينني فخوراً كل يوم بالطريقة التي تتدبرين بها أمور بيتنا وتشكلين مثالاً جيداً للنساء في قريتنا. ولكنك، ومن فضلك لا تغضبي مني، تكونين عمياء عندما تنظرين إلى رفيقتك، فهي لا تشبهك من كل النواحي، وربما كان ما حدث الشتاء الماضي كثيراً عليها. أنا لا أعرفُها جيداً، ولكن يمكنك بالتأكيد أن تري أنها تتظاهرُ بالشجاعة في موقف سيئ. وقد استغرقك الأمرُ عدة سنوات لتدركي هذا، ولكن ليس كلُّ رجل مثل زوجك".

قد أحرجني كثيراً أنه أفضى إليَّ بذلك. كلا، ليس ذلك صحيحاً، وكنتُ بالأحرى غاضبة لأنه تجرأ على التدخل بشؤون العالم الداخلي للنساء، ولكنني لم أتناقش معه لأنَّ ذلك لم يكن من حقي. مع ذلك فقد فكّرتُ أنه كان عليَّ أن أثبتَ أنه كان مخطئاً وأنني كنتُ على حق. لذا، فقد نظرتُ عن كثب أكثر إلى زهرة الثلج في المرة التالية التي زارتني فيها. أصغيتُ إليها فعلاً، وكانت الحياة قد انحدرت بالنسبة لزهرة الثلج. فكانت حماتها قد قللت كمية طعامها سامحةً

لها بثلث الأرز الضروري للبقاء.

فقالت لي: "إنني أتناولُ العصيدة السائلة، ولكنني أقبلُ بها. فأنا لستُ جائعة إلى هذا الحدّ في هذه الأيام".

الأسوأ من ذلك بكثير هو أنَّ الجزَّارَ لم يكنْ قد توقفَ عن ضربها.

فاعترضتُ غير راغبة أن أصدقَ ما كان زوجي قد رآه بوضوح تام، وقلت: "لقد قلتِ إنه لن يفعلَها مجدداً".

فقالت: "ماذا يمكنني أن أفعلَ إن هاجمني؟ لا يمكنني أن أقاومَه". كانت تجلسُ مقابلي، وتطريزُها ممدد على حضنها وهو مجعدٌ ورخو كسطح جبن التوفو.

"لِمَ لم تخبريني؟"

فأجابتني عن سؤالي بسؤال قائلة: "لماذا ينبغي عليَّ أن أزعجكِ بأشياء لا تستطيعين تغييرها؟"

قلتُ لها: "بوسعنا أن نغيرَ أقدارنا إذا حاولنا بجهد كفاية، فأنا غيرتُ حياتي، وأنتِ يمكنكِ ذلك أيضاً".

فنظرت إليَّ بعينين خجولتين.

سألتُها: "كم مرة يحدثُ هذا معك؟" وحاولتُ أن أبقي صوتي هادئاً، ولكنني كنتُ محبطةً لأن زوجها كان ما يزالُ يستخدمُ قبضتيه ضدها، وغاضبةً لأنها كانت تتقبلُ ذلك بسلبية، ومجروحةَ الشعور لأنها لم تفضِ إليَّ بمشكلتها مجدداً.

"لقد غيرته الجبال، كما غيرتنا جميعاً. ألا ترين ذلك؟"

فألححتُ عليها قائلة: "كم مرة؟"

"لقد خذلتُ زوجي من عدة نواح..".

بعبارة أخرى، كان الأمرُ يحدث أكثر مما يهمها أن تعترفَ به.

فقلتُ لها: "أريدكِ أن تأتي وتعيشي عندي".

أجابت: "إن الهجران هو أسوأُ شيء يمكنُ للمرأة أن تفعله، وأنتِ تعلمين ذلك".

كنتُ أعلمُ ذلك. فقد كانت تلك جريمة يمكنُ أن يعاقبَ عليها بالموت على يد زوجها.

تابعت زهرة الثلج قائلة: "بالإضافة لذلك، فإنني لن أتركَ أولادي قَطُّ. إذ إن ابني يحتاجُ إلى الحماية".

فسألتها: "ولكن أن تحميه بجسدك؟"

أيّة إجابة كان يمكنها أن تعطيني؟

عندما أعودُ بذاكرتي الآن، وأرى بالوضوح الذي أراه وأنا بعمر الثمانين، أرى أنني كنتُ أظهرُ نفاد صبر يفوق الحدّ مع كآبة زهرة الثلج. فعندما كنتُ في الماضي غير واثقة كيف يجبُ أن تكونَ ردة فعلي على تعاسة رفيقتي كنتُ ألحُّ عليها أن تتبعَ قواعد وتقاليد العالم الداخلي كطريقة لمقاومة الأمور السيئة التي كانت تحدثُ في حياتها. أما في هذه المرة فقد تجاوزتُ ذلك بأن أطلقتُ عليها حملة لتتولى السيطرة على زوجها المولود تحت علامة "الديك" معتقدة أن امرأة مولودة تحت علامة "الحصان" يمكنها أن تستخدمَ صلابتها لتغيّرَ الموقف. ولأنها كانت لديها ابنة عديمة الفائدة وابن أكبر غير محبوب، كان

ينبغي عليها أن تحاولَ أن تحملَ مجدداً. كان يجبُ عليها أن تصليَ أكثر، وأن تأكلَ الطعام الملائم، وأن تطلبَ الأدوية المقوية من طبيب الأعشاب، وكلُّ ذلك لتضمنَ ولادة ابن، فإذا قدمت لزوجها كلَّ ما يريدُه، فسيتذكرُ قيمتها، ولكنَّ ذلك لم يكن كل شيء...

بحلول الوقت الذي حلَّ فيه مهرجان "الأرواح" في اليوم الخامس عشر من الشهر السابع، كنتُ قد أمطرتُ زهرة الثلج بالكثير من الأسئلة التي لا بدَّ أنها قد فهمتها كاقتراحات لها لتحسِّنَ وضعها بأكمله. لِمَ لم تكن تستطيع أن تحاول أن تكونَ زوجة أفضل؟ لِمَ لم تكن تستطيعُ أن تجعلَ زوجها أكثرَ سعادة من النواحي التي كنتُ أعرفُ أنها تستطيعُ أن تفعلَها؟ لِمَ لم تكن تقرصُ وجنتيها لتعيدَ اللون إليهما؟ لِمَ لم تكن تأكلُ أكثر لكي تحظى بالمزيد من الطاقة؟ لِمَ لم تكن تستطيعُ أن تذهبَ إلى البيت الآن لتنحني لحماتها، وتعدَ وجباتها، وتخيطَ ثيابها وتغني لها، وتفعلَ أيَّاً كان ما عليها أن تفعلَه لتجعلَ تلك المرأة العجوز سعيدة في شيخوختها؟ لِمَ لم تكن تحاولُ بجهد أكبر لتجعلَ الأمور صحيحة؟ لقد كنتُ أعتقدُ أنني كنتُ أقدمُ لها نصيحة عملية، ولكنني لم أكن قَطُّ أعاني من شيء كقلق زهرة الثلج ومخاوفها. مع ذلك، فقد كنتُ السيدة "لو"، وكنتُ أعتقدُ أنني محقة.

لذا، عندما نفدت مني الأشياء التي كان يمكن لزهرة الثلج أن تفعلَها في بيتها، سألتُها عن الوقت الذي كانت تقضيه في بيتي. ألم تكنْ سعيدة لوجودها معي؟ ألم تكنْ تحبُّ الثياب الحريرية التي كنتُ أُقدّمها لها؟ ألم تقدم الهدايا التي أرسلتها عائلة "لو" لزوجها تعبيراً عن امتناننا المستمر مع الاحترام

الكافي له لكي يكونَ مسروراً منها؟ ألم تكن تقدِّرُ أنني قد استأجرتُ رجلاً ليعلم الكتابة والقراءة للصبية في سن ابنها في قرية "جينتيان"؟ ألم تكن ترى أن ارتباط الصداقة بين ابنتينا كان سيغيّرُ قدر قمر الربيع تماماً كما كان قدري قد تغيّر؟

إذا كانت تحبني حقاً، لِمَ لم تستطع أن تفعلَ كما كنتُ قد فعلت، بأن تحمي نفسها بالتقاليد التي تحمي النساء لتجعلَ وضعها السيئ أفضل؟ لقد كانت تتنهد وتومئ برأسها لكل تلك التساؤلات. كانت ردّة فعلها تجعلني نافدة الصبر أكثر، فصعَّدتُ أسئلتي وأسبابي المدروسة جيداً حتى استسلمتْ ووعدتني أن تفعلَ كما أرشدتُها، ولكنها لم تفعل ذلك، فكان إحباطي منها في المرة التالية حتى أكثر حدّة. فلم أكن أفهم أن حصان طفولة زهرة الثلج الجريء قد انكسرتْ روحه. كنتُ عنيدة كفاية لأعتقدَ أنه كان يمكنني أن أعالجَ حصاناً أصابَه العَرَج.

تغيّرت حياتي إلى الأبد في اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن من السنة السادسة من حكم الإمبراطور "شيافينغ". وكان مهرجان "منتصف الصيف" قد حلَّ. كانت ما تزالُ أمامنا بضعة أيام قبل أن يبدأ ربط أقدام ابنتينا. في هذه السنة كانت زهرة الثلج ستزورنا مع أولادها لقضاء العطلة، ولكنهم لم يدوسوا عتبة بيتنا، بل كانت تلك زهرة اللوتس، إحدى النساء اللواتي عشن معنا تحت الشجرة في الجبل. فدعوتُها لتناول الشاي معي في حجرة الطابق العلوي.

فقالت: "شكراً. ولكنني أتيتُ إلى قرية "تونغكو" لأزورَ بيت أهلي".

أجبتها باللطف المعتاد قائلة: "إن العائلة تحبُ أن ترحبَ في بيتها بإحدى

بناتها المتزوجات. وأنا واثقة من أنهم سيكونون سعداء لرؤيتك".

فقالت: "وأنا أيضاً سعيدة لرؤيتهم". ثم مدّت يدها إلى سلة من الكعك القمري كانت معلقة في ذراعها، ثم قالت: "لقد طلبت مني صديقتنا أن أعطيك شيئاً". وسحبت رزمة طويلة رفيعة ملفوفة بقطعة من الحرير الملون كنتُ قد أعطيتها مؤخراً لزهرة الثلج. فسلمتني زهرة اللوتس إياها، وتمنتْ لي الحظ الجيد، ثم مشتْ بشكل متعرج إلى أسفل الزقاق وانعطفتْ عند الزاوية.

عرفتُ من شكل الرزمة ما الذي كنتُ أحمله، ولكنني لم أستطع أن أدرك لِمَ لم تأتِ زهرة الثلج، وأرسلتِ المروحة عوضاً عن ذلك. فأخذتُ الرزمة إلى الطابق العلوي، وانتظرتُ حتى خرجت زوجات إخوة زوجي معاً ليوصلن الكعك القمري لصديقاتنا في القرية. أرسلتُ ابنتي معهن، قائلة لها إنه ينبغي عليها أن تستمتعَ بتلك الأيام القليلة الأخيرة خارجَ البيت بينما تستطيعُ ذلك. وحالما خرجن، جلستُ على كرسي بجانب شبك النافذة. كان ضوءٌ خافتٌ يرشحُ عبرَ التعريشة ملقياً شكلاً من أوراق الشجر والكروم على طاولتي. حدَّقتُ بالرزمة لوقت طويل. كم كنتُ أعرفُ لأكونَ خائفة؟ وأخيراً فتحتُ أحد الأطراف ثم فتحتُ واحداً آخر من الحرير الأخضر حتى كُشفت مروحتنا كلياً، فتناولتها. ثم فتحتُ ببطء طية تلو الأخرى. وبجانب الحروف الفحمية التي كنا قد كتبناها في الليلة التي سبقت نزولنا من الجبال، رأيتُ عموداً جديداً من الأحرف.

كانت زهرة الثلج قد كتبت، ولطالما كان خطُّها أرفع من خطي، فكانت خطوطها رقيقة وناعمة بحيث إن نهاياتها كانت تتلاشى:

لديَّ الكثيرُ من المتاعب. ولا أستطيعُ أن أكونَ كما تتمنين لي. لن يكونَ

عليك أن تصغي إلى شكواي بعد الآن. لقد وعدتْ ثلاثُ أخوات بالقسم أن يحببنني كما أنا. اكتبي لي، ليس لتواسيني كما كنتِ تفعلين، ولكن لتتذكري أيامنا السعيدة ونحن فتاتان صغيرتان معاً.

وهكذا كان الأمر.

شعرتُ وكأنَّ سيفاً قد اخترقَ جسمي، وقفزتْ معدتي من هول المفاجأة ثم انقبضتْ ككرة غير مستقرة. يحببنها؟ هل كانت تتحدثُ فعلاً عن محبة أخوات بالقَسَم في مروحتنا السرية؟ أقرأ الأسطرَ مجدداً وأنا مشوشة ومرتبكة. لقد وعدتْ ثلاث أخوات بالقَسَم أن يحببنني، ولكنني وزهرة الثلج كنا رفيقتين، وهو رباطٌ للعواطف قويٌ كفاية ليتجاوزَ المسافات الكبيرة والفراق الطويل. لقد كان يُفترَضُ أن تكونَ رابطتنا أقوى من كلِّ شيء. وقد تعاهدنا أن نكونَ مخلصتين وصادقتين مع بعضنا حتى يفرِّق بيننا الموت. وأن يبدو عليها أنها تهجرُ وعودنا من أجل علاقة جديدة مع أخوات بالقَسَم كان أمراً يجرحُ شعوري فوق الوصف. أن تقترحَ أنه كان ما يزالُ بإمكاننا أن نكونَ صديقتين عبر الرسائل كان أمراً مفاجئاً لي. كان ما قد كتبته لي بالنسبة لي أسوأ بعشرة آلاف مرة من لو أن زوجي دخلَ البيت، وأعلن أنه قد اتخذَ أول محظية له. لم يكن الأمرُ ليكونَ بهذا السوء لو أنني لم أحظ بالفرصة لأنضم لأخوية بالقَسَم بعد الزواج. لقد كانت حماتي قد دفعتني بشدة في ذلك الاتجاه، ولكنني كنتُ قد خطّطتُ وتآمرتُ لأحتفظَ بزهرة الثلج في حياتي. وها هي الآن تدفعني بعيداً؟ لقد كان يبدو أن زهرة الثلج، هذه المرأة التي كنتُ أكنُّ لها محبة عميقة، وأعتزُّ بها، والتزمتُ طوال حياتي بصداقتها، لم تكن تهتمُ بأمري بنفس الطريقة.

عندما كنتُ قد اعتقدتُ لتوي أن دماري لم يكن ليذهبَ أعمقَ من ذلك، أدركتُ أن الأخوات بالقَسَم الثلاث اللواتي التي كانت قد كتبتْ لي عنهن كنَّ النساء من قريتها اللواتي قابلناهن في الجبال. فأعدتُ التفكيرَ بكل ما حدثَ الشتاء الفائت. هل كنَّ يتآمرن ليسرقنها مني منذ الليلة الأولى بغنائهن؟ هل انجذبت إليهن كما ينجذب الزوجُ لمحظية جديدة أجمل وأصغر سناً وأكثر هياماً من الزوجة المخلصة؟ هل كانت تنظرُ إلى وجوههن ولا ترى أية توقعات أو مسؤوليات؟

لقد كان هذا الألم لا يشبهُ أي شيء شعرتُ به من قبل، فكان معذباً أكثر من ألم الولادة بكثير. ثم تغيّرَ شيء ما بي. فلم أعد أتصرفُ كالطفلة الصغيرة التي أحبت زهرة الثلج بل كالسيدة "لو" التي كانت تعتقد أن القواعد والتقاليد يمكنها أن تمنحَ السلام الروحي. لقد كان سهلاً عليَّ أن أبدأ بتعداد عيوب زهرة الثلج من أن أشعرَ بالمشاعر تعتملُ في داخلي.

لطالما كنتُ ألتمسُ الأعذارَ لزهرة الثلج بسبب محبتي لها، ولكنني حالما بدأتُ أركزُ على ضعفها، بدأ شكلُ خداعها، وغشها، وخيانتها يتشكلُ أمامي. ففكّرتُ بكل المرات التي كذبتْ فيها زهرة الثلج عليَّ. فقد كذبت بشأن عائلتها، وبشأن حياتها الزوجية، وحتى بشأن ضرب زوجها لها. ولم تكن رفيقة غير مخلصة وحسب بل لم تكن حتى صديقة صالحة كثيراً. فقد كانت الصديقة الصالحة لتكون صادقة ومباشرة. لو لم يكن كل ذلك كافياً، فقد جعلتُ ذكريات كل الأسابيع السابقة تمرُّ ببالي. كانت زهرة الثلج قد استغلت مالي ومنصبي لتحصل على ملابس أفضل وطعام أفضل ووضعاً أفضل من أجل ابنتها بينما

كانت تتجاهلُ كل مساعدتي واقتراحاتي. فشعرت بأنني كنتُ ساذجة ومغفلة بشكل هائل.

ثم حدثَ أغربُ شيء. لقد خطرت صورة أمي ببالي، فتذكرتُ كيف أنني كنتُ أريدُها أن تحبني عندما كنتُ طفلة، وكنتُ قد اعتقدتُ أنني إنْ فعلتُ أي شيء تطلبُه مني أثناء ربط قدمي فكنتُ سأحظى بحنانها. لقد اعتقدتُ أنني فزتُ به، ولكنها لم تكن تحملُ لي أية مشاعر على الإطلاق. فقد كانت، مثل زهرة الثلج تماماً، تسعى فقط من أجل مصالحها الأنانية. لقد كانت ردة فعلي الأولى لأكاذيب أمي وقلة اهتمامها بي هي الغضب، ولم أسامحها قط، ولكنني مع مرور الوقت كنتُ أبتعد خطوة بعد خطوة بعيداً عنها حتى لم تعدْ لها أية صلة عاطفية بي. لقد كان هذا ما كان عليَّ أن أفعلَه مع زهرة الثلج لأحمي قلبي. لم أكن لأدعَ أحداً يعرفُ أنني كنتُ أموتُ من الحزن لأنها لم تعدْ تحبني. كان عليَّ أيضاً أن أخفي غضبي وألمي لأن تلك لم تكن صفاتٍ جيدة للمرأة اللائقة.

طويتُ المروحة، ووضعتها بعيداً. كانت زهرة الثلج قد طلبتْ مني أن أعاودَ الكتابة إليها. فلم أفعل ذلك. مرَّ أسبوع، ولم أبدأ ربط قدمي ابنتي في التاريخ الذي اتفقنا عليه، ومرَّ أسبوعٌ آخر، وجاءت زهرة اللوتس إلى بابي مجدداً، وهذه المرة لتسلمني رسالة أحضرتْها "يونغانغ" إليَّ في الطابق العلوي. ففتحتُ الورقة، وحدَّقتُ بالأحرف. لطالما كانت تلك الكتاباتُ تبدو كلمساتٍ لطيفة. أما الآن فأقرؤها وكأنها خناجر.

لِمَ لم تكتبي لي؟ هل أنتِ مريضة أم أن الحظَّ الجيد قد ابتسمَ لك مجدداً؟ لقد بدأتُ ربط قدمي ابنتي في اليوم الخامس والعشرين تماماً كما بدأتُ وإياك ربط

أقدامنا. هل بدأتِ في ذلك التاريخ أيضاً؟ إنني أنظرُ من شبك نافذتي إلى نافذتك. ويحلِّقُ قلبي نحوك مغنياً بسعادة لابنتينا.

قرأتُها مرة واحدةً، ثم وضعتُ إحدى زوايا الورقة على لهب المصباح الزيتي، وراقبتُ الأطراف وهي تنثني والكلمات وهي تصبحُ دخاناً. في الأيام التالية، بينما أصبحَ الجوّ أكثر برودة، وبدأت ربط قدمي ابنتي، وصلَ المزيدُ من الرسائل. فأحرقتُها أيضاً.

لقد بلغتُ لتوي الثالثة والثلاثين من عمري. وكنتُ لأكونَ محظوظة أن أعيشَ سبع سنوات أخرى وأكثَرَ حظاً أن أعيشَ سبع عشرة سنة. لم أكن أستطيعُ أن أتحمل شعوري بالغثيان لدقيقة أخرى ناهيك عن سنة أو أكثر. لقد كان عذابي شديداً، ولكنني تحليتُ بضبطِ النفس الذي كان قد ساعدَني على الخروج من محنة ربط قدميّ، ومن الوباء، ومن الشتاء في الجبال ليساعدني. بدأتُ ما كنتُ أسميه "استئصال المرض من قلبي"، فكلما كانت الذكرى تخطرُ ببالي، كنتُ أطليها بالحبر الأسود، وإذا وقعَ نظري على شيء يذكرني، كنتُ أبعدُه بأن أغلقَ عينيّ، وإذا جاءت الذكرى إليَّ بصورة رائحة، كنتُ أدفن أنفي في زهرة أو أضعُ المزيد من الثوم في القدر أو أستحضرُ رائحة الجوع في الجبال، وإذا مست الذكرى جلدي، على شكل لمسة ابنتي على يدي أو أنفاس زوجي على أذني ليلاً أو شعوري بنسيم عليل على جسمي وأنا أستحم، كنتُ أكشطها أو أحكها أو أسحقها بعيداً عني. كنتُ عديمة الرحمة كالمزارع بعد الحصاد الذي ينتزعُ كل بقايا ما كان في الموسم الماضي محصوله الغالي. حاولتُ أن أدفن كلَّ شيء في التراب، وأنا أعلمُ أن تلك كانت الطريقة الوحيدة

التي كان بإمكاني أن أحمي بها قلبي المتضرر.

عندما استمرت ذكريات محبة زهرة الثلج تعذبني، صنعتُ برج زهور مثل الذي كنا قد بنيناه لندفعَ أذى شبح القمر الجميل. فكان عليَّ أن أزيلَ هذا الشبح الجديد، وأن أمنعه من أن يؤذي عقلي مجدداً أو أن يعذبني بوعود لم يوفَ بها عن حب القلب العميق. طهَّرتُ سلالي، وصناديقي، وأدراجي، ورفوفي من الهدايا التي صنعتها لي زهرة الثلج على مدى السنوات. فبحثتُ عن كل رسالة كانت قد كتبتها لي طوال حياتنا، وعانيتُ من وقتٍ عصيب وأنا أحاولُ العثور على كل شيء. فلم أستطع العثور على مروحتنا، ولم أستطع العثور على... لنقل أن أشياء كثيرة كانت مفقودة، ولكنني ألصقتُ أو وضعتُ ما عثرتُ عليه في برج الزهور، ثم كتبتُ رسالة تقول:

أنتِ التي كنتِ تعرفين قلبي، لا تعرفين شيئاً عني الآن. سأحرقُ كل كلماتك آملة أن تتبخرَ نحو الغيوم. أنت التي خدعتني وتخليت عني، رحلتِ عن قلبي إلى الأبد. من فضلك، من فضلك، دعيني وشأني.

طويتُ الورقة، ودسستُها من خلال شبك النافذة الصغيرة داخلَ غرفة الطابق العلوي في برج الزهور. وبعد ذلك، أشعلتُ النار في البناء وأنا أضيفُ الزيت عندما كانت الحاجة تقتضي لإحراق المناديل، والحياكة، وقطع القماش المطرز.

لكنَّ زهرة الثلج كانت مُلحَّة في مطاردتها. فعندما كنتُ أربطُ قدمي ابنتي، كنتُ أشعرُ وكأن زهرة الثلج كانت في الغرفة معي ويدها على كتفي وهي تهمسُ في أذني: "تأكدي من عدم وجود طيات في الأربطة، وأظهري لابنتك

حبك الأمومي". فكنتُ أغني لأحجبَ كلماتها عن مسامعي، وكنتُ أحياناً في الليل أشعرُ بيدها المتخيلة تستقرُ على خدي، فلم أكن أستطيعُ أن أنام، وكنتُ أستلقي مستيقظة وأنا غاضبةٌ من نفسي ومنها، وأُفكّر قائلة: إنني أكرهك بشدة. لقد حنثتِ وعدك لي بالإخلاص. لقد خدعتني.

تحمَّل شخصان وطأة معاناتي. كانت الأولى، ويخجلني أن أعترف بذلك، هي ابنتي. أما الثانية، ويؤسفني أن أقول ذلك، فكانت مدام "وانغ" العجوز. لقد كان حبي الأمومي قوياً جداً. فعندما ربطتُ قدمي حجر اليشب، لا يمكن لأحد أن يتخيّلَ كم كنتُ حريصة. فلم أكن أتذكر وحسب ما حدثَ لأختي الصغرى، ولكن أيضاً كل الدروس التي طبعتها حماتي في ذهني عن كيفية القيام بذلك العمل على نحو ملائم بأقل احتمال لحدوث الالتهابات أو التشوهات أو الوفاة. لكنني أيضاً حوّلتُ الألم الذي كنتُ أشعرُ به بسبب زهرة الثلج من جسمي إلى قدمي ابنتي. ألم تكنْ قدماي الصغيرتان مصدرَ كل آلامي ومكاسبي؟

رغم أن عظام ومزاج ابنتي كانا مرنيْن، فقد كانت تبكي على نحو مثير للشفقة. لم أستطعْ أن أحتملَ ذلك رغم أننا كنا قد بدأنا للتو فقط، فأخذتُ مشاعري وسخَّرتها بأن كنتُ أسحبُ ابنتي جيئة وذهاباً في غرفة الطابق العلوي، كما كنتُ أشد أربطتها بشكل أضيق حتى في الأيام التي كنتُ أعيدُ فيها ربط قدميها. كنتُ أعاقبها – لا، بل كنتُ أصرخُ عليها بقسوة – بالكلمات التي كانت أمي تحفرُها في رأسي قائلة: "إنَّ السيدة الحقيقية لا تدعُ مجالاً للقبح في حياتها، ومن خلال الألم فقط تحظين بالجمال، ومن خلال المعاناة فقط تجدين السلام، وأنا ألفُّ قدميك وأربطهما، ولكنكِ أنتِ من ستحظين

بالمكافأة". فكنتُ آملُ أنني من خلال أعمالي كنتُ سأجني القليل من المكافأة، وأعثرُ على السلام كما كانت أمي قد وعدتني.

بحجة أنني كنتُ أريدُ الأفضل لحجر اليشب، تحدثتُ إلى نساء أخريات في قرية "تونغكو"، وكن يربطن أقدام بناتهن أيضاً. وقلت: "إننا نعيشُ جميعاً هنا، وننتمي لعائلات طيبة. ألا ينبغي أن تكونَ بناتنا أخوات بالقَسَم؟"

أصبحت قدما ابنتي صغيرتين كقدمي تقريباً. لكن قبل أن أعرفَ نتيجة ذلك كله، زارتني مدام "وانغ" في الشهر الخامس من السنة القمرية الجديدة، ولطالما كنتُ في ذهني أراها لا تتغيّر. فلطالما كانت امرأة عجوزاً، ولكنني في ذلك اليوم، نظرتُ إليها بعين أكثر دقة. لقد كانت أصغر بكثير مما أنا عليه الآن، مما يعني أنها كانت في الأربعين من عمرها على الأكثر عندما التقيتُ بها للمرة الأولى قبل كل تلك السنوات. لكنَّ أمي وأم زهرة الثلج كانتا قد توفيتا في ذلك السن تقريباً، وكانتا تعتبران قد عاشتا كثيراً. عندما أُفكّرُ بذلك الوقت في الماضي، أعتقدُ أن مدام "وانغ" كأرملة لم تكن تريدُ أن تموت أو أن تذهبَ إلى بيت رجل آخر، بل اختارت أن تعيش وأن تعيلَ نفسها. لم تكن لتنجحَ في ذلك لو لم تكن ذكية وتتمتعُ بعقل عملي إلى حدٍّ كبير. لكن كان ما يزالُ لديها جسمها لتكافح معه. كانت تدعُ الناس يعرفون أنه لا يمكن إزعاجُها لوضعها المساحيق لتغطي أي جمال في وجهها وبارتدائها الملابس المبهرجة لتعزلَ نفسها عن النساء المتزوجات في مقاطعتنا. والآن وهي في أواخر الستينيات من عمرها، كما أعتقد، لم يعد عليها بعد الآن أن تختبئ خلف المساحيق والحرير المبهرج. فقد أصبحت امرأة عجوزاً، وما زالت ذكية وعملية، ولكنها

كانت تعاني من عيب واحد كنتُ أعرفه جيداً، وهو أنها كانت تحبُ ابنة أختها.

قالت وهي تجلسُ بعنف على أحد الكراسي في الغرفة الرئيسية: "لقد مضى وقت طويل، يا سيدة لو". وعندما لم أعرض عليها أن تشربَ الشاي، نظرت حولها بقلق، وقالت: "هل زوجك هنا؟"

"سيأتي السيد "لو" إلى البيت لاحقاً، ولكنك تسبقين نفسك، فابنتي صغيرة جداً لكي يتفاوضَ من أجل زواجها".

فضربتْ مدام "وانغ" فخذها وضحكت، وعندما لم أنضمَ إليها، عادت إلى جديتها، وقالت: "إنكِ تعلمين أنني لستُ هنا من أجل هذا الغرض، بل جئتُ لأناقش ارتباطَ صداقة، وهذا العملُ مقتصرُ على النساء فقط".

بدأتُ ببطء أنقرُ بظفر سبابتي على يد الكرسي الخشبية، وكان الصوتُ مرتفعاً ومثيراً للأعصاب حتى بالنسبة لي، ولكنني لم أتوقف عن ذلك.

مدّت مدام "وانغ" يدها إلى كمها، وسحبت مروحة، وقالت: "لقد أحضرتُ هذه من أجل ابنتكِ، ويمكنني ربما أن أعطيها لها".

"إن ابنتي موجودةٌ في الطابق العلوي، ولكنَّ السيد "لو" يعتبرُ الأمر غير ملائم أن ترى شيئاً لم يتفحصه هو أولاً".

فأفضتْ مدام "وانغ" إليَّ قائلة: "ولكن، يا سيدة "لو" هذه كتابة النساء".

مددتُ يدي، وقلت: "إذاً أعطينيها".

فرأت الخاطبة أن يدي كانت مرتجفة ومترددة، وقالت: "إنَّ زهرة الثلج..".

"كلا!" وخرجَت الكلمةُ أقسى مما كنتُ أنوي لها أن تكون، ولكنني لم أكن أستطيعُ أن أسمعَ ذلك الاسم يُذكَر. فهدَّأتُ نفسي وقلت: "المروحة، من

فضلك".

فأعطتني المروحة على مضض، وكانت في داخل عقلي مجموعة كبيرة من الفراشي والحبر الأسود. محوت كل الأفكار والذكريات التي استمرت بالظهور، وفكّرتُ بالبرونز في معبد الأسلاف، وبصلابة الجليد في الشتاء والعظام الجافة تحت شمس لا ترحم، لتمنحني القوة. فتحتُ المروحة بحركة واحدة سريعة.

أدرك أن هناك فتاة تتمتعُ بشخصية طيبة وتعليم نسائي جيد في بيتكم. وكانت تلك هي الكلمات الأولى التي كتبتها زهرة الثلج لي قبل سنوات عديدة. رفعتُ نظري إلى الأعلى، وكانت نظرةُ مدام "وانغ" موجهة نحوي وهي تنتظرُ ردّة فعلي، ولكنني حافظتُ على ملامحي هادئة كسطح بحيرة في ليلة ساكنة. إن عائلتينا تزرعان الحدائق. وهناك زهرتان تتفتحان مستعدتان لتلتقيا، أنتِ وأنا من نفس العمر، هل يمكننا أن نكون رفيقتين؟ وسنحلّقُ معاً فوق الغيوم.

كنتُ أسمعُ صوتَ زهرة الثلج في كل حرف مرسوم بعناية. فأغلقتُ المروحة بقوة، وناولتُها لمدام "وانغ". فلم تأخذها من يدي الممدودة.

"إنني أعتقد، يا مدام "وانغ" أن هناك خطأ. فالصفات الثماني لهاتين الفتاتين غير متوافقة. فقد ولدتا في يومين مختلفين في شهرين مختلفين، والأهم من كل شيء، هو أن أقدامهما غير متشابهة قبل أن يبدأ ربطهما، وأشكُ في أنها ستتشابه عندما ينتهي ربطهما. و..". ولوَّحتُ بيدي ببطء في الغرفة الرئيسية، وقلت: "والظروف العائلية غير متشابهة. وكلُّ هذا بديهي".

فضاقت عينا مدام "وانغ"، وشخرت قائلة: "أتعتقدين أنني لا أعرفُ حقيقة هذه الأشياء؟ دعيني أخبرك بما أعرفه، لقد قطعتِ الرابطة بدون أي تفسير،

وهناك امرأة، وهي رفيقتك، تبكي بِحيرة..".

"حِيرة؟ هل تعرفين ما فعلته؟"

فتابعت مدام "وانغ" قائلة: "تحدثي إليها، لا تعطلي خطة، وضعتها أمَّان محبتان، فأمام الفتاتين مستقبلٌ مشرقٌ معاً، ويمكنهما أن تكونا سعيدتين كما كانت أماهما".

لم أستطعْ أن أوافقَ على اقتراح الخاطبة، فقد كنتُ ضعيفة بسبب الحزن، وقد تركتُ نفسي في الماضي لمرات عديدة أتغيّرُ وأتأثرُ وأقتنع بزهرة الثلج. لم أستطع أيضاً أن أجازفَ برؤية زهرة الثلج مع أخواتها بالقَسَم. فقد كان عقلي أصلاً معذباً بتخيّل أسرارهن التي كن يتبادلنها هامسات وألفتهن.

فقلت: "يا مدام "وانغ" إنني لن أحطَّ من مكانة ابنتي بأن أربطَها بابنة جزَّار".

تعمدتُ أن أغيظَ الخاطبة آملة أن تتخلى عن الموضوع، ولكنَّ الأمرَ كان وكأنَّها لم تسمعني لأنها قالت: "أتذكركما أنتما الاثنتان معاً، وأنتما تعبران الجسر، وكانت صورتكما معكوسة على ماء النهر في الأسفل، فكنتما بنفس الطول ونفس قياس القدمين ونفس الشجاعة. لقد تعاهدتما على الإخلاص، ووعدتما بعضكما أنكما لن تفترقا خطوة واحدة، وأنكما ستكونان معاً إلى الأبد، ولن تفترقا أبداً، ولن تبتعدا أبداً..".

كنتُ قد فعلتُ كل تلك الأمور بصدر رحب، ولكن ماذا عن زهرة الثلج؟

قلت: "إنك لا تعلمين عمّا تتحدثين. لقد كنتِ معنا عندما وقّعتُ وابنة أختك عقد صداقتنا. هل تتذكرين ذلك، أيتها العجوز؟ الآن، اذهبي واسألي ابنة أختك عما فعلته".

رميتُ المروحة في حضن الخاطبة، وأدرتُ وجهي بعيداً، وكان قلبي بارداً كماء النهر الذي اعتادَ أن يجري فوق قدميّ. شعرتُ بعيني العجوز عليَّ وهي تقلبُ الرأي وتتساءل وترتاب، ولكنها لم تكن تتمتعُ بالإرادة لتتابع. سمعتُها تقفُ بغير استقرار، واستمرَّت عيناها تخترقانني، ولكنني لم أتوقف عن صمودي.

أخيراً، قالت وكان صوتها مليئاً بلطف وفهم عميق أثارا غضبي: "سأنقلُ رسالتك، ولكن اعلمي هذا، أنتِ شخصٌ نادر الوجود، وقد رأيتُ هذا قبل وقت طويل، والجميعُ في مقاطعتنا يحسدك على حظك الجيد، والجميعُ يتمنى لك طول العمر والتوفيق، ولكنني أراك تفطرين قلبين، وهذا أمرٌ مؤسف. إنني أتذكرُ الفتاة الصغيرة التي كنتها، فلم تكوني تملكين شيئاً سوى قدمين جميلتين، والآن تملكين وفرة في حياتك، يا سيدة "لو"، من الحقد ونكران الجميل والإهمال".

خرجت وهي تعرجُ من الباب، وسمعتها تركبُ في مِحفَّتها، وتأمرُ حمَّاليها أن يأخذوها إلى قرية "جينتيان". لم أستطع أن أصدق أنني سمحتُ لها أن تقولَ الكلمة الأخيرة.

مرّت سنة، واقترب يوم "الجلوس والغناء في حجرة الطابق العلوي" لابنة عم زهرة الثلج. كنتُ ما أزالُ محطمة، وكان عقلي لا يزالُ يدقُ إيقاعاً لا ينتهي كالقلب أو كأنشودة امرأة. كنتُ قد خططتُ وزهرة الثلج أن نحضرَ الاحتفال معاً. لم أكن أعرف إن كانت ستأتي، وكنتُ آملُ أن أتمكنَ من تجنب المواجهة معها إن أتت، فلم أكن أريدُ أن أتشاجرَ معها كما تشاجرتُ مع أمي.

حلَّ اليوم العاشر من الشهر العاشر. وهو يوم مبشر بالخير لتبدأ ابنة الجيران فعاليات زفافها، فمشيتُ إلى البيت المجاور، وصعدتُ إلى حجرة الطابق العلوي، وكانت العروسُ جميلة بشكل باهت، وكانت أخواتها بالقَسَم يجلسن حولها، فميزتُ مدام "وانغ" وكانت زهرة الثلج جالسة بجانبها. كانت تبدو نظيفة وشعرها معقوص للخلف بشكل يناسبُ سيدة متزوجة، وكانت ترتدي أحدَ الفساتين التي كنتُ قد أعطيتها إياها. فتشنجت البقعة الحساسة التي تتصلُ فيها أضلاعي فوق معدتي، وشعرتُ بالدم يتلاشى من رأسي، واعتقدتُ أنه كان سيغمى عليَّ. ولم أكن أعرفُ إن كنتُ سأستطيعُ أن أجلسَ خلال تلك المناسبة مع زهرة الثلج في الغرفة وأن أحافظَ مع ذلك على كرامتي كامرأة. نظرتُ بشكل خاطف بسرعة إلى الوجوه الأخرى، ولم تكن زهرة الثلج قد أحضرت معها شجرة الصفصاف وزهرة اللوتس وبرعم الخوخ لكي يرافقنها. فأطلقتُ تنهيدة ارتياح. فلو كانت إحداهن معها، لكنتُ هربت بعيداً.

اتخذتُ كرسياً عبرَ الغرفة بعيداً عن زهرة الثلج وخالتها. كان الاحتفال يحتوي على كل الغناء، والشكاوى، والقصص، والنكات المعتادة. بعد ذلك، طلبتْ أم العروس من زهرة الثلج أن تخبرنا عن حياتها منذ غادرت قرية "تونغكو".

فأعلنت زهرة الثلج قائلة: "اليوم سأغني "رسالة ذم"".

لم يكن هذا ما توقعتُه على الإطلاق. كيف كان يمكن لزهرة الثلج أن تعلنَ شكواها ضدي في حين أنني كنتُ المظلومة؟ على أية حال، كان ينبغي عليَّ أن أحضَّر نشيد اتهام وانتقام.

بدأت قائلة: "الطائرُ يصيح والصوتُ يصلُ بعيداً". فالتفتت النساءُ في الغرفة

إليها لدى سماعهن الافتتاحية التقليدية لهذا النوع من الرسائل، ثم بدأت زهرة الثلج تغني بنفس الإيقاع الذي كنتُ أسمعُه لأشهر قائلة: "لقد أحرقتُ البخور لخمسة أيام، وصليتُ لأجدَ الشجاعة على الحضور إلى هنا، وغليتُ الماء المعطر لثلاثة أيام لأنظف بشرتي وملابسي لكي أكونَ ذات طلة حسنة أمام صديقاتي، ووضعتُ روحي في الأغنية وقد كنتُ محترمةً كابنة عندما كنتُ فتاة، ولكنَّ الجميعَ هنا يعلمون كم كانت حياتي قاسية. لقد فقدتُ بيت أهلي، وفقدتُ عائلتي، وكانت النساء في عائلتي سيئات الحظ لجيلين، وزوجي غير لطيف معي، وحماتي قاسية، وقد حملتُ سبع مرات، ولكنَّ ثلاثة من أطفالي فقط أبصروا نور هذا العالم. الآن، لديَّ ابن وابنة فقط على قيد الحياة، ويبدو أن القدر قد لعنني، ولا بدَّ أنني قمتُ بأعمال سيئة في حياة سابقة، فيُنظرُ إليَّ على أنني أقلُ من الآخرين".

بكت أخوات العروس بالقَسَم تعاطفاً كما كان يفترضُ بهن أن يفعلن، وأصغت أمهاتهن بعناية وهن يتأوهن لسماع الأجزاء الحزينة من القصة، ويهززن رؤوسهن لحتمية قدر النساء، ويبدين إعجابهن بالطريقة التي استخدمت بها زهرة الثلج لغتنا البائسة.

تابعت زهرة الثلج في إيقاعها قائلة: "وكان لديَّ مصدرُ سعادة وحيد، وهو رفيقتي. لقد كتبنا في عقد صداقتنا أننا لن نتفوه بكلمة قاسية واحدة فيما بيننا، وهكذا كان الأمرُ بيننا طيلة سبعة وعشرين عاماً، ولطالما كنا نتحدثُ بكلمات صادقة، وكنا كأشجار الكرم المرتفعة ممتدتين إلى بعضنا البعض وملتفتين معاً إلى الأبد. لكنني عندما أخبرتُها عن حزني، لم تكن تتحلى

بالصبر، وعندما رأت كم كنتُ وضيعة الروح، ذكَّرتني أن الرجال يزرعون وأن النساء يحكن الملابس وأن الجِدَّ لا يجلبُ أي جوع معتقدةً أنه كان بإمكاني أن أغيّرَ مصيري. لكن كيف يمكن أن يكونَ هناك عالمٌ ليس فيه أناس فقراء وسيئو الطالع؟"

راقبتُ النساء في الغرفة وهن يبكين من أجلها، وكنتُ أكثرَ من مصعوقة.

فغنّت زهرة الثلج، وكان صوتها مرتفعاً وجميلاً قائلة: "لماذا ابتعدتِ عني؟ لقد كنتُ وإياك رفيقتين، وكنا معاً بالروح حتى عندما لم نستطع أن نكون معاً في حياتنا اليومية". وفجأة طرحتْ موضوعاً جديداً، فقالت: "ولماذا جرحت شعور ابنتي؟ إن قمر الربيع صغيرة جداً لتدرك السبب، فأنت لن تذكريه. لم أتوقع منكِ أن تحملي قلباً حاقداً. أتوسلُ إليك أن تتذكري أن مشاعرنا الطيبة كانت عميقة كالبحر، ولا تجعلي جيلاً ثالثاً من النساء يعاني".

عندَ الجملة الأخيرة، تغيَّر الجوّ في الغرفة بينما كانت الأخريات يشهدن هذا الظلم الأخير. فقد كانت الحياة قاسية بما فيه الكفاية على الفتيات بدون أن أجعلها أكثر قسوة على فتاة أضعف مني بكثير.

انتصبتُ في جلستي، فقد كنتُ السيدة "لو"، المرأةَ التي تتمتعُ بأعظم احترام في المقاطعة. كان ينبغي عليَّ أن أثورَ لسماع هذا. لكن عوضاً عن ذلك، أصغيتُ للموسيقى الداخلية التي كانت تقرعُ في رأسي وقلبي لأشهر.

قلتُ بينما كانت رسالةٌ ذم تتشكلُ في ذهني: "الطائر يصيحُ والصوتُ يصلُ بعيداً". مع ذلك فقد أردتُ أن أكونَ عقلانية. لذا، بدأتُ بالرد على أكثر الاتهامات التي اتهمتني بها زهرة الثلج إجحافاً. نقلتُ نظري من امرأة إلى

أخرى وأنا أغني قائلة: "لا يمكن لابنتينا أن تكونا رفيقتين، فهما لا تتشابهان في أي شيء، إنَّ جارتكم تريدُ شيئاً لابنتها، ولكنني لن أرتكبَ أمراً محرماً. برفضي لذلك فعلتُ ما كانت أمي لتفعله".

ثم قلت: "كل النساء في هذه الغرفة يعرفن المحن. فنحن كفتيات، نشأنا كفروع عديمة الفائدة في عائلاتنا، قد نحب عائلاتنا، ولكننا لا نبقى معهم لمدة طويلة، ونتزوجُ إلى قرى لا نعرفها وعائلات لا نعرفها ورجال لا نعرفهم، ونعمل بلا نهاية. إذا تذمرنا من العمل خسرنا أي احترام قليل يكنُّه لنا أهل أزواجنا. وننجبُ الأطفال. إلّا أنهم أحياناً يموتون، وأحياناً نموت نحن. عندما يسأمُ أزواجنا منا يتخذون محظيات. كلُّنا واجهنا الشدائد، كالمحاصيل التي لا تثمر، وفصول الشتاء الباردة، وزراعة المواسم بدون مطر. ولا شيء من هذا مميزٌ جداً، ولكنَّ هذه المرأة تسعى إلى الاهتمام الخاص بأحزانها".

التفتُّ إلى زهرة الثلج، والدموع تلسعُ عينيّ وأنا أغني لها، وندمتُ على الكلمات حالما خرجت من فمي، فقلت: "لقد ارتبطتُ وإياك برباط الصداقة كطائري بجع، ولطالما بقيتُ مخلصة لك، ولكنك تجنبتني لتنضمي إلى أخوات بالقسم. إنَّ الفتاة ترسلُ مروحة لفتاة واحدة ولا تكتبُ مراوح جديدة لفتيات كثيرات. إنَّ الحصان الجيد ليس له سرجان، والمرأة الصالحة تكون مخلصة لرفيقتها. ربما تكون خيانتك هي السبب في أن زوجك وحماتك وأطفالك ورفيقتك المخدوعة أمامك لا يعتزون بك بالطريقة التي قد يفعلون بها ذلك. إنك تسببين الخزي لنا جميعاً بتخيلاتك الصبيانية. إذا جاء زوجي اليوم مع محظية، فسأرمى من سريري مهملة ومطرودة من اهتمامه، وسيكون عليَّ،

كما على جميع النساء هنا، أن أتقبلَ الأمر. ولكن... منك... أنت".

انغلقتْ حنجرتي على نفسها، وهربت الدموع التي كنتُ أحبسها من عينيّ، واعتقدتُ للحظة أنني لم أكن أستطيعُ المتابعة، فتحولتُ عن الحديث عن ألمي الخاص، وحاولت أن أجلبَ شيئاً قد تتفهمه كل النساء في الغرفة، فقلت: "قد نتوقعُ فقدان العاطفة من أزواجنا، فهم لديهم الحق في ذلك، ونحن مجرد نساء، ولكن أن نحتملَ هذا من امرأة أخرى عانت الكثير لمجرد حياتها وكونها امرأة هو أمر خالٍ من الرحمة".

تابعتُ كلامي مذكرةً جيراني بمكانتي، وزوجي الذي جلبَ الملح للقرية وبالطريقة التي تأكَّدَ فيها أن جميع الناس في قرية "تونغكو" قد نُقلوا إلى الأمان أثناء الثورة.

أعلنتُ قائلة: "إنَّ عتبة بابي نظيفة". ثم التفتُ إلى زهرة الثلج، وقلت: "ولكن ماذا عن عتبة بابكِ أنتِ؟"

في تلك اللحظة، انفجرَ نبعٌ مغلقٌ من الغضب إلى السطح، ولم تمنعني أية امرأة في تلك الغرفة من التعبير عنه. فكانت الكلمات التي استخدمتها آتية من مكان مظلم وقاسٍ بحيث إنني شعرتُ وكأنني قُطعتُ بسكين. كنتُ أعرفُ كل شيء عن زهرة الثلج، وتابعتُ استخدام ذلك ضدها تحت ستار الإصلاح الاجتماعي والقوة التي كنتُ أتمتعُ بها لكوني السيدة "لو". قمتُ بإذلالها أمام النساء الأخريات كاشفة عن كل نقاط ضعفها. لم أحتفظ بشيء لأنني فقدتُ كل سيطرة على نفسي. خطرت ببالي ذكرى بعيدة دون أن أُفكّرَ بها عن ساق أختي الصغرى وهي تتأرجحُ وأربطتها المفكوكة ملتفة حولها. مع كل ذم كنتُ

أطلقه، كنتُ أشعر وكأن أربطتي قد انحلت وأنني أصبحتُ أخيراً حرةً لأقولَ ما كنتُ أفكرُ به فعلاً. استغرقني الأمرُ عدة سنوات لأدرك أن مفاهيمي في ذلك الوقت كانت خاطئة كلياً. فلم تكن الأربطة تطيرُ عبر الهواء وتصفعُ رفيقتي بل كانت تلتفُ أضيق فأضيق حولي محاولة أن تعتصرَ حب القلب العميق الذي كنتُ أتوقُ إليه طوال حياتي.

صرَّحتُ قائلة: "تلك المرأة التي كانت جارتكم أخذت معها مهراً صُنِعَ من مهر أمها. لهذا، فعندما خرجت تلك المرأة المسكينة إلى الشارع لم تكن تملك لحفاً ولا ثياباً لتبقيها دافئة. تلك المرأة التي كانت جارتكم لا تحافظُ على بيتها نظيفاً، ويعملُ زوجها بمهنة قذرة، فيقتلُ الخنازير على الرصيف خارج بابها الأمامي. تلك المرأة التي كانت جارتكم تتمتعُ بالكثير من المواهب، ولكنها بددتها بأن رفضت أن تعلمَ النساء في بيت زوجها لغتنا السرية. تلك المرأة التي كانت جارتكم كذبت بشأن ظروفها عندما كانت فتاة في "أيام الابنة"، وكذبت وهي امرأة في أيام "التزين بدبابيس الشعر"، واستمرت بالكذب كزوجة وأم في أيام "الأرز والملح". ولم تكذب فقط عليكم جميعاً بل كذبت على رفيقتها على حدٍّ سواء".

توقفتُ عن الكلام لبرهة، وأنا أتفحصُ وجوه النساء حولي، ثم قلت: "وكيف تقضي وقتها؟ سأقول لكم كيف تفعل ذلك؟ إنها تقضيه في السعي وراء رغباتها! فعندما كنا في الجبال هاربين من الثوار..". ثم انحنيتُ إلى الأمام، وانحنت الأخريات نحوي، وقلت: "...كانت تفضلُ قضاء الوقت مع زوجها على أن تكونَ معي وأنا رفيقتها. إنها تقولُ إنها لا بدَّ وارتكبت أفعالاً سيئة في حياة

سابقة. ولكنني أنا، السيدة "لو"، أقول إن أفعالها السيئة في هذه الحياة هي ما يصنعُ قدرَها".

كانت زهرة الثلج تجلسُ مقابلي والدموع تجري على خديها، ولكنني كنتُ مصممة ومتوترة بحيث إنني لم أستطع أن أظهرَ لها سوى الغضب.

ختمتُ كلامي قائلة: "لقد كتبنا عقدَ صداقة ونحن فتاتان. قطعتِ لي وعداً، فحنثت به".

تنفستْ زهرة الثلج نفساً عميقاً مرتجفاً، وقالت: "لقد طلبتِ مني مرة أن أقولَ لك الحقيقة دائماً. ولكنني عندما أخبرتكِ بالحقيقة، أسأتِ فهمها أو أن ما سمعته لم يعجبك. لقد وجدتُ نساء في قريتي لا يزدرينني، ولا ينتقدنني، ولا يتوقعن مني أن أكونَ على غير حقيقتي".

عزّزتْ كل كلمة قالتها كل شيء كنتُ قد شككتُ به.

تابعت زهرة الثلج قائلة: "إنهن لا يهنني أمام الآخرين. لقد طرزنا معاً، وواست واحدتنا الأخرى عندما كنا نعاني من المتاعب. هن لا يشفقن عليَّ. هن يزرنني عندما لا أكون على ما يرام. حسناً... إنني وحيدةٌ ومنعزلة. أحتاجُ إلى نساء ليخففن عني كل يوم ليس فقط في الأوقات التي تختارينها. أحتاجُ إلى نساء يستطعن أن يسمعنني كما أنا ليس كما يتذكرنني أو كما يتمنين لي أن أكون. إنني أشعرُ كطيرُ يطير وحدَه. فلا أستطيعُ أن أعثرَ على رفيقي..".

كانت كلماتها الرقيقة وأعذارها اللطيفة هي ما كنتُ أخافُ منه. أغمضتُ عينيّ، محاولة أن أمنعَ مشاعري من الظهور. كان عليَّ لأحمي نفسي أن أستمرَ بهذه الشكوى كما فعلتُ مع أمي. عندما فتحتُ عينيّ، كانت زهرة الثلج

قد نهضتْ على قدميها، وكانت تمشي متأرجحة برقة إلى الدرج. وعندما لم تتبعها مدام "وانغ"، شعرتُ بوخزة من التعاطف. حتى خالتها، الوحيدة بيننا التي كانت تكسبُ عيشها وتعيل نفسها بذكائها، لم تكن لتمنحها العزاء.
بينما كانت زهرة الثلج تختفي خطوة تلو الأخرى نازلة الدرج، عاهدتُ نفسي أنني لم أكن سأراها مجدداً قَطُّ.

عندما أعودُ بذاكرتي إلى ذلك اليوم، أعلم أنني فشلتُ بشكل مريع في واجباتي والتزاماتي كامرأة. فما كانت قد فعلته كان لا يغتفر، ولكنَّ ما قلتُه كان خسيساً. فقد تركتُ غضبي، وأذيتي، وبشكل جوهري، رغبتي بالانتقام تسيطرُ على أفعالي. ومما يدعو للسخرية، لقد كانت الأشياء نفسها التي كانت تحرجني والتي شعرتُ فيما بعد بالندم الشديد عليها هي ما مهَّدت الطريقَ لي لأصبحَ السيدة "لو". فقد رأتني جاراتي شجاعة عندما كان زوجي في "غويلين". كن يعلمن كيف اعتنيتُ بحماتي أثناء الوباء، وأظهرتُ الواجب البنوي الملائم في جنازات أهل زوجي. وبعد أن نجوتُ من الشتاء في الجبال، راقبن كيف كنتُ أرسلُ المعلمين إلى القرى النائية، وأحضرُ المراسم في كل بيت تقريباً في "تونغكو". لقد أبليتُ بشكل عام بلاء حسناً كزوجة الزعيم. لكنني في ذلك اليوم، كسبتُ فعلاً الاحترام الذي يترافقُ مع كوني السيدة "لو" بأن فعلتُ ما يفترضُ بكل النساء أن يفعلنه في مقاطعتنا، ولكنهن نادراً ما كن يستطعن تحقيقه. فيجب أن تكونَ المرأة مثالاً للياقة والتفكير السليم في العالم الداخلي. إذا نجحتْ في ذلك، فستنتقلُ تلك الأشياء من بابها إلى الباب المجاور. فلا تجعلُ وحسب النساء والأطفال يتصرفون بشكل ملائم، ولكنها أيضاً تلهمُ

الرجال ليجعلوا العالم الخارجي آمناً ومستقراً قدر المستطاع لكي ينظرَ الإمبراطور من عرشه ويرى السلام سائداً. لقد فعلتُ كل ذلك بأكثر طريقة عامة ممكنة بأن أظهرتُ لجاراتي أن زهرة الثلج كانت امرأة وضيعة ومنحطة لا ينبغي لها أن تكونَ جزءاً من حياتنا، وقد نجحتُ حتى وأنا أدمرُ رفيقتي.

أصبحتْ "أغنية الذم" التي ألفتُها معروفة. لقد سُجلتْ على المناديل والمراوح، فكانت تُعلَّمُ للفتيات كدرس وعظي وتُغنى خلال شهر احتفالات الزفاف لتحذر العرائس من مخاطر الحياة. بهذه الطريقة، انتشرَ خزي زهرة الثلج في كافة أرجاء المقاطعة. أما بالنسبة لي، فقد شلَّني كلُّ ما حدث. فما كان الهدفُ من كوني السيدة "لو" إن لم أكنْ أحظى بالحب في حياتي؟

إلى الغيوم

مرّت ثماني سنوات. خلال ذلك الوقت، مات الإمبراطور "شيانفينغ"، فتولّى السلطة الإمبراطور "تونغجاي"، وانتهت ثورة "التايبنغز" في مكان ما في أحد الأقاليم البعيدة. تزوَّج ابني الأكبر، وأصبحت زوجته حاملاً، وأقامت في بيتنا. ثم أنجبت ابناً، وهو الأول من بين الكثير من الأحفاد الأعزاء. نجحَ ابني أيضاً في امتحاناته ليصبحَ عالِمَ مقاطعة، ولم يكن لديه الكثير من الوقت ليقضيه مع زوجته، ولكنني أعتقد أنها كانت تجدُ الراحة في غرفة الطابق العلوي في بيتنا. كانت شابة تتمتعُ بتعليم ومهارات منزلية جيدة، وكنتُ أحبها كثيراً، أما ابنتي التي كانت في السادسة عشرة من عمرها في أيام "التزين بدبابيس الشعر" فقد كانت مخطوبة لابن تاجر أرز في مدينة "غويلين" البعيدة. ربما لم أكن سأرى حجر اليشب مجدداً، ولكنَّ هذا الزواج كان سيعزِّزُ علاقاتنا مع تجار الملح. كانت تلك العائلة ثرية، وتتمتعُ باحترام كبير دون أي حظ سيئ. لقد كنتُ في الثانية والأربعين من عمري، وكنتُ قد بذلتُ ما بوسعي لأنسى أمر زهرة الثلج.

في أحد الأيام من أواخر الخريف في السنة الرابعة من حكم الإمبراطور "تونغجاي"، جاءت "يونغانغ" إلى حجرة الطابق العلوي، وهمست في أذني أنَّ إحداهن كانت تريدُ رؤيتي. طلبتُ منها أن ترشدَ الضيفة إلى الطابق العلوي، ولكنَّ عيني "يونغانغ" توجهت إلى كنتي وابنتي اللتين كانتا جالستين تطرزان معاً، وهزَّت رأسها رافضة ذلك. فكان هذا إما وقاحة من جانب "يونغانغ" أو شيئاً أكثر خطورة. نزلتُ الدرجَ دون أن أتفوه بأية كلمة للأخريات. عندما

دخلتُ الغرفة الرئيسية، هبطت فتاة صغيرة ترتدي ملابس مهترئة على ركبتيها، ووضعت جبهتها على الأرض، وكان المتسولون كهذه الفتاة يأتون غالباً إلى بابي لأنني كنتُ معروفة بالكرم.

توسلت الفتاة بينما كانت تمسح الأرض بجسمها المجعد نحوي حتى وضعت جبهتها على قدميّ الصغيرتين قائلة: "يا سيدة "لو"، أنتِ فقط من تستطيعين مساعدتي".

فمددتُ يدي إلى الأسفل، ولمستُ كتفها قائلة: "أعطيني وعاءك وسأملأه لك".

"ليس معي وعاء تسول، ولستُ بحاجة لطعام".

"إذاً، لماذا أنتِ هنا؟"

فبدأت الفتاة تبكي، وطلبتُ منها أن تنهضَ. عندما لم تفعل ذلك، ربتُّ على كتفها مجدداً. كانت "يونغانغ" بجانبي تحدقُ في الأرض.

وقلتُ آمرة إياها: "انهضي!"

فرفعت الفتاة رأسها، ونظرت إلى وجهي، وكنتُ سأميزها على أية حال. فقد كانت ابنةُ زهرةِ الثلج تبدو تماماً كما كانت أمها تبدو في ذلك السن. كان شعرها يقاومُ تقييد الدبابيس له فكان مبعثراً في خصل مجعدة حرة حول وجهها الذي كان شاحباً ونقياً كقمر الربيع الذي سُميت باسمه. تذكرتُ بحزن تلك الفتاة قبل أن تولد، ورأيتُ من خلال ضباب الذكرى، قمرَ الربيع وهي طفلة جميلة، ثم خلال تلك الأيام والليالي الرهيبة من شتاء ثورة "التايبنغز". لقد كانت تلك الفتاة الصغيرة الجميلة لتصبحَ رفيقة لابنتي في الماضي. وها هي

الآن تعيدُ وضعَ جبهتها على قدميَّ متوسلةً طلباً للمساعدة.

"إنَّ أمي مريضة جداً، ولن تعيش حتى نهاية الشتاء، ولا يمكننا أن نفعلَ شيئاً لها الآن سوى أن نهدئ عقلها المضطرب. من فضلك تعالي إليها، فهي تناديك، وأنت فقط من تستطيعين أن تجيبها".

حتى قبل خمس سنوات كان عمقُ ألمي ليكونَ عظيماً بحيث إنه كان يمكنني أن أرسلَ الفتاة بعيداً، ولكنني تعلمتُ الكثير من خلال واجباتي كالسيدة "لو". لم أكن لأتمكنَ قَطُّ أن أسامحَ زهرة الثلج على كل الحزن الذي سببته لي، ولكن كان عليَّ بسبب موقعي في المقاطعة أن أظهرَ نفسي كسيدة كريمة. أخبرتُ قمر الربيع أن تذهبَ إلى البيت، ووعدتُها أنني كنتُ سأصلُ عما قريب، ثم رتبتُ لمِحفَّة لكي تأخذَني إلى قرية "جينتيان". في طريقي إلى هناك، دعَّمتُ نفسي لأتمكنَ من رؤية زهرة الثلج والجزَّار وابنهما، الذي أدركتُ أنه لا بد أنه قد تزوج بحلول ذلك الوقت، وبالطبع الأخواتِ بالقسم.

وضعتني المِحفَّة أمام عتبة باب زهرة الثلج. لم يكن المكانُ قد تغيّر، وكانت كومةٌ من الخشب موضوعة بجانب المنزل. كان الرصيف بقِدْره المندمجة معه بانتظار الذبيحة الجديدة. تردّدتُ وأنا أشهدُ ذلك كله، ولاحَ شكلُ الجزار في مدخل البيت المعتم. ثم أصبحَ أمامي. كان أكبرَ سناً وأكثر نحولاً، ولكنه كان نفسَه من نواحٍ أخرى عديدة.

كانت الكلمات الأولى التي قالها لي بعد ثماني سنوات هي: "إنني لا أطيقُ أن أراها تعاني". مسحَ بخشونة الرطوبة عن عينيه بظهر يديه. وقال: "لقد منحتني ابناً ساعدني على أن أبلي بشكل أفضل في عملي، ومنحتني ابنة

صالحة ومفيدة، وجعلت منزلي أكثر جمالاً، واعتنت بأمي حتى توفيت، وفعلت كل شيء ينبغي على الزوجة أن تفعله، ولكنني كنتُ قاسياً معها، يا سيدة "لو". لقد أدركتُ ذلك الآن". ثم مرَّ بسرعة بجانبي وأضاف: "إنها أفضلُ حالاً في صحبة النساء". راقبتُه وهو يمشي ببطء إلى الحقول، وهو المكانُ الوحيد الذي يمكنُ فيه للرجل أن يكونَ وحيداً مع عواطفه.

كان من الصعب عليَّ أن أُفكرَ بذلك حتى بعد كل تلك السنوات. لقد اعتقدتُ أنني محوتُ زهرة الثلج من ذكرياتي واستأصلتها من قلبي. اعتقدتُ حقاً أنني لن أسامحها أبداً لأنها أحبت الأخوات بالقَسَم أكثر مما أحبتني، ولكنني في اللحظة التي رأيتُ فيها زهرة الثلج في السرير، ابتعدت عني كل تلك الأفكار والمشاعر. لقد عاملها الزمن والحياة بوحشية، وقد وقفتُ هناك، وأنا امرأة كبيرة في السن حقاً، ولكن بشرتي كانت ما تزالُ ملساء بسبب الكريمات والمساحيق التي تحمي من الشمس والتي استعملتها عقداً من الزمن تقريباً، بينما كانت ثيابي تظهرُ لكل المقاطعة أية امرأة كنتُها. كانت زهرة الثلج ممدة في السرير عبر الغرفة، وهي تبدو عجوزاً ترتدي خرقاً بالية. على عكس ابنتها التي كان وجهها مألوفاً لي مباشرة، لم أكن لأميزَ زهرة الثلج لو كنتُ قد رأيتها في الشارع خارجَ معبد "غوبو".

نعم، كانت النساء الأخريات هناك، زهرة اللوتس وشجرة الصفصاف وبرعم الخوخ. وكما شككتُ قبل كل تلك السنوات، كانت أخوات زهرة الثلج بالقسم هن النساء اللواتي عشن معنا تحت الشجرة في الجبال، ولم نتبادل التحية.

فيما كنتُ أقتربُ من السرير، وقفت قمر الربيع وخطت مبتعدة. كانت عينا

زهرة الثلج مغمضتين، وكان جلدُها شاحباً كالأموات. نظرتُ إلى ابنتها وأنا غير واثقة مما أفعل. فأومأت الفتاة برأسها. وأخذتُ بيد زهرة الثلج الباردة في يدي. فتحركت دون أن تفتح عينيها، ثم لعقتْ شفتيها المتشققتين.

"أشعر..". وهزتْ رأسها وكأنها تحاولُ أن تطردَ فكرة من ذهنها.

ناديتُها باسمها بنعومة، ثم ضغطتُ على أصابعها بلطف.

ففتحت رفيقتي عينيها، وحاولت أن تركز. في البداية، لم تصدقْ من كانت أمامها. أخيراً، تمتمت: "لقد شعرتُ بلمستك، وعرفتُ أن هذه أنتِ". كان صوتُها ضعيفاً. لكنها عندما تكلمت، رحلت عنها سنوات الألم والرعب. وخلف الدمار الذي خلفَّه المرضُ فيها، رأيتُ وسمعتُ الفتاة الصغيرة التي دعتني لأكونَ رفيقة لها قبل كل تلك السنوات.

فقلتُ كاذبة: "لقد سمعتكِ تنادينني. وأتيتُ بأسرع ما يمكنني".

"لقد كنتُ بانتظاركِ".

تلوَّت ملامحُ وجهها من الألم، وقبضتْ يدُها الأخرى على معدتها، وسحبتْ ساقيها كردّ فعل انعكاسي، فغمست ابنة زهرة الثلج، دون أن تتفوه بكلمة، قطعة من القماش بوعاء من الماء وعصرتها، ثم ناولتني إياها، فأخذتُها، ومسحتُ بها العرق الذي تجمعَ على جبهة زهرة الثلج أثناء النوبة التي أصابتها.

تكلمتْ من خلال معاناتها قائلة: "إنني آسفةٌ على كل شيء، ولكن ينبغي عليكِ أن تعرفي أنني لم أتردد في محبتي لك".

فيما كنتُ أقبلُ اعتذارها، أصابتها نوبةٌ أخرى أسوأ من الأولى، وأغمضتْ

عينيها من الألم، ولم تتكلم مجدداً. أعدتُ ترطيبَ قطعة القماش، ووضعَها على جبينها، وأخذتُ يدها مجدداً، وجلستُ معها حتى غابت الشمس. بحلول ذلك الوقت، كانت النساء الأخريات قد غادرن، وكانت قمر الربيع قد نزلت إلى الطابق السفلي لتعدّ العشاء. عندما كنتُ وحيدة مع زهرة الثلج، سحبتُ لحافها، وكان المرضُ قد التهمَ اللحم حولَ عظامها، وغذى ورماً كان قد نمى إلى حجم الجنين داخل بطنها.

حتى الآن، لا أستطيعُ أن أفسرَ مشاعري، فقد كنتُ مجروحة الشعور وغاضبة لمدة طويلة جداً، وظننتُ أنني لن أسامحَ زهرة الثلج أبداً. عوضاً عن التفكير في ذلك، وعى عقلي فجأة لإدراك أن رحمَ رفيقتي قد خانها مجدداً، وأن الورم بداخلها لا بدَّ أنه كان ينمو لعدة سنوات. وكان من واجبي أن أعتني...

كلا! ليس الأمرُ هكذا. لقد كنتُ طوال الوقت مجروحة الشعور لأنني كنتُ لا أزال أحبُ زهرة الثلج. فقد كانت الوحيدة على الإطلاق التي رأت نقاط ضعفي وأحبتني على الرغم منها. لقد كنتُ أحبُّها حتى عندما كنتُ أكرهها أشدّ الكره.

أعدتُ تغطيتها باللحاف، وبدأت أخطط. فقد كان عليَّ أن أحضرَ الطبيب المناسب. كان ينبغي على زهرة الثلج أن تأكل، وكنا بحاجة لعراف. فقد كنتُ أريدُ لها أن تناضلَ كما كنتُ لأناضل. كما ترون، فما زلتُ لا أفهم أنه لا يمكنُ للمرء أن يسيطر على مظاهر الحب ولا يمكن له أيضاً أن يغيّرَ مصير شخص آخر.

رفعتُ يد زهرة الثلج الباردة إلى شفتي، ثم نزلتُ إلى الطابق السفلي، وكان الجزار جالساً بترهل عند الطاولة، وكان ابن زهرة الثلج، وقد أصبحَ رجلاً

ناضجاً الآن، واقفاً بجانب أخته. نظرا إليَّ بتعبير أخذاه من أمهما مباشرة. كانت نظرتُهما فخورة، وحليمة، ومعانية طويلاً، ومناشدة.

أعلنتُ قائلة: "إنني ذاهبةٌ إلى البيت الآن". فتغضّن وجه ابن زهرة الثلج من خيبة الأمل، ولكنني رفعتُ يدي مهدئة، وقلت: "ولكنني سأعودُ غداً. من فضلكم أعدِّوا لي مكاناً للنوم. فلن أغادرَ هذا المكان حتى..". ولم أستطع أن أكملَ كلامي.

كنتُ أظنُّ أننا كنا سننتصرُ في هذه المعركة حالما أستقرُ في البيت. لكنّ أسبوعين كانا كل المدة الباقية لنا، وهما أسبوعان من المدة التي برهنت على أنها حياتي التي دامت ثمانين عاماً لأظهرَ فيها لزهرة الثلج الحبَّ الذي كنتُ أشعرُ به نحوها. ولم أغادر تلك الغرفة لمرة واحدة. وكل ما دخلَ جسمي من طعام، كانت ابنة زهرة الثلج تحضرُه، وكل ما خرج من جسمي، كانت ابنة زهرة الثلج تأخذُه بعيداً. كلَّ يوم، كنتُ أحمم زهرة الثلج، ثم أستخدمُ نفس الماء لأستحمَ به. وقد كان وعاءٌ مشترك من الماء هو ما جعلني أعرفُ قبل سنوات عديدة أن زهرة الثلج كانت تحبني. أما الآن، فقد كنتُ آمل أن ترى أفعالي، وأن تتذكرَ الماضي وتعرفَ أن شيئاً لم يتغيّر.

في الليل عندما كان الآخرون يغادرون، كنتُ أتحركُ من السرير الذي تكونُ العائلة قد أعدته لي إلى السرير بجانب زهرة الثلج. فكنتُ ألفُ ذراعي حولها محاولة أن أجلبَ الدفء لجسمها المرتجف وأن أخففَ العذاب الذي حطَّم جسمها بحيث إنها كانت تئنُ حتى في أحلامها. كل ليلة، كنتُ أستغرقُ في النوم متمنية أن تكون يداي إسفنجتين تمتصان الورمَ من بطنها. وكل صباح،

كنتُ أستيقظُ لأجدَ يدها على خدي وعينيها الغائرتين تحدقان بي.

كان طبيب قرية "جينتيان" قد اعتنى بزهرة الثلج لسنوات عديدة. أما الآن فقد أرسلتُ في طلبِ طبيبي. فألقى نظرة واحدة وهزَّ رأسه.

قال: "يا سيدة "لو" إن العلاجَ غيرُ ممكن. كل ما يمكنكم فعلُه الآن هو أن تنتظروا هجوم الموت. فيمكن أن تريه أصلاً في اللون الأرجواني للجلد فوق رباطي قدميها. إنَّ كاحليها يتورمان أولاً ثم تتورم ساقاها، وبعد ذلك يتحوّل لون جلدها إلى اللون الأرجواني بينما تتباطأ طاقتها الحيوية. وأشك أن تنفسها سيتغيّرُ قريباً، وستميزونه، فيكون هناك شهيق ثم زفير ثم لا شيء. حالما تعتقدين أنها قد فارقت الحياة تأخذُ نفساً آخر. لا تبكي، يا سيدة "لو". ففي ذلك الوقت ستكون النهاية قريبة جداً. إنها لن تكونَ واعية حتى لألمها".

تركَ الطبيب رزماً صغيرة من الأعشاب لكي نغليها لتصبحَ شاياً طبياً. دفعتُ له مالاً، وعاهدتُ نفسي أنني لن أستدعيه مجدداً. بعد أن غادر، حاولت زهرة اللوتس وهي الأكبر سناً من الأخوات بالقَسَم أن تخفف عني، فقالت: "لقد أحضرَ زوج زهرة الثلج أطباء عدة، ولكنّ طبيباً أو اثنين أو ثلاثة لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً لها الآن".

هدَّدني غضبي القديم بالتصاعد مجدداً، ولكنني رأيتُ التعاطف والشفقة في وجه زهرة اللوتس ليس لزهرة الثلج وحسب ولكن لي على حدٍّ سواء.

تذكرتُ أن الطعم المر هو أكثر المذاقات التي تنتمي لطاقة الـ "ين". فقد كان يسببُ الانقباضات، ويخففُ الحمى، ويهدئ القلب والروح. فاقتنعتُ أن البطيخ المر كان شيئاً سيوقفُ مرض زهرة الثلج، فاستدعيتُ الأخوات بالقسم

ليساعدنني على إعداد البطيخ المر المطهو مع صلصة الفاصولياء السوداء وحساء البطيخ المر. فعلت النساءُ الثلاث ما طلبته منهن، وجلستُ إلى جانب سرير زهرة الثلج، وأخذتُ أطعمها ملعقة تلو الأخرى. في البداية، أكلتْ بدون جدال. ثم أغلقت فمها بشدة، وأشاحت بنظرها بعيداً عني وكأنني لم أكن موجودة.

سحبتني الأخت بالقسم الوسطى جانباً. عند قمة الدرج، أخذتْ شجرة الصفصاف الوعاء من يدي، وهمست قائلة: "لقد فات الأوان على هذا. فهي لا تريدُ أن تأكل، ويجبُ أن تحاولي أن تدعيها ترحل". ربتت شجرة الصفصاف على وجهي بلطف. في وقت لاحق، كانت هي من نظفت قيء زهرة الثلج من البطيخ المر.

كانت خطتي التالية والأخيرة هي أن أحضرَ العراف. فدخلَ الغرفة وأعلن قائلاً: "لقد علَّقَ أحدُ الأشباح نفسه بجسم صديقتك. لا تقلقي، فسنخرجُه معاً من هذه الغرفة، وستشفى". ثم قال: "يا آنسة زهرة الثلج، هذه بعض الكلمات لكِ لكي تنشديها". ثم قال لبقيتنا: "اركعن وصلين".

هكذا، قمتُ وقمر الربيع ومدام "وانغ" التي كانت هناك معظم الوقت، والأخوات بالقسم بالركوع على ركبنا حول السرير، وبدأنا نصلي ونغني لـ "إلهة الرحمة"، فيما كان صوتُ زهرة الثلج يكررُ سطورها بضعف. حالما رآنا العراف مشغولات بالقيام بمهماتنا، أخرجَ قطعة من الورق من جيبه، وكتبَ بعض التعاويذ عليها، وأشعلَ النار فيها، ثم شرعَ يركض جيئة وذهاباً عبر الغرفة محاولاً أن يُخرجَ الشبح الجائع. استخدمَ تالياً سيفاً ليشطره عبرَ الدخان وهو

يقول: "اخرج أيها الشبح! اخرج أيها الشبح! اخرج أيها الشبح!"

لكنَّ هذا لم يساعدنا. دفعتُ مالاً للعراف، وراقبته من شبك نافذة زهرة الثلج فيما كان يركبُ في عربته التي يجرها مهرٌ، ويتحركُ نزولاً في الطريق. عاهدتُ نفسي أنني منذ ذلك الوقت وصاعداً لن أستخدمَ العرافين إلا للعثور على التواريخ المبشرة بالخير.

جاءت برعم الخوخ، وهي الثالثة والصغرى من بين الأخوات بالقسم إليَّ، ووقفت بجانبي، وقالت: "إنَّ زهرة الثلج تفعلُ كل شيء تطلبينه منها. ولكنني آمل أن تري، يا سيدة "لو"، أنها تفعل هذه الأشياء من أجلكِ فقط. لقد استمرَّ هذا العذاب لوقت طويل. ولو كانت كلباً، هل كنتِ لتدعيها تعاني هكذا؟"

إنَّ الألم يوجدُ على عدة مستويات: المعاناة الجسدية التي كانت زهرة الثلج تكابدها، والألم لرؤيتها تعاني واعتقادي أنه لم يكنْ بإمكاني أن أتحمل لحظة أخرى، والندم المعذب الذي كنت أشعرُ به للأشياء التي قلتها لها قبل ثماني سنوات. ولأي هدف قلتها؟ هل لأكون محترمة من قبل النساء في قريتي؟ هل لأؤذي زهرة الثلج كما كانت قد آذتني؟ أم أن ذلك يعودُ إلى كبريائي لأنها إن لم تكن صديقةً لي فلا ينبغي لها أن تكونَ صديقة لأحد آخر؟ لقد كنتُ مخطئة في كل حساباتي بما فيها الأخير لأنني خلال تلك الأيام الطويلة رأيتُ المواساة التي عبَّرت عنها النساء الأخريات لزهرة الثلج. فلم يأتين إليها في اللحظة الأخيرة كما فعلت، بل اعتنين بها لسنوات عديدة. وكان كرمهن، بصورة أكياس صغيرة من الأرز وخضار مقطعة وحطب نار مجمَّع، قد أبقاها على قيد الحياة. كنّ يأتين الآن كل يوم مهملات واجباتهن المنزلية. لم يحتشدن ليتنافسن على

علاقتنا المميزة. عوضاً عن ذلك، كن يحمن حولنا كالأرواح اللطيفة، وهن يصلين، ويستمررن بإشعال النار لتبعد الأشباح التي كانت تحاول إيذاء زهرة الثلج، ولكنهن كن دائماً يتركننا وحدنا.

لا بدَّ أنني قد نلتُ قسطاً من النوم، ولكنني لا أتذكرُ ذلك. عندما لم أكن أعتني بزهرة الثلج، كنتُ أعملُ على صنعِ حذاء دفن لها. اخترتُ ألواناً أعرفُ أنها كانت ستحبُّها. أدخلتُ الخيط في إبرتي، وطرزتُ إحدى فردتي الحذاء ببرعمِ اللوتس من أجل البقاء، وسلمٍ من أجل الصعود لأرمزَ إلى أن زهرة الثلج كانت ستبقى في صعود مستمر نحو السماء. على الفردة الأخرى، طرزتُ غزالاً صغيراً وخفافيش ذات أجنحة مجعدة، وهي رموز تعني الحياة الطويلة، وهي نفس الرموز التي يراها المرء على ملابس الزفاف، وتُعلَّق كدلالات احتفالية في مناسبات الميلاد، وذلك لأدعَ زهرة الثلج تعلم أن نسلها كان سيستمرُ حتى بعد موتها من خلال ابنها وابنتها.

تدهورتْ حال زهرة الثلج. عندما كنتُ قد وصلتُ أول الأمر، وغسلتُ قدميها، وأعدتُ ربطهما، رأيتُ أن أصابعَ قدميها المثنية كانت قد تحولتْ أصلاً إلى اللون الأرجواني الداكن. كما كان الطبيب قد قال، زحفَ لونُ الموت الرهيب إلى ربلتي ساقيها. فحاولتُ أن أجعلَ زهرة الثلج تحاربُ المرض. توسلتُ إليها في الأيام الأولى أن تستدعي روح الحصان فيها لتبعدَ تلك الأرواح التي كانت تحاول الاستحواذَ عليها. أما الآن، فكل ما بقي أمامنا، كما كنتُ أعلم، هو أن نسهِّلَ طريقها إلى العالم الآخر قدر استطاعتنا.

كانت "يونغانغ" ترى كل هذا عندما كانت تأتي إليَّ كل صباح جالبةً معها

البيض الطازج، والملابس النظيفة، والرسائل من زوجي. لقد كانت مطيعة ومخلصة لي لسنوات عديدة، ولكنني في هذه المرة اكتشفتُ أنها قد تخلت عن وفائها لي لمرة واحدة بطريقة سأكونُ ممتنة لها إلى الأبد. فقبل وفاة زهرة الثلج بثلاثة أيام، وصلت "يونغانغ" في إحدى زياراتها الصباحية، وانحنت أمامي، ووضعت سلة أمام قدمي.

قالت بصوت يتكسر من الخوف: "لقد رأيتُك، يا سيدتي، قبل سنوات عديدة. وكنتُ أعلمُ أنه ليس من الممكن أن تكوني تعنين ما تفعلين".

لم أعلم ما كانت تتحدثُ عنه، أو لماذا اختارت تلك اللحظة لتعترف. ثم سحبت قطعة القماش من أعلى السلة، ومدّت يدها، وأخرجت بعضَ الرسائل والمناديل والقطع المطرزة ومروحةَ زهرة الثلج السرية. وكانت تلك هي الأشياء التي بحثتُ عنها عندما كنتُ أحرقُ ماضينا، ولكنَّ هذه الخادمة خاطرت بطردها إلى الشارع لتنقذَها خلال أيام "استئصال المرض من قلبي". فحافظت عليها محمية كل تلك السنوات.

لدى رؤيتهن لهذا، انطلقت قمر الربيع والأخوات بالقسم في أنحاء الغرفة باحثات في سلة تطريز زهرة الثلج ومنقبات في الأدراج ومحاولات الوصول تحت السرير للعثور على المخابئ السرية. وسرعان ما كانت هناك أمامي كل الرسائل التي كتبتُها لزهرة الثلج وكل شيء صنعتُه لها على الإطلاق. في النهاية، كلُّ شيء، ما عدا ما كنتُ قد دمرته، كان هناك أمامي.

طوال الأيام الأخيرة من حياة زهرة الثلج ذهبتُ وإياها في رحلة عبر حياتنا معاً. كنا قد حفظنا الكثير معاً بحيث إنه كان بإمكاننا أن نسمِّعَ مقاطع كاملة.

لكنها سرعان ما ضعفت، فقضت بقية اليوم ممسكة وحسب بيدي ومصغية لي.

في إحدى الليالي، ونحن في السرير معاً تحت شبك النافذة، وضوء القمر يغمرنا، انتقلنا عائدتين إلى أيام "التزين بدبابيس الشعر". فكتبتُ قصيدة بلغة الـ "تو شو" على راحة يدها، وهي قصيدة: السرير مضاءٌ بضوء القمر...

وسألتها: "ماذا كتبتُ؟ أخبريني بالحروف".

فهمست قائلة: "لا أعرف، لا أستطيعُ أن أحزر ما هي..".

لذا، ألقيتُ القصيدة، وراقبتُ الدموع تتساقطُ من زوايا عيني زهرة الثلج، وتجري على صدغيها، ثم تضيع في أذنيها.

خلال آخر محادثة أجريناها معاً، سألتني قائلة: "هل يمكنك أن تفعلي أمراً لي؟"

فقلتُ لها: "أي شيء". وكنتُ أعني ذلك.

"من فضلك كوني عمة لأطفالي".

فوعدتُها أنني كنتُ سأفعلُ ذلك.

لم يساعد شيء على تخفيف معاناة زهرة الثلج. وفي الساعات الأخيرة، قرأتُ عقدَ صداقتنا، فذكرتُها كيف ذهبنا إلى معبد "غوبو"، واشترينا الورق الأحمر، وجلسنا معاً، وألفنا الكلمات. قرأتُ مجدداً الرسائل التي أرسلناها لبعضنا البعض، وقرأتُ مقاطعَ سعيدة من مروحتنا. همهمتُ بألحان قديمة من طفولتنا، وأخبرتها كم كنتُ أحبها، وأنني كنتُ آملُ أن تكونَ بانتظاري في العالم الآخر. تحدثتُ إليها طوال طريقها إلى حافة السماء غير راغبة لها أن تذهب

رغم أنني كنتُ أتوقُ لأحررَها إلى الغيوم.

تحوَّل لون جلد زهرة الثلج من الأبيض الشاحب إلى الذهبي. انصهرتْ حياة كاملة من القلق من وجهها، وأصغيتُ والأخوات بالقسم وقمر الربيع ومدام "وانغ" إلى تنفس زهرة الثلج: شهيق وزفير ثم لا شيء. ثم كانت الثواني تمرُّ ثم: شهيق وزفير ثم لا شيء. ثم مرّت المزيد من الثواني الموجعة، ثم شهيق وزفير ثم لا شيء. وكنتُ طوال الوقت مبقية يدي على خد زهرة الثلج، كما كانت قد فعلت طوال حياتنا معاً لأجعلها تعرف أن رفيقتها كانت معها حتى آخر شهيق وزفير ثم لا شيء فعلاً.

ذكَّرني الكثيرُ مما حدثَ معي بالقصة الوعظية التي اعتادت زوجةُ عمي أن تنشدَها لنا عن الفتاة التي كان لها ثلاثة إخوة. فأدركتُ الآن أننا لم نكن نتعلمُ تلك الأغاني والقصص لكي تعلمنا كيف نتصرفُ وحسب، بل لأننا كنا سنعيشُ أشكالاً مختلفة منها مراراً وتكراراً خلال حياتنا.

حُملت زهرة الثلج، وأنزلت إلى الغرفة الرئيسية، فغسلتُ جثمانها، وألبستها ثياب الأبدية وكلها ممزقةٌ وباهتة، ولكنَّ أشكالها كانت أشكالاً أتذكرها من طفولتنا. ومشطتِ الأختُ بالقسم الكبرى شعر زهرة الثلج، ووضعتِ الأختُ الوسطى المساحيق على وجه زهرة الثلج، وصبغت شفتيها، وزيَّنت الأخت الصغرى شعرَها بالأزهار، ووضع جثمان زهرة الثلج في تابوت. جاءت فرقة صغيرة لتعزف موسيقى الحداد بينما جلسنا بجانبها في الغرفة الرئيسية. كانت الأختُ بالقَسَم الكبرى تملكُ مالاً كافياً لتشتري بخوراً لتحرقه، وكانت الأختُ الوسطى تملك مالاً كافياً لتشتري ورقاً لتحرقه. ولم تكن الأختُ الصغرى تملكُ

أي مال للبخور أو الورق، ولكنها قامت بعمل جيد وهو البكاء.

بعد ثلاثة أيام، حملَ الجزارُ وابنه وأزواج الأخوات بالقسم وأبناؤهن التابوت إلى المقبرة. مشوا بسرعة كبيرة وكأنهم كانوا يطيرون عبرَ المقبرة. وأخذتُ تقريباً كل كتابات زهرة الثلج بلغة الـ "نو شو" بما فيها الكثير مما قد أرسلتُه لها، ثم أحرقناها لكي تحظى بكلماتنا معها في العالم الآخر.

عدنا إلى منزل الجزَّار، وأعدّت قمر الربيع الشاي، فيما صعدتُ والأخوات بالقسم إلى الطابق العلوي لنزيلَ كل العلامات التي تدلّ على الوفاة.

علمتُ عن طريقهن عن خزيي الأكبر. فقد أخبرنني أن زهرة الثلج لم تكن أختهن بالقسم. ولم أصدق ذلك، فحاولن أن يقنعنني بأسلوب آخر.

فصحت بإحباط قائلة: "ولكن المروحة؟ لقد كتبتْ فيها أنها قد انضمتْ إليكن".

صحّحت زهرة اللوتس ما قلته، وقالت: "كلا. بل كتبتْ لك أنها لا تريدُك أن تقلقي بشأنها بعد الآن وأن لديها صديقات هنا ليخففن عنها".

سألن إن كان بإمكانهن أن يرين الكلمات بأنفسهن. فقد كانت زهرة الثلج كما علمتُ قد علَّمتْ أولئك النساء كيف يقرأن كتابة الـ "نو شو". فاحتشدن الآن فوق المروحة كمجموعة من الدجاج، وهن يتعجبن، ويشرن لبعضهن البعض إلى العلامات التي كانت زهرة الثلج قد أخبرتهن بها على مدى السنوات. لكنهن عندما وصلن إلى الرسالة الأخيرة بدون جادات.

قالت زهرة اللوتس وهي تشيرُ إلى الأحرف: "انظري، ليس هناك شيء هنا عن كونها أختنا بالقَسَم".

فانتزعتُ المروحة منها، وأخذتُها إلى إحدى الزوايا حيث كان يمكنني أن أتفحصها بنفسي. كانت زهرة الثلج قد كتبت قائلة: لديَّ الكثير من المتاعب. فلا أستطيعُ أن أكون كما تتمنين. وليس عليك أن تصغي لشكواي بعد الآن. فقد وعدتني ثلاث أخوات بالقسم أن يحببني كما أنا...

قالت زهرة اللوتس لي عبر الغرفة: "أترين، يا سيدة "لو"؟ لقد أرادت زهرة الثلج منا أن نصغي إليها. وبالمقابل علمتنا اللغة السرية. لقد كانت معلمتنا، وكنا نحترمها ونحبها من أجل ذلك. لكنها لم تكن تحبنا، بل كانت تحبكِ أنتِ. وكانت تريدُ لذلك الحب أن يعودَ إليها غير مثقل بشفقتك ونفاد صبرك".

إنَّ كوني سطحية وعنيدة وأنانية لم يكن قد غيَّر فداحة وغباء ما فعلتُه. فقد ارتبكتُ أفدح خطأ ترتكبُه امرأة متعلمة للغة الـ "نو شو". إذ إنني لم آخذ بعين الاعتبار التركيب، والسياق، وظلال المعاني. أكثر من ذلك، فقد جعلني إحساسي بأهمية نفسي أنسى ما علمتُه في اليوم الأول الذي التقيتُ به بزهرة الثلج، وهو أنها لطالما كانت أكثر دقة ورقياً في كلماتها من هذه الابنة الثانية لمزارع عادي. طوال ثماني سنوات، عانت زهرة الثلج بسبب عماي وجهلي. هكذا، عشتُ لبقية حياتي، التي دامت أكثر بسنوات من عمر زهرة الثلج عندما توفيت، مع الندم.

لكنهن لم يكن قد انتهين مني.

فقالت زهرة اللوتس: "لقد حاولت أن ترضيك من كل ناحية حتى بأنها حاولتْ أن تحملَ في وقت مبكر فوق اللازم بعد الولادة".

"هذا ليس صحيحاً!"

تابعت شجرة الصفصاف قائلة: "في كل مرة كانت تفقدُ طفلاً كنت تقدمين لها التعاطف أكثر من زوجها وحماتها. لطالما كنتِ تقولين لها إن قيمتها الوحيدة كانت بإنجاب الأبناء. كانت تصدقك، وكنتِ تقولين لها أن تحاول مجدداً. فكانت تطيعك".

أجبتُ بسخط: "هذا ما يفترضُ بنا أن نقوله، وهذه الطريقة التي نقدّمُ بها نحن النساء العزاء..".

"ولكن هل تعتقدين أن تلك الكلمات كانت عزاء عندما فقدت طفلاً آخر؟"

"أنتن لم تكن هناك. ولم تسمعن..".

فوبختني برعم الخوخ قائلة: "حاولي مجدداً! حاولي مجدداً! حاولي مجدداً! هل يمكنك أن تنكري أنكِ قلت تلك الأشياء؟"

ولم أستطعِ أن أنكرَ ذلك.

فعاودت زهرة اللوتس الكلام قائلة: "لقد طالبتها أن تتبعَ نصيحتك في هذا وفي أمور أخرى. وعندما فعلت ذلك، انتقدتها..".

"إنك تغيّرين ما عنيته".

فسألت شجرة الصفصاف: "حقاً؟ لقد كانت تتحدثُ عنك طوال الوقت. ولم تقل كلمة واحدة سيئة قَطُّ عنك، ولكننا سمعنا حقيقة ما حدث".

ختمت برعم الخوخ الكلام قائلة: "لقد كانت تحبك كما ينبغي على الرفيقة أن تفعل من أجل كل شيء كنته وكل شيء لم تكونيه، ولكنك كنت تفكرين كما يفكرُ الرجال. فكنت تقدرينها لاتباع قوانينهم فقط".

بعد أن أنهت جولة واحدة من الحديث، بدأت زهرة اللوتس جولة أخرى.

فسألت بلهجة جعلتني مرعوبة مما كان قادماً: "هل تتذكرين عندما كنا في الجبال، وفقدت طفلاً؟"

"بالطبع أتذكرُ ذلك".

"لقد كانت مريضة في الأصل".

"هذا غير ممكن. فالجزّار..".

اعترفت شجرة الصفصاف قائلة: "ربما يكونُ زوجها قد سببَ هذا في ذلك اليوم، ولكنَّ الدم الذي انفجرَ من جسمها كان أسود اللون وراكداً وميتاً. لم ترَ أيٌّ منا طفلاً في تلك الفوضى".

أنهت برعم الخوخ الكلام مجدداً قائلة: "لقد كنا هنا معها لعدة سنوات، وحدثَ هذا الأمرُ بضعَ مرات أخرى. كانت في الأصل مريضةً تماماً عندما غنيت "رسالة الذم"".

لم أكن قادرة على الجدال بشكل ناجح معهن من قبل. فكيف كان يمكنني أن أجادلَ عن هذه النقطة الآن؟ ولا بدَّ أن الورمَ كان ينمو لوقت طويل جداً. اتضحت لي أمور أخرى من الماضي، كفقدان زهرة الثلج لشهيتها، وشحوب بشرتها، وفقدان طاقتها في اللحظة ذاتها التي كنتُ ألحُّ عليها فيها لتأكل بشكل أفضل، ولتقرص خديها، لتكتسب لوناً أكثر، ولتقوم بكل أعمالها المنزلية المتوقعة منها لتحقق الانسجام في بيت زوجها. عندئذٍ، تذكرتُ أنها، قبل أسبوعين فقط عندما وصلتُ أول الأمر إلى المنزل، قد اعتذرت مني. ولم أفعل أنا الأمرَ ذاته، ليس حتى عندما كانت تعاني من أسوأ ألمها، ليس حتى عندما كان موتها وشيكاً، ليس فقط عندما كنتُ أخبرُ نفسي بغرور أنني كنتُ ما أزالُ

أحبها. لطالما كان قلبها نقياً، ولكنَّ قلبي كان ذابلاً، وقاسياً، وجافاً كحبة جوز قديمة.

أحياناً أفكّرُ بأولئك الأخوات بالقسم، وكلهن توفين الآن، بالطبع. فلا بدَّ أنهن كن حريصات في ما قلنه لي لأنني كنتُ السيدة "لو"، ولكنهن لم يكن سيتركنني أخرجُ من المنزل دون أن أعرف الحقيقة.

ذهبتُ إلى البيت، وانسحبتُ إلى غرفة الطابق العلوي مع المروحة وبعض الرسائل التي حافظتُ عليها. فطحنتُ الحبر حتى أصبح أسود كسماء الليل، وفتحتُ المروحة، وغمّستُ ريشتي في الحبر، وكتبتُ ما كنتُ أعتقدُ أنه سيكونُ كتابتي الأخيرة.

أنتِ التي لطالما عرفتِ قلبي طيري الآن فوق الغيوم في دفء الشمس. آمل أننا يوماً ما سنحلقُ معاً. كانت ما تزالُ أمامي سنواتٌ عديدة لأفكرَ بتلك السطور وأبذلَ ما بوسعي لأغيرَ كل الأذى الذي سببتُه لأكثر صديقة أحببتُها في العالم.

الجلوس بهدوء

الندم

لقد أصبحتُ الآن عجوزاً جداً بحيث لا أستطيعُ أن أستخدمَ يديَّ للطهو أو للحياكة أو للتطريز. وعندما أنظرُ إليهما أرى البقعَ التي يسببُها العيشُ لسنوات عديدة سواء أعمِلَ المرء خارجاً تحت الشمس أو احتمى طوال حياته في حجرة النساء. لقد أصبحتْ بشرتي رقيقة جداً بحيث إن بقعاً من الدم تتجمعُ تحت سطح الجلد تماماً عندما أرتطمُ بالأشياء أو عندما ترتطمُ بي الأشياء. لقد تعبتْ يداي من طحن الحبر في مطحنة الحبر، وتورمَت براجمي من حمل الفرشاة. هناك ذبابتان تقفان على إبهامي، ولكنني واهنة فوق الحدّ لكي أطردهما. لقد أصبحت عيناي، العينان الدامعتان لامرأة عجوز، تدمعان كثيراً في هذه الأيام الماضية. لقد تساقط شعري، الذي أصبحَ رمادياً وخفيفاً، بسبب دبابيس الشعر التي كان ينبغي عليها أن تثبته في مكانه تحت غطاء رأسي. عندما يأتي الزوار إلينا، يحاولون ألا ينظروا إليَّ، وأحاولُ ألا أنظرَ إليهم أيضاً. لقد عشتُ وقتاً طويلاً جداً.

بعد وفاة زهرة الثلج كانت ما تزال أمامي نصف حياتي لأعيشها. لم تكن أيام "الأرز والملح" قد انتهت بالنسبة لي، ولكنني كنتُ في أعماقي أشعر أن أيام "الجلوس بهدوء" بالنسبة لي قد بدأت. تلك الأيامُ تبدأ بالنسبة لمعظم النساء بوفاة أزواجهن، أما بالنسبة لي فقد بدأت بموت زهرة الثلج. لقد أصبحتُ "تلك التي لم تمت بعد"، ولكن الأمور كانت تمنعني من أن أكونَ ساكنة أو هادئة تماماً، فقد كان زوجي وعائلتي يحتاجونني لأكون زوجة وأماً. كان مجتمعي يحتاجني لأكون السيدة "لو"، وكان هناك أيضاً ولدا زهرة الثلج اللذان كنتُ

أحتاجُ إليهما لكي أتمكنَ من التكفير عن ذنبي تجاه رفيقتي. لكن من الصعب أن أكون كريمة فعلاً، وأن أتصرفَ بطريقة صحيحة عندما لا أكونُ أعرفُ كيف أفعلُ ذلك.

كان أول شيء فعلتُه في الأشهر التي تلت وفاة زهرة الثلج مباشرة، هو أنني أخذتُ مكانها في كل تقاليد ومراسم زفاف ابنتها. لقد كانت قمر الربيع تبدو مستسلمة لاقتراب موعد الزواج وحزينة لفراق البيت وقلقة - بعد أن رأت الطريقة التي كان والدها يعاملُ بها والدتها - مما كان مخبئاً لها. قلتُ لنفسي إن هذا من نوع القلق الذي تشعرُ به كل الفتيات. ولكنَّ قمر الربيع، في ليلة زفافها بعد أن استغرقَ زوجها في النوم، انتحرتْ بأن رمتْ نفسها في بئر القرية.

فكان الناس يثرثرون متهامسين: "إنَّ تلك الفتاة لم تلوثْ عائلتها الجديدة، ولكنها لوثت ماء شرب القرية كله، إنها مثل أمها تماماً. أتتذكرون رسالة الذم تلك؟" فكان تأليفي لتلك الرسالة التي دمرت سمعة زهرة الثلج يخدشُ ضميري. لذا، كنتُ أسكتُ هذا الكلام كلما كنتُ أسمعه، فأصبحتُ بسبب كلماتي المرأة المتسامحة المحبة للخير مع الناس الملوثين، ولكنني كنتُ أعلم أنني، في أولى محاولاتي لأصحح الأمور لزهرة الثلج، فشلتُ بشكل مريع. فكان اليوم الذي كتبتُ فيه عن وفاة تلك الفتاة في مروحتنا أسوأ أيام حياتي.

ركزتُ جهودي فيما بعد على ابن زهرة الثلج. وبالرغم من ظروفه السيئة وانعدام الدعم من والده، كان قد تعلَّم شيئاً من كتابة الرجال، وكان جيداً في التعامل بالأرقام، وعلى الرغم من ذلك، فقد كان يعملُ إلى جانب والده، ولم تعد

هناك أية بهجة في حياته أكثرَ مما كان يحظى به عندما كان صغيراً. لقد التقيتُ بزوجته التي كانت ما تزالُ تقيمُ مع أهلها، وهذه المرة كان الخيار صحيحاً. لقد أصبحت الفتاة حاملاً، ولكنَّ فكرة إقامتها في بيت الجزَّار آلمتني، وبالرغم من أنه لم يكن من شأني أن أتدخلَ بعالم الرجال الخارجي، فقد أقنعت زوجي بعد إلحاحٍ – الذي لم يرث ممتلكات العم "لو" الضخمة فحسب، ولكنه أضاف إليها من أرباح تجارة الملح، وكان يملك الآن حقولاً تمتدُ طوال الوقت إلى قرية "جينتيان" – أن يعثرَ على شيء من أجل ذلك الشاب ليعمل به إلى جانب ذبح الخنازير. فوظَّف ابن زهرة الثلج ليجمعَ الأجرة من المزارعين، وأعطاه منزلاً مع حديقة مطبخ. في نهاية المطاف، تقاعد الجزَّار، وانتقلَ للعيش مع ابنه. بدأ يصبحُ شغوفاً بأحفاده الذين أضفوا البهجة على ذلك البيت. فأصبحَ الشاب وعائلته سعداء، ولكنني كنتُ أعلمُ أنني ما زلتُ لم أفعل ما فيه الكفاية لأعوضَ ما فعلتُه بزهرة الثلج.

عندما بلغتُ الخمسين من عمري، تغيّرتْ حياتي مجدداً. فاختبرتُ التحول من خدمة الآخرين إلى خدمة الآخرين لي بالرغم من أنني كنتُ بالتأكيد أراقبُهم وأصححُ لهم أي شيء كانوا يقومون به ولا يرضيني. لكنني كنتُ جالسة بهدوء أصلاً، كما قلت. أصبحتُ نباتية، وامتنعتُ عن الطعام الحار كالثوم والشراب، وقمت بتأمل الحِكَم الدينية، وممارسة الطقوس التطهيرية. بالرغم من أنني قد خططتُ طيلة حياتي الزوجية لأمنعَ زوجي من اتخاذ محظية، فقد نظرتُ إليه وشعرتُ بالشفقة. فقد كان يستحقُ مكافآت حياة كاملة من العمل الشاق. لم أنتظر منه أن يقومَ بذلك، وربما لم يكن ليفعلَ ذلك أبداً، بل تعهدتُ أن أجد

وأحضرَ للبيت ليس محظية واحدة بل ثلاث محظيات ليقمن على تسليته. كنتُ باختيارهن بنفسي قادرة على تجنب الغيرة والخلافات التافهة التي تصلُ عادة مع النساء الشابات الجميلات. لم أكن أمانع عندما كن ينجبن أطفالاً. في الواقع، فقد ازداد تقدير زوجي في القرية، فقد أثبت أنه لم يكن يستطيعُ مالياً أن يتحملَ الإنفاقَ على أولئك النسوة فقط بل أن طاقته كانت أقوى من أي رجل آخر في المقاطعة.

تحولتْ علاقتي بزوجي إلى علاقة صداقة عميقة. فكان غالباً ما يأتي إلى حجرة النساء ليشرب الشاي ويتحدث معي. كان العزاء الذي كان يشعر به في هدوء العالم الداخلي يجعلُ قلقه بشأن الفوضى، وعدم الاستقرار، والفساد في العالم الخارجي يتلاشى. كنا أكثر رضا مع بعضنا البعض في هذا الوقت، وربما أكثر من أي وقت في حياتنا برمتها. فقد زرعنا حديقة، وأزهرت من حولنا من عدة نواح. لقد تزوجَ كل واحد من أبنائنا، وبرهنت كل واحدة من زوجاتهم عن كونها امرأة ولوداً، فأصبحَ بيتنا مبتهجاً بأصوات الأحفاد، وقد أحببناهم. لكن كانت هناك طفلة واحدة ليست من دمي أهمَّني أمرُها أكثرَ من الجميع. وكنتُ أريدُها بجانبي.

في المنزل الصغير في قرية "جينتيان"، كانت زوجةُ مُحصِّل الأجرة قد أنجبت طفلة. فأردتُ الطفلة، وهي حفيدة زهرة الثلج، أن تصبح زوجة لحفيدي الأكبر. وليس سن السادسة سناً مبكراً لـ "اختيار الزوج" إذا كانت كلتا العائلتين تريد أن تقررَ خطبة لزوجين مبجلين، وإذا كانت عائلة العريس راغبة بالبدء بإرسال هدايا المهر، وإذا كانت عائلة العروس فقيرة كفاية لتكون بحاجة إليها. شعرتُ

أننا كنا نحققُ كل الشروط، وكان زوجي، بعد اثنين وثلاثين عاماً من الزواج لم أسبب له فيها قَطُّ أي إحراج أو خزي، سخياً كفاية ليحققَ لي هذا الطلب.

أرسلتُ في طلب مدام "وانغ" حالما كانت قدما الفتاة على وشك أن تربطا. فرافقتِ المرأةَ العجوز فتاتان كبيرتا القدمين، مما أعلَمني أنه رغمَ أن الخاطبات الأخريات كن مشغولات أكثرَ منها الآن، فقد ادخرت مالاً كافياً لتعيش بحال جيدة. مع ذلك فلم تكن السنواتُ لطيفة مع مدام "وانغ". فقد كان وجهها ذابلاً، وكانت عيناها بيضاوين من العمى، وكانت بلا أسنان. كان شعرها قليلاً جداً، وكان جسمها منكمشاً بسبب انحناء ظهرها، وكانت ضعيفة جداً ومشوهة بحيث إنه كان بالكاد بإمكانها أن تمشي على قدميها الصغيرتين. لقد علمتُ حينئذٍ أنني لم أكن أريدُ أن أعيشَ طويلاً. ومع ذلك، فها أنا ذا على قيد الحياة.

عرضتُ عليها الشاي والحلويات، واعتقدت أنها لم تتذكر من أنا وأنه كان بإمكاني أن أستخدمَ هذا لصالحي. ثرثرنا قليلاً، ثم وصلتُ إلى هدف الحديث.

"إنني أبحثُ عن عروس جيدة لحفيدي".

فسألت مدام "وانغ" قائلة: "ألا ينبغي أن أتحدث مع والد الفتى؟"

"إنه ليس هنا، وقد طلبَ مني أن أتفاوضَ معك نيابة عنه".

أغمضتِ المرأةُ العجوزُ عينيها، وهي تفكرُ بالأمر، أو أنها قد استغرقت في النوم.

فتابعتُ كلامي بصوت مرتفع: "لقد سمعتُ أن هناك مرشحةً جيدة في قرية "جينتيان"، وهي ابنة محصل الأجرة".

كان ما قالته مدام "وانغ" فيما بعد هو ما أعلمني أنها قد عرفت تماماً من أنا.

فسألت: "لم لا تتخذون الفتاة ك. "كنة صغيرة"؟ فمنزلة أسرتك رفيعة جداً. وأنا واثقة أن ابنك وكنتك سيكونان سعيدين تماماً بهذا الإجراء".

في الواقع، لقد كانا غير مسرورين مما كنتُ أفعله. لكن ماذا كان يمكنهما أن يفعلا؟ لقد كان ابني عالماً، وكان قد اجتازَ لتوه المستوى التالي من الامتحانات الإمبراطورية ليصبحَ موظفاً كبيراً في سن الثلاثين. وكان إما مفكراً أو مسافراً في أنحاء الريف. كان نادراً ما يأتي إلى البيت، وعندما كان يفعل ذلك، كان يأتي بقصص غريبة عما رآه: كأجانب غرباء طويلي القامة لهم لحى حمراء لديهم زوجات ذوات خصور ضيقة بحيث إنهن لم يكن يستطعن التنفس، وأقدام ضخمة تترجرج كالسمك الذي اصطيدَ لتوه. باستثناء هذه القصص، كان ابني مطيعاً ويفعل ما يطلبه منه والده، بينما كان على كنتي أن تطيعني. على الرغم من ذلك، فقد نأتْ بنفسها عن هذه المناقشات كلياً، وانسحبتْ إلى غرفتها لتبكي.

قلت: "إنني لا أبحثُ عن فتاة كبيرة القدمين، بل أريدُ أن أزوجَ حفيدي من فتاة لها أكثر قدمين مثاليتين في المقاطعة".

"لكنّ الطفلة لم تبدأ تلك العملية بعد. وليست هناك ضمانات..".

"لكنك رأيت تلك القدمين، هل ما أقوله صحيح، يا مدام "وانغ"؟ وأنت حكم جيدٌ. ماذا تظنين أن النتيجة ستكون؟"

"قد لا تعرفُ أم الفتاة كيف تقومُ بعمل جيد..".

"عندئذٍ سأشرف على الأمر بنفسي".

فقالت مدام "وانغ" بتذمر: "لا يمكنك أن تحضري الفتاة إلى هذا المنزل إن كنتِ تنوين أن يتمّ الزواج، فلن يكون أمراً ملائماً لحفيدك أن يرى زوجته المستقبلية".

لم تكن مدام "وانغ" قد تغيّرت، ولكنني لم أكنْ قد تغيّرتُ أيضاً.

"إنكِ محقة، يا سيدتي. سأزورُ بيت الفتاة".

"إنَّ هذا بالكاد ملائم..".

"سأزورها مرات كثيرة، فلدي أشياء كثيرة لأعلمها إياها". راقبتُ مدام "وانغ"، وهي تفكرُ ملياً في ذلك، ثم انحنيتُ إلى الأمام، وغطيتُ يد المرأة العجوز بيدي، وقلت: "إنني أعتقدُ، يا خالة، أن جدة الفتاة كانت لترضى عن هذا".

فامتلأت عينا الخاطبة بالدموع.

تابعتُ كلامي بسرعة قائلة: "إنَّ هذه الفتاة ستحتاجُ لتعلم الفنون النسوية، وستكون بحاجة للسفر، ليس لمسافة بعيدة بحيث تمنحها طموحات تتعدى عالم النساء، ولكنني أعتقدُ أنك ستوافقين على أنه ينبغي عليها أن تزورَ معبد "غوبو" كل سنة. لقد أخبروني أنه كان هناك رجلٌ في الماضي يعدُ وليمة قلقاس مميزة، وسمعتُ أن حفيده يواصلُ تراثه".

ألححتُ في المفاوضة، فأصبحتْ حفيدة زهرة الثلج تحت حمايتي، وقمتُ بربط قدميها شخصياً، وأظهرتُ لها كل الحب الأمومي الذي كان يمكنني أن أظهره بينما كنتُ أجعلها تسيرُ جيئة وذهاباً عبر حجرة الطابق العلوي في بيت أهلها. فأصبحت قدما زهرة الفاوانيا زهرتي زنبق ذهبيتين مثاليتين مماثلتين

لحجم قدمي. أثناء الأشهر الطويلة التي كانت فيها عظام زهرة الفاوانيا تنجبر، كنتُ أزورها كل يوم تقريباً. كان والداها يحبانها كثيراً، ولكنَّ والدها كان يحاولُ ألا يفكرَ بالماضي وكانت أمها لا تعرفه. لذا، كنتُ أتحدثُ مع الفتاة وأنا أنسجُ قصصاً عن جدتها ورفيقتها وعن الكتابة، والغناء، والصداقة، والشدة.

قلت لها: "لقد ولدتْ جدتكِ في عائلة مثقفة، وستتعلمين ما علمتني إياه، كالحياكة والكرامة، وأهم من ذلك، كتابتنا النسائية السرية".

كانت زهرة الفاوانيا مجتهدة في دراساتها، ولكنها قالت لي يوماً ما: "إن كتابتي غير متقنة. فآمل أن تكوني متسامحة معي ومعها".

لقد كانت حفيدةَ زهرة الثلج، ولكن كيف كان يمكنني ألا أرى ما يشبهني فيها؟

إنني أتساءلُ أحياناً أيهما كان أسوأ، مشاهدة موت زهرة الثلج أو موت زوجي، فكلاهما عانى كثيراً. وواحدٌ منهما فقط حظيَ بموكب جنازة مشى فيه ثلاثة أبناء على ركبهم طوال الطريق إلى المقبرة. لقد كنتُ في السابعة والخمسين عندما رحلَ زوجي إلى العالم الآخر، فكنتُ عجوزاً بحيث لا يمكنُ أن يفكرَ أبنائي بتزويجي مجدداً أو حتى أن يقلقوا فيما إذا كنتُ سأصبحُ أرملة فاضلة. لقد كنتُ فاضلة، ولطالما كنتُ كذلك لسنوات عديدة. إلا أنني قد ترملتُ مرتين الآن. ولم أكن قد كتبتُ الكثير عن زوجي في هذه الصفحات، وكلُّ ذلك موجودٌ في سيرتي الذاتية الرسمية، ولكنني سأقول هذا: لقد كان يمنحني سبباً للاستمرار يوماً بعد يوم، فكان عليَّ أن أتأكدَ من تحضير وجباته، وأن أفكّرَ بأشياء ذكية لأسليه، وعندما رحل، أصبحتُ آكلُ طعاماً أقل، ولم أعد أكترثُ

لأن أكونَ نموذجاً للنساء في المقاطعة، فمرّت الأيام لتصبح أسابيع، ونسيتُ أمر الوقت، وتجاهلتُ مرور الفصول، وطوتِ السنواتُ بعضها لتصبحَ عقوداً.

إنَّ مشكلة العيش لمدة طويلة هي أن المرء يرى كثيراً من الناس يمرون أمام عينيه. لقد عشتُ تقريباً أكثرَ من الجميع، وهم: والدي، وعمي وزوجته، وإخوتي ومدام "وانغ"، وزوجي، وابنتي، واثنان من أولادي وكلّ كناتي، وحتى "يونغانغ". أصبحَ ابني الأكبر عالماً كبيراً، وكان الإمبراطور قد قرأ مقالته بنفسه، وكان ابني كموظف في البلاط يقضي معظم وقته بعيداً، ولكنَّه أمَّن على مركز عائلة "لو" لأجيال آتية. إنه مطيعٌ لي، وأعلم أنه لن ينسى واجباته أبداً، حتى أنه قد اشترى تابوتاً كبيراً ومطلياً لأستريحَ فيه بعد وفاتي. اسمه، إلى جانب اسم عم أبيه "لو" وجد زهرة الثلج الأكبر، مكتوبٌ بأحرف الرجال الفخورة في معبد الأسلاف. ستبقى تلك الأسماء الثلاثة هناك حتى ينهار المبنى.

تبلغ زهرة الفاوانيا الآن سبعة وثلاثين عاماً، وهي أكبر بست سنوات مما كنتُ عليه عندما أصبحت السيدة "لو". لكونها زوجة حفيدي الأكبر، ستصبح السيدة "لو" الجديدة عندما أموت. لديها ابنان وثلاث بنات، وقد تنجبُ المزيد من الأطفال بعد. لقد تزوجَ ابنها الأكبر فتاة من قرية أخرى، وقد أنجبت مؤخراً توأمين، صبياً وفتاة. أرى في وجهيهما وجه زهرة الثلج، ولكنني أرى نفسي أيضاً. إننا كفتيات يُقال لنا إننا فروع عديمة القيمة لأننا لن نحمل أسماء عائلات أهالينا، ولكن فقط أسماء عائلات أزواجنا إن كنا محظوظات كفاية لننجب الأبناء. بهذه الطريقة، تنتمي المرأة لعائلة زوجها إلى الأبد فيما إذا

كانت حية أو ميتة. كل هذا صحيح، ومع ذلك فإن رضاي في هذه الأيام يأتي من معرفة أن دماء زهرة الثلج ودمائي سرعان ما ستحكمُ منزل عائلة "لو".

لطالما كنتُ أصدق المقولة التي تحذر قائلة: "إن المرأة بدون علم هي أفضل من المرأة ذات المعرفة". فحاولت طيلة حياتي أن أصمَّ أذني عما كان يحدثُ في العالم الخارجي، ولم أكن أطمحُ لأتعلمَ كتابة الرجال، ولكنني تعلمتُ طرق النساء وقصصهن وكتابة الـ "نو شو". وقبل سنوات، عندما كنتُ في قرية "جينتيان" أعلِّمُ زهرة الفاوانيا وأخواتها بالقَسَم الأحرف التي تشكل شيفرتنا السرية، سألتني الكثير من النساء إن كنتُ أرغبُ أن أنسخَ سيرهن الذاتية. فلم أستطع أن أرفض. بالطبع، كنتُ أفرضُ عليهن أجرة، وهي ثلاث بيضات وقطعة نقود. ولم أكن بحاجة للبيض أو للنقود، ولكنني كنتُ السيدة "لو"، وكان يجب عليهن أن يحترمن مركزي. لكنّ الأمرَ كان يتخطى ذلك، فقد أردتُ منهن أن يضفن قيمة إلى حياتهن التي كانت بمعظمها كئيبة. لقد كن ينتمين لعائلات فقيرة وجاحدة زوَّجتهن في سن غضة. لقد عانين ألم فراق أهلهن، وفقدان أطفالهن، والمعاملة المهينة لكونهن يتمتعن بأدنى مركز في بيوت أزواجهن، والكثير منهن كان لهن أزواج يضربونهن. إنني أعلمُ الكثير عن النساء ومعاناتهن، ولكنني ما زلتُ لا أعلمُ شيئاً تقريباً عن الرجال. إذا كان الرجلُ لا يقدر قيمة زوجته عند الزواج بها فكيف يَعِزُها بعد الزواج؟ وإذا كان ينظرُ إلى زوجته على أنها ليست أفضل من دجاجة يمكنها أن تزوِّدَ بعددٍ لا ينتهي من البيض، أو جاموس يمكنه أن يتحملَ مقداراً لا ينتهي من الوزن فوق كتفيه فلماذا سيقدرها أكثر من تلك الحيوانات؟ وقد يقدرها حتى أقل لأنها

ليست شجاعة وقوية وقادرة على التحمل وقادرة على الاعتماد على نفسها.

بعد أن سمعتُ الكثير من القصص، فكّرتُ بقصتي. فطيلة أربعين عاماً، لم يوقظ الماضي بي سوى الندم. لقد كان شخصٌ واحدٌ فقط يهمني فعلاً، ولكنني عاملتُها بأسوأ مما عاملَها زوجها. بعد أن طلبت مني زهرة الثلج أن أكون عمة لأولادها، قالت لي، وكانت تلك آخر كلمات قالتها لي على الإطلاق: "رغم أنني لم أكن صالحة مثلك، إلا أنني أعتقدُ أن الأرواح السماوية تنضمُ إلينا. وسنكون معاً إلى الأبد". لقد كنتُ أعودُ بتفكيري مراراً إلى تلك الكلمات. هل كانت تقول الحقيقة؟ ماذا إن لم تكن هناك رحمة في العالم الآخر؟ ولكن إذا استمرَ الأموات بامتلاك نفس حاجات ورغبات الأحياء، عندئذٍ سأمدُّ يدي لزهرة الثلج ولجميع من شهدوا كل هذا وأقول: من فضلكم اسمعوا كلماتي. من فضلكم سامحوني.

ملاحظات وشكر وتقدير

في أحد الأيام في ستينيات القرن العشرين، فقدت امرأة عجوز وعيها في محطة قطار ريفية في الصين. عندما بحثت الشرطة في أشيائها في محاولة لتحديد هويتها، عثروا مصادفة على أوراق وفيها ما بدا أنه شيفرة سرية مكتوبة. بسبب حدوث هذا في وسط "الثورة الثقافية" فقد اعتقلت المرأة، واحتجزت للشك بكونها جاسوسة. فأدركَ العلماء الذين أتوا لتحليل الشيفرة على الفور تقريباً أنها لم تكن شيئاً يتعلق بخديعة دولية. وبالأحرى، فقد كانت لغة مكتوبة تُستخدم حصراً من قبل النساء، وكانت قد احتفظَ بها كسر عن الرجال لألف سنة. لقد أُرسلَ هؤلاء العلماء فوراً إلى معسكر العمل الإلزامي.

عثرتُ مصادفة على ذكر وجيز لل. "نو شو" عندما كتبتُ رأياً نقدياً عن كتاب "بينغ وانغ" وعنوانه "الألم من أجل الجمال" لينشر في صحيفة "لوس أنجلوس تايمز"، فأصبحتُ مفتونة ثم مهووسة بلغة ال. "نو شو" والثقافة التي نشأت حولها. اكتشفت أن بعضَ الوثائق بلغة ال. "نو شو"، سواء أكانت رسائلَ أم قصصاً أم نسيجاً أم قطعاً مطرزة، قد نجت من الإتلاف، لأن معظمها كان يُحرَق في المقابر لأسباب عملية وغيبية. في ثلاثينيات القرن العشرين، أتلفَ الجنود اليابانيون الكثير من القطع التي كان قد احتفظَ بها كأشياء متوارثة بين الأجيال، وأثناء "الثورة الثقافية" أحرقَت حركة "الحراس الحمر" المتحمسة المزيد من النصوص، ثم منعت النساء المحليات من حضور الاحتفالات الدينية أو من القيام بالرحلة السنوية إلى معبد "غوبو". في السنوات التي تلت، قام "مكتب الأمن العام" بإضعاف الاهتمام أكثر بتعلم تلك اللغة أو الحفاظ عليها.

وفي النصف الثاني من القرن العشرين أصبحت لغة الـ "نو شو" منقرضة تقريباً لأن الأسباب الرئيسية لاستخدام النساء لها قد تلاشت.

بعد أن دردشتُ عن لغة الـ "نو شو" في البريد الإلكتروني مع "ميشيل يانغ"، وهي إحدى المعجبات بأعمالي، تعهدت بلطف شديد أن تبحث ثم ترسل لي ما وجدته على شبكة الإنترنت عن الموضوع. كان هذا كافياً بالنسبة لي لأبدأ التخطيط لرحلة إلى مقاطعة "جيانغيونغ" (التي كانت تُدعى سابقاً "يونغمينغ"). وفي خريف العام 2002 قمت بالرحلة. عندما وصلت، قيل لي إنني الأجنبية الثانية فقط التي تذهبُ إلى هناك، رغم أنني كنتُ أعرفُ بعض الآخرين الذين على ما يبدو قد سافروا إلى هناك. يمكنني أن أقول بصراحة إن تلك المنطقة ما تزال نائية كما كانت. لهذا السبب، يجب عليَّ أن أشكر السيد "لي" الذي لم يكن سائقاً رائعاً فقط (وهو أمرٌ يصعب العثور عليه في الصين) ولكنه أثبتَ أيضاً على أنه صبور جداً عندما كانت سيارته تعلقُ في طريق موحل تلو الآخر بينما كنا نسافر من قرية إلى أخرى. كنتُ محظوظة إلى أقصى حدّ لأنني حظيت بـ "تشين يي جونغ" كمترجم لي. لقد ساعدني تشين لتكون رحلتي مثمرة من خلال أسلوبه الودي، وتوقُه للدخول دون دعوة إلى المنازل، ودقتُه باللهجة المحلية، ومعرفتُه للغة الصينية الفصحى والتاريخ الصيني، واهتمامُه المتحمس بلغة الـ "نو شو"، وهو شيء لم يكن يعلم بوجوده. فترجمَ المحادثات في الأزقة والمطابخ بالإضافة لقصص بلغة الـ "نو شو" جُمعت في متحف الـ "نو شو" (ويسعني هنا أن أقدمَ شكري لمدير ذلك المتحف الذي فتحَ بسخاء صناديق العرض وسمح لي بدراسة المجموعة). لقد اعتمدتُ على

ترجمة "تشين" باللغة المعاصرة للكثير من الأشياء بما فيها قصيدة سلالة "تانغ" التي ألفتها زهرة الزنبق وزهرة الثلج لبعضهما البعض، ولأن هذه المنطقة ما تزال مغلقة للأجانب، كان ضرورياً لي أن أسافرَ بصحبة مسؤول من المقاطعة، يُدعى "تشين" أيضاً. ففتحَ لي أبواباً كثيرة، وأظهرت لي علاقته بابنته الذكية والجميلة والعزيزة أكثر من أي مقال أو خطاب كم تغيّرت مكانة الفتيات في الصين.

لقد اصطحبني السادة "لي" و"تشين" و"تشين" معاً بالسيارة وبالعربة التي يجرها المهر، وبالزورق، وعلى الأقدام لأرى وأفعل كل ما كنتُ أريدُ أن أراه وأفعله. ذهبنا إلى قرية "تونغ شان لي" لنقابل "يانغ هواني" التي كانت في ذلك الحين في السادسة والتسعين من عمرها، وهي أكبر كتاب لغة الـ "نو شو" سناً على قيد الحياة. كانت قدماها قد ربطتا عندما كانت فتاة صغيرة. فأخبرتني عن تلك التجربة بالإضافة لمراسم زفافها واحتفالاته. (رغم أن الأنشطة المعادية لربط القدمين بدأت في أواخر القرن التاسع عشر فقد استمرت الممارسة في المناطق الريفية حتى القرن العشرين. فقط عندما حلَّ عام 195 وحررت جيوش "ماوتسي تونغ" مقاطعة "جيانغيونغ"، انتهت ممارسة ربط القدمين في منطقة الـ "نو شو").

عكست "جمهورية الصين الشعبية" موقفها السابق، وتعتبرُ الآن الـ "نو شو" عنصراً هاماً من كفاح الشعب الصيني الثوري ضد القمع. حتى الآن، تقومُ الحكومة ببذل الجهود للحفاظ على اللغة على قيد الحياة بأن افتتحت مدرسة للغة الـ "نو شو" في قرية "بوواي". ذهبتُ إلى هناك والتقيتُ وأجريتُ

مقابلة مع "هو ماي يو" المعلمة الجديدة وأسرتها. شاركتني بقصص عن جدتيها وكيف علمتاها لغة الـ "تو شو".

حتى اليوم، ما تزالُ قرية "تونغكو" مكاناً مميزاً. فكان فن العمارة واللوحات على المنازل وما تبقى من معبد الأسلاف كلها تبرهنُ على نوعية الحياة الراقية التي كان الناس الذين عاشوا هناك يتمتعون بها. مما يدعو للاهتمام – بالرغم من أن القرية اليوم فقيرة ونائية بأي مقياس – أن المعبد يذكر أسماء أربعة رجال من هذه المنطقة أصبحوا علماء إمبراطوريين من منزلة رفيعة خلال حكم الإمبراطور "داوغوانغ". إلى جانب ما تعلمتُه من الأبنية العامة، أود أن أشكر أهالي قرية "تونغكو" الذين سمحوا لي بالتجول بحرية في بيوتهم، وأجابوا عن أسئلة لا حصر لها. أنا ممتنة أيضاً لشعب "كيانجيادونغ"، الذين يُعتقد أنهم قرية الألف عائلة التي أعيد اكتشافها على يد العلماء الصينيين في ثمانينيات القرن العشرين، والذين عاملوني أيضاً كضيفة شرف.

في اليوم الأول لي بعد أن عدتُ إلى الديار، أرسلتُ رسالة بالبريد الإلكتروني إلى "كاثي سيبلر" وهي أستاذة في جامعة "ويليامز" قامت عام 19 ببحث ميداني عن لغة الـ "تو شو" من أجل أطروحتها لنيل درجة الدكتوراه لأقول لها كم كنتُ متأثرة بكونها عاشت لستة أشهر في منطقة منعزلة وغير مريحة جسدياً كتلك. ومنذ ذلك الحين، تحدثنا بالهاتف وعبر البريد الإلكتروني عن الـ "تو شو" وعن حياة الكاتبات وعن قرية "تونغكو". حظيتُ بمساعدة كبيرة أيضاً من أهالي "هوي دون لي" الذين أجابوا عن أسئلة لا حصر لها عن المراسم، واللغة، والحياة المنزلية. أنا ممتنة بشكل هائل لمعرفتهم، وانفتاحهم،

وحماسهم.

أنا مدينة بشكل عميق لأعمال علماء وصحفيين عدة كتبوا عن الـ "نو شو، وهم: "ويليام شيانغ"، و"هنري شو"، و"هو خياوشين"، و"لين لي لي"، و"فاي وين ليو"، و"ليو شوهوا"، و"آن مكلارين"، و"أوري إيندو"، و"نورمان سميث"، و"واي ليمينغ"، و"ليمنيغ جاو". إن لغة الـ "نو شو" تعتمدُ بشكل كبير على الجمل والصور الفصيحة مثل: "الطيرُ يصيح" و"زوج من البجع" أو "إنَّ الأرواح السماوية تجمعُ بيننا". وقد قمتُ بدوري بالاعتماد على ترجمات ما ذكرته سابقاً. وعلى أية حال، لأن هذا الكتاب هو عبارة عن رواية فلم أستعمل القافية المؤلفة من كلمات الخمس، والسبعة مقاطع المستخدمة في رسائل وأغنيات وقصص الـ "نو شو".

أودُّ أن أشكرَ أيضاً – للمعلومات عن الصين وشعب الـ "ياو" والنساء الصينيات وربط الأقدام – عملَ "باتريشيا بكلي إبري"، و"بينجامين آ. إيلمان"، و"سوزان غرينهال"، و"بيفيرلي جاكسون"، و"دوروثي كو"، و"رالف آ. ليتزيغير"، و"سوزان مان". وأخيراً، ساعدني برنامج "يو كينغ يانغ" الوثائقي المثير، وهو "نو شو: لغة نساء الصين المخفية" على فهم أن الكثير من النساء في مقاطعة "جيانغيونغ" ما يزلن يقاسين من معاناة الزيجات المرتبة مسبقاً والخالية من الحب. كل أولئك الناس لديهم آراؤهم واستنتاجاتهم المبرهن عليها. لكن تذكروا من فضلكم أن رواية زهرة الثلج والمروحة السرية هي عملٌ أدبي. فهي لا تدعي أنها تحكي كل شيء عن لغة الـ "نو شو" أو تشرح الفوارق الدقيقة في معانيها. بل هي قصة رشَحَت من خلال قلبي، وخبرتي،

وبحثي. وبمعنى آخر، فكل الأخطاء التي فيها هي أخطائي.

لقد أظهر "بوب لوومیس"، ناشري في دار راندوم هاوس نفسه مرة أخرى على أنه صبور، وذو بصيرة نافذة، وعميقة. لقد قدّم لي محرري المذهل بعض النصائح المبكرة والجيدة جداً التي أشعر بامتنان كبير لها. أشكر محرر النشر "فينسنت لاسكالا" الذي قام بالاهتمام بالرواية، "وجانيت بيكر" التي قرأت النسخة الأولية بعناية. لم يكن أي من عملي ليرى النور لولا وكيلة أعمالي "ساندرا ديكاسترا". فكان إيمانها بعملي غير متردد، بينما كان الجميع في مكتبها رائعين للعمل معهم وخاصة "بابيت سبار" التي تولت أمر حقوق طبع الكتاب في البلاد الأجنبية والتي كانت أول من قرأ المخطوطة.

لقد منحني زوجي "ريتشارد كيندال" الشجاعة للاستمرار إلى الأمام، وكان أيضاً قد قام في ذلك الوقت بأسئلة ميدانية لأناس متعددين استمروا يسألونه بينما كنت بعيدة: "أتركتها تذهبُ إلى هناك بمفردها؟" ولم يكن قد تردد بتركي أتبعُ ما يمليه عليَّ قلبي. واستمرَ ابناي "كريستوفر" و"ألكسندر"، اللذان كانا بعيدين عني أثناء كتابة هذا الكتاب، بكونهما ملهِمين وملهَمين كما يمكن لأي أم أن تطمح على الإطلاق.

أخيراً، هناك شكرٌ لـ "ليزلي ليونغ"، و"بام مالوني"، و"إميليا سالتسمان"، و"ويندي ستريك"، و"أليشا تاماياك"، وكلهن اعتنين جيداً بي عندما كنتُ مقيدة في المنزل أعاني من ارتجاج دماغي خطير، وقدن بي السيارة في أنحاء لوس أنجلوس إلى مواعيد الأطباء والمهمات الأخرى خلال الأشهر الثلاثة التي لم أستطع فيها القيادة. فهن مثال حي على الأخوّة بالقَسَم. ولم أكن حقاً لأتمكن

من إنـهاء رواية زهرة الثلـج بدونـهن.

ملاحظات عن كتابة رواية
"زهرة الثلج والمروحة السرية"

بقلم: ليزا سي

إنني نصف صينية، وقد نشأتُ وأنا أمضي الكثير من الوقت مع جدي وعماتي وأعمامي في الحي الصيني في مدينة لوس أنجلوس. لقد قلتُ غالباً إنني قد لا أبدو صينية (رغم أنه عندما يراني الناس مع عائلتي يقولون إن التشابه بيننا يلفت النظر تماماً). لكنني صينية في أعماقي، وربما لأنني أنحدرُ من عائلة من الرواد – فقد جاء جدّ جدي الأكبر ليعمل على سكة الحديد العابرة للقارات الأولى، وكان جدي الأكبر مؤسس الحي الصيني في لوس أنجلوس – فقد تمسكنا بعناد بعاداتنا ومعتقداتنا حتى بعد أن أصبحنا أكثر ثقافة، وفقدنا طلاقتنا باللغة الصينية، وفقدنا معظم الصفات الجسدية، كما في حالتي أنا.

إنني أنحدرُ جيلين فقط من جذور عائلتي الريفية، كانت جدة جدتي الكبرى تحملُ الناس على ظهرها من قرية إلى أخرى لتكسبَ المال والدعم لأولادها، وكان الحزن، بسبب فقدان طفل أو عيش أية مأساة أخرى، ترفاً لم تكن هي والمهاجرون المنحدرون منها يستطيعون تحمَّلَ نفقاته. كنتُ قادرة على أن أظهرَ هذا النوع من السلوك غير المتأثر بالأحداث وتقبلها في شخصيات زهرة الثلج وزهرة الزنبق والنساء الأخريات في هذه الرواية، ولكنني أيضاً ذكرتُ معتقدات أخرى كانت قد تم تناقلها في عائلتي. لقد كنتُ، وكل قريباتي، قد

نشأنا ونحن نسمع المقولة القائلة: "عندما تكونين فتاة أطيعي أباك، وعندما تكونين زوجة أطيعي زوجك، وعندما تكونين أرملة أطيعي ابنك". وقد تمردنا على ذلك بالطبع، ولكننا تشربنا أيضاً مقداراً أكبر من ذلك القول ربما أكثرَ مما نرغبُ أن نعترفَ به.

لذا، فمن نواح عديدة كان صوت زهرة الزنبق ووجهة نظرها بالحياة سهلة. لقد كانت تذكرني بجدتي وعمتي الكبرى وقريباتي الأخريات، صينيات أو غير ذلك، عند نهاية حياتهن. فكانت تلك النساء يشعرن بندم هائل لأنهن لم يستطعن أن يكن زوجات أو أمهات أو صديقات أفضل مما كن عليه. لكنَّ كل واحدة منهن أيضاً كان لديها حدثٌ واحدٌ في حياتها يزعجها. كانت كل واحدة منهن تأملُ بإخفاق أن تعوِّضَ عن شيء ما. عندما كتبتُ الصفحات الافتتاحية في الرواية، شعرتُ وكأن أولئك النساء، وخاصة جدتي، كن ينظرن من ورائي مشجعات لي أن أقولَ الحقيقة عن حياتهن. اعتقدتُ أنني من خلال شخصية زهرة الزنبق ربما كان يمكنني التعويضُ لهن جميعاً.

لكن لأتعمقَ وأفهم كاتبات لغة ال "نو شو"، كنتُ بحاجة لأرى ما تبقى من ثقافتهن وأن أسيرَ في أزقة قريتي "تونغكو" و"بوواي" وأن أحاول أن ألتقي بآخر من بقين على قيد الحياة من الممارسات الأصليات للغة. لم أكن أريدُ أن أقومَ برحلتي كصحفية. عوضاً عن ذلك، أردتُ أن أرى وأتذوقَ وألمس وأسمعَ كل شئ كانت مقاطعة "جيانغيونغ" لتقدمه لي، ثم أصفيه من خلال خبرتي كامرأة متأثرة بعمق بعائلتي الصينية.

كنتُ قد قضيتُ الكثير من الوقت في الصين وأنا أزور أفراداً من عائلتي ما

زالوا يعيشون هناك، وأقوم بأبحاث من أجل كتبي الأخرى، ولكنني لم أذهب إلى أي مكان بعيد كمقاطعة "جيانغيونغ". منذ اللحظة التي عبرتُ فيها إلى إقليم "هنان" مع سائقي ومترجمي تحوَّل الطريق الخارجي ذو الاتجاهات الأربعة إلى طريق ترابي مليء بالأخاديد على نحو سيئ. كانت القرى التي ذهبنا إليها تقع في نهاية طرق موحلة، أو يمكن الوصول إليها فقط عن طريق عبور أحد الأنهار على متن قارب. لم يكن الناس الذين يعيشون في هذه المنطقة نائين عن العالم الخارجي أو عن الأقاليم المجاورة فحسب، ولكن أيضاً عن بعضهم البعض. كانت الأرض قبل مائة سنة خصبة، وكان الناس يعيشون برخاء نسبياً. في ذلك الوقت من الماضي، كان حتى أفقر الفلاحين يعيشون في حال اقتصادية أفضلَ مما يعيشون الآن.

كانت "يانغ هواني"، التي توفيت في شهر أيلول عام 2004، في السادسة والتسعين من عمرها عندما زرتها، آخر كاتبات الـ "تو شو" الباقيات على قيد الحياة، مما يعني أن قدميها كانتا مربوطتين، وأنها قد تعلمت اللغة السرية فقط كطريقة وحيدة للتواصل مع صديقاتها. (الشابات في يومنا هذا لم يعدن بحاجة لتعلم الـ "تو شو" فأقدامهن ليست مربوطة، وهن متعلمات، ويعملن خارج البيوت حيث يمكنهن أن يلتقين بصديقاتهن. أما في يومنا هذا فتتعلم الشابات لغة الـ "تو شو" كما قد يتعلم أحدهم رقصة محلية أو أغنية شعبية. فهن يحافظن ويعتززن بالماضي ولكنه ليس ذا معنى أو هدف مباشر في حياتهن). كانت "يانغ هواني" تعيشُ في منزل مؤلف من ثلاث غرف مع ابنها وكنتها. جلسنا على مقاعد قاسية ريفية الطراز تشبه إلى حدٍّ كبير المقاعد

التي يستخدمها جداي. لقد قُدم لنا البرتقال الذي كان الرجال يأكلونه، ويبصقون بذوره، ويلقون بالقشور على الأرض المفروشة بالإسمنت. كان جهاز تلفزيون يبث فقط المحطات التي تديرها الدولة ولمبة واحدة معلقة من السقف يهيمنان على أثاث الغرفة الصغيرة.

لقد كان ممكناً لي ولـ "يانغ هواني" أن نكون مختلفتين من الظاهر، ولكنني شعرتُ بالقرب منها على الفور. كانت تذكرني كثيراً بجدتي، وكان شعر "يانغ هواني" مربوطاً تحت غطاء رأسها. كان ظهرها منحنياً، وكانت يداها وأصابعها معقوفة ومغطاة بالبثور، وكانت عيناها دامعتين، وكان جلدها رقيقاً كورق الأرز. عندما كانت تحكُ خدها كان جلدها يتمزق وينزف. كانت ترتدي حذاء أطفال خاص برياضة الكونغ فو وهناك مناديل محشوة عند الأصابع لتملأ الفراغ. وكانت، مثل زهرة الزنبق في نهاية زهرة الثلج والمروحة السرية، عجوزاً ومتعبة فوق الحدّ لتتمكن من إبعاد الذباب الذي كان يقفُ عليها، ولكنها كانت يقظة تماماً. قضت معظم فترة بعد الظهر وهي تتحدث عن طفولتها وعن زواجها وعن أخواتها السبع بالقَسَم. الكثير من الأسطر الموجودة في هذه الصفحات مأخوذٌ مباشرة من "يانغ هواني". كان الناس قد قالوا لها عندما جلست على "كرسي جلوس الزهرة" الخاص بها: "إنَّ تزويج ابنة يشبه رمي كوب من الماء".

كانت أكثر اللحظات تميزاً هي ذلك اليوم الذي غنت فيه أغنيات زفافها بلغة الـ "نو شو"، فأنشدت بصوت مرتجف: "لماذا لا أبكي عندما أتزوج؟ لأن حياتي ليست سعيدة جداً. أنا أريدُ أن أتزوج، وأن أنجبَ أطفالاً، وأن أعيش حياة

سعيدة". تذكَّرتْ أيضاً امرأة غنت لها قائلة: "لقد بلغتُ الثانية والثلاثين، وأعيشُ حياة تعيسة، وأتمنى لو أستطيعُ أن أتزوج وأن أحظى بحياة سعيدة". وبقدر ما كانت حياتهن قاسية فقد كان الزواج أفضل من عدمه، كما شرحت "يانغ هواني"، لأن الزواج كان الطريقة الوحيدة للسعادة الحقيقية وتحقيق ما تريدُه المرأة بأن تنجبَ ابناً.

كان الكثير ما يزالُ واضحاً في ذاكرة "يانغ هواني" بما في ذلك العمل الشاق لصناعة اللحف. أحضرت كنتها لحف زفافها الخاصة لتريني إياها، وأرتني كلتاهما طريقة صنع القُطب. رغم أنني استخدمتُ القليل مما قالتاه لي عن عملية صنع أحذية للأقدام المربوطة، فأنا واثقة نوعاً ما أنه كان يمكنني أن أصنعَ زوجاً منها إنْ اضطررتُ لذلك.

إنَّ الكثير من سوء الفهم يحيطُ بربط القدمين، ولكنني لم أكن أريدُ أن أطبقَ قيمي الغربية المعاصرة على ممارسة ربط القدمين، بل أردتُ أن أكتبَ عن ربط القدمين من منظور النساء والفتيات اللواتي نشأن عليه. بالنسبة لي، فقد سبب هذا الكثير من الأسئلة: كيف تقررُ إحدى الثقافات ما هو الشيء الجميل؟ كيف تتغيرُ قيمتنا كنساء وفقاً لذلك الإحساس بالجمال؟ كيف يمكن لإحدى الأمهات أن تعرِّض ابنتها لهذه المعاناة؟ وماذا كان ليعني أن تحققَ المرأةُ الجمال المتعارف عليه والمقبول اجتماعياً بالأقدام التي يبلغ طولها ثلاثة إنشات رغم أنها كانت ستتشبُ أو ربما تصبحُ مقعدةً خلال تلك العملية؟

كان اللقاء بـ "يانغ هواني" مدهشاً، ولكن الرحلة بأكملها كانت رائعة، ولو أنها كانت صعبة. فكانت كل وجبة مغامرة، ففي بلدة "غونغتشينغ" من قبيلة الـ

"ياو"، تناولنا غداءً أصبحَ طبق زهرة الزنبق وزهرة الثلج المفضل أثناء زيارتهما السنوية إلى معبد "غويو". أمسك مترجمي دجاجة حية وبعد لحظات قليلة غُمست في الحساء الذي غلي في حوض نحاسي على طاولتنا. (وكان الفارق الوحيد بين ما جربته الرفيقتان في الرواية وما جربته أنا هو أن حساءهما كان قد غلي على الفحم وأن حسائي كان قد غلي على الكيروسين). لقد جربنا أيضاً حلوى القلقاس المغطى بالسكر الذي كان فعلاً واحداً من أفضل ما تناولته في حياتي، فكل وجبة تظهرُ في الرواية هي إما شيء جربته في تلك الرحلة أو شيء تعدُّه عائلتي.

في اليوم التالي في ما يعتقدُ أنه الموطنُ الأصلي لثقافة الـ "ياو" صادفنا بيت الجزَّار المحلي، وخارج الباب الأمامي كان هناك رصيف وقدر مندمجة فيه لغلي الذبائح لنزع الجلد عنها. فتبيّنَ لنا أن والدي مترجمي قد ربيا الخنازير ليكسبا المال ليرسلاه إلى المدرسة. لذا، فقد جلسنا على الرصيف، وأجرينا حديثاً طويلاً عن هذا، وحتى عصر ذلك اليوم، لم أكن أعلم أن زهرة الثلج كانت ستتزوجُ جزاراً.

بواسطة خلفية عائلتي، وبحثي، ومخيلتي شعرتُ أنه كان لديَّ كل شيء أحتاجه لأكتبَ عن زهرة الثلج وزهرة الزنبق. وبعد ذلك، عندما كنتُ في منتصف الطريق عبر الرواية، تعرضتُ لحادث، وأصبتُ بارتجاج شديد في الدماغ، وبقيتُ طوال الشهر الأول أو نحو ذلك في السرير، فكنتُ مثل نساء الـ "تو شو" لا أستطيعُ القراءة ولا الكتابة، وكنتُ على عكسهن أحظى بنافذتين لأنظرَ منهما، وطوال شهرين آخرين، لم يكن مسموحاً لي أن أقودَ السيارة.

شعرتُ بطريقة غريبة أن قدمي كانتا مربوطتين لأنني كنتُ مقيدة في بيتي ومعزولة عن بقية العالم. كالكثير من الناس الذين يتعرضون لمشكلات صحية مفاجئة، فوجئتُ بما كان يحدثُ حولي، فالأصدقاء الذين ظننتُ أنهم سيدعمونني لم يفعلوا ذلك، بينما أحضرَ الآخرون الطعام، والتسلية، وقاموا بإيصالي بالسيارة إلى مواعيد الأطباء، وتصرفوا من كل النواحي كالأخوات بالقَسَم. لقد منحني التقييد والعزلة اللذان شعرتُ بهما، ولطف وكرم النساء اللواتي اعتنين بي، تجربة عاطفية عن نساء الـ "تو شو" وعالمهن.

لكنني آملُ ألا تتعرضوا لارتجاج في الدماغ لتشعروا برابطة مع زهرة الزنبق وزهرة الثلج! إنَّ"زهرة الثلج والمروحة السرية هي قصة عن الصداقة وما يعنيه أن تكوني امرأة. نعم، إن حياتنا مختلفة كلياً عن حياة كاتبات الـ "تو شو"، ولكننا من الداخل مشابهات لهن. نحن نريدُ أن يسمعَ الناسُ أفكارنا، وأن يقدِّروا إبداعنا، ويشعرون بالتعاطف مع مشاعرنا. لقد اختبرنا جميعاً كبنات علاقات معقدة وشائكة أحياناً مع أمهاتنا. وكأمهات، شعرنا جميعاً بخوف عميق عندما مرض أحد أطفالنا. وكنساء، تساءلنا جميعاً في وقت أو آخر عن السر الحقيقي والدائم للرجال في حياتنا. إنها أمورٌ عامة كما هو الخوف الذي تشعرُ به النساء أثناء الثورات السياسية التي تحدث في العالم الذي ما زال يُسمى العالم الخارجي للرجال، سواء أثناء ثورة التايبنغز قبل سنوات عديدة أو بالنسبة للنساء في يومنا هذا في العراق وأفغانستان والسودان أو حتى هنا تماماً في مرحلة ما بعد الحادي عشر من أيلول. نحن النساء الأمريكيات نتمتعُ ظاهرياً بالحرية، والاستقلالية، والحركة. لكننا في أعماقنا ما زلنا نتوقُ

للحب، والصداقة، والسعادة، والاستقرار وأن يُسمَعَ صوتنا.